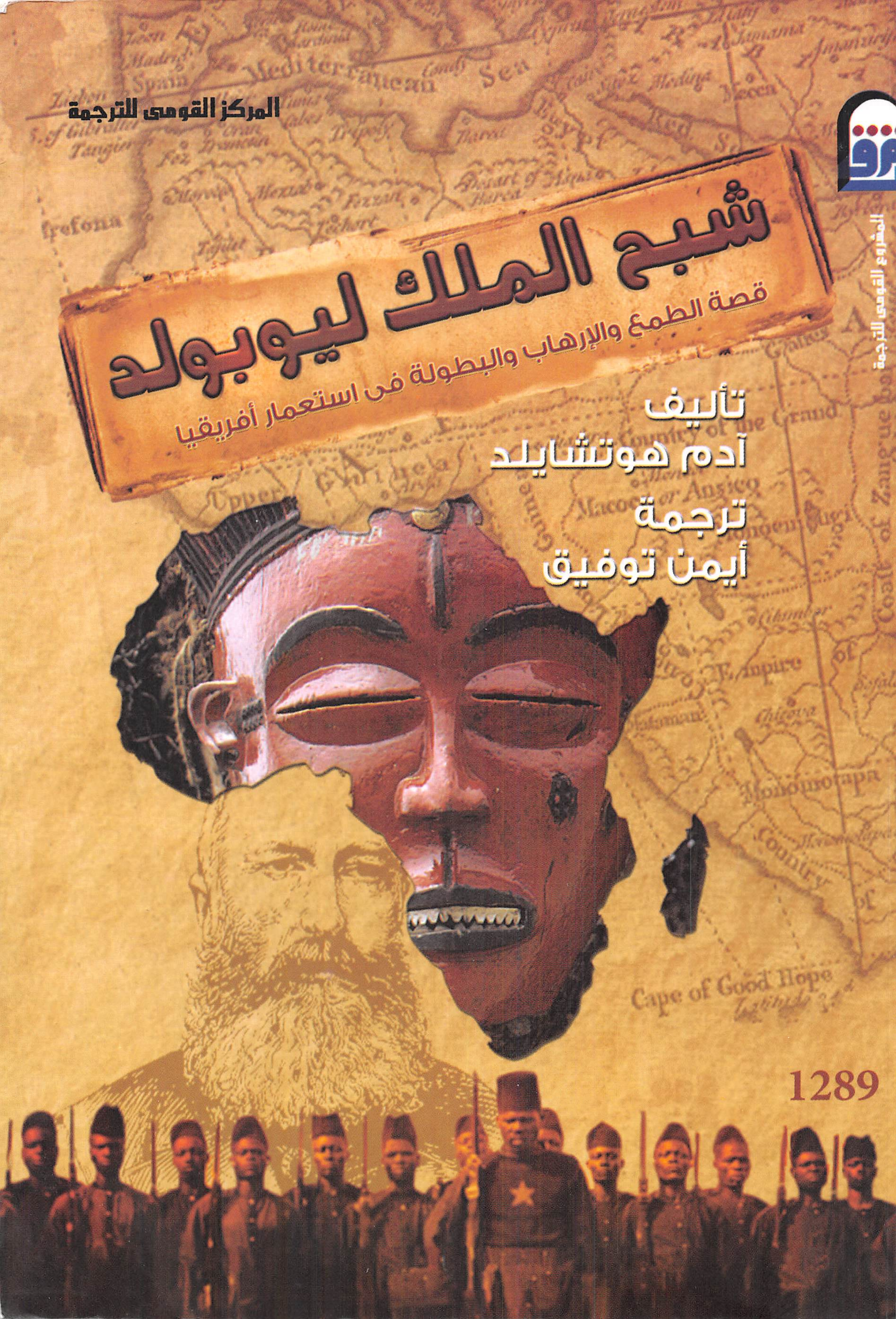

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
شبح الملك ليوبولد
قصة الطمع والإرهاب والبطولة فى استعمار أفريقيا
تأليف
آدم هوتشايلد
ترجمة
أيمن توفيق
1289
Mediterranean Sea
Cape of Good Hope

هذا كتاب يتناول قصة الاستعمار البلجيكى للكونجو وكيف تمكن ليوبولد الثانى ملك بلجيكا من الاستيلاء على هذا البلد المترامى الأطراف مستخدمًا أحط الوسائل، مما ترتب عليه أسوأ سفك للدماء فيما بين سنتى 1890 و 1910.

ويحكى الكتاب قصة حياة المغامر البريطانى هنرى مورتون ستانلى وتفاصيل استيلائه على الكونجو لحساب الملك وكيف قامت حركة عالمية ضد ذلك، وكانت أول حركة عالمية كبيرة لحقوق الإنسان فى العصر الحديث، عندما تكشفت الفظائع التى ارتكبت فى أثناء البحث عن المطاط من أخذ للرهائن وقطع للأيدى واستخدام للسياط.

ويسرد الكتاب قصة الاستعمار البرتغالى لأفريقيا وتاريخ تجارة العبيد منذ القرن الخامس عشر، كما يحكى قصة حياة الملك ليوبولد وأسرته وعشيقاته والثروات الهائلة التى حققها من تجارة العاج والمطاط.

وقد أجرى المؤلف بحوثًا مستفيضة فى هذا السبيل استعان فيها بمذكرات شخصية كتبها مستكشفون وقباطنة سفن وعسكريون ومذكرات وخطابات شخصية.

وتصدّر الكتاب بمجرد صدوره قائمة أعلى الكتب مبيعًا وأعيد طبعه عدة مرات.

شبح الملك ليوبولد

قصة الطمع والإرهاب والبطولة
فى استعمار أفريقيا

المركز القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٢٨٩
- شبح الملك ليوبولد : قصة الطمع والإرهاب والبطولة فى استعمار أفريقيا
- أدم هوتشايلد
- أيمن توفيق
- الطبعة الأولى ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب :

King Leopold's Ghost

A Story of Greed, Terror, and Heroism in Colonial Africa

by : Adam Hochschild

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

شبح الملك ليوبولد

قصة الطمع والإرهاب والبطولة فى استعمار أفريقيا

تأليف : آدم هوتشايلد

ترجمة : أيمن توفيق



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هوتشايلد ، آدم
شبح الملك ليوبولد: قصة الطمع والإرهاب والبطولة فى استعمار أفريقيا /
تأليف: آدم هوتشايلد ؛ ترجمة: أيمن توفيق.
ط١ - القاهرة - المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
٤٦٠ ص ؛ ٢٤ سم
١ - القصص الإنجليزية .
(أ) توفيق ، أيمن (مترجم) .
(ب) العنـــوان ٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/٨٣٥٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 158 - 6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العـربى وتعـريفه بها ، والأفكـار التى تتضمنها هى اجتهـادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

مقدمـــة

تبدأ قصتنا هذه منذ أمد بعيد، ولا تزال تداعياتها وانعكاساتها تدوى حتى اليوم. غير أنى أجد بها لحظة محورية براقة تضيء عقوداً قبلها وبعدها هى إدراكٌ مفاجئ أخلاقى لشاب صغير.

السنة هى ١٨٩٧ أو ١٨٩٨ . وتعالوا نتخيله وهو يغادر برشاقة عبارة بخارية للقنال الإنجليزى، رجل قوى الجسمان ضخم الجثة فى منتصف العشرينيات من عمره، وذو شارب ضخم، وممتلئ بالثقة بالنفس ويجيد ناصية الحديث، غير أن حديثه لا يحمل صبغة من إيتون أو أكسفورد. وهو حسن الهندام ولكن ثيابه ليست مشتراة من شارع بوند (Bond Street). وهو ليس من النوع الذى يمكن أن يُستدرج إلى تأييد قضية مثاليات بما ينوء به كاهله من أم مريضة وزوجة وأسرة نامية. فأفكاره تقليدية تماماً. ومظهره يشى بكونه رجل أعمال وقور محترم، وهو فعلاً كذلك.

كان إدموند دين موريل (Edmund Dene Morel) موظفاً من الموثوق بهم فى شركة ملاحة فى مدينة ليفربول. وكان للشركة فرع احتكر نقل البضائع من وإلى دولة الكونجو الحرة (Congo Free State) كما كانت تسمى وقتئذ، وهى إقليم شاسع فى وسط أفريقيا كان المكان الوحيد فى العالم الذى يدعى ملكيته فرد واحد هو الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا، وهو حاكم حاز الإعجاب فى أنحاء أوروبا بوصفه ملكاً "خيِّراً". فقد رحب بتواجد المبشرين المسيحيين فى إقليمه؛ كما قيل إن جنـوده حاربوا تجار العبيد المحليين الذين افترسوا الشعب وأنزلوا بهم الهـزيمة؛ وكانت الصحافة الأوروبيـة ولمدة تزيـد على عقد قد دأبت على كيـل المديح له لاستثماره ثروته الخاصـة فى الشئون العامة لخير الأفارقة.

ولما كان موريل يجيد الفرنسية إجادة تامة فقد اعتادت شركته على إرساله إلى بلجيكا كل بضعة أسابيع كي يشرف على تحميل وتفريغ السفن على خط الكونجو. وعلى الرغم من أن المسئولين الذين كان يعمل معهم كانوا يمارسون ذلك العمل منذ سنين دون تفكير؛ فإن موريل بدأ يلاحظ أمورًا أقلقته. فعلى أرصفة أنتورب - الميناء البلجيكي الكبير - كان يرى سفن شركته تصل مليئة لآخرها بحمولات ثمينة من المطاط والعاج. ولكنها عندما كانت ترفع مراسيها كي تبحر عائدة إلى الكونجو كانت حمولتها في غالبيتها تتكون من ضباط جيش وأسلحة وذخيرة، بينما كان الجنود الشبان يصطفون على حواجز السفينة وفرق الموسيقى العسكرية تعزف على رصيف الميناء. فلم تكن هناك تجارة ذاهبة إلى هناك، وليس هناك من شيء يُصدَّر مقابل المطاط والعاج. وأدرك موريل أن هناك تفسيرًا وحيدًا لما لاحظه من أنه لا توجد بضائع تُرسل مقابل تلك البضائع الثمينة الواردة إلى أوروبا ألا وهو عمالة السخرة.

ولم يتراجع موريل عندما واجه الشر وجهًا لوجه. وبدلاً من ذلك فإن ما رآه شكَّل مسار حياته ومسار حركة رائعة، وهي أول حركة عالمية كبيرة لحقوق الإنسان في القرن العشرين. ونادرًا ما تمكن فرد واحد - متقد المشاعر وفصيح اللسان ولديه ملكات تنظيمية رائعة وطاقات تكاد تفوق القدرات البشرية - بصورة فردية من أن يضع فردًا واحدًا على الصفحات الأولى لمدة تربو على عقد كامل من الزمان. فبعد مجرد سنوات قليلة من وقوفه على أرصفة أنتورب كان إدموند موريل في البيت الأبيض يلح على الرئيس تيودور روزفلت أن الولايات المتحدة عليها مسئوليات خاصة كي تفعل شيئًا في أمر الكونجو. وتمكن من تنظيم وفود إلى وزارة الخارجية البريطانية. ونجح في استمالة كل الناس بدءًا من بوكر ت. واشنطن (Booker T. Washington) إلى أناتول فرانس إلى أسقف كانتربيوري لمناصرة قضيته. وعقد ما يزيد على مئتي اجتماع عام في أنحاء الولايات المتحدة للاحتجاج على عمالة العبيد في الكونجو. كما أن أعدادًا أكبر من الاجتماعات في إنجلترا - نحو ٣٠٠ اجتماع في السنة في أثناء ذروة الحملة - نجحت في اجتذاب خمسة آلاف شخص في كل اجتماع. وفي لندن نشرت جريدة التايمز خطاب احتجاج وقعه أحد عشر عضوًا في مجلس اللوردات وتسعة عشر أسقفًا وستة

وسبعون عضواً بمجلس العموم ورؤساء سبعة غرف تجارية وثلاثة عشر رئيس تحرير لصحف رئيسية وكل عمدة فى البلد. وألقيت خطب تتناول ما يحدث من فظائع فى كونجو الملك ليوبولد فى كل مكان ناء حتى أستراليا. وفى إيطاليا تبارز شخصان حول هذا الموضوع. وأعلن السير إدوارد جراى (Sir Edward Grey) وزير خارجية بريطانيا، وهو رجل لم يُعهد عنه المبالغة فى القول: "لم يحدث لما لا يقل عن ثلاثين سنة أن هزت مسألة خارجية البلاد بمثل تلك القوة والحماس".

تلك هى قصة تلك الحركة، والجرائم البشعة التى استهدفتها الحركة، والفترة الطويلة من الاستكشاف والغزو التى سبقتها، وكيف نسى العالم واحدة من أبشع جرائم القتل الجماعى فى التاريخ الحديث.

* * *

وحتى سنوات قليلة مضت لم أكن أعرف إلا النزر اليسير عن تاريخ الكونجو حتى لاحظت حاشية فى كتاب كنت أطالعه. وعادة ما يحدث عندما تُفاجأ بشىء مثير بوجه خاص، أنك تتذكر أين كنت عندما قرأتَه. وفى تلك المناسبة كنت جالساً مشدوداً ومتعباً وفى ساعة متأخرة من الليل، على مقعد فى مؤخرة طائرة تعبر الولايات المتحدة من الشرق إلى الغرب.

وكانت الحاشية عبارة عن اقتباس عن مارك توين (Mark Twain)، كتبها، كما جاء فى الحاشية، عندما كان مشاركًا فى حركة عالمية ضد تشغيل العبيد فى الكونجو، وهى الشىء الذى حصد أرواح ثمانى إلى عشر ملايين نسمة. حركة عالمية ؟ ثمانى إلى عشر ملايين نسمة ؟ وأصابنى الذعر.

وعادة ما يكون من الصعب إثبات الإحصائيات الخاصة بالقتل الجماعى. غير أنه حتى ولو كان الرقم الحقيقى نصف ذلك فإن الكونجو تكون واحدة من الأماكن الرئيسية للقتل فى الأزمنة الحديثة. لماذا لم يرد ذكر ذلك فى السجلات القياسية لفظائع قرننا؟ ولماذا لم أسمع بها من قبل؟ ولسنوات كثيرة كنت أكتب عن حقوق الإنسان، وذهبت مرة واحدة إلى الكونجو فى إطار ما يقرب من ست رحلات قمت بها إلى أفريقيا.

كانت تلك الزيارة سنة ١٩٦١ . وفى شقة سكنية بمدينة ليوبولدفيل استمعت إلى رجل من رجال المخابرات الأمريكية (CIA) كان قد أفرط فى الشراب، ووصف بتلذذ بالتفصيل كيف وأين قُتل باتريس لومومبا أول رئيس وزراء للبلد حديث الاستقلال، قبلها ببضع شهور. وافترض هو أن أى أمريكى، حتى ولو كان طالبًا زائرًا مثلى، سوف يشاركه الارتياح لاغتيال رجل كانت حكومة الولايات المتحدة تعتبره يساريا خطيرًا ومثيرًا للمتاعب. وبعدها بيوم أو يومين غادرت الكونجو فى الصباح الباكر مستقلاً عبارة على نهر الكونجو، ولم يزل الحديث يدور فى رأسى بينما الشمس تشرق فوق الأمواج، والمياه الهادئة الداكنة تضرب بدن السفينة.

وبعد ذلك بعدة عقود وقعت على تلك الحاشية، ومعها جهلى بالتاريخ المبكر للكونجو. ثم تذكرت أنى قرأت شيئًا، مثل ملايين غيرى من الناس، عن ذلك الزمان والمكان فى قصة 'قلب الظلمات' (Heart of Darkness) لجوزيف كونراد (Joseph Conrad). إلا أنى وجدت مذكراتى الجامعية عن الرواية مليئة بمخربشات عن نغمات فرويدية وأصداء أساطيرية ونظرة انكفائية، فقد صُنفت الرواية ذهنيا بأنها قصصية وليست حقيقية.

وشرعت أقرأ المزيد. وكلما توغلت أكثر ازداد تأكدى من أن الكونجو منذ قرن مضى شهد حقيقةً حصيلة موت تضارع أبعاد الهولوكوست. وفى ذات الوقت، ودون توقع، وجدت نفسى مأخوذًا بالشخصيات الرائعة التى أثرت تلك البقعة من التاريخ. فعلى الرغم من أن إدموند دين موريل كان هو الذى أشعل فتيل تلك الحركة، فإنه لم يكن أول دخيل يكتشف حقيقة كونجو الملك ليوبولد ويحاول جاهدًا أن يجتذب انتباه العالم لها. ذلك الدور لعبه جورج واشنطن ويليامز (George Washington Williams)، وهو صحفى ومؤرخ أمريكى أسود، وفعل شيئًا لم يفعله أحد من قبله وهو أنه أجرى مقابلات صحفية مع أفارقة عن تجاربهم مع غزاتهم البيض. وهناك أمريكى أسود آخر هو وليم شيبارد (William Sheppard) الذى سجل مشهدًا شاهده فى غابات الكونجو المطرة هو وصمة على ضمير العالم كرمز لوحشية الاستعمار. وكذلك هناك أبطال آخرون، انتهت حياة واحد من أشجعهم على مشانق لندن. ثم أبحر فى منتصف القصة

بحار شاب هو جوزيف كونراد، متوقعًا أن يجد أفريقيا الغريبة التى كانت فى أحلام طفولته، ولكنه وجد عوضًا عنها ما أسماه "أردأ اندفاع نحو السلب والنهب شوه إلى الأبد تاريخ الضمير الإنسانى". وفوقهم جميعًا يتبدى الملك ليوبولد الثانى، وهو رجل يملؤه الجشع والخبث والنفاق والفتنة، مثله فى ذلك مثل كافة أشرار مسرحيات شكسبير المعقدة.

وبينما أنا أتتبع الحيوات المتشابكة لهؤلاء الرجال أدركت شيئًا آخر حول الفظائع فى الكونجو والجدل الذى أحاط بها. فقد كانت تلك هى أول فضيحة دولية عن فظائع فى عصر التلغراف والكاميرا. وهى تبدو، بما فيها من مزيج من سفك الدماء على نطاق واسع وحقوق ملكية وجنس وبأس المشاهير وضغوط الجماعات المتنافسة وحملات وسائل الإعلام وكل ذلك يحدث فى نصف دستة من البلدان على جانبى المحيط الأطلسى، تبدو شديدة القرب من زماننا الحالى. وإضافة لذلك فإن الملك ليوبولد الثانى، بخلاف عتاة النهابين فى التاريخ من جنكيز خان إلى الفاتحين الإسبان فى أمريكا الجنوبية، لم يشهد قط نقطة دم تراق بسبب الغضب، ولم يحدث قط أنه حط بقدميه فى الكونجو. وفى هذا نلحظ أيضًا أمرًا شديد الحداثة فهو مثل قائد قاذفة قنابل يطير فوق السحب على ارتفاعات شاهقة ولا يسمع الصرخات مطلقًا ولا يرى المنازل المنهارة ولا الأجساد الممزقة.

وعلى الرغم من أن أوروبا قد نسيت منذ زمن بعيد ضحايا كونجو ليوبولد إلا أنى وجدت فيضًا هائلاً من المادة الخام أستخدمها كى أعيد تصوير مصيرهم: مذكرات كتبها مستكشفون وقباطنة السفن وعسكريون، وسجلات محطات الإرساليات التبشيرية، وتقارير التحقيقات الحكومية، وأخيرًا تلك الظاهرة التى اتسم بها العصر الفيكتورى وهى أقوال السادة (أو أحيانًا السيدات) الرحالة. فقد كان العصر الفيكتورى هو العصر الذهبى لكتابة الخطابات والمذكرات، وكثيرًا ما يبدو أن كل زائر أو موظف فى الكونجو قد اهتم بكتابة مذكرات شخصية ضخمة كما كان يمضى كل مساء على ضفاف النهر يسطر خطابات إلى الوطن.

وهناك مشكلة بديهية وهى أن كل ذلك الفيض الوافر من الكلمات قد كتبها أوروبيون أو أمريكيون. فلم تكن فى الكونجو لغة مكتوبة عندما وصلها الأوروبيون لأول مرة، وأدى ذلك بشكل محتم إلى تحريف الطريقة التى سُجل بها التاريخ. فلدينا عشرات من مذكرات الموظفين البيض فى الإقليم، ونعرف الآراء المتذبذبة لكبار موظفى الخارجية البريطانية، ربما من يوم لآخر. ولكننا لا نملك مذكرات شاملة وكاملة أو تاريخًا شفهيا مكتملاً لكونجولى واحد خلال فترة الإرهاب الأعظم. وبدلاً من أصوات أفريقية من تلك الحقبة لا نجد سوى الصمت فى أغلب الأحوال.

ورغم ذلك وبينما زججت بنفسى فى هذا الأمر وجدت كم هو كاشف للحقائق. فالرجال الذين أمسكوا بزمام الكونجو كثيراً ما أعلنوا عما اقترفوه من قتل، وتباهوا به فى الكتب والمقالات الصحفية. واحتفظ بعضهم بمذكرات صريحة بدرجة مثيرة للدهشة تبين أكثر بكثير مما قصد كاتبوها، مثل الكتاب الضخم للتعليمات الموجه للموظفين الاستعماريين. ويضاف إلى ذلك أن كثيراً من ضباط الجيش الخاص الذى احتل الكونجو شعروا بالذنب لما اقترفته أيديهم. فساعدت شهاداتهم والوثائق التى هربوها إلى الخارج فى تزويد الحركات الاحتجاجية بالوقود. وحتى على الجانب الأفريقى المكبوت بوحشية لم يكن الصمت تاما. ويمكننا مشاهدة أفعالهم وسماع أصواتهم رغم مرورها على مصفاة سجلات غزاتهم.

وحدث أسوأ سفك للدماء فى الكونجو فى الفترة ما بين ١٨٩٠ و١٩١٠، ولكن جذوره تعود إلى زمن أبكر كثيراً، عندما التقى الأوروبيون والأفارقة لأول مرة هناك. ولهذا، ولكى نصل إلى منابع قصتنا فلا مناص لنا من أن نعود الأدراج أكثر من خمسمئة عام، إلى زمن لاحظ فيه قبطان سفينة تغير لون مياه المحيط، وعندما تلقى ملكٌ أنباء عن مشاهدات غريبة داخل الأرض.

تمهيد

التجار يخطفون أبناء شعبنا

عندما شرع الأوروبيون فى تخيل أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى كانت القارة التى تخيلوها أرض أحلام ومكانًا للأوهام به كل ما هو مخيف وخارق للطبيعة. وادعى رانولف هيجدن (Ranulf Higden)، وهو راهب من طائفة البندكت رسم خريطة للعالم نحو سنة ١٣٥٠، أن أفريقيا تحوى أناسًا لهم عين واحدة ويستخدمون أقدامهم لتغطية رءوسهم. وأعلن جغرافى فى القرن التالى أن فى القارة أناسًا لهم ساق واحدة وثلاثة وجوه ورءوس أسود. وفى ١٤٥٩ صرح راهب إيطالى هو فرا ماورو (Fra Mauro) بأن أفريقيا هى موطن الرخ وهو طائر ضخم الحجم لدرجة أن باستطاعته أن يحمل فيلاً ويطير به.

وفى العصور الوسطى لم يكن هناك أوروبى واحد تقريبًا فى موقف يستطيع منه أن يعلم ما إذا كانت أفريقيا تحوى طيورًا هائلة الحجم أو أناسًا وحيدى الأعين أو أى شىء آخر. فالشواطئ الشمالية لأفريقيا على البحر الأبيض المتوسط كان يعيش فيها المغاربة العدوانيون، ولم يتجاسر إلا قلة معدودة من الأوروبيين أن يضعوا أقدامهم هناك، أو يتجهوا جنوبًا عبر الصحراء الكبرى. أما فيما يتعلق بالمغامرة بحرًا بالإبحار بمحاذاة الساحل الغربى لأفريقيا، فالكل كان يعلم أنهم بمجرد مرورهم بجزر الكنارى فسيدخلون فى بحر الظلمات (Mare Tenebroso).

فى تخيلات القرون الوسطى، حسب ما كتب بيتر فورباث (Peter Forbath) كانت تلك منطقة الفزع الأعظم ... حيث تقذف السماء غلالات من اللهب فتغلى المياه ... وهناك صخور تموج بالأفاعى وجزر تسكنها الغيلان وكلها قابعة فى انتظار البحارة،

وهناك تخرج يد الشيطان العملاقة من أعماق البحر للإمساك بهم فتتحول وجوههم وأجسادهم إلى اللون الأسود، علامة على غضب الرب وانتقامه منهم لتلصصهم على تلك الأسرار المحرمة. وحتى لو تمكن أحد من أن يبقى حيا ويبحر خلال تلك الأخطار المروعة فإنه سوف يصل إلى بحر الغموض وسيضيع إلى الأبد فى الأبخرة والطين على حافة العالم.

ولم يحدث إلا خلال القرن الخامس عشر، وهو فجر عصر استكشاف المحيط، أن شرع الأوروبيون فى المغامرة جنوبًا بطريقة نظامية، وكان البرتغاليون على رأسهم. وفى أربعينيات القرن الخامس عشر، ابتكر صناع السفن بميناء لشبونة "الكارافل" (caravel) وهو مركب مكتنز يصلح بوجه خاص للإبحار ضد اتجاه الريح. وعلى الرغم من أن طوله لم يزد على مئة قدم إلا فيما ندر؛ فإن تلك السفينة القوية حملت المستكشفين لمسافات بعيدة بمحاذاة الشاطئ الغربى لأفريقيا حيث لم يكن هناك من يعرف مكان وجود الذهب والتوابل والأحجار الكريمة. غير أن الطمع فى الثروات لم يكن السبب الوحيد الذى حفز المستكشفين. فقد كانوا يعلمون أن منابع النيل تقع فى مكان ما فى أفريقيا، وهو لغز استهوى الأوروبيين منذ القدم. كما أنهم دُفعوا أيضًا بأكثر أساطير القرون الوسطى ثباتًا وهى أسطورة بريستر جون (Prester John)، وهو ملك مسيحى يشاع أنه كان يحكم إمبراطورية هائلة الحجم فى أعماق أفريقيا من قصر من البللور الشفاف والأحجار الكريمة، ويدين له بالولاء اثنان وأربعون ملكًا أقل منه شأنًا إضافة إلى عمالقة متنوعين وسنتورات (centaurs)(*). ولم يحدث قط أنه رد مسافراً عن مائدة طعامه المصنوعة من الزمرد الخالص وكانت تتسع لآلاف من المدعوين. ومن المؤكد أن بريستر جون كان سيرحب بأن يقتسم ثرواته مع زملائه من المسيحيين وأن يساعدهم على المضى قدمًا إلى الهند موطن الثروات الأسطورية.

(*) السنتور هو كائن خرافى نصفه رجل ونصفه فرس جاء ذكره فى أساطير الميثولوجيا الإغريقية (المترجم).

وتوغلت البعثات الاستكشافية البرتغالية المتوالية لمسافات أبعد فى اتجاه الجنوب. وفى ١٤٨٢ قام قبطان متمرس يدعى ديوجو كاو (Diogo Cao) بأكثر الرحلات جسارة حتى وقته. فبينما كان يبحر بالقرب من الساحل الأفريقى الغربى، لاحظ أن نجمة الشمال تختفى من السماء بمجرد أن عبرت سفينته خط الاستواء، ووجد أنه قد توغل جنوبًا أكثر مما فعل أى أوروبى من قبل.

وذات يوم صادف شيئًا أدهشه، فقد تحولت المياه حول سفينته إلى لون أصفر رمادى داكن وبدأت أمواج بنية مصفرة اللون تتكسر على الشواطئ القريبة. ولما أبحر تجاه خليج صغير يبلغ عرضه بضعة أميال كان على سفينته أن تكافح ضد تيار تبلغ سرعته ثمانى إلى تسع عقد. وعلاوة على هذا فإنه بتذوق المياه المحيطة بالسفينة وجد أنها مياه عذبة وليست مالحة. فقد عثر كاو على مصب لنهر عظيم ملىء بالطمى وأكبر مما شاهده أى أوروبى من قبل. ويعكس تقرير معاصر انطباعه هو ورجاله عن مدى اتساعه:

> **لمسافة عشرين فرسخًا يحتفظ [النهر] بمياهه العذبة ولا يتأثر بالأمواج المالحة الضخمة التى تحيط به من كل جانب، وكأنما هذا النهر العظيم قد صمم على أن يختبر قوته فى معركة عنيفة مع المحيط ذاته، وينكر عليه الاحترام الذى تقدمه له كل أنهار العالم دون مقاومة.**

واكتشف علماء علوم المحيطات المحدثون أدلة إضافية على قوة ذلك النهر العظيم فى "معركته العنيفة مع المحيط": فمخرج النهر يبلغ طوله مئة ميل، ويبلغ عمقه فى بعض الأماكن أربعة آلاف قدم حفرها النهر فى قاع البحر.

وذهب كاو إلى الشاطئ عند فوهة النهر وأقام نصبًا من الحجر الجيرى ووضع على قمته صليبًا حديديا ونقش عليها الشعار الملكى والكلمات: "فى سنة ٦٦٨١ من عمر العالم وهى سنة ١٤٨٢ منذ مولد سيدنا المسيح، أمر الأمير الممتاز والقوى الملك جولو الثانى ملك البرتغال أن تُستكشف هذه الأرض وأن يُقام هذا النصب الحجرى بواسطة ديوجو كاو وهو من نبلاء أسرته".

وصار النهر الذى نزل إلى اليابسة عنده معروفًا عند الأوروبيين باسم نهر الكونجو لأغلب فترة السنوات الخمسمئة التالية. وهو يصب فى البحر عند الطرف الشمالى لمملكة إفريقية مزدهرة، وهى اتحاد فدرالى فخيم لمليونين أو ثلاث ملايين نسمة. ومنذ تلك الآونة أطلق الجغرافيون اسمًا على النهر ومن ثم المستعمرة الأوروبية التى قامت على ضفافه فيما بعد، بينما أطلقوا اسمًا مغايرًا على السكان الذين يعيشون عند فوهة النهر ومملكتهم المحلية.

وبلغت مساحة مملكة الكونجو نحو ثلاثمئة ميل مربع، وشملت أقاليم تقع اليوم داخل حدود عدة دول. وكانت عاصمتها هى مدينة مبانزا كونجو - مبانزا تعنى 'البلاط' - وتقع على قمة تل حاكم على مبعدة نحو عشرة أيام سيرًا على الأقدام من الشاطئ داخل البلاد وتقع اليوم على الجانب الأنجولى من الحدود بين الكونجو وأنجولا. وفى سنة ١٤٩١، بعد تسع سنوات وعدة رحلات من نزول كاو إلى اليابسة، قامت بعثة من قساوسة ومبشرين برتغاليين أتقياء بتلك الرحلة التى تستغرق عشرة أيام وأنشأوا مقرًا لهم كممثلين دائمين لبلدهم فى بلاط ملك الكونجو. ويشكل وصولهم إلى هناك علامة على أول تلاق قوى بين أوروبيين وأمة أفريقية سوداء.

وكانت مملكة الكونجو قد نشأت قبل مئة عام على الأقل من وصول البرتغاليين. وكان ملكها 'مانى كونجو' يُنتخب بواسطة مجلس من رؤساء العشائر. وكان يجلس على عرش، مثل نظرائه من الأوروبيين، كان مصنوعًا من الخشب المطعم بالعاج. وكان المانى كونجو يحمل سوطًا من ذيل حمار الوحش وتتدلى من حزامه جلود ورءوس حيوانات صغيرة ويرتدى قبعة صغيرة وكلها كانت رموز السلطة الملكية.

وفى العاصمة كان الملك يقيم العدالة ويتلقى البيعة ويستعرض قواته تحت ظلال شجرة تين فى ميدان واسع كبير. وكان على من يود الاقتراب منه أن يفعل ذلك زاحفًا على أربع. ولم يكن مسموحًا لأحد أن يشاهده وهو يأكل أو يشرب وإلا تعرض للقتل. وقبل أن يشرع فى الأكل أو الشرب كان واحد من أعوانه يقرع قضيبين من الحديد بعضهما ببعض فينكفئ كل الحاضرين على وجوههم على الأرض.

وحيا المانى كونجو، الموجود يومها على العرش، البرتغاليين بحرارة. ومن المحتمل أن تحمسه لم يكن بسبب "المخلص" الذى حدثه عنه زواره غير المتوقَّعين وإنما بسبب أسلحتهم السحرية التى تتدفق منها النيران والتى طلب منهم الاستعانة بها فى إخماد تمرد إقليمى، الأمر الذى استجاب له البرتغاليون فى سرور.

وبنى القادمون الجدد الكنائس ومدارس التبشير. وهالهم تعدد الزوجات، مثلما هال من أتى بعدهم من مبشرين إنجيليين، وظنوا أن سبب تلك الممارسات الكريهة يعود إلى التوابل التى يحتوى عليها الطعام الأفريقى. غير أنه على الرغم من احتقارهم للثقافة الكونجولية فإن البرتغاليين أقروا على مضض بأنها مملكة متطورة – فهى المملكة الرائدة على الساحل الغربى لوسط أفريقيا. وكان مانى كونجو يعين حكامًا لكل مجموعة من المقاطعات، كما كان لديه جهاز إدارى متقن يشمل وظائف تخصصية مثل كبير القضاة (mani vangu vangu) فى حالات الخيانة الزوجية. وعلى الرغم من عدم وجود كتابة أو عجلات فإن السكان المحليين صاغوا النحاس وحولوه إلى حلى وصنعوا الأسلحة من الحديد، ونسجوا ملابس من ألياف منزوعة من أوراق أشجار نخيل الرافية. وطبقًا لما روته الأساطير، فإن مؤسس دولة الكونجو كان ملكًا حدادًا، وبهذا كانت الصناعات الحديدية مهنة النبلاء. وكان السكان يزرعون البطاطس والموز وغيرهما من الفواكه والخضروات، ويربون الخنازير والماشية والماعز. وكانوا يقيسون المسافات بعدد أيام المشى، ويقيسون الزمن بالشهور القمرية وبأسبوع مكون من أربعة أيام وأول أيامه عطلة. وكان الملك يجبى الضرائب من رعاياه، ومثل كثير من الملوك كان يتحكم فى النقود وكانت من أصداف الكاورى الموجودة على شواطئ جزيرة ساحلية تحت السيطرة الملكية.

وكان فى المملكة نظام عبودية مثلها فى ذلك مثل غالبية أفريقيا. وكانت طبيعة العبودية الأفريقية تختلف من مكان لآخر وتتغير بتغير الزمن، ولكن غالبية العبيد كانوا من أسرى الحروب. وكان آخرون من المجرمين أو الغارقين فى الديون، أو تخلت عنهم أسرهم ضمن صفقة مهر زواج. وكان من الممكن أن تكون العبودية فى أفريقيا شديدة الوطأة مثلها فى ذلك مثل أى نظام يعطى سيطرة تامة لأفراد على أفراد آخرين. فبعض أقوام

حوض الكونجو كانوا يضحون بالعبيد فى المناسبات الخاصة مثل إبرام معاهدة بين رؤساء العشائر؛ فكان العبد يُترك ليموت موتًا بطيئًا بعد تكسير عظامه ويرمز ذلك للمصير الذى ينتظر كل من يخرق بنود المعاهدة. وبعض العبيد كان يُضحى بهم عند موت واحد من رؤساء العشائر كى يكونوا بصحبته فى رحلته فى العالم الآخر.

وفى مناح أخرى كانت العبودية الأفريقية أكثر مرونة من النظام الذى سرعان ما سيُدخِله الأوروبيون فى العالم الجديد. فخلال جيل أو جيلين كان من الممكن أحيانًا أن يكتسب العبيد حرياتهم أو يُمنحوها، وفى بعض الأحيان كان من الممكن أن يتزاوج الأحرار والعبيد. ورغم ذلك فإن مجرد وجود تجارة فى البشر بأى صورة من الصور كانت لها نتائج كارثية على أفريقيا؛ لأن الأوروبيين عندما ظهروا وكانوا جاهزين لشراء حمولات سفن لا نهائية من العبيد وجدوا رؤساء القبائل الأفريقية على أتم الاستعداد والتقبل لذلك.

وسرعان ما أقبل مشترو العبيد. وفى بادئ الأمر حضروا فى أعداد صغيرة، ثم ما لبثوا أن جاء طوفان منهم بسبب أحداث حدثت عبر المحيط الأطلنطى. ففى سنة ١٥٠٠، بعد تسع سنوات فقط من أول وصول للأوروبيين إلى مبانزا كونجو، ضلت بعثة برتغالية طريقها ودفعتها الرياح خارج خط سيرها ففوجئت بأنها على شواطئ البرازيل. وخلال عقود معدودة تحول نصف العالم الغربى إلى سوق نهمة ضخمة ومربحة للعبيد الأفارقة. وتم تشغيلهم بالملايين فى مناجم البرازيل ومزارع البن فيها، كما عملوا بجزر البحر الكاريبى حيث شرعت قوى أوروبية أخرى فى استخدام أراضيها الخصبة فى زراعة قصب السكر.

وفى مملكة الكونجو نسى البرتغاليون البحث عن بريستر جون، فقد سيطرت عليهم حمى تجارة العبيد. وسرعان ما وجد الرجال المرسلون من لشبونة - كى يعملوا بنائين أو مدرسين فى مبانزا كونجو - أنهم يربحون أموالاً أكثر بكثير بسوقهم قوافل من الأفارقة المربوطين بالسلاسل إلى الساحل وبيعهم لقباطنة السفن الحاملة للعبيد.

وانغمس بعض القساوسة فى تجارة العبيد وهجروا أبرشياتهم، واتخذوا من نساء سوداوات محظيات لهم، واشتروا عبيداً لأنفسهم وباعوا تلاميذهم ومن تنصروا على أيديهم فى سوق النخاسة. إلا أن القساوسة الذين ضلوا طريقهم احتفظوا بإيمانهم بصورة أخرى، فبعد حركة الإصلاح الدينى كانوا يعملون جاهدين على ألا تقع بضائعهم البشرية فى أيدى البروتستنت. وكما قال أحدهم: "لم يكن صوابًا أن ينتهى الأمر بأشخاص عُمِّدوا أتباعًا للكنيسة الكاثوليكية أن يُباعوا إلى أناس هم أعداء معتقداتهم".

وتحولت قرية بالقرب من النصب الحجرى لديوجو كاو على الشواطئ الجنوبية لنهر الكونجو إلى مرفأ لتجارة العبيد، ومنها كان يُشحن أكثر من خمسة آلاف عبد سنويا عبر الأطلنطى بحلول ثلاثينيات القرن السادس عشر. وفى القرن التالى صُدِّر أكثر من خمسة عشر ألف عبد من مملكة الكونجو كلها. وكان تجار النخاسة يحتفظون بسجلات دقيقة لغنائمهم. وذكرت قائمة جرد من ذلك الإقليم أسماء "٦٨ رأسًا" من العبيد وعددت عيوبهم الجسمانية وقيمتهم النقدية، بادئة بالرجال الأغلى ثمنًا، ومنتهية بـ: "طفلة مجهولة الاسم حيث أنها تحتضر وعاجزة عن الكلام، وذَكَر دون قيمة، وكالنبو طفلة صغيرة دون قيمة لأنها تحتضر، وكانتوبى طفلة صغيرة، دون قيمة لأنها تحتضر".

وجاء العديد من العبيد الذين شُحنوا إلى الأمريكيتين من مصب النهر الكبير من مملكة الكونجو نفسها، بينما قُبض على كثيرين آخرين بواسطة تجار العبيد الذين توغلوا داخل البلاد لأكثر من سبعمئة ميل، وهم يشترون العبيد من رؤساء العشائر والقيادات المحلية. وكانوا يُجبَرون على السير حتى الساحل وأعناقهم مقيدة بقيود خشبية، ونادراً ما نال العبيد طعامًا كافيًا، ولما كانت القوافل عادة ما تسير فى موسم الجفاف فإنهم كثيراً ما كانوا يشربون مياهًا آسنة راكدة. وسرعان ما صارت الممرات إلى موانئ العبيد مغطاة بالعظام البيضاء.

وبمجرد أن يتم تعميدهم بطريقة لائقة ويرتدون ملابس من الخيش المتبقى من أغلفة البضائع ويُربطون سوياً بالسلاسل فى عنابر السفينة، كانت غالبية العبيد من تلك المنطقة يُرسَلون إلى البرازيل، وهى أقرب إقليم فى العالم الجديد. إلا أن ازدياد الطلب بدءاً من سنة ١٦٠٠، أغرى قباطنة السفن بالقيام بالرحلة الأطول إلى المستعمرات البريطانية فى شمال أمريكا. وتقريباً بدأ واحد من كل أربعة عبيد مستوردين ، للعمل بمزارع القطن والدخان فى الجنوب الأمريكى ، رحلته عبر الأطلنطى من أفريقيا الاستوائية بما فى ذلك مملكة الكونجو. ويستطيع اللغويون اليوم أن يجدوا آثاراً للغة الكيكونجو المستخدمة حول منطقة مصب نهر الكونجو، بين آثار لغات أفريقية أخرى، فى لهجة "الجولاه" (Gullah dialect) التى يتحدث بها الأمريكيون السود فى الجزر الساحلية لولايات جنوب كارولينا وجورجيا.

* * *

عندما بدأت تجارة العبيد تفترس الكونجو كانت تلك الأمة يحكمها مانى كونجو (ملك) يدعى نزينجا مبمبا أفونسو (Nzinga Mbemba Affonso)، الذى اعتلى العرش سنة ١٥٠٦ وحكم باسم أفونسو الأول لما يربو على أربعين سنة. وغطت حياة أفونسو فترة عصيبة. وعندما ولد لم يكن أحد فى المملكة يدرى بوجود أوروبيين. ولما مات كانت مملكته بكاملها مهددة بحمى تجارة النخاسة التى أوجدوها. كان رجلاً ذا وعى مأساوى بالذات، وترك بصمته. وبعد ذلك بثلاثمئة سنة قال مبشر: "كل مواطن فى الكونجو يعرف أسماء ثلاثة ملوك: اسم الملك الحالى، واسم سلفه، واسم أفونسو".

كان أفونسو زعيما محليا فى أوائل الثلاثينيات من عمره عندما وصل البرتغاليون لأول مرة سنة ١٤٩١ . وبعد أن اعتنق المسيحية تسمى باسم أفونسو واتخذ له بعض المستشارين البرتغاليين، ودرس لمدة عشر سنين مع القساوسة فى مبانزا كونجو. وكتب شخص إلى ملك البرتغال يخبره أن أفونسو: "يعرف أحسن منا الرسل وإنجيل مخلصنا يسوع المسيح وكل حيوات القديسين وكل ما يتعلق بالكنيسة أمنا المقدسة.

وجلالتكم سوف تندهشون إذا ما شاهدتموه. وهو يتكلم بطلاقة وثقة حتى يخيل لى دائمًا أن الروح القدس تتحدث من خلال فمه. سيدى، إنه لا يفعل شيئًا سوى الدراسة وكثيرًا ما يسقط نائمًا فوق كتبه وكثيرًا ما ينسى أن يأكل أو يشرب لأنه يتحدث عن مخلصنا". ومن الصعب أن نعلم كم من تلك الصورة المشرقة صنعها خيال القسيس كى يعطى تأثيرًا حسنًا فى مليكه، وكم منها من جراء محاولة أفونسو لكى يترك تأثيرًا حسنًا فى القسيس.

وبلغة عصر لاحق كان أفونسو مجددًا. فحاول بإلحاح أن يحصل على معارف أوروبية وأسلحة وبضائع لكى يقوى حكمه ويحصنه ضد القوة المزلزلة لأركانه وهى وصول البيض. فعلى سبيل المثال، عندما لاحظ شهية البرتغاليين للنحاس قايضه ببضائع أوروبية تساعده فى شراء خضوع الأقاليم النائية. ومن الجلى أنه كان رجلاً يمتلك ذكاءً استثنائيا، وحاول أن يفعل شيئًا كان أمرًا صعبًا أيامه مثلما هو أمر صعب اليوم: أن يكون مجددًا انتقائيًا. وكان يبدى الحماس للكنيسة، وللكلمة المكتوبة، وللطب الأوروبى، ولأعمال الحفر على الخشب وصناعة البناء، وغيرها من المهارات التى يمكن تعلمها من الحرفيين البرتغاليين. ولكنه عندما أرسل إليه نظيره ملك البرتغال مبعوثًا كى يقنعه بتبنى القوانين البرتغالية ولوائح المحاكم لم يبد أفونسو اهتمامًا. وحاول جاهدًا أن يبقى المنقبين بعيدًا؛ لخوفه من الاستيلاء الكامل على أراضيه إن عثر الأوروبيون على الذهب والفضة التى كانوا يتوقون إليها.

ولما كانت الغالبية الساحقة من معارفنا عن ذلك الجزء من أفريقيا ولعدة مئات قادمة من السنين مصدرها المستعمرون البيض، فإن الملك أفونسو الأول يزودنا بشىء نادر ونفيس: هو صوت أفريقى. وفى الحق هو واحد من الأصوات النادرة الصادرة من أواسط أفريقيا التى يمكننا سماعها قبل القرن العشرين. فقد استغل إتقانه للغة البرتغالية ليملى سلسلة رائعة من الخطابات أرسلها إلى ملكين برتغاليين متعاقبين، وهى أول وثيقة يسطرها أفريقى أسود بأى من اللغات الأوروبية. وقد بقيت بضع عشرات من تلك الخطابات، مذيلة بإمضائه وتحتها خطان من قبيل الزخرفة الملكية. ويتضح من

لهجتها أنها خطابات رسمية من ملك إلى ملك، وعادة ما تبدأ "إلى الأمير والملك القوى أخى ..." ولكننا لا نسمع مجرد ملك يتحدث؛ بل إنسانًا استبد به الذعر وهو يرى أبناء شعبه يؤخذون بعيدًا بأعداد كبيرة على متن سفن العبيد.

ولم يكن أفونسو من المؤيدين لإلغاء الرق. فقد كان يمتلك عبيدًا، مثل غالبية الحكام الأفارقة آنذاك وبعد ذلك، بل إنه أرسل بعضًا منهم، مرة على الأقل، هدية لأخيه الملك فى لشبونه مصحوبين بجلود الفهود والببغاوات والخلاخيل النحاسية. غير أن ذلك التبادل التقليدى للهدايا بين الملوك كان يبدو شديد الاختلاف فى نظر أفونسو عن اقتياد عشرات الألوف من رعاياه، كانوا أحرارًا من قبل، عبر المحيط وهم مكبلون فى الأغلال. ولنستمع إليه وهو يكتب إلى الملك جاو الثالث ملك البرتغال سنة ١٥٢٦:

> "كل يوم يختطف التجار أبناء شعبنا، أبناء نبلائنا وأتباعنا، بل بعضًا من أفراد أسرتنا ... وقد انتشر هذا الفساد حتى خلت أراضينا من السكان ... ونحن لا نحتاج فى هذه المملكة إلا إلى قساوسة ومدرسين، ولا نريد بضائع إلا إذا كانت نبيذًا ودقيقًا لأغراض القداس ... إننا نرغب فى ألا تكون هذه المملكة مكانًا لتجارة العبيد أو نقلهم".

وكتب فيما بعد فى نفس السنة:

> "إن الكثيرين من رعايانا يتوقون بلهفة إلى البضائع البرتغالية التى يحضرها رعاياكم إلى مملكتنا. ولكى يُشبِعوا تلك الرغبات الجامحة فإنهم يقبضون على كثيرين من رعايانا السود الأحرار ... ويبيعونهم ... وبعد أن يأخذوا هؤلاء المعتقلين [إلى الساحل] سرًا أو فى أثناء الليل ... وبمجرد أن يقع المأسورون فى أيدى الرجال البيض فإنهم يوسمونهم بالحديد المحمى".

ومرة بعد مرة يتحدث أفونسو عن موضوعيه الرئيسين تجارة العبيد والمنظومة المغرية من ملابس وأدوات وحلى وغيرها من المغريات التى يستخدمها التجار البرتغاليون ثمنًا لشراء حمولاتهم البشرية:

"إن تلك البضائع تستهوى وتجذب البسطاء والجهلة من الناس بحيث يؤمنون بها وينسون إيمانهم بالرب ... سيدى، إن الجشع الرهيب يدفع برعايانا، حتى المسيحيين منهم، إلى الإمساك بأفراد من عائلاتهم وعائلاتنا كى يتربحوا من بيعهم كعبيد".

وفى الوقت الذى يتوسل فيه إلى ملك البرتغال أن يوافيه بمدرسين وصيادلة وأطباء بدلاً من تجار، فإنه يقر بأن طوفان البضائع يهدد سلطانه. فرعاياه "يستطيعون الآن أن يدبروا بكميات أكبر مما نستطيعه، الأشياء التى كنا فى السابق نستخدمها لنبقيهم مطيعين لنا وسعداء". وكان نواح أفونسو تنبؤًا بالغيب؛ فلم تكن تلك آخر مرة يقوض فيها الشبق للبضائع الأوروبية المتنوعة الطرق التقليدية للحياة فى بلد من البلدان.

ولم يُبدِ الملك البرتغالى أى تعاطف. وأجاب الملك جاو الثالث: "أنت ... تخبرنى بأنك لا ترغب فى تجارة العبيد فى مملكتك، لأن تلك التجارة قد أفرغت بلدك من السكان ... البرتغاليون هناك، على عكس ذلك، يخبروننى كم هى شاسعة الكونجو، وكم هى كثيفة أعداد السكان بحيث تبدو وكأنما خلت من العبيد".

وكان أفونسو يتوسل إلى زملائه الملوك بوصفه مسيحيًا يخاطب مسيحيًا، ويشكو لهم مما يلاقيه من أضرار. وكتب عن القساوسة الذين تحولوا إلى تجار نخاسة:

> "فى هذه المملكة، الإيمان سهل الكسر مثل الزجاج بسبب وجود أمثلة سيئة لرجال قدموا هنا ليعلمونا، فقد أخذتهم شهوات الحياة ومغرياتها بعيداً عن الحقيقة. ومثلما صلب اليهود ابن الرب بسبب الشهوات، فإنه اليوم، يا أخى، يُصلب مرة أخرى".

وأرسل أفونسو استغاثاته عدة مرات مباشرة إلى بابا روما، ولكن البرتغاليين احتجزوا مبعوثيه إلى الفاتيكان بمجرد أن ترجلوا من السفينة فى لشبونه.

ووصل يأس أفونسو إلى أقصى مداه سنة ١٥٣٩ قرب نهاية حياته، عندما علم أن عشرة من الشبان من أبناء أخواته وأحفاده وأقارب آخرين، كانوا قد أُرسلوا إلى

البرتغال كى ينالوا تعليما دينيا، قد اختفوا فى الطريق. وكتب فى يأس: "لا نعلم إن كانوا أحياء أم موتى، ولا كيف ماتوا، ولا ندرى ماذا نقول لآبائهم وأمهاتهم." ونستطيع أن نتخيل مدى فزع الملك وهو يجد نفسه عاجزًا عن ضمان سلامة حتى أسرته هو. فقد دأب تجار العبيد البرتغاليين وقباطنة السفن على تحويل مسار كثير من السفن فى طريق عودتها الطويل من مملكة الكونجو إلى لشبونه؛ وتبين أن هؤلاء الصغار قد استقر بهم المطاف عبيداً فى البرازيل.

وتسببت كراهيته لتجارة العبيد عبر البحار ويقظته ضد تأثيرها المدمر على سلطانه فى إكسابه عداوة بعض من التجار البرتغاليين الذين كانوا يعيشون فى عاصمته. فحاول ثمانية منهم اغتياله بينما كان يحضر قداسًا يوم أحد عيد الفصح سنة ١٥٤٠ . ونجا أفونسو ولم يُصب إلا برصاصة اخترقت رداءه الملكى، ولكن واحداً من نبلائه قتل وجرح اثنان آخران.

وبعد موت أفونسو تدهورت تدريجيا قوة مملكة الكونجو بعدما أثرى حكام الأقاليم ورؤساء القرى من تجارة العبيد وتوقفوا عن إبداء الولاء للبلاط فى مبانزا كونجو. وبنهاية القرن السادس عشر انضمت دول أوروبية أخرى إلى تجارة العبيد؛ وتجولت سفن بريطانية وفرنسية وهولندية قبالة الساحل الأفريقى باحثة عن حمولات بشرية. وفى سنة ١٦٦٥ دخل جيش مملكة الكونجو الضعيف معركة مع البرتغاليين، وهُزم وقُطعت رأس المانى كونجو. وزادت النزاعات الداخلية من ضعف المملكة التى تقطعت أوصالها بواسطة المستعمرات الأوروبية بحلول أواخر القرن التاسع عشر.

* * *

وباستثناء خطابات أفونسو فإن السجل المكتوب لتلك الآونة لا يراها إلا من خلال أعين البيض. فكيف رأى السكان القاطنون على فوهة النهر العظيم ديوجو كاو وسفنه الثلاث وأعلامها ذات الصليب الأحمر الباهت؟ ولكى نرى من خلال أعينهم لا بد لنا من أن نلتفت إلى الأساطير التى تسربت إلينا عبر القرون. ومنها أنه يبدو أن الأفارقة

لم يروا البحارة كرجال وإنما كأرواح الأسلاف (فومبى) (vumbi) نظراً لأن أهل الكونجو كانوا يعتقدون أن جلد الإنسان يتغير لونه إلى لون الطباشير إذا ما انتقل إلى أرض الموتى. وكان من الواضح أن ذلك كان المكان الذى أتت منه تلك الأرواح المزعجة، لأن الناس على الشاطئ شاهدوا أول ما شاهدوا أطراف صوارى السفن المقبلة، ثم شاهدوا البنية الفوقية للسفن وأخيراً شاهدوا أبدان السفن. فكان من الجلى أن السفن حملت ركابها من بيوتهم من تحت سطح الأرض. وإليكم الرواية عن كيفية وصول البرتغاليين كما أعاد سردها موكونزو كيوكو وهو مؤرخ شفاهى لشعب البند (Pende):

"كان آباؤنا يعيشون فى دعة وراحة ... وكان لديهم ماشية ومحاصيل، ومستنقعات مالحة وأشجار موز.

وفجأة رأوا سفينة ضخمة تبرز من المحيط الكبير. وكان للسفينة أجنحة كلها بيضاء، وتلمع مثل السكاكين.

وبرز رجال بيض من المياه وتمتموا بكلمات لم يفهمها أحد.

وتملك أجدادنا الرعب؛ وقالوا إن هؤلاء هم الفومبى، وهى أرواح عادت من عالم الموتى.

ودفعوهم إلى الوراء إلى المحيط بوابل من السهام.

غير أن الفومبى بصقوا النيران مصحوبة بصخب ورعد. وقتل رجال كثيرون. وفر أسلافنا هاربين.

وقال الرؤساء والحكماء إن الفومبى كانوا الملاك السابقين للأرض ...

ومنذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا، لم يجلب لنا البيض إلا الحروب والشقاء".

وبدت تجارة العبيد كأنها برهان آخر على أن الأوروبيين قد أتوا من أرض الموتى؛ لأنهم بعد أن ملأوا سفنهم بحمولة من العبيد وانطلقوا إلى عرض البحر لم يعد المأسورون إلى ديارهم قط. وبمثل ما كانت الهواجس تملأ جوانح الأوروبيين عن أكل

الأفارقة للحوم البشر، كذلك ظن الأفارقة أن الأوروبيين يمارسون نفس الشيء. وكان الظن أن البيض يحولون لحوم الأسرى إلى قديد [لحم مملح ومجفف]، وأدمغتهم إلى جبن، ودماءهم إلى النبيذ الأحمر الذى كان الأوروبيون يحتسونه. وكانت عظام الأفارقة تُحرق ويتحول الرماد الرمادى اللون إلى بارود. وكل ذلك التحول القاتل يتم، فى اعتقادهم، فى الأوانى النحاسية الضخمة الخاصة بالطبخ التى يتصاعد منها الدخان ويمكن مشاهدتها على السفن. وارتفع معدل الوفيات على السفن المكتظة بالعبيد والمسافرة غربًا من الكونجو عندما أبى بعض العبيد أن يتناولوا الطعام الذى أعطى لهم معتقدين أنهم إنما يأكلون أولئك الذين أبحروا قبلهم.

وبمرور السنين ظهرت أساطير جديدة لتفسير الأشياء الغامضة التى أحضرها الغرباء من أرض الموتى. فمثلاً ذكر مبشر من القرن التاسع عشر تفسيرًا أفريقيًا لما يحدث عندما ينزل القباطنة إلى عنابر السفينة لإحضار بعض البضائع مثل الملابس للمتاجرة فيها. فقد اعتقد الأفارقة أنه لا يحضر تلك البضائع من السفينة نفسها وإنما من خلال ثقب فى باطن السفينة يؤدى إلى المحيط. "فجان البحر ينسجون تلك الملابس فى مصنع محيطى، وكلما احتجنا إلى ملابس يذهب القبطان إلى ذلك الثقب ويدق جرسًا". فيناوله جان البحر الملابس، ثم "يلقى القبطان، كثمن للملابس، عدة أجساد ميتة لأناس سود كان قد اشتراها من التجار المحليين الأشرار الذين سحروا قومهم وباعوهم للرجال البيض". ولم تبتعد الأسطورة كثيرًا عن الحقيقة. فما كانت تجارة العبيد فى أمريكا الجنوبية إلا نظامًا لتحويل عمل الأجساد السوداء إلى ملابس، مرورًا بمزارع القطن؟

* * *

وكان الوسطاء الأفريقيون يحضرون عبيدهم مباشرة إلى السفن. وعلى هذا فإن التجار البرتغاليين نادرًا ما غامروا بالدخول إلى أعماق البلاد بعيدًا عن الساحل. وفى الحق، فبعد أن اكتشف ديوجو كاو نهر الكونجو لم يدر الأوروبيون لما يقرب من أربعة قرون من أين يأتى النهر. وهو يلقى فى المحيط بنحو ١,٤ مليون قدم مكعب من المياه

فى الثانية الواحدة، لا يفوقه فى ذلك إلا نهر الأمازون. وبخلاف حجمه الهائل ومساره المجهول كان الكونجو يشكل أحجية أخرى، فقد لاحظ البحارة أن تدفقه، إذا قورن بتدفق أنهار استوائية أخرى، يتغير أقل نسبيًا على مدار السنة. فأنهار مثل الأمازون والجانج لها أطوار تتراوح ما بين مياه عالية هادرة إلى مياه منخفضة، معتمدة على ما إذا كانت المناطق التى يخدمها النهر تمر بفصل ممطر أو فصل جاف. فما الذى يجعل نهر الكونجو مختلفًا؟

ويعود سبب عجز الزائرين عن استكشاف منابع النهر لعدة قرون إلى أنهم لم يتمكنوا من الإبحار صعودًا ضد التيار. فكل من حاول ذلك كان يجد أن النهر يتحول إلى ممر ضيق وبعدها منحدرات سريعة يتعذر عليهم عبورها.

وتقع غالبية حوض نهر الكونجو التى نعرفها اليوم على هضبة فى أعماق أفريقيا. وينحدر النهر من الحافة الغربية لتلك الهضبة، التى يبلغ ارتفاعها ما يقرب من ألف قدم، متجهًا إلى البحر لمسافة ٢٢٠ ميلاً (٣٥٢ كيلومترًا). وفى أثناء ذلك الانحدار الهائج يضيق النهر ويمر فى وديان ضيقة وتتكون به أمواج هادرة يصل ارتفاعها إلى ٤٠ قدمًا، ثم يسقط من فوق ٣٢ شلالاً منفصلاً. ويبلغ سقوط المياه وحجمها مبلغًا هائلاً بحيث إن مسافة الـ ٢٢٠ ميلاً يمكنها توليد طاقة هيدرومائية تعادل الطاقة المتولدة من كل بحيرات وأنهار الولايات المتحدة مجتمعة.

أما إذا بلغت الجسارة بأى بحار أن يترك سفينته ويغامر بقدميه مشيًا؛ فإن الطريق البرى حول الشلالات، صعودًا فى الأراضى الصخرية الوعرة ذات الأجراف الغادرة والوديان المنحدرة، يموج بالملاريا وغيرها من الأمراض التى لم يكن لدى الأوروبيين أية حصانة ضدها. ولم يحدث إلا مرتين فقط أن تمكن بعض المبشرين من طائفة الكابوتشين (Capuchin) من التوغل فى الداخل لمسافة قصيرة حتى وصلوا أعالى منطقة الشلالات. وحاولت بعثة برتغالية تكرار تلك الرحلة إلا أنها اختفت ولم تعد. وحتى بدايات القرن التاسع عشر كان الأوروبيون لا يزالون لا يعلمون شيئًا عن أعماق أواسط أفريقيا أو من أين ينبع النهر.

وفى سنة ١٨١٦ شرعت بعثة بريطانية بقيادة الكابتن جيمس ك. تكى (James K. Tuckey) من البحرية الملكية البريطانية فى القيام برحلة لاستكشاف منابع نهر الكونجو. وحملت سفينتاه مجموعة رائعة من البشر: جنوداً من البحرية الملكية ونجارين وحدادين وجراحًا وبستانيًا من حدائق كيو الملكية وعالم نبات وعالم تشريح. ومن بين التكليفات التى كُلف بها المشرح دراسة تفصيلية لفرس النهر وأن "يحتفظ بعضو السمع لذلك الحيوان محفوظًا فى كحول ومن ثلاث نسخ إن أمكنه". وكان هناك المستر كرانش جامعًا لعينات التاريخ الطبيعى؛ وكان هناك أيضًا شخص وصفته السجلات بأنه متطوع ومراقب.

وعندما وصل تكى إلى مصب نهر الكونجو أمكنه عد ثمانى سفن عبيد من أمم شتى راسية فى المرفأ فى انتظار شحناتها. وأبحر تكى بسفنه داخل النهر قدر ما استطاع ثم غادر السفن ليدور حول الشلالات الهادرة بطريق البر. غير أنه ورجاله المرهقون فت فى عضدهم "التسلق اللانهائى لجوانب تلال شديدة الانحدار وتكاد تكون عمودية، وبها كميات هائلة من الكوارتز". وأصبحت تلك المنطقة تُعرف باسم جبال الكريستال (Crystal Mountains). وكان النهر عبارة عن كتلة من المنحدرات المزبدة والدوامات الهائلة الحجم. وفى منطقة هادئة نادرة لاحظ تكى، بشىء من السذاجة، أن "المناظر جميلة ولا تقل عما يوجد على ضفتى نهر التيمز". وشيئًا فشيئًا بدأ تكى يشكو من مرض مجهول، الحمى الصفراء فى أغلب الظن، وبعد نحو ١٥٠ ميلاً يئس تكى وعاد أدراجه هو ورفاقه، ومات بعد وصوله إلى السفينة بفترة قصيرة. وفى خلال رحلة عودة الباقين من أفراد البعثة إلى إنجلترا مات ٢١ من أصل ٥٤ شخصًا بدءوا الرحلة. وبقى منبع النهر وسر تدفقه الثابت لغزًا وسرًا مغلقًا. وبقيت أفريقيا للأوروبيين مصدرًا لمواد خام نفيسة - أجساد بشرية وأنياب الفيلة. وفيما عدا ذلك نظر الأوروبيون إلى القارة بوصفها مكانًا مجهولاً وخاليًا، مكانًا على الخريطة ينتظر من يستكشفه، مكانًا يوصف كثيرًا بالجملة التى تقول الكثير عن الناظر أكثر من المنظور إليه: "القارة السوداء".

الجـــزء الأول

الـدخـول إلـى الـنـار

الفصل الأول

لن أتوقف عن المطاردة

في ٢٨ يناير ١٨٤١، بعد ربع قرن من بعثة تكي الفاشلة، ولد الرجل الذي قُدر له أن ينجز بإثارة ما حاول تكي أن يفعله. وولد في دنبي وهي مدينة تجارية صغيرة في ويلز. وكُتب في سجلات مواليد كنيسة سانت هيلاري تحت اسم "جون رولاندز، لقيط" (John Rowlands, Bastard) – وهو لقب لازم الصبي لبقية حياته التي قضاها تحت إحساس متصل بالخزي. وكان جون الصغير أول خمسة أطفال غير شرعيين أنجبتهم بتسي باري (Betsy Parry) خادمة المنازل. وقد يكون أبوه هو جون رولاندز (John Rowlands) وهو سكير من المنطقة مات من الهذيان الارتعاشي (delirium tremens) وهو مرض ينتج من تأثير الخمر على الدماغ، أو قد يكون محامياً مرموقاً ومتزوجاً يدعى جيمس فون هورن (James Vaughan Horne)، أو واحداً من عشاق بتسي باري في لندن حيث كانت تعمل.

وبعد أن أنجبته غادرت بتسي باري مدينة دنبي يجللها الخزي والعار تاركة وليدها في منزل أبيها وأخواتها، وكان أبوها ممن يؤمنون بأن الصبيان يحتاجون إلى الضرب بالسوط إن أساءوا التصرف. ولما بلغ جون الخامسة من عمره مات جده، وفي الحال تخلص منه أخواله وأعطوه لأسرة محلية نظير نصف كراون (٢,٥ شلن) أسبوعيا. وعندما طالبتهم الأسرة بمزيد من النقود رفض الأخوال. وذات يوم أخبرت جون الأسرة التي ترعاه أن ابنهم ديك سوف يصطحبه لزيارة العمة ماري في قرية أخرى:

"بدا الطريق طويلاً لا ينتهى ومرهقًا... وأخيرًا أنزلنى ديك من على كتفيه أمام مبنى حجرى ضخم، وبعد أن عبرنا خلال بوابة حديدية عالية جذب جرسًا سمعت رنينه المزعج فى الداخل. وظهر على الباب رجل أجنبى ذو وجه داكن أمسك بيدى رغم احتجاجاتى وجذبنى إلى الداخل، بينما حاول ديك أن يهدئ من مخاوفى بوعود جوفاء بأنه سيذهب لإحضار العمة مارى. وأُغلق الباب دونه، ومع صدى الصوت أحسست لأول مرة بشعور بغيض من الهجران التام".

وصار الآن جون رولاندز، ذو الأعوام الستة، نزيلاً فى إصلاحية اتحاد سانت أساف للأحداث.

ونجد أن سجلات الحياة فى سانت أساف مغلفة بصورة عامة بغلالة فيكتورية من معسول القول، غير أن صحيفة محلية شكت من أن ناظر الإصلاحية سكير ويمارس تجاوزات "غير محتشمة" مع السيدات اللواتى يعملن معه. وقررت لجنة تحقيق زارت الإصلاحية سنة ١٨٤٧، وهى نفس الفترة التى وصل فيها جون رولاندز، أن البالغين من الذكور "يشاركون فى كل رذيلة ممكنة"، وأن الأطفال ينامون كل اثنين فى سرير واحد "مما يجعلهم يمارسون ويفهمون أمورًا لا يجب أن يمارسوها ويفهموها". واستمر جون رولاندز طوال حياته يتخوف من التقارب الجنسى بكل أشكاله.

ونجح جون فى الفصول المدرسية للإصلاحية على الرغم من كل ما تحمله أو شاهده فى عنابر نومها، فقد نال إنجيلاً من الأسقف المحلى كجائزة. وكان مبهورًا بالجغرافيا، وكانت لديه مقدرة غير عادية فى تقليد خط أى شخص بمجرد أن يدرسه لبضع دقائق. وكان خطه جميلاً بصورة مدهشة، وتوقيعه فى صباه كان أنيقًا مع انحناءة إلى الأمام، وحروفه تمتد بشكل مثير أعلى وأسفل السطر وكأنما كان، من خلال خطه، يحاول أن ينأى بنفسه عن الخزى ويبتعد بقصة حياته عن الفاقة إلى الأناقة.

وذات مساء عندما كان جون فى الثانية عشرة "أتى المشرف إلىَّ ساعة الطعام، عندما كان كل النزلاء مجتمعين، وأشار إلى سيدة طويلة ذات وجه بيضاوى وخلف رأسها لفافة هائلة من الشعر الداكن، وسألنى إن كنت أتذكرها. وأجبته: "لا يا سيدى".

"كيف لا تعرف أمك؟" "وأجفلت بوجه محتقن وألقيت عليها نظرة خجولة وأدركت أنها ترمقنى بنظرة باردة متفحصة. وكنت أتوقع أن أحس بفيض من العاطفة تجاهها، لكن تعبيراتها كانت فاترة بحيث انغلقت مفاتيح قلبى بعنف". وزادت صدمته عندما وجد أن أمه قد أحضرت معها طفلين غير شرعيين جديدين إلى سانت أساف ولد وبنت. وبعد بضعة أسابيع غادرت الإصلاحية. وبالنسبة لجون كانت تلك آخر حلقة فى سلسلة من الهجران.

وفى سن الخامسة عشر غادر جون سانت أساف وأقام مع سلسلة متوالية من الأقارب، وكلهم كان التأفف يبدو عليهم لإيوائهم قريبًا آتيًا من ملجأ. وفى السابعة عشر، وبينما كان يعيش مع أحد أقاربه فى مدينة ليفربول ويعمل كموصل للطلبات لدى جزار، تخوف من أنه سوف يُتخَلص منه مرة أخرى. وذات يوم كان يوصل بعض اللحوم إلى سفينة تجارية أمريكية فى الميناء هى ويندرمير (Windermere). ونظر القبطان بتمعن إلى ذلك الشاب القصير القامة ولكنه يبدو قوى الجسمان وسأله: "ألا تحب أن تبحر فى تلك السفينة؟".

وفى فبراير ١٨٥٩، وبعد رحلة من سبعة أسابيع، رست ويندرمير فى ميناء نيو أورلينز (New Orleans)، حيث غادرها الشاب الوافد. وفيما بعد كان يتذكر التشكيلة الرائعة من الروائح التى كانت تنبعث من السفينة: قطران ومياه البحر والبن الأخضر والروم ودبس السكر. وبينما كان يتجول فى الشوارع بحثًا عن عمل لمح على شرفة مستودع رجلاً فى منتصف العمر يرتدى قبعة حريرية عالية، تبين فيما بعد أنه سمسار فى تجارة القطن، واقترب منه قائلاً: "ألا تريد خادمًا يا سيدى؟".

وأعجب سمسار القطن بالشهادة المرجعية الوحيدة التى كان جون يحملها وهى الإنجيل الجائزة وعليه توقيع الأسقف، وعَيَّن المراهق الويلزى موظفًا. وسرعان ما قرر جون رولاندز الشاب أن يتخذ لنفسه اسمًا جديداً، فقد كان يعيش الآن فى العالم الجديد. وسار الأمر بطريقة تدريجية. ففى إحصاء نيو أورليانز لسنة ١٨٦٠ سُجل بوصفه 'ج. رولينج'. وتذكرته امرأة كانت تعرفه وقتئذ باسم جون رولينز: "لاذع كالسوط ويهتم

بالتفاخر والحديث الطلى وحكى الحكايات." ولكنه خلال بضعة أعوام بدأ فى استخدام الاسم الأول والأخير للتاجر الذى أعطاه الوظيفة. واستمر يقوم بتجارب فى الاسم الأوسط مستخدمًا مورلى ومورلاك ومورلاند قبل أن يستقر أخيراً على مورتون. وهكذا فإن الصبى الذى دخل إصلاحية سانت أساف باسم جون رولاندز سرعان ما صار الرجل الذى سوف يعرفه العالم باسم هنرى مورتون ستانلى.

ولم يكتف ستانلى بمنح نفسه اسمًا جديداً؛ وإنما جاهد لبقية حياته فى أن يبتكر لنفسه سيرة حياة جديدة. فالرجل الذى سيصير أشهر مستكشف فى عصره واشتهر بملاحظاته الدقيقة عن الحياة البرية والتضاريس الأفريقية كان تعتيميًا من طراز عالمى فيما يتعلق بالمراحل الأولى من حياته. ففى سيرته الذاتية، على سبيل المثال، يحكى بعبارات ميلودرامية مثيرة كيف هرب من الإصلاحية الويلزية: فقد وثب من فوق جدار الحديقة وهرب، على حد قوله، بعد أن تزعم تمرداً مدرسيًا ضد مشرف قاس يدعى جيمس فرانسيس، الذى تعامل بوحشية شريرة مع فصل للتلاميذ الكبار. "فصحت به لا تفعل ذلك مرة أخرى، وأنا أتعجب لتهورى. ولم تكد الكلمات تغادر فمى حتى وجدت نفسى مطوحًا فى الهواء من ياقة سترتى ونزلت ككومة واهنة على منضدة. ثم أخذ ذلك الوحش الغاضب يكيل لى الضربات فى معدتى حتى سقطت وأنا ألهث من تقطع أنفاسى ودُفعت على المنضدة بصدمة كادت أن تكسر عمودى الفقرى". وكان ستانلى آنذاك فى الخامسة عشر وموفور الصحة ولا يمكن أن يكون فريسة سهلة لفرانسيس، وهو عامل مناجم سابق كان قد فقد إحدى ذراعيه فى حادثة منجم. وفيما بعد لم يتذكر أحد من التلاميذ أى تمرد، وبالذات تمرداً قاده ستانلى؛ وهم يتذكرون أن فرانسيس كان رجلاً دمث الأخلاق وأن ستانلى كان تلميذه المدلل، وكثيراً ما نال مزايا ولاقى تشجيعًا وكُلف بمسئولية السيطرة على الفصل فى غياب فرانسيس. وتذكر سجلات الإصلاحية أن ستانلى لم يغادره هاربًا وإنما لكى يعيش مع عم له فى أثناء دراسته.

وبنفس الدرجة من الخيالات كانت رواية ستانلى عن الأيام التى قضاها فى نيو أورلينز. فهو يقول إنه عاش فى منزل سمسار القطن الخيِّر هنرى ستانلى وزوجته الورعة الواهنة. ولما أصاب المدينة وباء الحمى الصفراء مرضت الزوجة وماتت، على

سرير له أستار من نسيج الموسلين الأبيض، ولكنها عندما حضرتها الوفاة فتحت عينيها وتفوهت بكلمات أتت وكأنما من بعيد: "كن ولداً طيباً. وليباركك الرب!".

وسرعان ما احتضن الأرمل الملتاع ساكنه وموظفه الشاب وأعلن له "فى المستقبل، سوف تحمل اسمى". وتبع ذلك، حسب ما ادعاه ستانلى، سنتان مليئتان بالرضا من الترحال للتجارة مع الرجل الذى يتحدث عنه بوصفه "أبى". وكانا يستقلان سفن نهر المسيسيبى، ويتمشيان على أرصفة الموانى، يقرآن كلٌ للآخر ويتحدثان عن الإنجيل. ولكن وللأسف الشديد لحق أبوه بالتبنى بزوجته المحبوبة سنة ١٨٦١ فى العالم الآخر. "لأول مرة أدركت عنف الألم الذى يخترق الروح عندما يرقد شخص عزيز لديك بأياد معقودة على صدره فى نوم أبدى بارد برودة الثلوج. وبينما كنت أتأمل ذلك الجسد جادلت نفسى بالتساؤل هل كان سلوكى ممتازاً كما كنت أتمنى؟ هل فشلت البتة؟ هل أبديت له الاحترام الذى كان يستحقه؟".

وهى قصة مؤثرة - لولا أن السجلات تبين أن الزوجين ستانلى لم يموتا إلا سنة ١٨٧٨، بعد التاريخ الذى ذكره هنرى مورتون ستانلى بسبعة عشر عاماً. ورغم أنهما فعلاً تبنيا طفلين إلا أنهما كانتا بنتين. وطبقاً لسجلات المدينة وتقارير التعداد الرسمى فإن ستانلى الشاب لم يكن يعيش فى منزلهم وإنما عاش فى سلسلة منازل إقامة. وأن ستانلى التاجر قد تشاجر مشاجرة عنيفة مع موظفه وحدثت بينهما قطيعة دائمة، وبعدها طلب ألا يُذكر اسمه أمامه مرة أخرى.

ومما لا شك فيه أن الوصف الملىء بالتمنيات الذى يصف به ستانلى شبابه يدين بشىء من الفضل إلى معاصره تشارلز ديكنز[١] الروائى، الذى كان يعشق بطريقة مماثلة مشاهد الاحتضار، والنسوة الورعات، والأثرياء الخيِّرين. كما يدين كثيراً لإحساس ستانلى بأن حياته الحقيقية غارقة فى الخزى والعار بحيث كان عليه أن يبتكر شخصية

---

(١) تشارلز ديكنز (Charles Dickens) (١٨١٢-١٨٧٠) واحد من أعظم الروائيين البريطانيين. من مؤلفاته الشهيرة: دافيد كوبرفيلد وأوليفر تويست وقصة مدينتين ومذكرات مستر بيكويك (المترجم).

يواجه بها العالم. فهو لم يكتف باختراع أحداث فى سيرته الذاتية، بل اختلق قصة عن غرق سفينة ومغامرات أخرى لم تحدث مطلقًا. وفى بعض الأحيان كان ينشر حادثة من حوادث رحلاته الأفريقية فى خطابات أو فى المقالات التى كان يرسلها لصحف الوطن وفى كتب كتبها تختلف تمام الاختلاف عما جاء فى سجل الرحلة. وكان ذلك بمثابة وليمة دسمة لمؤرخى اضطرابات علم النفس.

وهناك حادثة ذات دلالة وصفها أو اخترعها ستانلى حدثت عقب وصوله مباشرة إلى نيو أورلينز بينما كان يتشارك فى سرير فى حجرة فى نُزُل مع ديك هيتون، وهو شاب آخر قدم من ليفربول كعامل على أرصفة الميناء. "كان شديد الخجل لدرجة أنه كان يأبى أن يأوى إلى سريره ليلاً والشموع متقدة، وعندما ينام كان يستلقى على حافة السرير مبتعداً عن التلاصق معى. وكنت عندما أستيقظ فى الصباح أجد أنه لم يخلع ملابسه". وذات يوم استيقظ ستانلى "وأصابتنى الدهشة عندما شاهدت ما ظننت أنه ورمين على صدره ... فجلست فى السرير ... وصحت فيه .. "لقد عرفت! لقد عرفت! إنك فتاة يا ديك". وفى تلك الليلة اختفى ديك بعد أن اعترف بأنه أليس. "ولم أرها ولم أسمع عنها بعد ذلك مطلقًا؛ ولكنى أملت أن الأقدار كانت متسامحة معها، كما كانت حكيمة، عندما فرقت بين مخلوقين شابين وساذجين كان من الممكن أن ينساقا إلى الحماقات مع تدفق العاطفة".

وتتشابه تلك القصة مع مشهد الاحتضار المستوحى من ديكنز فى أنها تحمل أصداء من أسطورة - عن فتاة تتخفى فى زى صبى كى تنخرط فى صفوف الجيش أو تهرب إلى البحر. وسواء كانت حقيقية أو زائفة فإن الرسالة العاطفية واحدة: هى رعب ستانلى من أن يجد نفسه منفرداً مع امرأة.

وعندما نشبت الحرب الأهلية الأمريكية انضم ستانلى إلى جيش الجنوبيين (Confederate Army) وفى أبريل ١٨٦٢ شارك فى القتال مع وحدته وهى 'متطوعو أركنساس' فى معركة شيلوه فى ولاية تنيسى. وفى ثانى يوم من القتال حاصرته قوة من نصف دستة من جنود الشمال، وسرعان ما وجد نفسه فى معسكر لأسرى الحرب

مكتظ ومليء بالتيفوس بالقرب من شيكاجو. واكتشف أن الوسيلة الوحيدة للهرب من هذا المكان البائس هو أن يتطوع فى جيش الشماليين، وبعدها مباشرة سقط مريضًا بالدوسنتاريا وحصل على تسريح طبى. وبعد أن عمل بحارًا فى الأطلنطى ذهابًا وإيابًا انخرط سنة ١٨٦٤ فى البحرية الاتحادية. ومكنه خطه الجميل من الحصول على وظيفة كاتب على السفينة الحربية منيسوتا. ولما شاركت السفينة فى قصف قلعة جنوبية فى ولاية نورث كارولينا صار ستانلى من القلائل الذين شاركوا فى الحرب الأهلية مع الجانبين.

عادت منيسوتا إلى المرفأ فى أوائل سنة ١٨٦٥، وهرب منها ستانلى القلق. ومنذ الآن تبدأ تحركاته فى التسارع. وكأنما استُنفِذ صبره إزاء المؤسسات المنتظمة والمقيِّدة مثل إصلاحية أو سفينة تجارية أو الجيش. فيتجه أولاً إلى سانت لويس، ويحصل على وظيفة محرر مستقل فى صحيفة محلية، ويرسل مجموعة من البرقيات الصحفية المزوقة من حيثما يكون فى أماكن أبعد إلى الغرب: دنفر وصولت ليك سيتى وسان فرانسسكو. ويكتب مستنكرًا عن "الفسق والانغماس فى الملذات ودوامة الخطيئة" التى شاهدها فى مدن الحدود الغربية.

وبعد رحلة إلى تركيا بحثًا عن المغامرة عاد ستانلى إلى الغرب الأمريكى، وبدأ مهنته كصحفى. وخلال الجزء الأكبر من سنة ١٨٦٧ غطى الحروب الهندية، مرسلاً برقيات ليس فقط إلى سانت لويس وإنما إلى صحف الساحل الشرقى أيضًا. ولم يعنيه أن الصراع البائس الطويل لهنود السهول الجنوبية ضد غزاة أراضيهم كان قد قارب على الانتهاء، وأن الحملة التى صاحبها ستانلى لم تشهد قتالاً إلا فيما ندر، أو أن غالبية السنة انقضت فى مفاوضات إحلال السلام. فرؤساء ستانلى كانوا يرغبون فى تقارير عن معارك ملتهبة وهو ما زودهم بها: "أخيرًا بدأت الحرب الهندية بصورة عادلة ... فالهنود، وهم متمسكون بوعيدهم، وملتزمون بغرائزهم الدموية، وكراهيتهم المتوحشة للجنس الأبيض، وللدروس التى غرسها أجدادهم فى صدورهم، قد أصبحوا على طريق الحرب".

ولفتت تلك التقارير أنظار جيمس جوردون بنيت الصغير (James Gordon Bennett, Jr.,) صاحب جريدة نيويورك هرالد (New York Herald) المتألق والنشيط. فوظف ستانلى لتغطية حرب صغيرة وغريبة كانت كفيلة بأن تساهم فى ترويج صحف كثيرة: وهى حملة تأديبية كانت الحكومة البريطانية تقوم بتنظيمها ضد إمبراطور الحبشة. وفى مدينة السويس، فى طريقه إلى ميدان القتال رشا ستانلى موظفى التلغراف كى يعملوا على أن تُرسل تقاريره برقيًا إلى الوطن قبل أى تقارير صحفية أخرى واردة من ميدان القتال. وأتت بصيرته بثمارها، فكان تقريره عن أن بريطانيا ربحت المعركة الوحيدة المؤثرة أول تقرير يطلع عليه العالم. وفى ضربة حظ كبرى كُسر كابل التلغراف الرئيسى عبر البحر الأبيض المتوسط بعد إرسال برقيات ستانلى مباشرة. أما برقيات المراسلين المنافسين الساخطين، بل وحتى البرقيات الرسمية للجيش البريطانى، فكان عليها أن تسافر إلى أوروبا بحرًا. وفى فندق فى مدينة القاهرة جنى ستانلى ثمار سبقه الصحفى فقد جاءت الأنباء بأنه قد عُين مراسلاً خارجيًا دائمًا لصحيفة الهرالد. وكان فى السابعة والعشرين من عمره.

* * *

والآن وقد أصبح ستانلى متمركزًا فى لندن أصبح بمقدوره أن يسمع ما يدور حوله من بواكير الدمدمات عما صار سريعًا يُعرف باسم التدافع على أفريقيا. ففى أوروبا، التى تدخل العصر الصناعى تملؤها الثقة وتجيش بإحساس بالقوة سببه السكك الحديدية والسفن البخارية عابرة المحيطات، ظهرت نوعية جديدة من الأبطال هم مستكشفو أفريقيا. وبالنسبة لأولئك الذين عاشوا فى أفريقيا منذ آلاف السنين فبطبيعة الحال، وكما سيقولها سياسى أفريقى فيما بعد، "ليس هناك ما يُستكشَف، فقد كنا هنا طول الوقت". غير أنه بالنسبة لأوروبيى القرن التاسع عشر فإن احتفالهم "باكتشاف" ركن جديد فى أفريقيا كان مقدمة لإحساسهم بأن القارة ملكهم وجاهزة للاستيلاء عليها.

وفى أوروبا، التى ربط أطرافها بإحكام التلغراف ودوائر المحاضرات والصحف اليومية ذائعة الانتشار، أصبح مستكشفو أفريقيا من أشهر المشاهير على المستوى

الدولى وتخطت شهرتهم حدود الدول مثل أبطال الرياضة ونجوم السينما اليوم. وقام الإنجليزيان ريتشارد بيرتون (Richard Burton) وجون سبك (John Speke) برحلة جسورة بدأت من الساحل الشرقى لأفريقيا إلى الداخل واكتشفا بحيرة تانجانيقا، وهى أطول بحيرة للمياه العذبة فى العالم، وبحيرة فيكتوريا، أكبر تجمع مائى فى القارة، وتوجا مغامرتهما بمشهد طالما استمتع به الجمهور من المشاهير وهو شجار عنيف دار بينهما على الملأ. ومن الساحل الغربى لأفريقيا أحضر الفرنسى بول بللونى دى شايو (Paul Belloni Du Chaillu) جلود الغوريللا وهياكلها العظمية، وأخبر نظارته المأخوذين كيف أن الغوريلات الضخمة ذات الشعر الكثيف تختطف النساء إلى عرائنها داخل الأحراش لأغراض أقذر من أن يصرح بها.

وتحت غلالة حماس أوروبا واهتياجها كان هناك الأمل فى أن تكون أفريقيا مصدراً للمواد الخام لتغذية الثورة الصناعية، مثلما كان البحث عن المواد الخام - العبيد - اللازمة لاقتصاد مزارع المستعمرات دافعًا للتصرفات الأوروبية تجاه أفريقيا فى أوقات سابقة. وتسارعت التوقعات بصورة مثيرة بعد أن اكتشف المنقبون الماس فى جنوب أفريقيا سنة ١٨٦٧ والذهب بعد ذلك بنحو عقدين. ولكن الأوروبيين فضلوا أن يدعوا لأنفسهم دوافع أكثر سمواً. وآمن البريطانيون، على وجه الخصوص، بحماسة بأنهم يقدمون "الحضارة" والمسيحية إلى الوطنيين؛ واشتد فضولهم للتعرف على الأعماق المجهولة للقارة؛ كما كانوا مشبعين بالقيم الأخلاقية لمكافحة العبودية.

ومن البديهى أن بريطانيا لم يكن لديها سوى مبررات مشكوك فيها لتبرير النظرة الأخلاقية الرفيعة تجاه الرق. فالسفن البريطانية هيمنت لفترة طويلة على تجارة الرقيق، ولم تُحَرَّم تجارة الرقيق رسميا فى الإمبراطورية البريطانية إلا سنة ١٨٣٨، ولكن البريطانيين نسوا كل ذلك سريعًا، مثلما نسوا أن زوال تجارة الرقيق قد أسرعت من خطاه ثورة كبيرة للعبيد فى جزر الهند الغربية البريطانية أخمدتها القوات البريطانية بجهد جهيد وبمنتهى القسوة. وكان رأيهم أن تجارة الرقيق قد انتهت من معظم أنحاء العالم لسبب واحد لا غير: فعالية التأثير البريطانى. وعندما بُنى نُصُب ألبرت التذكارى فى لندن سنة ١٨٧٢، فإن واحداً من تماثيله كان يمثل أفريقيًا أسود

عارى الجسد إلا من بعض أوراق شجر تغطى خاصرته. وجاء بكتيب دليل المتحف أن ذلك التمثال يمثل فرداً من "الأجناس غير المتحضرة" وهو يستمع إلى تعاليم امرأة أوروبية، وأن "الأغلال المكسورة تحت قدميه تشير إلى الدور الذى لعبته بريطانيا العظمى فى تحرير العبيد".

وهناك أمر ذو دلالة، فغالبية التحمس البريطانى والفرنسى ضد الرق فى ستينيات القرن التاسع عشر لم تكن موجهة إلى إسبانيا والبرتغال، اللتين سمحتا بالرقيق فى مستعمراتهما، ولا إلى البرازيل، بما تحويه من ملايين العبيد. وبدلاً من ذلك انصب الشجب والاحتجاجات على هدف بعيد وضعيف وغير أبيض بطريقة مريحة: وهو ما أُطلق عليه تجار الرقيق من العرب الذين كانوا يغيرون على أفريقيا من الشرق. ففى أسواق النخاسة فى جزيرة زنزبار كان التجار يبيعون غنائمهم البشرية إلى العرب من أصحاب المزارع فى نفس الجزيرة وإلى مشترين آخرين من بلاد فارس ومدغشقر والسلطنات والإمارات المختلفة من شبه الجزيرة العربية. وبالنسبة للأوروبيين كان ذلك هدفا مثاليا لإظهار الاحتجاج: جنس غير متحضر يستعبد جنساً غير متحضر آخر.

واستخدام لفظ "عربى" كان استخداماً مغلوطاً، وكان الأوفق أن يُطلَق عليهم "العرب - الأفارقة". وعلى الرغم من أن أسراهم كثيراً ما انتهى بهم الحال إلى العالم العربى؛ فإن التجار على أرض القارة الأفريقية كانت غالبيتهم من الأفارقة المتحدثين باللغة السواحلية من أقاليم هى اليوم كينيا وتنزانيا. وارتدى الكثير منهم الرداء العربى واعتنقوا الإسلام، ولكن بعضاً منهم فقط كان من أصول عربية بل وجزئياً. وعلى الرغم من ذلك فقد انتشرت الكتب الساخطة والخطب والعظات التى تشجب تجار الرقيق من العرب الأشرار فى كل أرجاء أوروبا من إدنبره إلى روما - ومعها، ضمنياً، شجب فكرة استعمار أى جزء من أفريقيا بواسطة أى جهة غير أوروبية.

وانصهرت كل تلك الدوافع والأفكار الأوروبية تجاه أفريقيا - التحمس ضد تجارة الرقيق، والبحث عن المواد الخام، والتبشير بالمسيحية، بل ومجرد الفضول - فى شخص رجل واحد هو دافيد ليفنجستون (David Livingstone). فكان طبيباً ومنقباً عن الذهب

ورجل تبشير، ومستكشفًا، وفى بعض الأوقات قنصلا بريطانيا، وتجول فى أنحاء أفريقيا لمدة ثلاثة عقود بدأت فى أوائل أربعينيات القرن التاسع عشر. وبحث عن منابع النيل واستنكر تجارة الرقيق واكتشف مساقط مياه فيكتوريا، وبحث عن المعادن، وبشر بالإنجيل. وبوصفه أول رجل أبيض يعبر القارة من البحر إلى البحر[٢] فقد صار بطلاً قوميا فى إنجلترا.

وفى سنة ١٨٦٦ شد ليفنجستون رحاله فى رحلة استكشافية طويلة أخرى، بحثًا عن تجار الرقيق وأناس يمكن تنصيرهم ومنابع النيل أو أى شىء آخر يحتاج أن يُكتشف. ومرت سنوات ولم يعد. ولما بدأ الناس يتساءلون عن مصيره رأى جيمس جوردون بنِت (James Gordon Bennett) رئيس تحرير جريدة نيويورك هيرالد (New York Herald) فى ذلك فرصة سانحة. وفى سنة ١٨٦٩ أو نحو ذلك التاريخ بدأت القصة التى سيكون ستانلى بطلها. فقد تلقى ستانلى برقية عاجلة من رئيسه بنِت: احضر إلى باريس لأمر مهم، وكتب ستانلى بروح الإحساس بالأهمية الذى أصبح الآن جزءًا من شخصيته العامة، "مثل مجالد فى الحلبة ... أى إحجام أو جبن سيتوارى. والمجالد يواجه السيف الذى أُشرع خصيصًا لصدره - والمراسل المتجول ينفذ الأمر الذى قد يرسله إلى حتفه." وأسرع إلى باريس ليقابل رئيسه فى فندق جراند أوتيل. وهناك دار بينهما حديث مثير عن ليفنجستون وصل إلى ذروته بقول بنِت: "إنى أعنى أنك سوف تذهب للبحث عنه والعثور عليه أينما وُجد، وتحصل على قدر ما تستطيع من أنباء منه، وربما ... يكون الرجل العجوز فى أشد الاحتياج للمساعدة، فخذ معك ما يكفى لمساعدته إن كان يحتاج لذلك ... وافعل ما تراه صائبًا - ولكن اعثر على ليفنجستون!".

وصار هذا المشهد مقدمة رائعة لكتاب ستانلى الأول 'كيف وجدت ليفنجستون'، وجعل من بنِت، الذى أهدى الكتاب إليه، المدبر بعيد النظر للمغامرة. غير أنه لا يبدو أن

---

(٢) مما يسبب الأسى لدعاة الحضارة الأوروبية، أن أول عبور مسجل لأواسط أفريقيا، ولم يعترف به ستانلى ولا أى من المستكشفين البيض، كان قد حدث قبل ذلك بنصف قرن بواسطة اثنين من تجار الرقيق المولدين هما بدرو بابتيستا وأناستازيو جوزيه. وكانت رحلتهما أيضًا أول رحلة دوارة.

مثل تلك المحادثة قد حدثت. فقد نُزعت من مذكرات ستانلى الصفحات التى تحمل تواريخ مقاربة للوقت الذى تمت فيه المقابلة المزعومة، وفى الحق فإن ستانلى لم يشرع فى البحث عن ليفنجستون إلا بعد ما يربو على عام بعدها.

ومهما كانت القصة مبالغًا فيها، فإن استدعاء بنت المثير لستانلى فى باريس تسبب فى مبيع المزيد من نسخ الكتاب، وهو الأمر الذى كان يعنى الكثير لستانلى. فقد كان ينشد ما هو أكبر من الشهرة كمستكشف؛ وصنعت منه نزعته المسرحية، كما كتب أحد المؤرخين، "المثل الأعظم لكل من جاء بعده من كتاب الرحلات." وحققت له مقالاته وكتبه وجولات محاضراته من الثراء ما لم يتحقق لأى كاتب رحلات فى عصره وربما فى القرن التالى أيضًا. ومع كل خطوة خطاها فى أفريقيا كان ستانلى يخطط كيف سيروى القصة بعد عودته لوطنه. وبأسلوب يتطابق مع أساليب القرن العشرين كان دائمًا يبتكر تفاصيل شهرته.

ولكى لا يفشى أية أسرار لأى منافسين محتملين فى موضوع البحث عن ليفنجستون فإنه نشر بعناية، بينما هو فى طريقه إلى أفريقيا، أنباء تفيد بأنه ذاهب إلى أفريقيا ليستكشف نهر روفيجى (Rufiji). وذهب أولاً إلى زنزبار ليجند حمالين ليحملوا مؤنه، ومن هناك كتب سلسلة من الخطابات إلى كيتى جو - روبرتس وهى شابة من بلدته دنبى. وكانت العلاقة بينهما مقتضبة وجامدة وعصبية، وتقطعها رحلات ستانلى العديدة فى مهمات صحفية، غير أنه فى خطاباته كان يفرغ لها ما بقلبه معترفًا لها بالسر المؤلم لمولده غير الشرعى. وكان ستانلى يخطط للزواج منها بعد عودته من رحلة البحث عن ليفنجستون.

وأخيرًا وفى ربيع سنة ١٨٧١ شرع ستانلى فى رحلته مصطحبًا معه كلبًا اسمه عمر وحمالين ودليلاً يحمل العلم الأمريكى واثنين من البحارة البريطانيين - نحو ١٩٠ رجلاً، وكانت تلك أكبر رحلة استكشافية لأفريقيا حتى حينه. وتوغل ستانلى داخل البلاد من الساحل الشرقى بحثًا عن ليفنجستون، والذى لم يكن قد رآه أوروبى واحد منذ خمس سنوات حتى تلك اللحظة. وأعلن ستانلى لقراء جريدته النيويوركية: "حيثما كان كونوا

على ثقة من أنى لن أتخلى عن المطاردة. فإن كان حيًا فسوف تسمعون ما سيقوله، وإن كان ميتًا فسوف أجده وأحضر لكم عظامه.

واستمر ستانلى يتجول لأكثر من ثمانية أشهر حتى عثر على المستكشف ونطق بكلماته المشهورة: "دكتور ليفنجستون على ما أظن؟"، وتحول البحث الطويل إلى ملحمة بسبب فيض برقياته وإدراك بنت أن صحيفته لديها سبق صحفى مما يهم الناس عن أهم ما وُجد فى القرن. ولما كان ستانلى هو المصدر الوحيد للمعلومات المتعلقة بذلك البحث (مات مرافقاه الأبيضان الاثنان فى أثناء الرحلة ولم يكلف أحد نفسه عناء استجواب الحمالين الذين بقوا على قيد الحياة)، فقد استمرت الملحمة بطولية. فكان بها المسيرة الشاقة والمستنقعات الفظيعة وتجار العبيد من العرب الأشرار والأمراض القاتلة الغامضة والهجوم الخطير للتماسيح، وأخيرًا انتصار ستانلى بالعثور على الرجل الطيب دكتور ليفنجستون.

وفى كتاباته وضع ستانلى ليفنجستون فى مرتبة القداسة، فقد كان لديه بمثابة الأب ذى المنزلة الرفيعة التى كان الشاب يبحث عنها، وإلى حد ما، وجدها فعلاً. فطبقًا لستانلى أصبح الرجل الحكيم الخبير والشاب البطل الجسور صديقين بسرعة وهما يستكشفان سويًا لبضعة أشهر. (استقلا زورقًا وطافا بالأنحاء الشمالية لبحيرة تانجانيقا أملاً فى العثور على منبع النيل وهو يخرج منها، غير أن خيبة الأمل أصابتهما عندما لم يكتشفا إلا نهرًا آخر يصب فى البحيرة). وأفاض العجوز على الشاب من حكمته قبل أن يفترقا إلى الأبد وهما آسفان. وبصورة مريحة لستانلى بقى ليفنجستون فى أفريقيا ومات بعد ذلك بفترة وجيزة، قبل أن يتمكن من العودة إلى وطنه ليشارك فى الأضواء أو ليحكى القصة بصورة جد مختلفة. ونثر ستانلى على حكايته رذاذًا خفيفًا من حكايات عن رؤساء القبائل المثيرين والسلاطين غريبى الأطوار والخدم المخلصين، وتَوَّجَها بأحكام عمومية شاملة تشفى غليل القراء عن عالم لا يعرفون عنه شيئًا: "العربى لا يتغير قط"، "الرجل من قبيلة البانيان يولد تاجرًا بالفطرة"، "إنى أكنّ بغضًا شديدًا لأنصاف المولدين".

وعلى عكس ليفنجستون المسالم الأبوى الصفات الذى كان يسافر دون حاشية ضخمة مسلحة من الأتباع، كان ستانلى خشنًا وقاسيًا مع أتباعه ويكلفهم بمهام شاقة. وكتب فى أثناء الرحلة: "السود يتسببون فى قدر هائل من المشاكل، وهم على درجة كبيرة من العقوق لا تتناسب مع ذوقى". وعلى الرغم من التهذيب الذى نال كتاباته بكثرة المراجعة؛ فإنها كشفت عن طبيعته المتفجرة. وكان يسوق رجاله صُعودًا على التلال وخلال المستنقعات دون أن يمنحهم فترات للراحة. "عندما تستنزف الأوحال والبلل الطاقة من أجساد الذين يميلون بطبعهم إلى الكسل، فإن ضربات من سياط الكلاب على ظهورهم تجعلهم يستردون طاقاتهم – وأحيانًا بصورة مسرفة". وعلى الرغم من أنه قبل ذلك الوقت بست سنوات فر ستانلى من البحرية الأمريكية؛ فإنه يذكر الآن باستحسان كيف أن "الفارين الذين لا سبيل إلى إصلاحهم ... كانوا يُجلدون ويُقيدون بالأغلال". ولعل سكان القرى التى كانت الحملة تمر خلالها كانوا يظنونهم قافلة أخرى من تجار الرقيق.

وعلى شاكلة الكثير من البيض الذين سيتبعونه، كان ستانلى يرى أن أفريقيا قارة خالية من السكان بصورة عامة. وكان يطلق عليها "القارة غير المسكونة". "أى مستعمرة يمكن أن يسعها هذا الوادى! انظر، إنه عريض بما يكفى لإعاشة عدد كبير من السكان. وتخيل برج كنيسة يرتفع بحيث يظلله إكليل أوراق شجرة التمر الهندى تلك، وفكر كيف يبدو جمال مجموعة أو مجموعتين من الأكواخ الجميلة مكان أشجار الشوك والصمغ تلك!"، ومرة أخرى: "لا يزال هناك المزيد من الآباء المؤسسين فى الجنس الأنجلوسكسونى، وعندما تمتلئ أمريكا وتكتظ بنسلهم، فمن ذا الذى يستطيع القول إن أفريقيا ... لن تكون محطة استقرارهم التالية؟".

وبدءًا من تلك الفترة وبالنسبة له ولجمهوره ارتبط مستقبل ستانلى بأفريقيا ارتباطًا وثيقًا. وعند عودته إلى أوروبا قارنت الصحف الفرنسية بين عثوره على ليفنجستون وعبور كل من هانيبال ونابليون لجبال الألب. بل لعل القصة الأكثر مناسبة لتفاخر ستانلى بقتل كل من يقف فى طريقه هى لقاؤه مع الجنرال وليم تكومسه شيرمان (William Tecumseh Sherman) على مائدة الإفطار فى باريس وتشبيهه لرحلته بمسيرته إلى البحر فى الأرض المحروقة فى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية.

أما البريطانيون فكانوا أكثر عدوانية. فقد كانت الجمعية الجغرافية الملكية قد أرسلت حملة متأخرة للعثور على ليفنجستون، وارتاع أعضاؤها عندما تقابلوا مع ستانلى وهو يهم بركوب سفينة فى طريق عودته منتصراً إلى الوطن. ويتضح بين سطور التصريحات الغاضبة من مسئولى الجمعية مدى سخطهم لكون واحد من أبناء وطنهم قد عثر عليه شخص لا هو مستكشف حقيقى ولا إنجليزى حقيقى، ولكنه كاتب بالقطعة فى الصحف الأمريكية الصفراء. وإضافة لذلك، لاحظ بعض الناس فى إنجلترا أن لكنة ستانلى الأمريكية تتغير إلى لكنة ويلزية كلما استثيرت أعصابه. وانزعج ستانلى كثيراً من الهمس حول مولده فى ويلز وأنه غير شرعى المولد، لأنه بكتابته فى صحيفة نيويوركية ذات نعرة قومية واتجاهات معادية للبريطانيين كان يدعى بشدة أنه ولد ونشأ فى أمريكا. (أحياناً كان يوحى بأنه نشأ فى نيويورك، وأحياناً فى سانت لويس. وأرسل مارك توين[٣] تهنئة إلى زميله من ميسورى لعثوره على ليفنجستون).

ووجد ستانلى نفسه منبوذاً، وبخاصة من الطبقة الراقية الإنجليزية، ثم من خطيبته. فقد اكتشف أن كيتى جوه - روبرتس قد تزوجت، فى أثناء ترحاله، من مهندس معمارى يدعى برادشو. واستمات ستانلى فى سبيل استرداد خطاباته التى كان قد أرسلها إليها وبخاصة ذلك الخطاب الذى حدثها فيه عن أصله ونشأته. غير أنه لما كتب إليها مطالباً بالخطابات رفضت أن تردها إلا إليه شخصياً. وفى أثناء إلقائه لمحاضرة فى مانشستر كانت هى وزوجها من بين الحاضرين. وبعد ذلك زارته فى المنزل الذى كان يقيم فيه وطلبت من الخادم أن يخبره بأن الخطابات معها. فأرسله ستانلى إلى الباب مرة أخرى كى يتسلمها منها؛ فرفضت أن تسلم الخطابات إلا إلى ستانلى شخصيا. وأبى ستانلى أن يذهب إلى الباب فانصرفت ومعها الخطابات. وبقيت كرامته المجروحة كجرح مفتوح. وقبل مرور وقت طويل كان فى طريقه إلى أفريقيا ينشد السلوان والعزاء.

---

(٣) مارك توين (١٨٣٥-١٩١٠) هو اسم الشهرة لساموييل لانجهورن كليمنس الكاتب الأمريكى الفكه. من أشهر أعماله مغامرات توم سوير (المترجم).

الفصل الثانى

الثعلب يعبر النهر

عندما وصلت الأنباء عبر أجهزة التلغراف بأن ستانلى عثر على ليفنجستون فى ربيع سنة ١٨٧٢، كان هناك شخص يتتبع مثل تلك الأنباء باهتمام شديد، وكان رجلاً طويل القامة مهيبًا فى السابعة والثلاثين من عمره وله لحية على شكل المجرفة ويعيش فى قصر ليكن (Laeken) المتنامى الأبعاد على تل منخفض يقع على أطراف مدينة بروكسل.

وقبلها بسبع سنوات، وبعد وفاة والده، ورث ليوبولد الثانى اللقب المتميز الذى عُرف به ملوك بلده وهو 'ملك البلجيكيين' (King of the Belgians). وكانت بلجيكا نفسها بالكاد أكبر سنًّا من ملكها الشاب. فبعد فترات من حكم الإسبان والنمساويين والفرنسيين والهولنديين استقلت بلجيكا سنة ١٨٣٠، فى أعقاب ثورة ضد هولندا. ومن البديهى أن كل بلد جدير بالاحترام لا بد له من ملك، وبحثت الأمة الوليدة عن ملك، لتستقر أخيراً على أمير ألمانى يمت بصلة قرابة للأسرة المالكة البريطانية، وتولى عرش بلجيكا باسم ليوبولد الأول.

كانت تلك الأمة الصغيرة مزيجًا غير مستقر من متحدثين بالفرنسية والفلمنكية، كما كان يُطلق آنذاك على اللغة الهولندية المتكلَّمة فى النصف الشمالى من بلجيكا. وفى بلاط أبيه كان ليوبولد الثانى يتحدث الفرنسية والألمانية منذ طفولته وسرعان ما أصبح يتقن الإنجليزية، ولم يزعج نفسه بتعلم الفلمنكية؛ رغم أنه كان يلقى بها بعض

جمل فى خطبه كل حين. ولم يكن ليوبولد متفرداً فى ذلك التعالى لأن الانقسام اللغوى المرير فى بلده فى ذلك الوقت كان يفرق ليس فقط بين إقليمين وإنما بين طبقتين أيضاً. وحتى فى الشمال درج رجال الأعمال والمهنيون على الحديث بالفرنسية وعلى النظر باستعلاء إلى طبقة عمال المزارع والمصانع المتحدثين بالفلمنكية.

وكان زواج والدى ليوبولد زواجاً بلا حب ولأسباب سياسية. وكان ابنهما الأكبر طفلاً مهزولاً ودائم المرض، وكان من الواضح أن أبويه يفضلان عليه أخاه الأصغر وأخته. ولما كان ليوبولد فى الرابعة عشر من عمره كتبت إليه أمه: "قلقت كثيراً عندما رأيت فى تقرير الكولونيل أنك صرت كسولاً بدرجة كبيرة مرة أخرى وأن تمارينك كانت سيئة وبإهمال. ولم يكن ذلك ما وعدتنى به، وآمل أن تبذل شيئًا من الجهد لكى تحسن من أدائك لواجباتك المدرسية. ولقد استاء والدك من هذا التقرير مثلما استأت أنا". ولم يبد الوريث الصغير إلا اهتمامًا ضئيلاً بدراسته، فيما عدا الجغرافيا وهو استثناء جدير بالذكر. وبداية من سن العاشرة بدأ يتلقى تدريبًا عسكرياً؛ ولما بلغ الخامسة عشر حصل على رتبة ملازم فى الجيش البلجيكى، ونقيب فى السادسة عشر، ورائد فى الثامنة عشر، وعقيد فى التاسعة عشر، ولما بلغ العشرين كان قد صار جنرالاً. وهناك صورة زيتية رسمية رُسمت له فى أواخر العقد الثانى من عمره تمثله متقلداً سيفًا ووشاحًا قرمزيًا وأوسمة. وكان جسد الفتى ليوبولد غير المتناسق يبدو رفيعًا مثل القلم الرصاص، ويبدو القصب الذهبى على أكتاف سترته كبيراً بالنسبة لكتفيه، ورأسه شديدة الضخامة بالنسبة إلى جسده.

وكان على ليوبولد إذا أراد أن يرى والده أن يتقدم بطلب كتابى لتحديد موعد للمقابلة. وإذا ما أراد الأب أن يقول شيئًا لولده فهو يبلغه بواسطة واحد من سكرتيريه. وفى ذلك المناخ البارد فى بلاط والده تعلم ليوبولد المراهق أن يحيط نفسه بشبكة من الأشخاص الذين كانوا يتوقون لكسب حظوة عنده. وكان مسئولو البلاط تواقين لأن يتصادقوا مع الملك المقبل، وأن يعرضوا عليه الوثائق، ويعلموه كيف تمارس الحكومة عملها، وأن يشبعوا شغفه بالخرائط والمعلومات عن أركان بعيدة من العالم.

وعلى الرغم من ضآلة العواطف بين الأب والابن؛ فإن الملك العجوز كان حاد الملاحظة، وقال لواحد من وزرائه: "ليوبولد حاد الذهن وماكر، وهو لا يحب المخاطرة. ذات يوم ... راقبت ثعلبًا يريد أن يعبر نهرًا خلسةً: فأول ما فعله أنه غمس مخلبًا بعناية كى يسبر غور الماء، ثم، ومع ألف احتياط، شرع فى العبور بمنتهى البطء. وهذا هو أسلوب ليوبولد". ولم يكن ليوبولد حذرًا على الدوام ففى بعض الأحيان كان يتجاوز مقدراته أو يكشف أكثر مما ينبغى عن الفريسة التى يريدها. ولكن كان هناك شىء شبيه بالثعالب فى سلوكه وهو يتحول من ملك دستورى لأمة تتزايد فيها الديمقراطية إلى حاكم دكتاتورى لإمبراطورية شاسعة فى قارة أخرى. وكانت أدواته التى يثق فيها هى التسلل خلسة والتظاهر، مثلما تعتمد الثعالب على تلك الصفات كى تبقى على قيد الحياة فى عالم يموج بالصيادين والحيوانات الأكبر حجمًا.

* * *

وفى سنة ١٨٥٣ وبينما ليوبولد يدلف إلى سن الثامنة عشر اصطحبه أبوه إلى فيينا، ولما كان الأب تواقًا إلى عقد صلات مع إمبراطورية النمسا والمجر فقد خطب له دوقة مناسبة من أسرة هابسبرج هى مارى - هنرييت.

ولم يكن هناك ما هو أكثر كارثية من تلك الزيجة. فالعروس بنت السادسة عشر كان أكثر ما تشتهر به هو عشقها للخيول وضحكاتها الخشنة غير الملكية. بينما كان لدى ليوبولد نزعة للوقوع من فوق صهوة الخيل، كما أنه لم يكن يملك حسا ملحوظا للدعابة والفكاهة. كان شابًا غليظ الطباع متعجرفًا وصفته الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا، وهى ابنة عمه من الدرجة الأولى، بأنه "غريب الأطوار وينزع لأن يقول للناس أشياءً كريهة". وكان لليوبولد، وأيامها كان يُعرف باسم دوق برابانت، هوس متحذلق بالأمور التجارية التى كان فهمها يستعصى على كل الناس. وفى فيينا علقت سيدة أن تلك الخطبة المحيرة كانت "بين صبى إسطبلات وراهبة، وأقصد بالراهبة الدوق برابانت".

ومن أول نظرة بغض ليوبولد وماري – هنرييت كلٌ الآخر، وهو شعور من الواضح أنه لم يتغير مطلقًا بعد ذلك. وتعقد كل شيء ممكن في موضوع الزواج. فقد أصيب ليوبولد بالحمى القرمزية. والقطار الذى حمل حاشية ملكية للترحيب بماري – هنرييت عند الحدود البلجيكية والمحدد توقيته بكل دقة تأخر نصف ساعة، لأن عامل تلغراف مراهق ترك موقعه كي يحضر حفلاً موسيقيًا أُقيم احتفالاً بهذا اليوم. وارتاعت حفلات استقبال مجالس المدن في كل أنحاء بلجيكا من ضحكة ماري – هنرييت التي تصلح لعاملة في مخازن الحبوب. وفي البندقية حيث قضيا شهر العسل أجهشت بالبكاء علانية عندما رفض ليوبولد أن يسمح لها بركوب جوندولا كان بحارتها وموسيقيوها قد استؤجِروا من قبل. وكان ليوبولد يقضي أيامًا بطولها لا يتحدث إليها. وبعد شهر من الزفاف كتبت لصديقة لها: "لو كان الرب يسمع صلواتي فإني لن أبقى على قيد الحياة أكثر من هذا".

ومن الجلى أن الزوجين الشابين وجدا أن العلاقة الزوجية الحميمة هي لغز مخيف، مثلهم في ذلك مثل كثير من الأزواج الشبان آنذاك. غير أنهم، على شاكلة أقلية مثلهم، تلقيا التنوير عن ذلك الأمر من السيدة التي أعطت اسمها للعصر. فعندما قاما بزيارة ابنة العم فيكتوريا في إنجلترا، أبدت الملكة بكياسة بعض الشكوك، في خطاب أرسلته إلى والد ليوبولد، عما إذا كان الزواج قد اكتمل. وانتحت بماري – هنرييت جانبًا وشرحت لها ما هو متوقع منها، كما فعل زوجها الأمير ألبرت نفس الشيء مع ملك المستقبل ابن الثامنة عشر. وقد تكون تلك هي المرة الأولى التي اهتم فيها أحد بذلك الأمر، لأن ماري – هنرييت عندما حملت، بعد ذلك بسنوات، كتب ليوبولد إلى ألبرت يخبره بأن "النصيحة الحكيمة والعملية التي أعطيتني إياها ... قد أثمرت". غير أن الزواج استمر زواجًا تعيسًا. وكانت ماري – هنرييت تهرب من قصر ليكن الملكي لكي تركب الخيل غالبية كل يوم. وكان على ليوبولد أن يجد العزاء لإحباطاته على مسرح أكثر اتساعًا.

وعندما كان يمعن الفكر في العرش الذى سيكون ملكه كان يبدى سخطه علانية. وقال مرة عن بلجيكا: "بلد صغير وأناس صغار". وكان البلد، وهو أصغر من نصف

مساحة فيرجينيا الغربية، يقع بين فرنسا نابوليون الثالث بحجمها الكبير والإمبراطورية الألمانية الصاعدة سريعًا. وكان الوريث الشاب يتصرف بغيظ ونفاذ صبر. فقد كان البلد الذى سوف يرثه أصغر من أن يتحمله.

واتجهت أنظاره إلى الخارج. وقبل أن يبلغ العشرين من العمر زار ليوبولد، حاملاً قلمًا ودفتر مذكرات، كلاً من البلقان والقسطنطينية وبحر إيجه ومصر، مسافراً فى أناقة مستقلاً سفنًا حربية بريطانية وتركية، وبعد العودة للوطن كان يلقى محاضرات مملة عن الدور المحتمل لبلجيكا فى التجارة العالمية. وفى كل مكان كان يذهب إليه كان يبحث عن فرص للاستعمار. فانتزع وعداً من خديوى مصر بتأسيس شركة ملاحة للسفن البخارية تربط بين الإسكندرية وأنتورب. وحاول شراء بحيرات فى دلتا النيل حتى يجففها ويطالب بأرضها كمستعمرات. وكتب يقول: "يستطيع المرء أن يشترى مملكة صغيرة فى الحبشة مقابل ٣٠٠٠٠ فرنك ... وإذا ما بحث البرلمان فى شئون تجارتنا بدلاً من الحديث المطوط عن الحياد لصارت بلجيكا واحدة من أغنى الأمم فى العالم".

* * *

وفى القرن التاسع عشر كانت أشبيلية، كما هى اليوم، تجمعًا رائعًا للنوافير والحدائق المسورة والأسقف ذات القرميد الأحمر والجدران المصيصية البيضاء والنوافذ المكسوة بالحديد المزخرف المشغول، ومليئة بأشجار البرتقال والليمون والنخيل. وتمتد فى المدينة شوارع ضيقة مرصوفة بأحجار البازلت وتموج بالزائرين الذين أتوا ليشاهدوا واحدة من أكبر الكاتدرائيات القوطية فى أوروبا.

وعندما زار ليوبولد، ذو الست والعشرين سنة، أشبيلية فى مارس سنة ١٨٦٢ لم يكن هدفه مشاهدة الكاتدرائية أو الفسيفساء الشهير وساحات قصر ألكازار ذات القرميد اللامع. وبدلاً من ذلك قضى شهراً كاملاً فى الكازا لونجا أو مبنى البورصة القديم، وهو مبنى مربع مهيب قبالة الكاتدرائية.

فلقرنين من الزمان كانت أشبيلية الميناء الذى يدخل منه إلى إسبانيا ذهب المستعمرات وفضتها وغير ذلك من الثروات؛ وقبل ثمانين سنة من زيارة ليوبولد أمر الملك كارلوس الثالث بأن تُجمع فى ذلك المبنى من كل أرجاء البلاد كل المراسيم وسجلات الدولة والبلاط والمراسلات والخرائط والرسومات الهندسية، المتعلقة بغزو إسبانيا للأمريكيتين. وتجمعت تحت سقف واحد ست وثمانون مليون صفحة مكتوبة بخط اليد، من بينها سجل المؤن لواحدة من سفن كولومبس، وبذلك صار الأرشيف العام لجزر الهند الغربية واحداً من أكبر المستودعات الوثائقية فى العالم. وعلى الرغم من عدم مبالاته بدراساته المدرسية وانعدام اهتمامه بالفنون والموسيقى أو الأدب، فإن ليوبولد مع ذلك كان تلميذاً مخلصاً فيما يتعلق بأمر واحد فقط، الأرباح. وفى أثناء الشهر الذى قضاه فى أشبيلية كتب إلى واحد من أصدقائه فى الوطن "أنا مشغول جداً بتصفح سجلات جزر الهند الغربية وحساب الأرباح التى حققتها إسبانيا من مستعمراتها". فالرجل الذى سوف تصبح إمبراطوريته المستقبلية متشابكة مع مؤسسات القرن العشرين متعددة الجنسيات بدأ بدراسة سجلات الفاتحين الإسبان.

وفتح البحث شهيته وجعله قلقًا. وادعى أن أطباءه قد وصفوا له رحلات بحرية طويلة فى المناخ الحار، وهربًا من حياته المنزلية التعيسة يمم شطر أماكن أبعد. وفى سنة ١٨٦٤، وقد بلغ التاسعة والعشرين من العمر وصار أكثر هوسًا بالمستعمرات، أبحر ليشاهد الممتلكات البريطانية فى سيلان والهند وبورما. كما زار أيضًا جزر الهند الشرقية التى تمتلكها، مسببة له ضيقًا، جارته المباشرة هولندا، التى لم يمنعها صغر حجمها من الاستحواذ على مستعمرات مجزية.

واشتد اهتمامه بجزر الهند الشرقية الهولندية بعد أن قرأ بحثًا من جزأين عنوانه "جاوه؛ أو كيف تدير مستعمرة". ولما فتنه الكتاب بدأ يتراسل مع مؤلفه، وهو محام إنجليزى يدعى ج. و. ب. مونى (J.W.B. Money) وهو اسم يتماشى مع اهتمامات ليوبولد. انبهر مونى بالبن والسكر وصبغة النيلة الزرقاء ومزارع الدخان فى جاوه، والتى غطت أرباحها تكاليف السكك الحديدية والقنوات فى هولندا. وإذا ما أخذنا فى اعتبارنا تصرفات ليوبولد اللاحقة نستطيع أن نخمن أى أجزاء فى الكتاب لفتت انتباهه.

فقد وصف مونى، على سبيل المثال، امتيازا تجاريا احتكاريا مُنح لشركة خاصة وكان ملك هولندا واحداً من كبار ملاك أسهمها. ولكى تُنشِّط الإنتاج كان ملاك المزارع الهولندية يدفعون منحًا للمشرفين فى جاوه ترتبط بحجم المحصول الذى يُحصد. وفى النهاية ذكر مونى أن الأرباح الهائلة من جاوه اعتمدت على عمالة السخرة. ووافقه ليوبولد على ذلك مقرراً: "إن عمالة السخرة هى الطريقة الوحيدة لتهذيب أولئك الكسالى والفاسدين من شعوب الشرق الأقصى والنهوض بهم".

ولم يتعاطف مع أحلام ليوبولد الاستعمارية إلا القليل من البلجيكيين. وقد منعتهم من ذلك اعتبارات عملية – مثل افتقار بلدهم لأسطول تجارى أو بحرى – مما اعتبره هو أموراً ثانوية. وعند عودته من واحدة من رحلاته قدم هدية لوزير المالية، وكان معارضًا عالى الصوت للاستعمار، هى قطعة رخام من خرائب معبد الأكروبوليس، تتدلى منها صورة ليوبولد محاطة بنقش يقول: "لا بد لبلجيكا أن يكون لها مستعمرة".

فأين يمكن أن يجد مثل تلك المستعمرة ؟ وخلال عشرينياته طاف العالم بحثًا عنها. وكتب إلى واحد من مساعديه:

> إنى مهتم بصفة خاصة بإقليم أنتر ريوس (Entre Rios) فى الأرجنتين وجزيرة مارتن جارسيا المتناهية الصغر عند التقاء نهرى الأوروجواى والبارانا. فمن يملك تلك الجزيرة ؟ وهل يستطيع أحد أن يشتريها؟ ويؤسس بها ميناء حرا تحت حماية ملك البلجيك ؟ ... فليس هناك ما هو أسهل من تملك أراضٍ فى المقاطعات الأرجنتينية مساحتها ثلاثة أو أربعة أمثال مساحة بلجيكا.

واستثمر أموالاً فى شركة قناة السويس. وطلب من أحد مساعديه أن يحاول الاستحواذ على فيجى، لأنه من الواجب "ألا يسمح المرء بإفلات مثل تلك الغنيمة الرائعة". وفكر فى السكك الحديدية فى البرازيل وفى استئجار أراضٍ فى جزيرة فورموزا.

ويبدو أن خطابات ومذكرات ليوبولد، وهى دائمًا تغرى شخصًا ما بالاستحواذ على مستعمرة، هى صوت شخص عانى فى طفولته من الحرمان من الحب وصار الآن

تسيطر عليه رغبات مفـرطة فى الحصـول على بديل عاطفى، مثلمـا ينغمس شـخص فى نزاع لا ينتهى مع أخ أو أخت حول ميراث، أو مع جـار له حول حدود ملكية. والرغبة فى الحصـول على المزيد يمكن أن تصـيـر نهمًا لا يشـبع، ويبـدو أن تنفـيذه لا ينتج عنه إلا تفاقم الشعور المبكر بالحرمان وشحذ الاحتياج للاستحواذ على المزيد.

وخلال القرن التاسع عشر تدافع الأوروبيون للحصـول على ممتلكات فى أفريقيا وآسيا، وبرر الناس الاستعمار بطرق شتى، مدعين أنه سيحول الوثنيين إلى اعتناق المسيحية أو يرتقى بالأجناس الهمجية أو يقنع الجميع بالمزايا السحرية للتجارة الحرة. والآن وفى حالة أفريقيا ظهر مسوغ جديد هو سحق تجارة الرقيق "العربية". غير أنه فى تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الشخص الذى سيصبح ليوبولد الثانى مستقبلاً لم يحاول أن يخفى طموحاته بمثل ذلك اللغو. فقـد كـان يرى أن المستعمـرات وُجدت لغرض واحد: هو أن تثريه هو وبلده. وكان يشكو لواحـد من نصـحائه: "إن بلجيكا لا تستغل العالم، فذلك طعم لا بد لنا من أن نجعلها تتذوقه".

ولم يكن ليوبولد يأبه ما إذا كانت الثروة الاستعمارية نتيجة المعادن الثمينة التى نشدها الإسبان فى جنوب أمريكا، أم من الزراعة، أم من مواد خام لم يكن أحد يحلم بإمكانياتها بعد، كما أثبتت الأيام فى حالته. وإنما كان كل ما يعنيه هو حجم الأرباح. غير أن دوافعه للحصول على مستعمرات لم يكن المال فقط وإنما السلطان أيضًا. فعلى أية حال، كان الزمن يتغير فى أوروبا الغربية ولم يكن الدور الذى يلعبه الملك أمرًا ممتعًا كما كان الحال من قبل. وكان أكثر ما يضايقه أن السلطة الملكية، فى بلجيكا وما يجاورها من أقطار، كانت تتراجع تدريجيا أمام سلطات البرلمان المنتخب. وحاول شخص ما أن يطرى على ليوبولد بقوله إنه: "يصلح لكى يكون رئيس جمهورية ممتازًا". فاستدار إلى جولز تريار طبيب البلاط المخلص قائلاً: "ماذا تقول يا دكتور إن حياك شخص بقوله 'إنك طبيب بيطرى رائع'؟" فحاكم مستعمرة ليس لديه برلمان يزعجه.

وبعد اعتلائه العرش سنة ١٨٦٥، كان ليوبولد أكثر توترًا عما قبل. وكتب عنه ماريشال فرنسى، شاهده فى حفل استقبال فى باريس سنة ١٨٦٧: "إنه مجاف للذوق

السليم بطوله الفارع وأنفه الضخمة ولحيته الهائلة، وسيفه الذى يحدث ضجة بارتطامه بساقه، فهو يبدو مثل موظف ارتدى حلته الرسمية دون أن يعرف كيف يرتديها". وكانت أنفـه تلفت أنظار كل الناس، وكتب عنه دزرائيلى (Disraeli) رئيس الوزراء البريطانى "إنها أنف لأمير شاب فى إحدى قصص الجنيات وحلت عليها لعنة جنية شريرة".

وفى المنزل سارت الحياة من سيئ إلى أسوأ. ففى سنة ١٨٦٩ سقط ابن الملك، وكان فى التاسعة من عمره، فى بركة ماء وأصيب بالتهاب رئوى ومات. وفى الجنازة، وللمرة الوحيدة فى حياته، انهار ليوبولد أمام الملأ وجثا على ركبتيه أمام التابوت وأخذ يبكى دون سيطرة. إلا أنه كان حاضر الذهن ليطلب من البرلمان أن يوافق على أن الدولة تدفع نفقات الجنازة الملكية.

ومما ضاعف من حجم كارثة فقدانه لابنه الوحيد هو إيمان الملك إيمانًا مطلقًا بأن العروش والممتلكات الملكية للرجال فقط. غير أن الملكة مارى - هنرييت فى زواجهما أنجبت ثلاث بنات، لويز وستيفانى وكليمانتين، ولكنها لم تنجب صبيا آخر. ولما وُلدت البنت الأخيرة كليمانتين، وطبقًا لأقوال أختها لويز، "كان الملك غاضبًا، ومنذ تلك اللحظة رفض أن تكون له أية علاقة بزوجته الرائعة". وكتبت تقول: "منذ البداية لم يبد الملك إلا اهتمامًا ضئيلاً بى وبأخواتى". وحاول ليوبولد دون نجاح أن يستثنى نفسه من قانون بلجيكى يحتم توريث الممتلكات للأبناء.

ووجدت مارى - هنرييت العزاء فى خيولها المحبوبة التى كانت تدربها بنفسها. وشاهدت الأميرة لويز ذات مرة حصانًا يدخل قصر ليكن، مطيعًا أوامر الملكة، ويصعد السلالم إلى حجرة الملكة ثم ينزل. وصادقت مارى - هنرييت وزير الحرب، وفى المناورات، ولدهشة الملحقين العسكريين، كان أحيانًا يدعوها لكى تقود هجوم الخيالة.

ولما كان لم يعثر بعد على مستعمرة يحكمها فقد ركز ليوبولد جهوده على مشاريع البناء فى الوطن. وكان يعشق النصب التذكارية والمتنزهات الكبيرة والشوارع العريضة والقصور الكبيرة. فعقب توليه العرش مباشرة شرع فى تنفيذ ما تبين أنه مشروع يستغرق عمرًا لعمل تجديدات فى قصر ليكن. فوسَّع من مساحة الضيعة الملكية عدة

أضعاف من خلال شراء الأراضى والمصادرة. وعندما رفض أحد السكان المحليين أن يترك مكانه أمر ليوبولد ببناء جسر من الطين حول ضيعة الرافض. ومن بين المبانى الجديدة فى ليكن كانت مجموعة من الصوبات الزجاجية. وعندما انتهى بناؤها كان المرء يستطيع أن يتمشى لمسافة تربو على الكيلومتر خلال الصوبات والقصر والممرات المتصلة دون أن يخرج من المكان. وفى السنوات التالية، وعندما كان الملك يرى ابن أخيه الأمير ألبرت بعض المبانى تحت الإنشاء ، قال ألبرت: "يا عمى، إنها سوف تكون فرساى الصغيرة!" فأجاب ليوبولد: "صغيرة؟".

* * *

لو كان ليوبولد شخصية خيالية من شخصيات الأدب القصصى فإن المؤلف، عند هذه النقطة من القصة، كان سيُدخل شخصية ثانوية يبدو وكأن مصيرها يحمل نذير شؤم عما يمكن أن تؤدى إليه أحلامٌ بإمبراطورية. غير أن ليوبولد كان لديه بالفعل مثل تلك الشخصية فى حياته، وهى أكثر مناسبة للدور من أى شخصية يمكن لمؤلف أن يبتكرها. تلك كانت أخته.

كانت الأسرة المالكة البلجيكية تواقة دائمًا لتكوين أحلاف مع أسرة هابسبرج، فزوجت شارلوت أخت ليوبولد الصغرى للأرشيدوق مكسيميليان شقيق إمبراطور النمسا والمجر. وفى سنة ١٨٦٤ كان مكسيميليان وزوجته، التى تغير اسمها إلى كارلوتا بما يتناسب مع النطق باللغة الألمانية، قد نصبهما الإمبراطور نابوليون الثالث كإمبراطور وإمبراطورة صوريين على المكسيك حيث كان نابوليون يناور ليؤسس نظام حكم متحالف مع فرنسا. وأيد ليوبولد بحماس مغامرة شقيقته لبناء إمبراطورية. وحيا الرأى العام الأوروبى الشابين الوسيمين وهما فى طريقهما كى يتبوآ عرش مملكتهما الجديدة، وصورهما بوصفهما يسيران على نفس خطى الفاتحين الإسبان. ومن البديهى أن غالبية المكسيكيين لم يكونوا يريدون ملوكًا يُفرضون عليهم فقاموا بثورة. وانهارت الإمبراطورية الناشئة، وفى يونيو من سنة ١٨٦٧ قبض الثوار على مكسميليان وأعدموه.

ولم يكن موته رائعًا لكنه لم يخل من الفخامة أيضًا، فقد تصافح مع أعضاء فرقة الإعدام بالرصاص ومنحهم كل ما معه من قطع ذهبية وأشار إلى قلبه وقال لهم: "صوبوا بدقة".

وفى السنة السابقة كانت كارلوتا قد عادت إلى أوروبا لطلب النجدة لنظام حكم زوجها الآيل للسقوط. ولم يكن نابوليون الثالث راغبًا فى تعزيز طموحاته المكسيكية بالقوة العسكرية اللازمة، وعلى هذا توجهت كارلوتا إلى روما كى تنشد المساعدة من البابا. وفى طريقها بدأت تتصرف بغرابة. ومما لا شك فيه أن الطب النفسى الحديث لديه تشخيص دقيق لتلك الحالة، ولكن يبدو أن لغة عصر كارلوتا كانت أكثر ملاءمة: إن كارلوتا قد أصيبت بالجنون. فقد صارت مقتنعة بأن موسيقيًا متجولاً يدير أرغنًا نقالاً فى الطريق هو كولونيل مكسيكى متخفى، وأن جواسيس من كل نوع يحاولون دس السم لها. وكإجراء وقائى لم تكن تأكل إلا البرتقال والبندق، وتدقق النظر فى قشر البرتقال وقشر البندق بحثًا عن أدلة على العبث بها. وجعلت سائق مركبتها يتوقف عند ينبوع ريفى بروما لتملأ دورقًا من مياه هى متأكدة أنها غير مسممة. وفى جناحها بالفندق احتفظت بفرن فحمىٍ صغير وربطت بضع دجاجات فى قائمة مائدة الطعام لا تُذبح وتُطبخ إلا فى وجودها وتحت عينيها. ومع يأس خدمها المطيعين امتلأت غرفتها تدريجياً بالريش وروث الدجاج.

وذات صباح اقتحمت كارلوتا غرفة البابا وهى محتقنة الوجه وباكية وهو ينهى إفطاره. ودبت أصابعها فى كوب الشيكولاته الساخنة ولعقتها بنهم وهى تصيح: "على الأقل هذا ليس مسمومًا. فكل شىء أعطوه لى كان مسمومًا وأنا أكاد أموت جوعًا، حرفيًا أموت من الجوع!". وتمكن كاردينال وقائد الحرس البابوى من إخراجها من الغرفة، وأعطت كارلوتا إلى قائد الحرس قائمة بأسماء حاشيتها الذين يتوجب اعتقالهم للخيانة.

وأرسل مساعدو كارلوتا برقية عاجلة إلى ليوبولد فى بروكسل. ولما كان لا يرغب فى أن تستمر أخته فى التجول فى أنحاء أوروبا وهى بهذه الحالة فقد زج بها ومعها

حراسها فى سلسلة من القصور البلجيكية، بعيداً عن أعين الجمهور. ولم يتسن لها الظهور بعد ذلك مطلقًا فى أماكن عامة. وخوفًا من تفاقم حالتها أكثر من ذلك، لم يجرؤ أحد لعدة أشهر على إخبارها بإعدام مكسميليان؛ ولما عرفت بذلك فى النهاية رفضت كارلوتا تصديقهم. واستمرت فى إرسال الخطابات والهدايا مؤمنة بأنه سريعًا سوف يصير إمبراطوراً على فرنسا وإسبانيا والبرتغال.

ولم يتأثر حماس ليوبولد لإمبراطوريته بالانهيار السريع لأخته وإمبراطورية زوج أخته. ورأى فى كل ما حوله علامات نشاط عصر جديد من الاستعمار؛ وكان ذلك هو العصر الذى قال فيه سيسيل رودس السياسى الجنوب أفريقى مستقبلاً وقطب الماس: "إنى سأستعمر الكواكب لو تمكنت". وفى سنة ١٨٧٥ حاول ليوبولد شراء الفلبين من إسبانيا لكن مسعاه خاب مرة أخرى. وفى نفس السنة كتب لواحد من موظفيه: "فى الوقت الحالى لا الإسبان ولا البرتغاليون ولا الهولنديون يريدون البيع. ولكنى سأحاول فى الخفاء أن أعرف ما إذا كان من الممكن فعل شىء فى أفريقيا".

* * *

فى منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر كانت أفريقيا فيما تحت الصحراء مكانا منطقيا يبحث فيه الطامحون للاستعمار. وكان البريطانيون والبوير يسيطرون على جنوب أفريقيا وادعت البرتغال الضعيفة ملكية الغالبية العظمى من مملكة الكونجو إضافة إلى موزمبيق على الساحل الشرقى. وعلى طول النتوء الأفريقى الغربى العظيم تملكت كل من البرتغال وإسبانيا وبريطانيا وفرنسا بضعة جزر وجيوباً صغيرة من الأراضى. وفيما عدا ذلك كان نحو ٨٠ فى المئة من كل أراضى أفريقيا لا يزال تحت حكم حكام وطنيين. وكانت ناضجة للغزو - أو كما تعلم ليوبولد الآن أن يقول، للحماية.

وتصفح ليوبولد بعناية مجلة الجمعية الملكية الجغرافية (Proceedings of the Royal Geographical Society) بحثًا عن معلومات عن القارة وتتبع بدقة رحلات المستكشفين البيض ومساراتها. وجمع ملفًا هائلاً من المذكرات، بخط يكاد يكون غير

مقروء. وعندما جاءت الأنباء سنة ١٨٧٥ بأن المستكشف الاسكتلندى فيرنى لوفيت كاميرون (Verney Lovett Cameron)، وكان على وشك أن يصبح أول أوروبى يعبر القارة من الشرق إلى الغرب، قد قاربت أمواله على النفاد، أسرع ليوبولد بمده بمبلغ مئة ألف فرنك. وتبين فيما بعد أنه لا يحتاج إلى المال، ولكن تصرف الملك جعل منه راعيًا للاستكشاف الأفريقى.

وفى ذلك الوقت كان هنرى مورتون ستانلى فى منتصف حملة أخرى فى أفريقيا. وكان قد شد الرحال سنة ١٨٧٤، ومعه القافلة المعتادة الهائلة الحجم والمكونة من حراس وحمالين، من الساحل الشرقى إلى الداخل متجهًا إلى أكبر بقعة بيضاء على الخريطة وهى القلب الاستوائى للقارة والذى لم تطأه قدم أوروبية بعد. وفى طريقه خطط لأن يرسم خريطة لعدد من البحيرات الأفريقية الشرقية الكبيرة ثم يواصل تقدمه بحثًا عن نهر كبير إلى الغرب من تلك البحيرات قد يكون بداية نهر النيل أو نهر الكونجو. وبينما كان لا يزال على مقربة من الساحل عاد رسل ستانلى ببرقياته المرسلة للصحف؛ ثم لم يُسمع منه شىء بعد ذلك.

ورأى ليوبولد أن ليفنجستون وستانلى وغيرهما قد نجحوا فى إثارة الأوروبيين بحديثهم عن تجار العبيد من "العرب" وهم يقودون قوافل حزينة بها أسرى مقيدون بالأغلال إلى الساحل الشرقى. وكملك لدولة صغيرة وليس لأهلها اهتمام بالمستعمرات، فإنه أدرك أن اندفاعًا استعماريًا خاصًا به لا بد له من غطاء إنسانى يتخفى وراءه. فمنْع تجارة الرقيق، والنهوض الأخلاقى، وتقدم العلم هى الأهداف التى يجب أن يتحدث عنها لا الأرباح. وفى سنة ١٨٧٦ شرع فى التخطيط لتأسيس صورته كمحسن محب للخير وتخدم طموحاته الأفريقية: فقرر أن يستضيف مؤتمرًا للمستكشفين والجغرافيين.

فأرسل مبعوثًا موثوقًا به إلى برلين كى يغرى الألمان بالمشاركة بينما تسلل بنفسه عبر القنال الإنجليزى إلى لندن وأقام فى جناح فى فندق كلاريدج. وفى تلك الآونة كان قد صار أبعد ما يكون عن الشاب الغرير الساذج الذى زار الملكة فيكتوريا فى شهر عسله قبلها بأكثر من عشرين سنة. ونشاهده اليوم يتجول فى لندن وقد بانت عليه لأول مرة

فى حياته مظاهر الصقل والكياسة وصار عالمىَّ التفكير، ويسير فى دعة وهدوء وهو ذو عزم هادف. ويتحرك فى إطار غالبيته من الرجال، لكنه يتذكر أسماء زوجاتهم وأطفالهم ودائمًا ما يسأل عنهم بحرارة. وهو يخفى إحباطاته وشبقه الفج للمستعمرات وقد خفف منها بإدراكه أن عليه الاعتماد على الحيلة والمداهنة. وهو يقوم بزيارة لابنة العم العزيزة فيكتوريا فى قلعة بالمورال بإسكتلندا، ويتناول العشاء مرتين مع ابنها أمير ويلز ويزور الجغرافيين اللامعين ورجالاً عسكريين. وبحركة ماكرة يذهب أيضًا لتناول الغداء مع البارونة أنجيلا بيرديت - كوتس (Baroness Angela Burdett-Coutts)، وهى راعية معروفة للبعثات التبشيرية. وأهم شىء أنه يتقابل مع المستكشف كاميرون، الذى عاد حديثًا من عبور أفريقيا، ويسأله بدقة واهتمام عن رحلاته. ويجد ليوبولد أن البريطانيين يبدون اهتمامًا ضئيلاً بالأقاليم الشاسعة التى استكشفها كاميرون لتوه مما يكون مدعاة لسروره. وغالبية تلك الأقاليم يُعتقد أنها تقع فى حوض نهر الكونجو، رغم أن كاميرون نفسه قد سافر إلى الجنوب من النهر كثيراً، ولا يزال، مثله مثل كل الأوروبيين، يجهل كل شىء عن مسار النهر. تلك هى الأراضى التى سوف تصير موضع اهتمام الملك وهدف رغباته.

وانعقد مؤتمر ليوبولد للجغرافيين فى بروكسل فى سبتمبر سنة ١٨٧٦، وفى التعليمات التى أعطاها ليوبولد لمعاونيه لم تفته أية تفاصيل فى البروتوكول مهما ضَؤُل شأنها. فشدد على النطق الصحيح للألقاب التى يحملها الزوار وكتابتها بتهجئة صحيحة بعد الأسماء. وأرسل سفينة بلجيكية عبر القنال إلى دوفر لإحضار الضيوف البريطانيين، ودبر قطاراً سريعًا خاصا يحملهم بقية الطريق. وأصدر أوامره بأن يمروا سريعًا عبر الحدود دون أن يتعرضوا لإجراءات رسميات الحدود والجمارك. وكان ليوبولد يستقبل القادمين من الدول الأوروبية الرئيسية بالتحيات اللائقة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية.

وضمت القائمة ثلاثة عشر بلجيكيًا وأربعة وعشرين أجنبيًا، وكان من بينهم مشاهير المستكشفين مثل الماركيز دى كومبينى (Marquis de Compiegne) الفرنسى الذى استكشف أعالى نهر أوجو (Ogowe) فى الجابون، وجيرهارد رولف (Gerhard Rohlfs)

الألمانى الذى ختن نفسه ليدعى أنه مسلم كى يتمكن من عبور مناطق نائية فى الصحراء الكبرى؛ ومنهم الجغرافيون مثل البارون فرديناند فون ريتشهوفن (Baron Ferdinand von Richthofen) رئيس جمعية برلين الجغرافية، وأشخاص من محبى الخير والإنسانية مثل السير توماس فاول بكستون (Sir Thomas Fowell Buxton) رئيس الجمعية البريطانية لمكافحة تجارة الرقيق، والسير جون كيناواى (Sir John Kennaway) رئيس الجمعية التبشيرية الكنسية، ومنهم رجال أعمال مثل وليم ماكينون (William Mackinnon) من خط الهند الملاحى البريطانى، وعسكريون مثل الرير أدميرال السير ليوبولد هيث الإنجليزى (Rear Admiral Sir Leopold Heath) الذى ترأس حملة البحرية الملكية فى المحيط الهندى لمكافحة تجارة الرقيق، والفيس أدميرال البارون دى لا رونسيير – لو – نورى (Vice Admiral Baron de la Ronciere-le-Noury) رئيس جمعية باريس الجغرافية. ولم يحدث فى القرن التاسع عشر أن تجمع فى مكان واحد مثل ذلك العدد من الشخصيات الأوروبية البارزة فى مجال الاستكشاف، وسُر الضيوف عندما تعارفوا سويًا فى الجو الفخم للقصر الملكى. وكان ستانلى هو الشخصية الأوروبية البارزة ذات الاهتمام بأفريقيا الوحيدة التى لم تحضر، والتى اعترف المؤتمر بإنجازاته فى قرار رسمى. وكان الجميع يأملون أنه ما زال حيًا فى مكان ما فى وسط القارة، فقد انقطعت أخباره منذ شهور.

وكان ليوبولد يدرك أنه حتى الأثرياء وعلية القوم يسعدهم الإقامة فى قصر. والمشكلة الوحيدة كانت فى أن القصر الملكى فى وسط مدينة بروكسل كان فى حقيقة أمره مكتب الملك، بينما تقيم الأسرة الملكية فى قصر ليكن فى ضواحى المدينة. وهكذا وفى عجالة تحولت أجنحة ومكاتب موظفى القصر إلى غرف نوم للضيوف. ولكى يتسع المكان للزوار نام بعض الخدم داخل دواليب البياضات ونُقلت المكاتب والكتب والدواليب إلى البدرومات أو الإسطبلات. وفى يوم الافتتاح تجمع مشاركو المؤتمر المبهورون على درجات سلم كبير من طراز الباروك الزخرفى مصنوع من الرخام الأبيض ليستقبلهم ليوبولد فى حجرة العرش مضاءة بسبع آلاف شمعة. ومنح الملك وسام صليب ليوبولد لكل من دعاهم. وكتب الميجور جنرال السير هنرى رولينسون من الجمعية الملكية

الجغرافية إلى زوجته فى أول ليلة: "إنى أقيم فى جناح مكون من مجموعة من الشقق مخصص لى فقط - وكلها من الدمقس القرمزى والذهب. وكل شىء أحمر اللون حتى الحبر والذخيرة [أوراق التواليت]!".

وكانت خطبة ليوبولد الترحيبية قطعة أدبية رائعة. وعبرت عن المشروع ببلاغة رفيعة، وتدعم دوره الشخصى فيما هو آت، وتضمن لمشروعه خاتم موافقة المجموعة التى استضافها.

> "إن فتح الجزء الوحيد من كرتنا الأرضية الذى لم يُخترق بعد أمام الحضارة، واختراق الظلمات التى تخيم على شعوب بأكملها، هو، وأجرؤ على القول، حملة صليبية يستحقها هذا القرن قرن التقدم ... ويبدو لى أن بلجيكا، وهى دولة وسطية الموقع وبلد محايد، ستكون مكانًا مناسبًا لمثل هذا الاجتماع ... هل أحتاج لأن أقول إنى بدعوتكم إلى بروكسل لم أكن مدفوعًا بالأنانية ؟ لا أيها السادة، فبلجيكا قد تكون بلدًا صغيرًا غير أنها سعيدة وراضية بمصيرها، وليس لدى أية طموحات سوى أن أخدمها جيدًا".

وأنهى خطابه بتعداد المهام المحددة التى يأمل فى أن يحققها المؤتمر، ومنها تحديد "مواقع الطرق التى تُفتح تباعًا إلى الداخل، وإنشاء قواعد مضيافة وعلمية وللتهدئة كوسيلة للقضاء على تجارة الرقيق، ونشر السلام بين رؤساء القبائل، وحصولهم على تحكيم عادل وغير منحاز".

وفيما بين الولائم الدسمة أخرج المؤتمرون خرائطهم ووضعوا علامات فى الفراغ الأبيض فى وسط أفريقيا تُنشأ فيها مثل تلك "القواعد المضيافة العلمية وللتهدئة." وقرر الضيوف ذوو العقول الراجحة أن يعمل فيها نحو ستة أوروبيين غير مسلحين من العلماء واللغويين والحرفيين الذين سوف يتولون تعليم السكان الوطنيين المهارات العملية. وكل موقع سيحوى معامل لدراسة التربة المحلية والطقس والحيوانات والنباتات، ومخزونًا من المؤن للمستكشفين: من خرائط وبضائع للاتجار وملابس إضافية وأدوات لإصلاح الأجهزة العلمية، وعيادة طبية بها أحدث الأدوية.

وترأس المؤتمر الجغرافى الروسى بيوتر سمينوف (Pyotr Semenov) - فقد جلس ليوبولد فى الخلفية فى تواضع. ولما كان سمينوف قد استكشف جبال تيان شان فى أواسط آسيا فى رحلة جسورة فقد منحه قيصر روسيا الحق فى إضافة تيان - شان إلى اسمه. غير أن سمينوف كان لا يكاد يفقه شيئًا عن أفريقيا - الأمر الذى ناسب ليوبولد تمامًا. فكان بمقدوره بمنتهى السهولة خداع سمينوف بحيث تنتشر سلسلة القواعد التى قررها المؤتمر عبر أقاليم حوض نهر الكونجو التى لم يدّع ملكيتها أحد وهى التى كانت موضع الاهتمام الشديد من ليوبولد. وكان المشاركون البريطانيون قد حاولوا أن توضع بعض تلك القواعد أقرب إلى الممتلكات البريطانية.

وقبل أن يتفرق المشاركون فى المؤتمر عائدين إلى أوطانهم المختلفة صوتوا على تأسيس الاتحاد الدولى الأفريقى. وتبرع ليوبولد بكل شهامة بمساحة من الأرض فى بروكسل لإنشاء مقر للاتحاد. وكان من المقرر أن تنشئ كل دولة لجنة للاتحاد خاصة بها فضلاً عن إنشاء لجنة دولية. وانتُخِب ليوبولد بالتصويت أول رئيس للجنة الدولية. وأعلن ليوبولد - من قبيل إنكار الذات - أنه سوف يتولى تلك المهمة لعام واحد فقط بحيث يتناوب أشخاص من دول مختلفة على الرئاسة. وأهدى كل ضيف صورة له بالرداء الرسمى فى إطار ذهبى، وانصرفت الشخصيات الرفيعة المبهورة والمستكشفون عائدين إلى أوطانهم.

ونال الكيان الجديد ترحيبًا من كل أنحاء أوروبا. وتسابقت الشخصيات البارزة، من آل روتشيلد إلى الفيكونت فرديناند دى ليسبس بانى قناة السويس، لإرسال التبرعات. وتقرر أن يترأس اللجان القومية، التى بدت أمرًا مهيبًا، دوقات وأمراء وغيرهما من الشخصيات الملكية، غير أن غالبية تلك اللجان لم تر النور. أما اللجنة الدولية فاجتمعت مرة واحدة فى العام التالى، وأعادت انتخاب ليوبولد للرئاسة، رغم تعهده السابق بعدم إعادة ترشيح نفسه، ثم تبخرت.

وعلى الرغم من ذلك، فإن ليوبولد، على طريقة الثعلب، قد قطع خطوة واحدة إلى الأمام. فقد تعلم من محاولاته العديدة لشراء مستعمرة أنه ليست هناك مستعمرات للبيع؛

وعليه أن يغزوها بنفسه. ولو فعل ذلك بشكل صريح فسوف يثير غضب الشعب البلجيكى القوى الكبرى فى أوروبا. فإذا ما أراد أن يضع يديه على أى شىء فى أفريقيا فوسيلته الوحيدة هى أن يقنع كل الناس أن اهتماماته خيرية وإنسانية صرفة. وفى إطار هذا الهدف نجح نجاحًا باهرًا. وأعلن الفيكونت دى ليسبس، على سبيل المثال، أن مشروع ليوبولد هو "أعظم عمل إنسانى فى ذلك العصر".

فإذا ما رجعنا خطوة واحدة إلى الوراء ونظرنا إلى ليوبولد فى تلك اللحظة فإننا نستطيع أن نتصوره النظير السياسى لمنتج مسرحى طموح. فلديه المواهب التنظيمية والنوايا الحسنة للرأى العام، كما أثبتها المؤتمر الجغرافى. كما أنه يمتلك نوعًا خاصًا من رأس المال وهو التأثير الإعلامى للعرش ذاته. ولديه نص: الحلم بمستعمرة، الذى كان يدور فى رأسه منذ سن المراهقة. غير أنه لم يكن يملك مسرحًا ولا ممثلين. إلا أنه فى يوم من أيام سبتمبر ١٨٧٧ وبينما الملك - المنتج يخطط لخطوته التالية، نشرت صحيفة ديلى تلجراف اللندنية خبرًا واردًا من بلدة صغيرة على الساحل الغربى لأفريقيا تعلن أنباء رائعة. وكانت تلك هى الافتتاحية التى كان ينتظرها ليوبولد. والآن هناك مسرح ونجم ظهرا ويمكن بدء عرض المسرحية.

الفصل الثالث

الكعكة الرائعة

تقع مدينة بوما على الشاطئ الشمالى لنهر الكونجو، على مبعدة ما يقرب من خمسين ميلاً من المحيط الأطلنطى. ويعيش فيها، بجوار سكانها الأفريقيين، ستة عشر من البيض غالبيتهم من البرتغاليين - وهم رجال خشنو الطباع يجيدون استخدام السياط والبنادق - ويديرون عدداً محدوداً من المراكز التجارية الصغيرة. وعلى شاكلة الأوروبيين من قبلهم بعدة قرون، لم يسبق لهؤلاء التجار أن توغلوا فى داخلية البلاد عبر الصخور المنيعة التى تحف جانبى النهر العظيم الهائج لمسافة ٢٢٠ ميلاً من الشلالات المتقطعة حتى مستوى سطح البحر.

وفى ٥ أغسطس ١٨٧٧، وبعد غروب الشمس بساعة، خرج أربعة من السود الموحلين من أعماق الغابة فى بوما. وكانوا آتين من قرية على مسيرة يومين ويحملون خطاباً معنوناً "إلى أى شخص يتحدث الإنجليزية فى إمبوما".

"سيدى

وصلت إلى هذا المكان من زنزيبار ومعى ١١٥ شخصاً من الرجال والنساء والأطفال. ونحن على وشك الموت جوعاً ... ولكن إذا وصلتنى مؤنكم فى وقت مناسب فقد أتمكن من الوصول إلى إمبوما خلال أربعة أيام ... وأفضل شىء أريده هو عشر أو خمس عشرة حمولة رجال من الأرز أو الحبوب ... ولا بد أن تصل المؤن خلال يومين، وإلا مات الكثيرون ... المخلص، هـ. م. ستانلى، رئيس البعثة البريطانية الأمريكية لاستكشاف أفريقيا".

وفى فجر اليوم التالى أعاد التجار حمالى ستانلى وهم يحملون بطاطس وأسماكًا وأرزًا وطعامًا معلبًا. وأدركوا فى التو ماذا يعنيه الخطاب: أن ستانلى قد عبر القارة الأفريقية بأكملها من الشرق إلى الغرب. ولكنه، بخلاف فيرنى لوفيت كاميرون الأوروبى الوحيد الذى فعل ذلك من قبله، تمكن من الوصول إلى مصب نهر الكونجو. فلا بد أنه تتبع النهر نفسه، وبذلك أصبح أول رجل أبيض يحدد مسار النهر على الخريطة ويحل لغز منبعه.

وبعد أن تزود ستانلى ومن معه من المنهكين الباقين على قيد الحياة بالمؤن فى الوقت المناسب استأنفوا السير إلى بوما. ومنذ مغادرتهم زنزيبار قبالة الساحل الشرقى كانوا يتتبعون مسارًا متعرجًا لما يربو على سبعة آلاف ميل وكانوا يرتحلون منذ ما يزيد على عامين ونصف عام.

وكان ستانلى الذى يدعى أنه مواطن من مواليد الولايات المتحدة، هو البريطانى والأمريكى فى تلك البعثة الأنجلوأمريكية. غير أن ذلك الاسم يعترف بأن تلك البعثة، التى زادت تكاليفها وطموحاتها كثيرًا عن بعثة بحثه عن ليفنجستون، كانت ممولة من قبَل كل من جيمس جوردون بنِت من صحيفة نيويورك هيرالد وإدوارد ليفى لوسون من الصحيفة اللندنية الديلى تلجراف. فكانت رسائله تُنشر فى كلتا الصحيفتين، وأطلق ستانلى أسماء مالكى الصحيفتين فى طريقه عبر أفريقيا: جبل جوردون بنت، نهر جوردون بنت، تلال ليفى، جبل لوسون. وترك اسمه على مساقط ستانلى فى قلب القارة وعلى بقعة تقع على بعد نحو ألف ميلٍ على مسيرة النهر عند بداية الشلالات، حيث يتسع نهر الكونجو ويتحول إلى بحيرة. وادعى أن إطلاق اسمه على تلك البقعة كان اقتراحًا من مساعده فرانك بوكوك الذى "صاح لم لا نطلق على هذا المتسَّع اسم بحيرة ستانلى!" ولم يتمكن بوكوك من تأكيد ذلك؛ فقد غرق فى النهر فى أعقاب إطلاقه ذلك الاسم وربما قبل ذلك.

وقبيل تلك الرحلة المرعبة عبر أفريقيا كان ستانلى قد وقع فى الحب، وكانت فى هذه المرة أليس بايك وهى وارثة أمريكية فى السابعة عشرة من عمرها. ولم يكن السقوط

فى حب مراهقة عمرها نصف عمره قبل أن يغادر فى رحلة استغرقت ثلاث سنوات من الأمور التى من الممكن أن تتحول إلى زيجة مباركة، وربما كان ذلك هو ما اجتذب ستانلى الذى ظل خائفًا من النساء. واتفق مع أليس على أن يتزوجا بعد عودته، ووقعا اتفاق زواج حددا فيه تاريخ الزفاف.

وكان بعد ذلك الحب الجديد أن ستانلى أطلق على الوسيلة الرئيسية لانتقال البعثة اسم 'ليدى أليس'. وكانت 'ليدى أليس' زورقًا طوله أربعون قدمًا من خشب الأرز الإسبانى ومقسمة إلى خمسة أقسام. وعندما تُربط الأقسام سويا يمكن استخدامها فى التجديف فى البحيرات والأنهار الأفريقية؛ وعندما تُفك يمكن للحمالين أن يحملوها برًا لمئات الأميال.

ولم يكن ستانلى يحس بالارتياح لأى شخص تطغى مواهبه على مواهبه هو. فمن بين الألف ومئتى شخص الذين تقدموا للمشاركة فى البعثة اختار ثلاثة مرافقين غير أكفاء: زوج من البحارة الصيادين وهم الأخوان فرانك وإدوارد بوكوك، وموظف فنادق شاب يدعى فردريك باركر. ويبدو أن موهبة إدوارد بوكوك الوحيدة كانت النفخ فى البوق. ولم يكن لدى أى من الثلاثة خبرات بالاستكشاف.

وعندما سار الرجال البيض الأربعة غربًا إلى داخل القارة على رأس البعثة الأنجلوأمريكية كانوا يقودون بعثة قوامها يكاد يصل إلى ضعف حجم بعثة ستانلى للعثور على ليفنجستون، فقد وصل عدد أفرادها إلى ٣٥٦، وكان من بينهم ٤٦ امرأة وطفلاً، فقد حاز بعض كبار الأفارقة على مزية اصطحاب عائلاتهم. وحمل هذا الجيش الصغير ما يربو على ١٦ ألف رطل من الأسلحة والمعدات والبضائع التى يمكن مقايضتها بالطعام فى أثناء الطريق. وفى أثناء السير كان الطابور يمتد نصف ميل، وهى مسافة من الطول بحيث استدعت أن تُرسَل أوامر التوقف بواسطة النفخ فى النفير من قبل إدوارد بوكوك.

كان النداء بالنفير مناسبًا؛ لأنه بالنسبة لستانلى كان القتال المستمر جزءًا من الاستكشاف. ولم يكن يعبأ بعدِّ الموتى الذين تخلفهم البعثة وراءها، ولكن العدد لا بد أنه كان بالمئات. وكانت جماعة ستانلى تحمل أحدث البنادق ومدفعًا لقتل الأفيال

وطلقات قابلة للانفجار، وكانت الشعوب سيئة الحظ التى تقاتلت معهم تملك رماحًا وأقواسًا أو، على أحسن الفروض، بنادق عتيقة من نوع المسكيت ابتاعوها من تجار الرقيق. وكتب ستانلى فى مذكراته: "هاجمنا ودمرنا ٢٨ مدينة كبيرة وثلاث أو أربع مجموعات من القرى." وحدثت أغلبية الاشتباكات على صفحات البحيرات وضفاف الأنهار، فكانت البعثة تقاتل من السفينة ليدى أليس التى كانت ترفع العلمين البريطانى والأمريكى كما كانت تقاتل من زوارق الكانو المتحصنة. وكان ستانلى السريع الغضب واضحًا فى اعتباره أى مظهر من مظاهر العداء إهانة لا تغتفر. وبدا الأمر وكأنما كانت قوى الانتقام تدفعه عبر القارة. فمثلاً حدث بينما كان يقود ليدى أليس تجاه بقعة على بحيرة تنجانيقا "كان الشاطئ مكتظًا بالمحنقين والساخرين ... ولاحظنا أن بضعة زوارق كانو كانت تتبعنا وبها أناس يلوحون لنا برماحهم ... فأطلقت عليهم من بندقية وينشستر متعددة الطلقات وكانت ست طلقات وأربعة قتلى كافية لأن يتوقفوا عن السخرية".

وفى الشهور الأولى من الرحلة كان ستانلى قادرًا على أن يروى مثل تلك الاشتباكات فى قصص صحفية يرسلها مع رسل إلى الساحل الشرقى لأفريقيا حيث تُرسل منها بالتلغرافات. وهناك أثارت تلك القصص ثائرة مجموعات الخير والإنسانية مثل جمعية حماية السكان الوطنيين وجمعية محاربة الرق. وعلق ريتشارد بيرتون المستكشف والكاتب قائلاً: "إن ستانلى يقتل الزنوج كأنما كانوا قرودًا". غير أن وزير الخارجية البريطانية كان ممتعضًا لسبب آخر هو أن ذلك الكاتب الوقح الذى يدعى أنه أمريكى، كان يرفع العلم البريطانى. وأرسل إلى ستانلى رسالة متعالية تنبهه فيها إلى أن رفع ذلك العلم هو أمر غير مصرح به.

وبالنسبة لجريدة نيويورك هيرالد التى كان رئيس تحريرها جيمس جوردون بنت معارضًا عتيدًا للبريطانيين، فقد اشتد سروره لذلك الجدال. وانهال بكل حماسة على منتقدى ستانلى وكتب يقول: "إن دراويش الحضارة الذين يعوون فى لندن فى أمان وهم محبو الخير والإنسانية ويقولون إن أى قائد يجب أن يترك أعوانه كى يذبحهم الوطنيون، ويجب أن يُذبح هو الآخر ويترك الاستكشافات تنهشها الكلاب، ولكنه لا يجب عليه أن يطلق رصاصة ضد هذا الجنس المؤذى من البشر".

وادعى ستانلى أن من بين إنجازات تلك المرحلة الأولى من رحلاته كان حديثه مع إمبراطور أوغندا عن الوصايا العشر وتحويله إياه إلى المسيحية. غير أن ضابطا فرنسيا كان بالصدفة يزور أوغندا فى تلك الأوقات قال إن ستانلى لم يتمكن من إقنا ع الإمبراطور إلا بعد أن أخبره أن المسيحيين لديهم إحدى عشرة وصية وأن الوصية الحادية عشرة تقول: "عظِّموا واحترموا ملوككم لأنهم رسل الرب".

وبعد شهور من حمل أحمال ثقيلة تمرد عدد من حمالى البعثة وسرقوا المؤن وفروا. ومرة ثانية تعامل ستانلى بحزم سريع : "حُكم على قاتل ممبى بمئتى جلدة ... وعلى السكارى بمئة جلدة لكل منهم والتقييد فى الأغلال لستة أشهر". وفيما بعد كتب عن حماليه: "إنهم لا خلاق لهم وكذابون ولديهم استعداد للصوصية وكسالى وأوغاد، ولا يتعلم المرء منهم إلا أن يحتقر نفسه لحماقته فى محاولته أن يحقق شيئًا عظيمًا بالاستعانة بهؤلاء العبيد الأشقياء".

أما فيما يتعلق بخطيبته أليس فقد كانت نغمة حديثه مختلفة، حيث كتب لها بمناسبة أول عيد ميلاد تقضيه البعثة: "إن قلبك الرحيم سوف يشفق علىَّ وعلى قلبى ... إن المعسكر فى حالة متردية من البؤس ويبدو أن القوم يفكرون فى الانتحار أو أن يجلسوا دون حراك حتى يأتيهم الموت". وكان دائمًا يحمل صورتها معه ملفوفة فى أمان فى مشمع، ووضع فى خرائطه علامات على جزيرة أليس ومساقط مياه أليس.

وكتبت أليس إليه: "أحب الرقص أيما حب ... وأفضل أن أذهب إلى الأوبرا عن أن أذهب إلى حفل ... ويكاد يحدث كل مساء أن الرفاق يحضرون – وقد تعبت منهم ... أصابعى تؤلمنى أشد الألم ومليئة بالبثور من العزف على آلة الهارب. وقد تحسن مستواى فيها بقدر كبير، غير أنى لا أتدرب قط". ومن الواضح أنها لم تكن لديها أدنى فكرة عن مكان ستانلى ولا عن أن خطاباته، إن كانت تصل حقا، تسافر عبر الأدغال لعدة أشهر. واشتكت: "إنك قد توقفت عن الكتابة لى، وأنا أرغب فى معرفة السبب، وأنا فى شدة الغضب من أواسط أفريقيا".

* * *

فى كتاب "اختراق القارة السوداء" (Through the Dark Continent) الذى كتبه فيما بعد عن تلك البعثة، اتبع ستانلى عدة قواعد استخدمها فى كتبه اللاحقة: أن يمط الأحداث فى مجلدين (بمجموع ٩٦٠ صفحة فى هذا الكتاب)، واستخدام كلمة "سوداء" فى العنوان (فى أفريقيا الحالكة السواد In Darkest Africa ورفاقى السود وحكاياتهم الغريبة My Dark Companions and Their Strange Stories)، واستخدام كل وسيلة ممكنة لرواية الحكايات. فهناك صور فوتوغرافية للمؤلف قبل الرحلة وبعدها يبين كيف أن شعره ابيضّ من جراء الرحلة، و"مقتطفات من مذكراتى" (وعندما نقارنها بمذكراته نجد أنها لا تمت لها بصلة)، وخريطة تفصيلية كبيرة مبين عليها خط سير الرحلة، وأكثر من مئة رسم - للمعارك، وللمقابلات المثيرة ولزورق كانو فى دوامة، ورسوم تخطيطية لمنازل أفريقية، ورسوم تخطيطية للقرى، وقوائم بالمؤن. ووفرة هائلة من الرسوم تبين كل شىء من شجرة أنساب ملوك أفريقيين إلى الأشكال المختلفة لمجاديف زوارق الكانو. وأدرك ستانلى بحنكة أن جهل قرائه بأفريقيا سوف يجعلهم مفتونين بعدد لا نهائى من التفاصيل التافهة، مثل قائمة بالأسعار توضح أن دجاجة تقدر بعقد من الخرز فى أبادى بينما تساوى ١٢ ياردة من القماش فى أجوجو. وحصل القراء على ما يساوى ما دفعوه من نقود. ورغم أن كتب ستانلى كانت فى العصر ما قبل الإلكترونى؛ فإنها كانت تبدو كأنما هى من نتاج عصر الإعلام المتعدد الوسائل (ملتيميديا).

وقراءة كتب ستانلى اليوم تجعلنا نرى كيف كانت رحلاته مجرد استيلاء على ممتلكات الغير. فهو دائم القياس لكل شىء ووضعه فى قوائم: درجات الحرارة، والأميال التى قطعها، وأعماق البحيرات، وخطوط الطول والعرض، والارتفاعات عن سطح البحر (التى حددها بقياس درجة حرارة غليان الماء). وكان يوكل إلى حمالين موثوق فيهم حمل الأحمال سريعة الكسر مثل الترمومترات والبارومترات والساعات والبوصلات ومقياس مسافات السير. وكان كأنه مسّاح يمسح القارة التى عبرها لمالكها المستقبلى.

كان النصف الثانى من رحلة ستانلى هو ما جعل منها إنجازا استكشافيا بطوليا. فمن ضفاف بحيرة تنجانيقا، حيث عثر على ليفنجستون قبل بضع سنوات، شق طريقه غربًا فى داخل البلاد لعدة أسابيع ومعه زمرته المتقلصة من الحمالين، بما فيهم بعض المتمردين الذين بدءوا الرحلة فى الأغلال، حتى وصلوا إلى نهر كبير يُعرف محليا باسم نهر لوالابا. ولم يحدث من قبل أن أوروبيا قد أبحر فى النهر تجاه مصبه بعد تلك النقطة، ولا أحد يعرف إلى أين يؤدى نهر لوالابا. وكان ليفنجستون يعتقد أنه منبع النيل الذى طال البحث عنه، لأن لوالابا هناك يسير فى اتجاه الشمال تجاه مصر.

غير أن ستانلى كان متأكداً أن لوالابا أكبر من أن يكون بداية نهر النيل، ولفترة من الوقت اعتقد أنه نهر النيجر الذى يقع مصبه بعيداً إلى الشمال مثل النيل. ثم بعد أن سار مع النهر بدأت قناعته تشتد أنه هو نهر الكونجو. غير أنه لم يكن متأكداً، لأن المصب، حيث يفرغ نهر الكونجو مياهه فى المحيط، على مبعدة نصف قارة، يقع فى نقطة إلى الجنوب من النقطة التى تبين إحداثياته المستمدة من الأجرام السماوية أنه يقف فيها على ضفة نهر لوالابا الذى يتجه شمالاً من تلك النقطة. وعلى الخرائط الأوروبية كان كل شىء خاليًا بين هاتين النقطتين.

ووفقًا لستانلى فهو يقف على ضفاف النهر الغامض ويخاطب أتباعه المتجمعين:

"سوف نتتبع هذا النهر حتى نعثر على البحر الذى يفرغ فيه مياهه ... حياتى تعتمد على حيواتكم؛ فإن خاطرت بأرواحكم فكأنى أخاطر بنفسى. وسوف أرعاكم مثلما يرعى الأب أبناءه ... ولهذا يا أبنائى احزموا أمركم كما حزمت أنا أمرى، فنحن الآن فى منتصف القارة وسيكون أمرًا سيئًا لو عدنا أدراجنا بنفس الدرجة من السوء لو مضينا قُدُمًا، ولهذا فسوف نمضى فى طريقنا ونكدُّ إلى الأمام بجوار هذا النهر وليس أى نهر آخر حتى نصل إلى البحر المالح".

ويتساءل فرانك بوكوك نائبه المخلص: "قبل أن نبدأ فى التحرك يا سيدى، هل أنت مؤمن فى قرارة نفسك بأننا سوف ننجح؟".

ويجيب ستانلى: "مؤمن؟ نعم أؤمن بأننا سوف نصل إلى النور مرة أخرى فى وقت ما. ومن الصحيح أن احتمالاتنا حالكة السواد مثل ظلمات هذه الليلة ... إنى مؤمن بأن هذا النهر سوف يثبت لنا أنه نهر الكونجو؛ فإن كان ذلك صحيحًا فلا بد من وجود بضع شلالات ... وأنا مستعد لكافة الاحتمالات سواء كان هو الكونجو أو النيجر أو النيل ... مؤمن؟ إنى أرانا ننساب عبر الجبال والمدن، وليس فى ذهنى ذرة شك. تصبحون على خير يا أولادى! تصبحون على خير! وتمتعوا بأحلام سعيدة عن البحر والسفن والملذات والراحة، وليكللكم النجاح فى أثناء النوم!".

هل وقف ستانلى حقا على ضفة النهر وتحدث بتلك الكلمات أو بما يشابهها ولو من بعيد؟ لن يمكننا أن نعرف قط، لأنه لم يبق على قيد الحياة واحد من الرجال الثلاثة البيض الآخرين. فقبل أن يغرق فرانك بوكوك بوقت طويل مات فرد باركر نتيجة "تشنجات مؤلمة بلغت من الشدة أن "دمه بدا وكأنه توقف عن السريان فى عروقه". وأصيب إدوارد بوكوك بالهذيان. ويدعى ستانلى أنه "اندفعت إليه فوجدته يلتقط آخر نفس".

وكان ستانلى يعلم أنه لو أثبت لوالابا أنه نهر الكونجو فإن النهر لا بد من أن يستدير فى قوس مقداره ١٨٠ درجة. وبينما هو وجماعته يبحرون نزولاً فى النهر، أو يسيرون بحذائه كما كانوا يفعلون أحيانًا فى البداية، كان دائم القياس لخطوط الطول والعرض. واستمر النهر يسير بغموض شمالاً لمسافة بضع مئات من الأميال، ولكنه أخيرًا بدأ فى الاستدارة عكس عقارب الساعة فى قوس واسع كبير إلى الغرب تجاه شلالاته المرعبة والمحيط الأطلنطى.

حلت رحلة ستانلى لغزًا جغرافيًا آخر. فنهر الكونجو يبدأ وينتهى تحت خط الاستواء، ولكن الجزء العلوى من نصف دائرته الهائل يقع شمال خط الاستواء. وفى أواسط أفريقيا يفصل خط الاستواء بصورة تقريبية بين موسم الأمطار وموسم الجفاف. فعندما يكون أحدهما شماله يكون الثانى جنوبه. ولهذا، وفى أى وقت من أوقات السنة فإن جانبًا من مسار نهر الكونجو يمر فى أراضٍ تغمرها الأمطار بينما يكون جزء آخر فى موسم الجفاف. وهذا يفسر لماذا لا يختلف فيض النهر إلا قليلاً على مدار السنة خلافًا لأنهار استوائية أخرى.

ووجد ستانلى أن هذا النهر العملاق الذى يتزايد عرضه باستمرار هو مصدر غنى للطعام للسكان المقيمين بالقرب منه. ومنذ زمن ستانلى عَدَّد العلماء ما يربو على خمسة آلاف نوع من الأسماك فى النهر. وهذه تتغذى على أرتال من الحشرات أو على بعضها بعضًا وعلى الفاكهة وأوراق الشجر التى تتساقط فى المياه، وبخاصة فى أثناء فصول الفيضان، عندما يرتفع النهر فوق شطآنه وتنساب المياه فى الغابات والأحراش التى تحف النهر.

ومن المثير للإحباط أن الأصوات الأفريقية الوحيدة التى نسمعها هى التى سجلها ستانلى نفسه. فكل حين يسجل أو يصور صوتًا منها، وكأنما يتوقف هنيهة كى يلقى نظرة نصف مذنبة فى المرآة. وإليكم هنا واحدة من تلك النظرات مأخوذة من مذكراته فس ١٢ سبتمبر ١٨٧٦، والذى كان بالصدفة نفس يوم أن تجمع الوجهاء وعلية القوم فى كامل لباس السهرة فى القصر الملكى أمام السلالم الرخامية، لكى يفتتح الملك ليوبولد الثانى المؤتمر الجغرافى فى بروكسل:

الرجل الأبيض فى نظر شعب الواجوها:

"كيف يكون رجلاً طيبًا ذلك الذى يحضر ليس بغرض التجارة، والذى لا ترى أقدامه، والذى يسير دائمًا مغطى بالملابس، على عكس كل الشعوب الأخرى ؟ لا، هناك شيء شديد الغموض بشأنه، ربما يكون شيئًا شريرًا، ربما هو ساحر، وعلى أية حال من الأفضل أن تبتعد عنه ولا تزعجه".

وأصبح تقدم ستانلى الدموى فى النهر جزءًا من التاريخ الشفهى، وأحيانًا تكتنفه عناصر أسطورية، لأن مدى ودقة بنادقه بدت أمرًا خارقًا للطبيعة لأولئك الذين لم يسبق لهم أن رأوا مثل تلك الأسلحة. وبعد ذلك بسنوات استمع مسافر لواحدة من تلك الروايات:

كان زعيم الأغراب مغطى بالملابس، وكان وجهه أبيض، ويلمع كما تلمع أشعة الشمس على صفحة النهر ... وكان لزعيم الأغراب عين واحدة ... وكانت فى منتصف جبهته ... وعندما ذهب شعب الباسوكو على النهر فى

زوارق الكانو المخصصة للحرب كى يقاتلوا ويأسروا الأغراب كانوا يصيحون: "اللحم! اللحم!" لأنهم كانوا ينوون أن يأكلوا أجسادهم، ولكنهم لم يُأسَروا وقتلوا عديداً من الباسوكو بعصى كانت ترسل رعداً وبرقًا. وكانوا يتحدثون بكلمات بلسان غريب. وانسابوا نزولاً فى النهر ومروا على الباسوكو الأقوياء وهم يسخرون منهم.

وهذه الصورة التى كونها الباسوكو عن ستانلى بوصفه ذا عين واحدة قد تكون ذكريات، مرت خلال مرشحات من إعادة رواية القصة، عن رؤيته وهو يحدق فى تلسكوب أو من خلال ناشنكاه بندقية. وهى أيضًا للغرابة تحمل صدى قويا لصورة المخلوق ذى العين الواحدة التى تخيلها بعض جغرافيى العصور الوسطى عن الأفارقة. ونحن نعرف من قصاصة من الأعراف الشفاهية من زمن تال أن الأوروبيين كانوا كثيراً ما يُظَن أن لهم حوافر؛ فبعض الأفارقة على ضفاف النهر لم يكونوا قد رأوا أحذية من قبل فظنوا أنها جزء من تشريح أجساد البيض.

وبعد مرور بضعة مئات من الأميال من نقطة البداية اضطر ستانلى إلى الانتقال براً حول الشلالات التى أطلق عليها اسم شلالات ستانلى. وبعد ذلك لم يقابل أية عراقيل لتقدمه لمسافة ألف ميل حتى بحيرة ستانلى. وكان الإبحار ميسراً لسفينته ليدى أليس وأسطوله المكون من نحو ٢٤ زورق كانو مشتراة أو مسروقة من القبائل التى تعيش على ضفاف النهر.

وفى رعب راقب ستانلى وحمالوه الزنزباريون وجنوده النهر وهو يتسع باطراد، حتى صار عريضًا أحيانًا بدرجة تعذر معها رؤية الشاطئ الآخر إلا بالكاد. وكان اتساعه مرصعًا بما يقرب من أربعة آلاف جزيرة كان العديد منها مسكونًا. ولم يكن النهر يُعرَف باسم الكونجو فى اللغات المتكلِّمة على ضفافه وإنما باسم نزادى أو نزيرى[١] بسبب كثرة روافده. وتعنى كلمة نزادى أو نزيرى "النهر الذى يبتلع كل الأنهار".

(١) من الغريب أن دكتاتور الكونغو مبوتو سيسيسيكو استخدم تحريفا برتغاليا لتلك الكلمة، زائير، عندما غير اسم بلاده سنة ١٩٧١ .

ولم يغامر ستانلى بالدخول فى تلك الروافد، وكل منها يبلغ عرضه مئات الأمتار، ولكنه بُهِر بأحجامها. وله كل العذر فى ذلك. فواحد من روافد الكونجو وهو نهر كاساى يحمل مياهًا بقدر نهر الفولجا ويبلغ طوله نصف طول نهر الراين. ورافد آخر هو أوبانجى أطول من نهر الراين. وأدرك ستانلى فى الحال أن السفن البخارية تستطيع الإبحار لمسافات طويلة على هذه الشبكة من الأنهار. وكان الأمر وكأنما قد عثر على ما يعادل خطوطًا من السكك الحديدية طولها ألف ميل مرصوفة وممهدة بالفعل. وكتب يقول: "إن القوة التى تسيطر على الكونجو سوف تمتص لنفسها كل تجارة الحوض الهائل خلفها. فهذا النهر كان وما زال الطريق الأعظم للتجارة إلى غربى أواسط أفريقيا".

وتبين أن المرحلة الأخيرة من رحلة ستانلى الاستثنائية هى أشقها وأصعبها. ففى بداية المئتين والعشرين ميلاً الأخيرة من الشلالات حيث يتمدد النهر مكونًا بحيرة ستانلى انتهى الإبحار السهل للمستكشفين. وكان ستانلى مستعدًا لأن ينقل سفنه ومعداته برًا ليسير حول الشلالات ومساقط المياه ولكنه لم يدرك أن النهر فى اندفاعه نحو المحيط كان يسير خلال مرتفعات صخرية شاهقة الارتفاع وشديدة الوعورة أحدقت بالمياه من الجانبين فتحولت المياه إلى زبد أبيض شديد الانحدار وغير قابل للملاحة.

واشتد ضيقه. وفى أماكن كثيرة قدَّر سرعة المياه، بقياس سرعة جذوع الأشجار الطافية، بثلاثين ميلاً فى الساعة.

> خذ شريحة من البحر يضربها إعصار... وسوف تدرك حجم أمواجه المتلاطمة... فهناك أولاً اندفاع إلى قاع منخفَض هائل بين الأمواج، ثم ترتفع المياه بالقوة الكامنة فى حجمها الكبير حتى تكون حاجزًا يرتفع بزاوية حادة لمسافة ٢٠ أو ٣٠ قدمًا، ثم ينهار فجأة فى قاع منخفَض آخر ... وعلى الضفتين تجد أكوامًا من أحجار هائلة الحجم مدفونة تحت الأمواج المنكسرة على الشاطئ. وكان الهدير مروعًا ويصيب الإنسان بالصمم. وأستطيع أن أقارنه بهدير قطار سريع يجرى فى نفق جبلى.

تجاهل المستكشف نصائح الأفارقة المحليين بأن يترك سفينته ليدى أليس وزوارق الكانو خلفه ويمضى برا على الأقدام، فقد كان يأمل فى العثور على مراحل من المياه الهادئة بين الشلالات واستمر هذا التجاهل لفترة أطول مما يجب. وكان نقل زوارق الكانو أرضًا بالذات هو المشكلة لأنها لم يمكن تفكيكها مثل ليدى أليس. وبلغ طول أكبر زورق أربعة وخمسين قدمًا ووزنه ثلاثة أطنان. فكان على الرجال أن يمهدوا ممرات بين الصخور ويجروا الزوارق عليها. وأحيانًا كانوا يبنون مسارات من جذوع الأشجار وفوقها جذوع أشجار أخرى للعمل كزلاقات. واستغرق منهم عبور منطقة واحدة طولها أربعة وثلاثين ميلاً سبعة وثلاثين يومًا. ومرة بعد المرة كانت جبال الكريستال المسننة تسبب عوائق كبيرة. وفى إحدى النقاط اضطر الرجال المرهقون المهزولون إلى جر الزوارق إلى ارتفاع ١٢٠٠ قدم ثم السير لثلاثة أميال على أرض شبه مستوية ثم النزول مرة أخرى. وكان الفصل المطير قد بدأ وانهالت عليهم قرب المياه لخمس أو ست ساعات يوميا.

واشتد هدير الشلالات الذى لا ينتهى وصار ثقيل الوطأة. وأصيب الرجال بالإغماء من الجوع. وتمزق آخر زوج من أحذية ستانلى ذات الرقبة العالية. وفقد واحد من أحسن رجاله عقله واندفع داخل الأحراش لا يحمل معه إلا ببغاءً. وأخيراً وبعد إضاعة شهور فى جر الزوارق التى أصبحت الآن عديمة الفائدة تخلت البعثة عنها وتركتها كلها وراءها. وفى مذكرات ستانلى، وبينما هو يسجل فى يأس حادثة موت أو فرار جماعى أو تمردًا بعد الآخر، أصبح خطه الأنيق لا يكاد يُقرأ ونثره غير مفهوم. وبصورة إجمالية، استغرق هو وجماعته الجائعة والتى أصابتها الأمراض أربعة أشهر ونصف شهر كى يقطعوا مسافة ٢٥٠ ميلاً من بحيرة ستانلى إلى ميناء بوما على البحر.

كان المستكشف غامضًا ومتناقضًا فى أعداد الموتى التى سجلها فى مذكراته، ولكن حصيلة الموت كانت جسيمة. فقد سقط كثيرون صرعى لتقيح الجروح والدوسنتاريا والجدرى أو التيفوس، وزاد من حدتها كلها أنهم كانوا على شفا المجاعة فى أحوال كثيرة. ولم يكن ستانلى يسمح للحمالين المصابين بالجدرى أن يُتركوا حتى يبلوا من مرضهم، بل ولا أن يدخلوا الغابة كى يموتوا فيها؛ فقد كان يجبرهم على حمل

حمولاتهم حتى يسقطوا ميتين. وكان قاسيًا على نفسه مثل قسوته على رجاله؛ وفقد أكثر من ستين رطلاً من وزنه فى أثناء الرحلة. وحدث مرات عديدة أن شحت المياه بصورة خطيرة، وتحملت البعثة هجوم الأفاعى وأفراس النهر، والحشائش ذات الأطراف التى تشبه نصال الحراب، والديدان التى كانت تخترق أقدام الحمالين، والممرات الصخرية ذات الصخور المسننة. وعند وصولهم إلى بوما كانوا مخدرين من الإرهاق، ويعانون مما يُطلق عليه اليوم متلازمة إجهاد ما بعد الصدمة (posttraumatic stress syndrome). وسرعان ما مات العديد دون سبب ظاهر، وهم فى انتظار سفينة تقلهم إلى أوطانهم.

وكتب ستانلى إلى أليس بايك من أعماق القارة: "ما الوسيلة التى أعبر بها عما يجيش به قلبى من حب تجاهك؟ ولكن هذا الخطاب لا بد أن يقطع ألف ميل وسط المتوحشين ويتعرض لكل مخاطر الفيضانات والحرائق والمعارك حتى يصل إلى ساحل البحر ... تأكدى أن حبى لك لم يتغير وأنك فى أحلامى وآمالى وأنك مرشدى، وسأظل متعلقًا بك حتى ألقاك".

وعندما أعاد ستانلى من تبقى من حماليه وجنوده بالبحر إلى نقطة ابتداء رحلتهم فى زنزيبار أصيب بصدمة. ففى وسط خطابات بريد تجمعت فى انتظاره على مدى عامين كانت ثمة قصاصة من صحيفة مؤرخة قبل ذلك الوقت بثمانية عشر شهراً، تعلن أن أليس بايك تزوجت وريثًا للسكك الحديدية فى أوهايو يدعى ألبرت بارنى. وأصيب ستانلى باكتئاب شديد ولم يرها بعد ذلك اليوم(٢).

وبعد عودته من رحلته أدلى ستانلى بتصريحات جاء بها الشجب المعتاد لتجار الرقيق 'العرب'، ودعا المبشرين أن يأتوا إلى أفريقيا، وانفجر مهاجماً "العرى الفاضح"

---

(٢) لم يعلم المستكشف مطلقًا أنها لما شاهدت شهرته تنمو وتتزايد، فإن مسز بارنى أمضت جل حياتها تتندم على عدم زواجها منه. وبعد وفاته بزمن طويل ادعت فى مذكرات روائية لم تُنشر أن الفضل يعود إليها فى قيامه بتلك الرحلة فى الكونجو: "من دون روحها التى تقمصته وسيطرت عليه لم يكن بمقدوره أن يقوم بتلك الرحلة، بل ولا كانت تولدت لديه الرغبة فى اختراق تلك الظلمات الحالكة مرة أخرى ... وليدى أليس قد غزت أفريقيا!".

للأفارقة، وأعلن أن الهدف من رحلته كان "إيقاد شعلة من الضوء عبر النصف الغربى للقارة السوداء". غير أن التربح لم يكن بعيداً عن ذهنه. ففى أعقاب مغادرته لمنطقة كثر فيها فرار حماليه وحل به فيها فيضان كتب فى مذكراته: "وداعًا لتلك المنطقة ... حتى يأتى يوم يمكِّننى فيه شخص ثرى محب للخير أن أقود قوة لتحطيم تلك العقبة الكئود فى وجه التجارة مع أواسط أفريقيا".

وكان الشخص الثرى المحب للخير فى انتظاره.

* * *

وفى الحقيقة كان الشخص المحب للخير فى قمة الابتهاج. فلعدة شهور قبل أن يظهر ستانلى فى بوما كان ليوبولد يدقق فحص جريدة التايمز اللندنية يومياً بحثاً عن أخبار عن مصير ستانلى. وفى لحظة من اللحظات كتب لأحد معاونيه: "يبدو لى أن أول شىء على جدول الأعمال ... هو التأكد مرة أخرى من أن ستانلى قد وصل نهر لوالابا". وبمجرد أن عاود ستانلى الظهور أرسل له الملك برقية تهنئة.

والآن يستطيع ليوبولد أن يقرأ المقالة الطويلة التى كتبها ستانلى فى جريدة الديلى تلجراف عن رحلته، والتقارير الصحفية الدسمة عن الحفلات والمآدب التى حظى بها المستكشف فى كيب تاون والقاهرة وغيرها من الأماكن التى توقف فيها فى طريق عودته إلى إنجلترا. وأصدر الكونجرس الأمريكى قراراً مشتركًا من مجلسيه يحيى فيه المستكشف، كما اعتبر زملاؤه من المستكشفين إبحاره فى نهر الكونجو أعظم إنجاز استكشافى فى القرن. وأصبح ليوبولد الآن متأكداً أن تلك الأقاليم الشاسعة فى وسط أفريقيا، والتى كان من قبيل المعجزات أن أية من القوى الأوروبية الكبرى لم تطالب بها من قبل، يمكن أن تكون هى المستعمرة التى يتوق إليها. وأخيراً فإن إنتاجه المسرحى الذى طالما حلم به يمكن أن يصل إلى خشبة المسرح وسيكون ستانلى نجمه.

وأصدر الملك تعليماته إلى سفيره فى لندن أن يبقيه على دراية بأخبار ستانلى. وكان الملك يناور بحنكة خلف ستار الدخان الذى أطلق عليه الاتحاد الدولى الأفريقى.

وقال لسفيره: "كن كتوماً، فأنا متأكد من أنى لو كلفت ستانلى بطريقة علنية بمهمة أن يستولى باسمى على جزء من أفريقيا فإن الإنجليز سوف يعترضون. فإن سألتهم النصيحة فإنهم سوف يعترضون أيضًا. ولهذا فأنا أفكر فى تكليف ستانلى بعمل استكشافى لا يضر أحداً، وسوف يمنحنا ذلك القواعد والمقرات التى نستطيع أن نستولى عليها فيما بعد". وفوق كل شىء حذر ليوبولد رجله فى لندن: "لا أريد المخاطرة ... بفقدان فرصة سانحة للاستيلاء على قطعة من تلك الكعكة الأفريقية الرائعة".

وبعد أن أطلق برقياته عكف ليوبولد على وضع خطة لاعتراض طريق ستانلى فى أثناء عودته إلى بلاده واستدراجه إلى بروكسل. ففى الإسكندرية، حيث توقف المستكشف بضعة أيام، دبر الملك شخصًا يقترح الفكرة على ستانلى بينما كان ضيف الشرف على متن يخت يحمل رئيس الولايات المتحدة السابق يوليسيس جرانت. ومن أجل المرحلة التالية من مغازلته لستانلى لجأ ليوبولد إلى صديق أمريكى فى بروكسل هو الجنرال هنرى شلتون سانفورد (Henry Shelton Sanford). وكان ذلك اختياراً عبقريًا: فمع تلهف ستانلى على أن يتقبله الجميع بوصفه أمريكيا، من يكون أفضل شخص يلجأ إليه إلا واحداً من علية القوم من مواطنيه؟

كان الجنرال سانفورد متلهفًا على القيام بتلك المهمة المثيرة لليوبولد. وكان الجنرال ابنًا لعائلة ثرية من ولاية كونيتيكت، وعينه أبراهام لينكولن سفيراً فى بلجيكا، وبعد انتهاء فترة عمله ذات السنوات الثمان بقى مقيمًا فيها. وكان ومعه زوجته التى اشتهرت بجمالها والتى كانت تصغره بكثير، يقيمان الحفلات والمآدب فى منزلهما الريفى ذى القباب والمكون من ثلاثة طوابق خارج بروكسل. وكان سانفورد من الشخصيات المألوفة فى الأوساط الراقية بالمدينة بقبعته الحريرية العالية وعصاته ذات الرأس المذهبة ونظارته الأنفية وشاربه ولحيته الكستنائيين. ولم يكن قد سبق له الالتحاق بالجندية، إلا أن "الجنرال" والسيف والزى الرسمى الذى كان يرتديه لسنوات عديدة، كانت كلها مكافآت لإهدائه بطارية مدافع لكتيبة مشاة فى أثناء الحرب الأهلية الأمريكية.

وكان سانفورد قد استثمر أمواله فى السكك الحديدية الأمريكية وشركات العقارات وفى بساتين موالح وغيرها من الاستثمارات فى ولاية فلوريدا، وأُطلق اسم سانفورد

على مـدينة نشـأت هناك لإسكان عمـال تلك المزرعـة[٣]. غيـر أنه، وعلى غـرار رتبـتـه العسكرية، كان مستثمـرًا مخيبًا للآمـال. فكانت لديه أناقة من نما وترعرع في ثروة عريضة ولكنه لم يكن يمتلك الدهاء المطلوب لتكوين ثروة، وخسر أموالاً في كل ما لمسه. ولم يسترد مطلقًا ما وضعه من أموال في براءات اختراع غريبة - نول لنسج الصوف، ونوع جديد من معامل تقطير الويسكي، وصندوق صغير لتزييت دواليب عجلات عربات السكك الحديدية بالماء بدلاً من الزيوت. وانتهت استثماراته في منجم للفضة في نيفادا ومنجم للزنك في أركنساس بكوارث. وأشهرت شركة للسكك الحديدية في منيسوتا إفلاسها. والتهمت الديدان كل محصول القطن في مزرعة يملكها في كارولينا الجنوبية.

وفي الوقت الذي كان سانفورد يشاهد ثروته الموروثة وهي تتبخر أمام عينيه كانت علاقاته في البلاط البلجيكي تزداد ازدهارًا. حتى أنه أطلق على واحد من أولاده اسم ليوبولد. وأدرك الملك، بوصفه كان دائمًا داهية وثاقب النظر في الحكم على الناس، أهمية الرعاية الملكية لسانفورد، ولم يتوان عن الإطراء عليه دون هوادة مدركًا أنه سوف يستخدمه يومًا من الأيام. وعندما فشل سانفورد في واحدة من جهوده المتكررة الفاشلة للحصول على منصب دبلوماسي أمريكي آخر، كتب إليه البارون جول جريندل (Baron Jules Greindl) مساعد الملك: "إن الملك مسرور بأنك سوف تستمر مقيمًا بيننا حيث يحبك كل الناس ويقدرونك". ومثل كثير من الأمريكيين كان سانفورد مولعًا بالملكية وأحس أن ليوبولد يقدره حق قدره بطريقة لم يفعلها معه وطنه.

وفي يناير ١٨٧٨ أرسل ليوبولد سانفورد وجريندل سرًا كي يقطعوا الطريق على ستانلي في فرنسا، حيث كان المستكشف، وكان لا يزال في طريق عودته إلى لندن، على موعد مع جولة جديدة من الميداليات والمآدب. وفي محطة مرسيليا لحق المبعوثان بستانلي، الذي كان نحيلاً ومريضًا ومرهقًا. وتبعاه إلى باريس، حيث قدما له بصورة رسمية عرضًا بوظيفة مع الاتحاد الدولي الأفريقي. ورفض ستانلي العرض ولكن كان

(٣) كان لمدينة سانفورد بولاية فلوريدا لحظة عابرة من السمعة السيئة بعد ذلك بثلاثة أرباع قرن، عندما أحيا رئيس شرطتها قانونًا محليًا يحرم ممارسة الرياضات التي تمزج بين الأجناس المختلفة على ممتلكات المدينة، وأمر بطرد جاكي روبنسون من مضمار اللعب في وسط مباريات رياضية.

من الواضح أنه ممتن. ومع فرط حساسيته الدائمة من تقبله فى الأوساط العليا للمجتمع، فإن ستانلى لم ينس مطلقًا أن حاشية ملك البلجيكيين - لا أقل من بارون وجنرال - قد جدا فى طلبه عند عودته إلى أوروبا.

ومن فرنسا اتجه ستانلى أخيراً إلى وطنه فى لندن وهناك استقبلوه استقبال الأبطال. فعلى الرغم من ادعائه أنه أمريكي؛ فإن قلبه كان لا يزال بريطانيًا. وقال فى مأدبة تلو الأخرى إن العلم البريطانى يجب أن يرتفع فوق الأقاليم التى يعبرها النهر الكبير. وانتعشت آمال ستانلى فى اهتمام بريطانى بحوض الكونجو عندما أتى أمير ويلز (ولى العهد) للاستماع إلى إحدى كلماته، ولكن كل ما قاله له ولى العهد فيما بعد أن ستانلى يرتدى نياشينه بترتيب خاطئ. وبوجود خريطة العالم مرصعة بالفعل بالعلم البريطانى من دومينيونات إلى مستعمرات إلى محميات من كل صنف، ومع وجود كساد فى الداخل وأياديهم مشغولة بمشاكل شتى فى المستعمرات وثورات عبر البحار، فإن قليلاً فقط من البريطانيين كانوا مستعدين للاهتمام بأقاليم جديدة شريان مواصلاتها الرئيسى مسدود بشلالات رهيبة.

وكتب ستانلى: "إنى لا أفهم الإنجليز على الإطلاق. فإما أنهم يشكون فى أن وراء ما أقوله شيء من المصالح الشخصية وإما أنهم لا يصدقوننى ... فمقابل إنقاذى للفينجستون قالوا إنى مدع، ولعبورى أفريقيا قالوا إنى قرصان". كما لم يكن ثمة حماسة فى الولايات المتحدة أيضًا لاستعمار الكونجو. فالآن يريد جيمس جوردون بنِت أن يرسل ستانلى بحثًا عن القطب الشمالى.

واستمر ليوبولد يعرض قضيته ويضغط فى سبيلها. فجعل سفيره فى لندن يدعو ستانلى إلى الغداء. وأرسل سانفورد عبر القنال الإنجليزى ليتحادث مرة أخرى مع المستكشف. وتأكد من وصول إشارات إلى ستانلى بأن الملك يتباحث مع مستكشف آخر بدلاً منه. وكان ليوبولد يعرف رجله. فبعد خمسة أشهر من عودته إلى أوروبا قَبِل ستانلى دعوة لزيارة بلجيكا.

الفصل الرابع

"لا بد أن تمنحنا المعاهدات كل شىء"

فى العاشر من يونيو ١٨٧٨ ، استقل هنرى مورتون ستانلى سفينة بخارية عابراً القنال الإنجليزى متوجهًا إلى مقابلته الأولى مع ملك البلجيكيين. ولا نعلم ماذا كان ليوبولد يفعل وهو ينتظر المستكشف فى مكتبه فى القصر الملكى، فشهور الصبر التى قضاها يحاول إغواءه قد بدأت تؤتى أُكلها. غير أنه لن يكون بمستغرب أن نستنتج أن ذلك الملك - الجغرافى كان ينظر مرة أخرى فى خرائطه.

فإن مثل تلك النظرة كانت لتثبت له أن أفريقيا هى المكان الوحيد الذى يأمل ليوبولد أن يحقق فيه حلمه بالاستيلاء على مستعمرة، وبالذات مستعمرة أكبر بكثير من بلجيكا. فلم تعد هناك أقاليم لم يتملكها أحد فى الأمريكيتين، والمغامرة الكارثية التى قام بها مكسميليان وكارلوتا فى المكسيك كانت تنبيهًا له بما يمكن حدوثه إن حاول شخص أن يسيطر على بلد مستقل فى الأمريكيتين. ولا كانت هناك أماكن خالية فى آسيا: فقد توسعت الإمبراطورية الروسية حتى شارفت حدودها المحيط الهادى، واستولى الفرنسيون على الهند الصينية، والهولنديون على جزر الهند الشرقية، وغالبية ما تبقى من جنوب آسيا من عدن حتى سنغافورة تلون باللون الأحمر الوردى للإمبراطورية البريطانية. ولم يتبق إلا أفريقيا.

وكان ستانلى قد تتبع مسار نهر الكونجو لمسافة ألف وخمسمئة ميل. ورغم ذلك فمن الواضح أنه لم يشاهده بالكامل، لأنه عندما وصل إليه، بالقرب من منابعه، كان عرض النهر قد وصل بالفعل إلى ما يقرب من ميل. والاستكشاف الكامل قد يستغرق

سنيناً، غير أنه بعد أن التهم بشغف مقالات ستانلى الصحفية تكونت لديه فكرة عامة عما وجده المستكشف.

وفى نهاية الأمر ستكون الإحصائيات معروفة. فنهر الكونجو يصرف ما يربو على ١,٣ مليون ميل مربع، وهى مساحة أكبر من الهند. وبه ما يُقدر بسدس احتمالات توليد القوى الكهربية من المياه فى العالم. وأهم شيء على الإطلاق، بالنسبة لمن يبنى إمبراطورية فى القرن التاسع عشر، أن النهر وشبكة روافده المروحية الشكل يشكلان أكثر من سبعة آلاف ميل من المجارى المائية المترابطة، وهى شبكة نقل جاهزة لا تنافسها إلا أماكن قليلة على ظهر الأرض. وبمجرد أن تُنقل سفن بخارية مفككة حول الشلالات الكبيرة إلى شبكة الأنهار، فسوف تجد الأخشاب اللازمة لتُحرق فى غلاياتها تنمو مطلة على أرصفة السفن مباشرة، وغالبية الأنهار الصالحة للملاحة تسير خلال الغابات المطرة سريعة النمو والتى تغطى نصف حوض النهر.

وحتى تلك الفترة لم يكن الأوروبيون يعلمون إلا النزر اليسير عن الأقوام التى تعيش فى حوض الكونجو. وكان ستانلى مهتماً بهم فى المقام الأول، عندما كان لا يطلق عليهم النار، بوصفهم مصدراً للمؤن، أناس يستطيع أن يقايضهم توافه الحلى أو الأقمشة مقابل الطعام. غير أنه توصل إلى اكتشافين مهمين عن سكان المنطقة. أولهما أنهم لا يشكلون تهديداً عسكرياً: فقد أثبتوا، فيما يقرب من ست وثلاثين معركة خاضها معهم، أن رماحهم وسهامهم وبنادقهم العتيقة الطراز لا تضاهى بنادقه الحديثة من طراز سنايدر التى تُعمر من المؤخرة. وكان اكتشافه الثانى أنه على طول نهر الكونجو شريان النقل الحيوى لا توجد دولة قوية واحدة تحتاج إلى إخضاع. ومزيد من الاستكشاف على طول روافد النهر قد يعثر على عدة ممالك كبيرة، ولكن قروناً من اصطياد العبيد من كل من الساحل الأفريقى الشرقى والغربى قد أضعفت غالبيتها. وكان كثير من أقوام حوض الكونجو قليلة فى عدد سكانها. وسريعًا ما تبين من الجولة التالية من الاستكشاف أن هناك أكثر من مئتى مجموعة عرقية مختلفة يتكلمون ما يزيد على أربعمئة لغة ولهجة. ومع هذا التشرذم فى صفوف المقاومة المحتملة فإن الغزو سيكون سهلاً نسبياً.

وكان ليوبولد فى الثالثة والأربعين من عمره عندما جلس للاجتماع الذى طال انتظاره مع ستانلى. وقد ألقى وراء ظهره بخرق شبابه المتحذلق، وتعلم كيف يلعب الدور الملكى بحذق ومهارة. وعلى الرغم من أن ستانلى ابن السابعة والثلاثين كان أقصر قامة من الملك بصورة واضحة وكان قلقًا من لغته الفرنسية الركيكة، فإنه كان قد تحسن كثيراً عما قبل. فذلك الفار من البحرية الذى لم يكن يفعل شيئًا صحيحاً قبلها بما لا يزيد على ثلاث عشرة سنة قد أصبح مؤلفًا ذائع الصيت واعتُرِف به واحداً من أعظم المستكشفين الأحياء. وظهر وجهه الصارم ذو الشارب، فى المجلات فى كل مكان، مرتدياً قبعة ستانلى التى ابتكرها. وكان لها جزء علوى عال به ثقوب للتهوية، وحافة تغطى عينيه، وغطاء يتدلى على العنق لوقاية أذنيه ورقبته من الشمس. وبالنسبة لأعيننا كانت القبعة مزيجًا من قبعة الفرقة الأجنبية الفرنسية وقبعة بواب - وهى الأشياء التى لخصت، بصورة ما، شخصية ستانلى: جزء يمثل جباراً يملك قوة عارمة وثقة فى النفس تحرك الجبال، والجزء الآخر ابن غير شرعى من الطبقة العاملة من اليسير مهاجمته، ويجاهد بلهفة للحصول على استحسان الأقوياء. وكل جزء يبدو واضحاً فى صوره الفوتوغرافية: التصميم العنيف والقابلية للتجريح.

وفى ذلك اللقاء الأول يهدئ ليوبولد فى الحال من قلق ستانلى فى إنجليزية سلسة. وكان كلٌ من الرجلين اللذَين تقابلا فى ذلك اليوم من أيام شهر يونيو فى القصر الملكى يمثل طرازًا طبقيًا سيصير مألوفًا. فقادة القوات البرية فى الاغتصاب الأفريقى الكبير، وهم البيض الذين قادوا الجنود فى الأدغال ووجهوا نيران البنادق والمدافع واستخدموا أجهزة مساحى الأراضى وواجهوا بجسارة الملاريا والدوسنتاريا والتيفود، كثيراً ما كانوا، على شاكلة ستانلى، من الطبقة الدنيا أو المتوسطة الدنيا فى أوطانهم. وكانت أفريقيا، بالنسبة لهم، فرصة سانحة للتحرك إلى أعلى تجاه الثروة والمجد. ولكن أولئك الذين جنوا أعظم الثروات من التدافع على أفريقيا، مثل ليوبولد، كثيراً ما كانوا رجالاً أثرياء منذ البداية.

وعلى الرغم من أن ليوبولد عاش حياة مدللة فى اليخوت والقصور؛ فإنه كان الأكثر حكمة فى الرجلين فى مناحى الحياة. فقد قدر بدقة طموحات ستانلى وقدراته

الهائلة على العمل الشاق وتلهفه على التملق المستمر وتطلعه إلى راع. وكان ستانلى، وكان لا يزال فى حسرة لعدم اهتمام البريطانيين بالكونجو، سعيداً بمقابلة العاهل الذى أُعجب بما حققه وطالبه بالمزيد.

وعقب ذلك اللقاء تجول ستانلى فى أنحاء أوروبا لما تبقى من سنة ١٨٧٨، داعيًا لكتابه "اختراق القارة السوداء"، ومقابلاً أعضاء نادى ستانلى الجديد فى باريس، ومتلقيًا التكريم حيثما حل. وأرسل ليوبولد خلفه الرسائل والرسل ليبقى رجله مرتبطًا به. وقبل أن ينصرم العام كان الرجلان قد اتفقا على شروط عودة ستانلى إلى الكونجو، وهذه المرة كان يعمل لحساب الملك. وكانت مدة عقد ستانلى خمس سنوات، بمرتب ٢٥٠٠٠ فرنك فى السنة للأوقات التى يقضيها فى أوروبا و٥٠,٠٠٠ فرنك (نحو ٢٥٠,٠٠٠ دولار من دولارات اليوم) سنويا للوقت الذى يقضيه فى أفريقيا. وبالطبع كان على ليوبولد أن يمول القوة الاستكشافية التى ستصاحبه.

واتفقا على أن يبدأ ستانلى بإنشاء قاعدة بالقرب من مصب النهر ثم يعبد طريقًا حول الشلالات، يخترق جبال الكريستال الوعرة وسيكون تمهيداً لإنشاء خط سكك حديدية. وسيحمل الحمالون عدة سفن بخارية مفككة إلى قطع صغيرة مستخدمين ذلك الطريق، ثم يعيد ستانلى تجميعها فيما بعد ويستخدمها للإبحار فى اتجاه منبع النهر، منشئًا سلسلة من المحطات التجارية على طول الألف ميل الصالحة للملاحة من المجرى الرئيس لنهر الكونجو. وبعد ذلك يمكنه تأليف كتاب عن خبراته - ولكن يكون لليوبولد الحق فى مراجعته.

وكان العاج من بين الثروات التى كان ليوبولد يأمل فى العثور عليها فى الكونجو، وكان من أكثر الأشياء التى ومضت بطريقة ساطعة فى مخيلته. وكان التجار الأوروبيون والأمريكيون بالفعل يبتاعون العاج الأفريقى بشغف فى أسواق زنزبار. ولما كان من اليسير نحته فقد كان العاج فى القرن التاسع عشر هو نسخة أكثر ندرة وأغلى ثمنًا من لدائن البلاستيك اليوم، مع صفة مميزة إضافية هى مصدره الغريب - وهى ميزة ارتفع شأنها أكثر بعد القداسة التى أضفتها الجماهير على المستكشفين. وكان العاج

المأخوذ من أنياب الفيلة تُشكل منه مقابض السكاكين وكرات البلياردو والأمشاط والمراوح والحلقات الممسكة بفوط المائدة ومفاتيح البيانو والأرغن وقطع الشطرنج والصلبان وعلب السعوط ودبابيس الزينة والتماثيل. وكصدى باهت لاستخدامه الأصلى بواسطة الفيلة كانت تُصنع منه الأسنان الصناعية. ورغم المسافات الطويلة التى كان يُحمل فيها من أماكن تواجد الفيلة فى أعماق داخلية القارة؛ فإنه كان جاذبًا للتجار على طول الطريق لأنه، مثله فى ذلك مثل العقاقير والمعادن الثمينة، كان مرتفع القيمة وخفيف الوزن. فمن الأرطال المئة التى يزنها فى المتوسط زوج أنياب الفيل الأفريقى يمكن صنع مئة مفتاح بيانو أو ألف سنة صناعية. وكان تجار العاج يفضلون الأنياب الأفريقية على الهندية، كما كانت أفيال أفريقيا الاستوائية التى تشمل حوض الكونجو تملك أكبر الأنياب على الإطلاق. وكان ستانلى قد وجد أن العاج متوفر بكثرة حتى إنه كان يُستخدم لصنع عضادات أبواب المنازل الأفريقية.

وفى تلك الآونة كانت تلك الثروات على مبعدة ما لا يقل عن عدة سنوات فى مستقبل ليوبولد، لأن ستانلى كان عليه أن يعبد الطريق أولاً. فجهز ميزانية مفصلة للملك لم ينس فيها صغيرة ولا كبيرة: زوارق صغيرة، ومبانى خشبية مفككة إلى قطع، وحبال، وأدوات، وحمالون أفارقة، ومشرفون أوروبيون. ومن بين الأخيرين كان هناك شابان إنجليزيان كانا، حسب ناموس ستانلى فى اختيار معاونين عديمى الكفاءة، لم يسبق لأيهما أن غادر وطنه قط. وبعد التعاقد مع مبتدئين كان يعود فيما بعد ويشكو من انعدام خبرتهم: "لم يحدث فى أى رحلة أن كان لى صديق يمكن أن يصبح رفيقًا على منزلة مساوية، إلا حينما كنت مع ليفنجستون ... فكيف يتسنى لمن حضر حروبًا عديدة أن يأمل فى أن يفهمه شخص كان أكثر شىء صدمه فى حياته هو نزيف من الأنف؟".

وكان ستانلى أذكى من أن يطلب من ليوبولد أتعابه مقدمًا، على الرغم من عدد لا يحصى من العقود التى عمل بمقتضاها وكانت غير واضحة التفاصيل. فهل كان ذلك بسبب أنه كان يتعامل مع الملك شخصيًا، أو مع الاتحاد الأفريقى الدولى التابع للملك، والذى كانت تبدو عليه مظاهر الذبول، أو مع هيئة جديدة تبدو عليها مظاهر التكتم وتدعى لجنة دراسات الكونجو الأعلى؟ ومن الناحية الرسمية كان حملة أسهم اللجنة

مجموعة صغيرة من رجال الأعمال البريطانيين والهولنديين ورجل بنوك بلجيكى - كان فى حقيقة أمره، يحتفظ سراً بمجموعة كبيرة من الأسهم بوصفه وكيلاً عن ليوبولد. وكان يترأس الجمعية أحد أتباع الملك المخلصين الموثوق بهم وهو الكولونيل مكسيمليان شتراوتش (Maximilien Strauch).

وعلى الرغم من طموح الخطط التى وضعها الملك وستانلى؛ فإن ليوبولد كان حريصاً على أن تبدو وكأنما هى من أعمال للخير لا أكثر. فكانت العقود التى جعل ستانلى طاقمه من الأوروبيين يوقعون عليها تمنعهم من إفشاء أى شيء عن الهدف الحقيقى لعملهم. وأكد ليوبولد لصحفى: "لا نهدف إلا إلى الاستكشاف العلمى"، وبالنسبة لأى شخص يلحف فى السؤال كان يمكنه أن يشير إلى بند فى ميثاق اللجنة يمنعها صراحة من السعى وراء مكاسب سياسية. وأراد الملك أن يحمى نفسه ضد الشعور المتنامى فى بلجيكا بأن امتلاك مستعمرة، بالنسبة لبلد صغير، سيكون تبذيراً وإضاعة للأموال. كما أراد أيضاً ألا يفعل شيئاً من شأنه أن ينبه منافسيه المحتملين إلى تلك القطعة المثيرة للعاب من الكعكة الأفريقية، وبخاصة فرنسا، التى كان قد بدا عليها الاهتمام.

وفى فبراير سنة ١٨٧٩، تسلل ستانلى على متن سفينة بخارية تحت اسم م. هنرى عائداً إلى أفريقيا. وترك خلفه فى أوروبا قصة أخرى بدأت تتكشف. فقد كانت هناك شركة هولندية كانت تمتلك نصيباً مؤثراً من أسهم لجنة دراسات الكونجو الأعلى وتلك الشركة أشهرت إفلاسها وهرب رئيسها إلى نيويورك حيث عمل حوذياً لمركبة أجرة. ولم يبال ليوبولد؛ بل استغل صدمة إفلاس الشركة الهولندية ليعرض ما كان فى جوهره شراءً كاملاً لكل أسهم اللجنة. وقبل حملة الأسهم ذلك العرض بامتنان، وقبل أن ينتهى العام كانت اللجنة قد انتهت من الوجود. غير أنها كانت لا تزال مفيدة كستار من الدخان، واستمر الملك يشير إلى اللجنة وكأنما لا تزال تعمل وكأنما حملة أسهمها السابقون، لا هو منفرداً، لا يزالون يمولون ستانلى ويصدرون القرارات. أما ستانلى نفسه فلم يكتشف توقف نشاط للجنة إلا بعد أكثر من عام من حدوثه.

ولكى يزيد من تشوش الأمور ويعطى عملياته الأفريقية اسمًا يمكن أن يُستخدم بهدف وجود سياسى، فإن مدير الفرقة المسرحية خلق هيئة جديدة كغطاء، وهى 'المؤسسة الدولية للكونجو' (the International Association of the Congo) وكان متعمداً أن يكون الاسم متشابهًا بصور مربكة مع الاتحاد الأفريقى الدولى 'الخيرى' لأولياء العهد والمستكشفين. وأصدر ليوبولد تعليماته لواحد من معاونيه: "لا بد من مراعاة ألا يكون واضحًا أن 'المؤسسة الدولية للكونجو' و'الاتحاد الأفريقى الدولى' هما هيئتان مختلفتان، فالرأى العام لا يستوعب ذلك". والمؤسسة الدولية للكونجو، على غرار لجنة دراسات الكونجو الأعلى الميتة كلاهما يستخدم علم الاتحاد الأفريقى الدولى، والذى كان قد اختاره ذلك الاتحاد شعاراً له بصخب شديد فى أول وآخر اجتماع له - وهو مكون من نجمة ذهبية على خلفية زرقاء، ويقصد به أن يرمز إلى الآمال المتألقة فى ظلمات أفريقيا الشهيرة.

وحتى قبل أن يعقد ليوبولد صفقته مع ستانلى، كان قد شرع فى محاولة الحصول على قطعة من الكعكة الأفريقية من طريق آخر، بتمويل محاولة للوصول إلى حوض الكونجو من ساحل أفريقيا الشرقى. وتبعتها ثلاث حملات مشابهة، كلها اتسمت بعدم الكفاءة وكلها صاحبها صخب إعلامى كبير. وحوت واحدة منها على أربعة أفيال هندية لحمل الأمتعة تحمل أسماء غريبة هى سوندرجروند ونادربوكس وسوزانكالى وبوللالا. وتبين أن الأفيال تحتاج لخمسين حمالاً يسبقونها حاملين الفئوس والمناجل لقطع الأشجار والأغصان كى تتمكن من المرور بما تحمله من أمتعة[1]. وقبل أن تسقط الأفيال ميتة قبل الأوان نتيجة أمراض شتى، تبين أن ما بُنى من آمال على الأفيال إنما هو من أضغاث أحلام الصحفيين. وعجز القراء الأوروبيون الذين تابعوا كل مراحل رحلة الأفيال

(١) وتبين أن مجرد إنزال الأفيال من السفن إلى البر كاد أن يكون كارثة. فالسفينة التى حملتها من الهند أنزلتها على حبال على جوانب السفينة، غير أن الأفيال بدلاً من أن تسبح ممتثلةً إلى الشاطئ، حاولت أن تتسلق الجوانب عائدة إلى السفينة. وعندما حاولت السفينة أن تقطر الأفيال تجاه الشاطئ شرعت الأفيال فى جر السفينة تجاه عرض البحر.

التعيسة عن إدراك أن القصة الحقيقية كانت على الجانب الآخر من أفريقيا، حيث كان ستانلى عاكفًا فى هدوء على تعبيد طريقه حول شلالات نهر الكونجو.

وبدأ اسم الكونجو، ودون أن يحس أحد تقريبًا، يشير لا إلى النهر فحسب وإنما إلى إقليم بكامله. وعندما بدأ الجمهور يولى انتباهه أخيرًا إلى المستعمرة التى كانت فى طريق الإنشاء، وصل الملك إلى ذرى جديدة فى خداعه. فقد تمكن هو أو واحد من عمال مسرحه من رفع الستار عن مشاهد جديدة كلٌ يتميز بالجدة عن سابقه حسب المشاهدين. فقد جعل هنرى شلتون سانفورد، الاتحاد الدولى الأفريقى يبدو وكأنما هو هيئة لمساعدة الرحالة، وكان سانفورد أحد أعضاء مجلس إدارة مغامرة ليوبولد فى ثوبه الجديد. ففى نيويورك، حيث كان فى رحلة سنة ١٨٧٩ للبحث فى شئون استثماراته الخاسرة، ألقى محاضرة قال فيها: إن الملك "سوف ينشئ سلسلة من المحطات أو النُزُل تكون مضيافة وعلمية، وتكون مصدرًا للمعلومات والمساعدة للرحالة ... وفى النهاية، بفضل نفوذها فى المجال الإنسانى، تعمل على إلغاء تجارة الرقيق". وكتب ليوبولد مقالة عمل على نشرها فى جريدة التايمز اللندنية تحت عنوان 'من مراسل بلجيكى'، يقول فيها إن مؤسسته الدولية للكونجو الجديدة: "كانت نوعًا من جمعيات الصليب الأحمر؛ ونشأت بهدف نبيل هو تقديم خدمات ثابتة ونزيهة لقضية التقدم." وعندما وجه حديثه إلى الألمان الأكثر نزوعًا إلى الفكر العسكرى، غير ليوبولد بذكاء من المشهد وشبَّه رجاله فى الكونجو بفرسان الصليبيين. وهو يكاد يكون قد خدع الجميع. ومنحته البارونة برديت – كوتس، الراعية البريطانية للمبشرين، مبلغ ٥٠,٠٠٠ فرنك لجهوده الإنسانية. وفى الولايات المتحدة أعلن كاتب أن أعمال ليوبولد العظيمة "تكفى لحمل الأمريكيين على الإيمان بالملوك إلى الأبد".

وفى تلك الأثناء أشاع ليوبولد أن ستانلى سيضع فى الكونجو الأساس لإنشاء "اتحاد لجمهوريات الزنوج الحرة"، من قبائل سوداء سيعيش رئيسها فى أوروبا ويحكم بإرشاد وتوجيه من الملك البلجيكى. وهذا الخداع بالذات، بما يحمله من صدى لاتحاد ولايات، كان من المحتمل أن يستهوى الجمهور الأمريكى. ومن ناحية أخرى تحدث الملك إلى الأوروبيين عن مدن حرة. فكتب واحد من معاونيه: "إن بريمن ولوبيك وهامبورج

كانت مدنًا حرة لزمن طويل، فلم لا يكون هناك وضع مماثل فى الكونجو؟" غير أن القابعين وراء الكواليس كانوا يعلمون أنه فى كلتا الحالتين كانت 'الحرة' مجرد واجهة تُزال بمجرد إسدال الستار. وكما كتب أحد مرءوسى ليوبولد إلى ستانلى: "ليس هناك أى احتمال لمنح الزنوج أقل سلطات سياسية. فهذا سيكون أمرًا منافيًا للعقل. فالرجال البيض من مديرى المحطات سيحتفظون بكل السلطات".

* * *

ولخمس سنوات ظل ستانلى يعمل فى الكونجو لحساب ليوبولد. وانصبت طاقات المستكشف القتالية إلى حد بعيد تجاه الطبيعة الوعرة للإقليم لا لسكانه. ونحت طاقم عماله دربًا غير مستوٍ، أقرب إلى ممر جبلى منه إلى طريق، حول الشلالات الكبيرة، مستغلين الممرات الموجودة فى بعض المناطق، وشاقين طريقهم خلال الأدغال والغابات فى بعضها الآخر، وكانوا يملأون الأخاديد ويقيمون جسورًا من جذوع الشجر فوق الوديان الصغيرة. ثم نقلوا ما يزيد على خمسين طنًا من المؤن والمعدات إلى آخر الممر. ولم تستطع حيوانات الجر مثل الخيول والثيران أن تبقى على قيد الحياة طويلاً فى مناخ الكونجو وأمراضه فنُقلت غالبية المؤن على رءوس الحمالين.

وبعد قضاء عامين فى تعبيد الممر والجر ونقل المؤن، وجر السفن، أمكن تجميع سفينتين بخاريتين صغيرتين فوق قمة الشلالات ونفثتا دخانهما فى طريقهما عبر النهر لنقل الجماعات لبناء المزيد من المحطات على ضفافه. ولم تدع الأسماء التى اختيرت لتلك القواعد أى مجال للشك فيمن سيكون مالك هذه المستعمرة. فقد أُطلق اسم ليوبولدفيل على المحطة التى أقيمت على قمة الشلالات الكبيرة على مرمى السمع من هديرها، وبها حصن صغير محصن تحصينا قويا وبه حديقة خضروات، وفوقه قام تل ليوبولد. وسرعان ما ظهر على الخرائط بحيرة ليوبولد الثانى ونهر ليوبولد. وأُطلق على سفينة بخارية وصلت فيما بعد اسم 'روا دى بلج' (Roi des Belges) أى ملك البلجيكيين.

كان ستانلى مشرفًا قاسيًا على المهام. وشرح فى واحد من خطاباته إلى بروكسل: "أحسن عقاب هو الأغلال فهى تُلحق الخزى والمشقة دون أن تتسبب فى جرح أو تشويه." (وبالطبع لم يكن البيض يُكبلون بالأغلال بل الزنوج فقط). وكانت الأمراض وغيرها من الأخطار تقتل أكثر من عقوبات ستانلى. ففى أول سنة وحدها، مات ستة أوروبيين واثنان وعشرون أفريقيًا ممن يعملون تحت إمرته، منهم واحد التهمه تمساح.

ولأول مرة نتمكن أخيرًا من مشاهدة ستانلى فى أفريقيا من خلال أعين غيره. فقد سقط مهندس بسفينة بخارية يدعى بول نيف (Paul Neve) مريضًا وكتب رسالة لوطنه:

"لقد اعتنى بى المستر ستانلى عناية كبيرة فى أثناء تلك الأيام السيئة ... ذلك النوع من العناية التى يوليها حداد لإصلاح آلة أساسية له تلفت من الاستعمال الخشن ... فهو يطرق عليها المرة تلو المرة على السندان مكشرًا عن أسنانه من الغيظ، ومتسائلاً عما إذا كان سيضطر إلى تحويلها إلى خردة أم سيتمكن من استعمالها كالسابق".

ومات نيف بعد ذلك ببضعة أسابيع.

ولم يكن ستانلى نفسه ليأبه بتشبيهه بالحداد. وكتب يقول : "إنى أنظر إلى كل واحد أقابله من سكان البلاد الأصليين ذى وجه ودود كما ينظر المزارع إلى نبتته الوليدة ذات الساق القوية؛ فهو مجند مستقبلى لمرتبة الجنود الكادحين". وكان فى أثناء تلك الفترة يدفع رجاله بقسوة متناهية حتى عُرف بين الأفارقة الذين كانوا يعملون لحسابه باسم بولا متادى أو بولا متارى بمعنى "محطم الحجارة". وكان ستانلى يفضل الترجمة الأكثر فخامة "محطم الصخور"، وكان يدعى أن الاسم قد أُطلق عليه عندما علَّم الأفارقة الخائفين كيف يستخدمون المطارق الثقيلة (المرزبة) وعندما شاهدوا جلاميد الصخور الضخمة وهى تُنسف بالديناميت بينما كان يعَبِّد الممر خلال جبال الكريستال.

وفى روايات ستانلى عن عماله نجد أنه يزدرى الأفارقة، فهم كسالى بصورة حاسمة، كما يزدرى البيض من "ضعاف العقول". وكان يدعو "لإنجيل الاستثمار".

معلناً أن "المطلوب هو السمسار الأوروبى الذى وطنه فى أوروبا ولكن قلبه فى أفريقيا ... فهم رسل التجارة، الذين تكيفوا لحوض الكونجو، أفضل من أى مكان آخر، بما يحويه من أيد عاطلة كثيرة". ويصل حماسه إلى ذروته حين تجتمع غريزته فى صنع المال مع الاحتشام المتكلف المميز للعصر الفيكتورى. وتتضح حماسته المتقدة المستمرة أوضح ما يكون حين يتحدث عن إخراج "الأفارقة العارين ذوى الوشم المفرط" عن عريهم الذى يمارسونه دون خجل وإلباسهم الملابس الأوروبية:

"إنى أتوقع مستقبلاً رائعًا لأفريقيا، إن تمكنت، بمعجزة من الحظ الحسن، من إقناع ملايين الجهلة ساكنى داخلية البلاد أن يخلعوا ملابسهم المنسوجة من الأعشاب ويرتدون ... الملابس المستعملة ... انظر كم هو جاهز هنا هذا السوق للملابس القديمة ! فالملابس التى يلقيها جانبًا أبطال أوروبا العسكريون وخدم النوادى وخدم الفراعنة المحدثون المرتدون لبزات رسمية والسترات الرسمية للمحامين وأردية التجار ورجال بنوك آل روتشيلد: أو ربما الملابس الكئيبة التى يرتديها ناشرو كتبى، قد تجد أناسًا يرتدونها مثل رؤساء عشائر الكونجو".

وبينما كان ستانلى يتنقل ذهابًا وجيئة فى الريف الوعر الرطب ليشرف على البناء، كان يحرص بعناية على مظهره الشخصى، فكان يحلق ذقنه كل يوم ويضع دهانًا أسود على شاربه. وفى أثناء تلك الفترة، مثل كل فترة قضاها فى أفريقيا، أفلت جسده المكتنز القوى من الأمراض التى أودت بحياة العديد من الزائرين الأوروبيين قبل أوانهم. فقد أصيب بهذيان الحمى عدة مرات وأوشك على الموت مرتين. وكتب يقول إن نوبة من الملاريا أنقصت وزنه إلى مئة رطل [خمسين كيلوجرامًا]، واشتد ضعفه حتى عجز عن الكلام أو رفع ذراعيه. وبقى فى خيمته لمدة أسبوعين، مقتنعًا بأن نهايته قد صارت وشيكة، وحينئذ استدعى مساعديه الأوروبيين، الذين كانوا يعتمرون بالقبعات الواقية من الشمس، وعماله الأفارقة كى يعطيهم تعليماته الأخيرة ويودعهم، ويقوم – هكذا ادعى – بعمل أخير من أعمال الوفاء : "أخبروا الملك ... إننى آسف لعدم استطاعتى استكمال المهمة التى كلفنى بها".

وأبل من مرضه، غير أنه بعد بضعة أشهر سقط مريضًا مرة أخرى، وحُمِل فى النهر إلى الشاطئ عند ليوبولدفيل وهو غائب عن الوعى. وفى سنة ١٨٨٢، وهو يكاد يكون عاجزًا عن المشى، عاد إلى أوروبا ليسترد عافيته، مسافرًا على متن سفينة بخارية برتغالية بطيئة. وفى تلك السفينة انفجر غضبه لما شاهد ركاب الدرجة الثانية "عديمى التربية" وقد سُمح لهم بارتياد الدرجة الأولى، حيث "كانوا يبصقون ويدخنون ويفرضون سلوكهم الاشتراكى". وأسوأ من ذلك كان اجتياح ركاب الدرجة الثالثة "من إناث ونحو عشرة من الأطفال البيض أنصاف العرايا".

وفى النهاية أُنقذ من تلك المعاملة المهينة بوصول السفينة إلى أوروبا. وحذر الأطباء ستانلى من أن عودته إلى الكونجو قد تكون فيها نهايته، غير أن ليوبولد أصر على ذلك : فلا زال هناك الكثير مما يحتاج أن يُنجز. ولم يكن الملك يريد استكمال مستعمرته فقط وإنما كان يرغب أيضًا فى إبعاد المستكشف لبضع سنوات أخرى لأن ستانلى، بوصفه طلقة مدفع من الصعب التحكم فيها أمام الملأ، داوم على ترديد الحديث علانية عن آماله فى كونجو بريطانى. واستخدم ليوبولد سحره الملكى وقال له: "لعلك يا مستر ستانلى لا تفكر فى تركى الآن بينما أنا فى أشد الاحتياج إليك ؟" وفى اللحظة التى كان يكافح فيها انتكاسة مرضية مؤلمة أصدر ستانلى أوامره بشحن دفعة جديدة من التجهيزات والمؤن، وعاد إلى الكونجو بعد شهرين فقط.

وأراد ليوبولد، والجائزة الكبرى على وشك السقوط فى قبضته، أن يستولى على أكبر مساحة ممكنة من أراضى الكونجو، وأن يستولى عليها الآن. فكانت تعليماته وخطاباته إلى ستانلى طوال تلك السنوات تنبض بتلهفه على الأراضى.

"إنى أنتهز فرصة آمنة كى أرسل لك بضع سطور بإنجليزيتى الركيكة ... إنه لأمر لا غنى عنه أن عليك أن تشترى ... أكبر مساحة من الأراضى تستطيع الحصول عليها، وأن تفرض سلطانك على كل رؤساء القبائل من مصب الكونجو حتى مساقط ستانلى بالتتابع بأسرع ما يمكن ودون أن تضيع دقيقة واحدة ... وإذا أحطتنى علمًا بأنك ستنفذ هذه التعليمات دون إبطاء فسوف أرسل لك رجالاً وعتادًا أكثر، وربما عمالاً صينيين".

وعلى الرغم من تأكيده الكاذب للسفير البريطاني في بروكسل أن مغامرته في أفريقيا "ليس لها صفة تجارية؛ فهي لم تسوِّق للتجارة"، فإن ليوبولد كان قد كتب فعلاً لستانلي، "إني أريدك أن تشترى كل العاج الذى يمكن العثور عليه في الكونجو، وأحِط الكولونيل شتراوتش علماً بالبضائع التي يتوجب عليه أن يرسلها لك كي تدفع ثمنه ومتى يفعل ذلك. وأوصيك أيضاً أن تنشئ حواجز وتفرض رسوماً على الطرق التي أنشأتها. فهذا أمر عادل ويتفق مع ما تعارفت عليه كل الدول".

وكان ليوبولد وستانلي يعلمان أن أوروبيين آخرين قد بدأوا يتسقطون الأخبار حول الحوض. وكان همهم الأكبر هو المستكشف والضابط البحرى الفرنسي الكونت بيير سافورنان دى برازا (Count Pierre Savorgnan de Brazza) الذى نزل إلى اليابسة شمال نهر الكونجو واتجه إلى داخلية البلاد. وذات يوم وبينما كان ستانلي لا يزال يشيد ممره حول الشلالات فوجئ بالفرنسي الودود، مرتدياً قبعة بيضاء وسترة بحرية زرقاء، يظهر أمام خيمته. وأصابت ستانلي صدمة أكبر عند بحيرة ستانلي عندما تبين له أن برازا قد وقع معاهدة مع أحد رؤساء القبائل تمنح فرنسا شريطاً من الأرض على الساحل الشمالي للبحيرة. وكان برازا قد ترك رقيباً لقيادة الموقع هناك ويرفع العلم الفرنسي.

وكان ستانلي لا يطيق أى منافس، وفي السنوات القليلة التالية دخل هو وبرازا في عداء صاخب. فقد ادعى ستانلي أن معاهدة المستكشف الفرنسي كانت مبنية على الخديعة؛ وقال منافسه إن ستانلي محارب وليس صديقاً للأفارقة. وأُعجبت الصحافة الفرنسية بهذا النزاع. وفي الوقت الذى كان فيه ليوبولد يخطط مع ستانلي للتفوق في الحيلة والدهاء على برازا، إذا به يدعو الفرنسي إلى بروكسل من وراء ظهر ستانلي ويمنحه وسام ليوبولد، ويحاول عبثاً استئجاره.

وبدأت المساجلات بين ستانلي وبرازا تثير الانتباه في مكان آخر. فقد أعادت البرتغال الخَرِفة إحياء ادعائها بامتلاك الأراضي المحيطة بمصب نهر الكونجو. وأيدتها بريطانيا، وقد أقلقها الاهتمام الفرنسي بالكونجو. وأدرك ليوبولد أنه ليس لديه وقت يضيعه.

واشتدت قسوة ستانلى على رجاله بعد أن ازدادت عليه الضغوط. وانفجر غاضباً من معاونيه البيض لإفراطهم فى الشراب أو لتركهم الحشائش تنمو حول محطاتهم النهرية. "إن هؤلاء الناس يسببون لى مشاكل أكثر من كل القبائل الأفريقية مجتمعة. وأحدثوا عندى شعوراً بالاشمئزاز بحيث أفضل أن أعمل كماسح للأحذية طول عمرى عن أن أكون مرضعة لأناس لا حق لهم ... فى ادعاء الرجولة". وعلى الرغم من سجله الموجز غير الناصع باشتراكه مع كلا الجانبين فى الحرب الأهلية الأمريكية؛ فإن ستانلى كان فى صميم قلبه رجلا عسكريا. فكان يعشق النظام والانضباط وكان قائداً مخيفًا ولكنه كان فعالاً. فكان، حتى ذلك الحين، قد جمع جيشًا خاصًا قويًا مزوداً بألف بندقية سريعة الطلقات واثنى عشر مدفعًا صغيراً وأربعة بنادق آلية. وانتشرت بين جنوده الزنزباريين مقولة سواحيلية هى: "البندقية هى سلطان المناطق النائية" (Bunduki sultani ya bara tiara).

وفى تلك الأثناء استأجر ليوبولد عالمًا من أكسفورد هو السير ترافرس تويس (Sir Travers Twiss)، كى يزوده برأى قانونى سليم يؤيد حق الشركات الخاصة فى التصرف وكأنما هى دول مستقلة عند توقيع معاهدات مع رؤساء القبائل من الوطنيين. وكانت لدى ستانلى تعليمات بأن يقود قواته الحسنة التسليح صعوداً ونزولاً فى النهر وألا يفعل أكثر من ذلك. وكانت أوامر ليوبولد أن "المعاهدات يجب أن تكون مختصرة بقدر الإمكان، وتمنحنا كل شىء فى بنود قليلة".

وكان ذلك هو ما تم. وبعد أن أنجز ستانلى ورجاله العمل، كان العلم الأزرق ذو النجمة الذهبية يرفرف على قرى وأقاليم تحت إمرة ما يربو على ٤٥٠ رئيس قبيلة من قبائل الحوض، أو هكذا ادعى ستانلى. وتباينت نصوص المعاهدات، غير أن العديد منها منح الملك احتكاراً تجاريًا مطلقًا، حتى فى الوقت الذى كان يهدئ هو فيه من روع المرتابين الأوروبيين والأمريكيين بإصراره على أنه يفتح أبواب أفريقيا للتجارة الحرة. وأهم من ذلك كله أن رؤساء القبائل وقعوا على منح أراضيهم لليوبولد وفعلوا ذلك دون مقابل تقريبًا. وسجل ستانلى فى يومياته أنه تمكن من شراء أراض لإنشاء محطة بتزويد بعض رؤساء القبائل بكمية وافرة من الملابس الجميلة وسترات الخدم والبذلات النظامية المبهرجة ومجموعة منوعة من البضائع المتوفرة فى الأسواق ... غير ناسين

زجاجتين من الجين". وكان غزاة أفريقيا، مثلهم فى ذلك مثل غزاة الغرب الأمريكى، قد اكتشفوا أن الخمر لها تأثير يماثل تأثير المدافع الرشاشة.

وكلمة "معاهدة" هى تعبير مهذب عن شىء كريه، فكثير من رؤساء القبائل لم تكن لديهم أدنى فكرة عما كانوا يوقعون عليه. والنادر منهم من كان قد شاهد كلمةً مكتوبةً من قبل، وكان المطلوب منهم أن يرسموا علامات إكس (X) على وثائق مكتوبة بلغة أجنبية وبصياغة قانونية. وكانت فكرة معاهدة صداقة بين عشيرتين أو قريتين فكرة مألوفة؛ بينما كانت فكرة التوقيع على التنازل عن الأرض لشخص على الجانب الآخر من المحيط فكرة لا يتصورها أحد. فعلى سبيل المثال، هل كانت لدى رؤساء نجومبى (Ngombi) ومافيلا (Mafela) أدنى فكرة عما اتفقوا عليه يوم ١ أبريل ١٨٨٤؟ ففى مقابل "قطعة واحدة من القماش شهريا لكلٍّ من الموقعين أدناه، بجانب هدية من القماش فى أيديهم"، "وبحرية تامة من جانبهم ومن جانب ورثتهم وخلفائهم إلى الأبد ... وافقوا على أن يتنازلوا إلى المؤسسة المشار إليها آنفًا عن السيادة، وكل حقوق الحكم، على أقاليمهم ... وأن يساهموا بالعمالة وغيرها فى أية أعمال أو تحسينات أو بعثات استكشافية تقوم بها فى أى وقت المؤسسة المشار إليها آنفًا فى أى جزء من تلك الأقاليم ... وكل الطرق والمجارى المائية التى تسير فى هذا الإقليم، وحقوق جمع الرسوم عليها، وكل الحيوانات المصادة وصيد الأسماك وأعمال المناجم وحقوق الغابات، تئول ملكيتها ملكية مطلقة إلى المؤسسة المشار إليها آنفًا".

بالعمالة وغيرها. ولم تشتر قطع قماش ستانلى الأراضى فحسب وإنما أتت بالأيدى العاملة. وكانت تلك المقايضة أسوأ مما حصل عليه الهنود الحمر فى صفقة بيعهم لمانهاتن.

* * *

ما نوع المجتمعات الموجودة فى تلك الأراضى والتى كان ستانلى، دون علم غالبية سكانها، يجاهد فى سبيل ضمها لممتلكات ملك البلجيكيين؟ ليست هناك إجابة بسيطة عن هذا السؤال، فالمناطق التى تمخضت عنها حدود الكونجو إن وُضعت على خريطة أوروبا لغطت مساحة من الأرض تمتد من مدينة زيوريخ السويسرية إلى موسكو وإلى أواسط

تركيا. وكانت فى حجم الولايات المتحدة شرق نهر الميسيسيبى. ورغم أن غالبيتها مناطق غابات استوائية مطيرة وسافانا؛ فإنها أيضًا تحوى تلالاً بركانية وجبالاً مغطاة بالثلوج والأنهار الجليدية، وبعضها أعلى من جبال الألب.

أما سكان ذلك الإقليم الشاسع فكانوا خليطًا متباينًا مثل طبيعة الأرض. وتراوحوا ما بين مواطنين لممالك ذات تنظيمات إدارية معقدة إلى أقزام غابات الإيتورى (Ituri)، الذين كانوا يعيشون فى مجموعات صغيرة دون رؤساء وليس لديهم أى شكل من أشكال الحكومة الرسمية. ونزعت الممالك، التى كانت عواصمها مدنًا كبيرة، إلى التواجد فى مناطق السافانا حيث يكون السفر لمسافات بعيدة أكثر يسرًا. وبصورة عامة كانت المجموعات التى تعيش فى الغابات المطيرة أقل عددًا لأن الطرق كان لا بد من شقها خلال أحراش كثيفة وسريعة النمو. وأحيانًا كان سكان الغابات أولئك أشبه بالبدو الرحل : فإذا ما اصطاد الأقزام فيلاً، مثلاً، يصبح مكان الصيد مقرًا مؤقتًا للاحتفال لمدة أسبوع أو أسبوعين، لأنه كان من الأيسر لهم أن ينقلوا قرية عن أن ينقلوا فيلاً ميتًا.

وعلى الرغم من أن بعض أقوام الكونجو، مثل الأقزام، كانوا مسالمين بطريقة مثيرة للإعجاب، فإنه من الخطأ البين أن نظن أن غالبيتهم كانوا مثالاً للسذاجة البدائية. فالكثير منهم كان يتاجر فى الرقيق، وقليل منهم كان من أكلة لحوم البشر بصورة طقوسية، كما كان من الممكن أن يشتبكوا فى حروب مع قبائل أو مجموعات عرقية أخرى مثل غيرهم من سكان الأرض. وكذلك كانت تقاليد الحروب فى تلك البقعة من أفريقيا، مثل اعتبار رأس مقطوعة أو كف مبتورة برهانًا على موت عدو، لا تقل وحشية عن أى مكان آخر. وفى أقصى شمال الكونجو كانت بعض النسوة تُشَوَّه بختانهن قسرًا، وهى ممارسة لا يقلل من بشاعتها ممارستها بوصفها من الطقوس الحضارية للاحتفال ببلوغ الفتاة سن الرشد.

وعلى شاكلة العديد من الشعوب الفطرية، كانت شعوب حوض الكونجو قد تعلمت أن تتعايش فى توازن مع البيئة المحيطة بهم. فبعضها كان يمارس ما كان فى حقيقة أمره تنظيمًا للنسل، حيث يمتنع الزوجان عن العلاقة الزوجية قبل أن يخرج الرجال إلى

رحلات الصيد، أو طالما كانت المرأة ترضع رضيعًا. أو كانوا يستخدمون أوراق شجر ولحاءها يمكن أن تسبب الإجهاض أو لها خواص مانعة للحمل. وكل تلك الوسائل كانت تتشابه تشابهًا مذهلاً، وبالصدفة البحتة، مع تلك التى تطورت فى غابة مطيرة كبيرة أخرى على مبعدة محيط، وهى حوض نهر الأمازون.

وهناك أمر آخر لافت للنظر يتعلق بالمجتمعات التقليدية فى الكونجو هو أعمالها الفنية الرائعة: السلال والحصر المجدولة وصناعات الفخار وأشغال الحديد والنحاس، وفوق كل شىء الحفر على الخشب. ومر عقدان من الزمان قبل أن ينتبه الأوروبيون بحق إلى ذلك الفن. وكان لاكتشافه تأثير قوى على براك (Braque) وماتيس (Matisse) وبيكاسو (Picasso) الذى احتفظ فيما بعد بنماذج من الفن الأفريقى فى مرسمه حتى مماته. وكانت التكعيبية (Cubism) جديدة على الأوروبيين فقط لأنها كانت مستوحاة بصورة جزئية من قطع فنية أفريقية معينة من شعوب بِند (Pende) وسونجى (Songye) التى تعيش فى حوض نهر كاساى (Kasai)، وهو واحد من أكبر روافد الكونجو.

ومن اليسير إدراك الذكاء المميز الذى سلب لب بيكاسو ورفاقه فى لقائهم الأول مع ذلك الفن فى معرض فنى أقيم فى باريس سنة ١٩٠٧ . ففى تلك التماثيل من أواسط أفريقيا بولغ فى بعض أجزاء الجسم، وانكمشت أجزاء أخرى، وجحظت الأعين، وانخسفت الوجنات، واختفت الأفواه، واستطالت جذوع الأجسام، وتمددت محاجر العيون بحيث غطت الوجه بأكمله تقريبًا، وتفككت أوصال الوجوه والأشكال الخارجية البشرية ثم أعيد تجميعها فى أشكال وأبعاد جديدة كانت قبلها فوق تصور الواقعية الأوروبية التقليدية.

وقد انبثق الفن من حضارات كانت تتسم، من بين سماتها المتعددة، بإحساس بحدودٍ أكثر تخلخلاً مما فى الإسلام أو المسيحية، بين عالمنا والعالم الآخر، وبين عالم البشر وعالم الحيوانات. وعلى سبيل المثال، كان ملك شعب البوليا (Bolia) وهو شعب من شعوب الكونجو، يُختار بواسطة مجلس من الشيوخ، وبواسطة الأسلاف، الذين كانوا يظهرون له فى حلم، وأخيرًا بواسطة الحيوانات البرية، التى تبدى موافقتها

بالزئير طوال ليلة يقضيها المرشح الملكى فى منطقة معينة من الغابة المطيرة يُترك فيها. ولعل مرونة تلك الحدود هى التى منحت فنانى أواسط أفريقيا حرية التعبير التى لم تكن أوروبا قد اكتشفتها بعد.

* * *

وفى يونيو من سنة ١٨٨٤ أبحر ستانلى إلى أوروبا بعد أن انتهت الأعمال الخاصة بليوبولد وفى حقيبته حزمة من المعاهدات. وتذمر قليلاً من جشع مستخدمه؛ فشكا من أن الملك "عنده نهم هائل لابتلاع مليون ميل مربع ببلعوم لا يسع سمكة رنجة". غير أن ستانلى كان هو الذى مكن الملك من ذلك.

وبينما هو يستقر فى إنجلترا ليكتب وصفه ذا الألفى صفحة المعتادين والمكون من جزأين وجد حوله أوروبا وقد انتبهت لأفريقيا، والتدافع قد بدأ. فالمعاهدة التى أبرمها دى برازا على ضفاف بحيرة ستانلى سرعان ما ترتب عليها تأسيس مستعمرة فرنسية على الضفة الشمالية الغربية لنهر الكونجو. وفى ألمانيا تاق المستشار أتو فون بيسمارك (Otto von Bismarck) إلى مستعمرات فى أفريقيا. أما البريطانيون، أصحاب أهم المواقع فى القارة، وكانوا خارج تلك اللعبة وغير منتمين لأى جماعة، فقد بدءوا يقلقون من المنافسين.

وكان ليوبولد واثقًا أن لا أحد من تلك القوى الأكبر منه سيتحمس للاعتراف بمستعمرة الرجل الواحد التى اقتنصها له ستانلى. بيد أن الاعتراف الدبلوماسى تحكمه السوابق بصورة جزئية. فلو أن قوة عظمى واحدة اعترفت بوجود كيان آخر فإن باقى الأمم فى الأغلب سوف تتبعها. فإن لم تتخذ أى من القوى الكبرى تلك الخطوة فقد قرر ليوبولد أن يبحث عن الاعتراف فى مكان آخر. وفعلاً كان الملك قد شرع، دون أن يلحظه أحد فى قارته، فى تنفيذ حيلة مبهرة فى كل أنحاء أوروبا.

الفصل الخامس

من فلوريدا إلى برلين

غطى سقوط كثيف للجليد فى أواخر الربيع بصورة غير مألوفة عشب البيت الأبيض بينما كان الرئيس تشستر أ. آرثر (Chester A. Arthur) وهو معتمر قبعة حريرية عالية، يستقل عربة قطار خاصة أعارته إياها سكك حديد بنسلفانيا ومتجهًا إلى الجنوب لقضاء إجازة. وكان قد أخبر معاونيه أنه مرهق من ارتفاع ضغط دمه وأمراض أخرى وأنه فى حاجة إلى فترة راحة جيدة فى فلوريدا. ورافقه فى رحلته مغادرًا واشنطن فى ذلك اليوم الخامس من أبريل ١٨٨٣، وزير البحرية ووصيفه الخاص وسكرتيره الخاص وطباخه الفرنسى، الذى وصفه صحفى كان يرافقهم على القطار بأنه "سيد ذو خصر مكتنز ... ومن الواضح أنه شخص أكول". ورافقهم أيضًا صديق للرئيس، وانضم إليهم عدد من أقرباء زوجته الراحلة بينما كان القطار يقطع طريقه إلى الجنوب. وبعد أن مر القطار على مدينة بيترسبرج بولاية فيرجينيا، أثار كمسارى بالقطار ذو لحية رمادية صخبًا بدخوله إلى العربة وإحصائه للمسافرين ومحاولته تحصيل مبلغ ٤٦,٥ دولار أجرة للسفر. وفى محطة التوقف التالية كانت فى انتظاره برقية تأمره بأن يترك الجماعة الرئاسية تسافر مجانًا.

وفى جاكسونفيل بفلوريدا حيت الرئيس وحاشيته واحد وعشرون طلقة مدفع. ثم ركبوا سفينة بخارية مزودة بعجلات تجديف (paddlewheel steamer) فى نهر سانت جونز المتلوى الذى تحفه أشجار السرو ويغص بطيور مالك الحزين والكركى. وفى أثناء الطريق انضم أصدقاء وأقارب آخرون إلى الرئيس الودود وانطلقت الألعاب

النارية من ضفتى النهر. وفى اليوم التالى توقفت السفينة عند بقعة تقع على مبعدة نحو خمسة وثلاثين ميلاً من 'عالم ديزنى' (Disney World) الحالية، حيث ركب الحشد عربات ليزوروا القصر الفخم لمزرعة بلير للبرتقال. وتذوقوا الأنواع المختلفة من برتقال المزرعة الفاخر، وتسلق وزير البحرية شجرة ليقطف بعضًا من البرتقال الذى لفت نظره. وفى المساء حضرت الحاشية الرئاسية حفل غناء راقص لموسيقى البانجو قامت به فرقة مكونة من ستة أولاد من السود المحليين.

والرئيس تشستر أ. آرثر هو واحد من الرؤساء الأمريكيين المنسيين، وكان شخصية اجتماعية ودودة وأقصى وظيفة شغلها، قبلها ببضع سنوات، هى محصل للرسوم الجمركية بميناء نيويورك – وهى وظيفة أُجبر على تركها وسط اتهامات بالفساد وسوء الإدارة. وسرعان ما أكسبته ارتباطاته بالجهاز القوى للحزب الجمهورى بولاية نيويورك ترشيحه نائبًا للرئيس. ودخل البيت الأبيض، وسط فزع شبه إجماعى، عندما اغتيل الرئيس جيمس أ. جارفيلد برصاص قاتل. كان آرثر راويًا جيدًا للحكايات، ومتمرسًا فى شئون الدنيا ومغرمًا بالويسكى والسيجار والملابس الفاخرة. ولعل ما يمكن تذكره عن آرثر المتأنق ذى الشارب القصير هو مقولته: "قد أكون رئيس الولايات المتحدة ولكن حياتى الشخصية ليست من شأن أحد". غير أنه فى تلك الرحلة إلى فلوريدا تلاقت حياته بصورة جيدة مع شئون شخص آخر. فقد كان مالك مزرعة بلير للبرتقال هو الجنرال هنرى شلتون سانفورد، وهو الرجل الذى عاون ليوبولد فى تجنيد ستانلى.

ولم يزعج سانفورد نفسه بترك منزله فى بلجيكا ليكون فى فلوريدا فى أثناء زيارة الرئيس. فبثقة فى النفس يتسم بها فاحشو الثراء لعب دور المضيف المتغيب. فعمل على التأكد من أن وكيله الخاص يستقبل الرئيس وجماعته ويرحب بهم، وأنهم يحصلون على أفخر الغرف فى فندق سانفورد هاوس، الذى يقع على ضفاف بحيرة وتحفه أشجار النخيل فى مدينة سانفورد. وكانوا يقضون فيه غالبية أسبوعهم عندما لا يكونون مشغولين بصيد أسماك القاروس والسمك المرقط أو اصطياد التماسيح أو استكشاف المنطقة بالباخرة. ولا تحوى السجلات إفادة عمن دفع تكاليف الفندق، وفى أغلب الظن أن الرئيس لم يدفع شيئًا مثلما حدث فى رحلة القطار.

ومن المثير للسخرية أن مزرعة سانفورد للبرتقال هائلة الحجم التى أثارت إعجاب الزوار من واشنطن كانت مغامرة خاسرة على غرار سائر استثمارات سانفورد. فبعض العمال السويديين الذين تعاقد معهم للعمل بالمزرعة وجدوا أن شروط العمل شديدة القسوة فحاولوا الهرب بالتسلل على متن باخرة. وتبين أن قدرات مجزر، استثمر فيه سانفورد أموالاً تصل إلى خمسين ضعفاً لاحتياجات السوق المحلى، وانتهى أمرها إلى الإفلاس. وانتهى مصير رصيف لتحميل السفن بلغ طوله ٤٥٠ قدماً (١٥٠ متراً) وفى نهايته مستودع للتخزين إلى أن أمواج الفيضان اجترفته. وفر واختفى عن الأنظار مدير لواحد من فنادقه فى مدينة سانفورد وفى حوزته أموال اختلسها. وأهمل رؤساء العمال فى إقامة الأسوار مما ترتب عليه أن قطعان الماشية أخذت تقضم فى أشجار البرتقال. غير أنه على الرغم من أن ما كان سانفورد يلمسه كان يتحول إلى تراب فإنه، بوصفه شريكاً لليوبولد، قد نجح نجاحاً باهراً.

كان سانفورد من المناصرين القدامى لحزب الرئيس آرثر الحزب الجمهورى. وكان فى العامين السابقين يتراسل مع آرثر وغيره من كبار موظفى حكومة الولايات المتحدة حول الخطط التى يبيتها ليوبولد للكونجو. والآن، وبعد رحلة الرئيس إلى فلوريدا، وقد صار على ثقة من أن الرئيس سيستمع إليه، فإنه ضغط بشدة بالمزيد من الخطابات لتمرير قضيته. وبعد ذلك بسبعة أشهر بعث ليوبولد بسانفورد عبر الأطلنطى للاستفادة من علاقاته الملائمة بالبيت الأبيض. والآن صار الرجل، الذى كان يوماً من الأيام السفير الأمريكى فى بلجيكا، المبعوث الشخصى للملك البلجيكى إلى واشنطن.

وحمل سانفورد معه إلى واشنطن شفرة خاصة لإرسال البرقيات إلى بروكسل حاملة الأنباء: فكونستانز (Constance) عنت "المفاوضات ماضية بطريقة مرضية؛ والنجاح متوقع"، وأخيل (Achille) إشارة إلى ستانلى، ويوجينيك (Eugenic) تعنى فرنسا، وأليس (Alice) الولايات المتحدة، وجوزيف (Joseph) تعنى "حقوق السيادة،" وإميل (Emile) تعنى الهدف المحورى أى الرئيس. وكان معنى 'السعادة' (Bonheur) أن "الاتفاق قد وُقع اليوم". وكان الاتفاق الذى ينشده ليوبولد هو أن الولايات المتحدة سوف تعترف اعترافاً دبلوماسياً كاملاً بادعاء ليوبولد ملكية الكونجو.

وحمل سانفورد معه أيضًا خطابًا إلى الرئيس من الملك، راجعه الملك بعناية وترجمه بنفسه. وأعلن ليوبولد أن "كل الأقاليم التى تخلى عنها رؤساء القبائل وملوكها قد شكلنا منها دولاً مستقلة"، وهو ادعاء ارتاع منه ستانلى، الذى كان قد فرغ لتوه من أعماله على نهر الكونجو. وكل ما طلبه ليوبولد من آرثر هو "الإعلان الرسمى أن حكومة الولايات المتحدة [سوف] تعتبر الراية الزرقاء ذات النجمة الذهبية راية صديقة ... وهى الراية التى ترفرف الآن فوق ١٧ محطة والعديد من الأقاليم وسبعة بواخر منهمكة فى الأعمال الحضارية للمؤسسة وتحتها عدد من السكان يبلغ عدة ملايين".

وفى يوم ٢٩ نوفمبر ١٨٨٣، وبعد يومين فقط من وصول سفينة سانفورد إلى نيويورك وركوبه القطار الليلى فى طريقه إلى واشنطن، استقبله الرئيس آرثر فى البيت الأبيض. وأخذ يتحدث إلى الرئيس وإلى كل من قابله فى واشنطن عن الأعمال الحضارية العظيمة التى يقوم بها ليوبولد وكيف أنها تشبه كثيرًا العمل النبيل الذى قامت به الولايات المتحدة ذاتها فى ليبيريا، عندما نقلت العبيد الأمريكيين المعتقين بدءًا من سنة ١٨٢٠، إلى المكان الذى سرعان ما أصبح دولة أفريقية مستقلة هى ليبيريا. وكان انتقاء سانفورد لذلك المثال حنكة وذكاء؛ لأن حكومة الولايات المتحدة لم تكن هى التى أعادت توطين العبيد السابقين فى ليبيريا، بل كان ذلك من عمل جمعية خاصة على غرار مؤسسة ليوبولد الدولية للكونجو.

ومثل كل الممثلين فى طاقم ممثلى ليوبولد الشديدى الحِرَفية، كان سانفورد يستخدم الحجج الملائمة. فمثلاً كان يدعى أن معاهدات ليوبولد مع الرؤساء الكونجوليين تماثل تلك التى أبرمها القس البيوريتانى روجر ويليامز، الذى اشتهر بإيمانه بحقوق الهنود الحمر، فى رود أيلاند (Rhode Island) فى القرن السابع عشر - وبمحض الصدفة كانت مع سانفورد نسخ من تلك المعاهدات. ويضاف إلى ذلك أن ليوبولد قطع على نفسه وعدًا فى خطابه للرئيس آرثر بأن الرعايا الأمريكيين سيمكنهم شراء الأراضى فى الكونجو وأن البضائع الأمريكية ستكون معفاة من رسوم الجمارك هناك. وتأييدًا لتلك الوعود كان مع سانفورد نسخة من واحدة من معاهدات ليوبولد مع أحد زعماء الكونجو. غير أن تلك النسخة كانت قد عُدِّلت فى بروكسل لمحو أية إشارة إلى احتكار

التجارة الذى منحوه لليوبولد، وهو تغيير لم يخدع آرثر فقط وإنما سانفورد أيضًا، وهو الداعية المتحمس للتجارة الحرة والذى أراد أن يكون الكونجو مفتوحًا أمام رجال الأعمال الأمريكيين مثله.

وفى واشنطن ادعى سانفورد أن النفوذ المهذَّب لليوبولد سيكون فى مواجهة الممارسات البشعة لتجار الرقيق "العرب". وأليست تلك "الدول المستقلة" تحت الحماية النبيلة للمؤسسة هى حقًا ضرب من الولايات المتحدة الكونجولية ؟ ولا ننسى أن سانفورد كتب إلى وزير الخارجية الأمريكى فردريك فريلينجيوسن (Frederick Frelinghuysen) أن الكونجو "قد اكتُشِفت بواسطة أمريكى" (وكان ستانلى لا يزال يدعى بإصرار أنه وُلد وتربى فى الولايات المتحدة). ولم يمض إلا أسبوع على وصول سانفورد إلى واشنطن حتى أدمج الرئيس بكل سرور فى خطابه السنوى إلى الكونجرس، النص الذى كتب له سانفورد مسودته، ولم يغير منه إلا النزر اليسير، عن أعمال ليوبولد السامية فى الكونجو:

"إن وادى الكونجو الغنى والكثيف السكان قد فُتِح بواسطة جمعية تسمى المؤسسة الدولية للكونغو، التى يرأسها ملك البلجيكيين. ... وقد تنازل الرؤساء الوطنيون عن مساحات كبيرة من الأراضى للجمعية، وعُبِدت فيها الطرق، ووُضعت البواخر فى النهر وتأسست نويات الدول ... تحت علم واحد يوفر الحرية للتجارة ويحرم تجارة الرقيق. إن أهداف الجمعية إنسانية. فهى لا تهدف إلى سيطرة سياسية دائمة، ولكنها تنشد حياد الوادى".

وابتهج ليوبولد وهو يرى دعايته تأتى من فم الرئيس بتلك البساطة. وأبرق مساعده الكولونيل ماكسيميليان شتراوتش إلى سانفورد: "مسرور ومبتسم".

وفى أعقاب ذلك ركز سانفورد جهوده على الكونجرس. فاستأجر منزلاً بشارع ج رقم ١٩٢٥، على مبعدة بضع مربعات سكنية من البيت الأبيض، وأبرق لزوجته وطباخه كى يحضرا من بلجيكا، وشرع فى إقامة الولائم وتقديم الخمور لأعضاء الكونجرس بمجلسيه وأعضاء مجلس الوزراء. كانت تلك أحلى ساعات سانفورد، فشخصيته التى

جعلت منه إنسانًا حلو المعشر وفى نفس الوقت رجل أعمال مثيرًا للشفقة ساعدته بصورة مدهشة على أن يكون محدثًا مؤثرًا. وكان لديه قبو خمور ممتاز، وكان يُكنى بالدبلوماسى ذى الذوق المتميز فى الطعام والشراب. وكتب إليه أحد زواره : "كم كان ساحرًا ذلك العشاء فى بيتك وكانت له سيماء ملَكية أيضًا". وكان وزير الخارجية فريلينجيوسن من ضيوفه المعتادين، ووجد الرئيس آرثر وأعضاء الكونجرس ومجلس الوزراء أنفسهم يتلقون صناديق من برتقال فلوريدا.

وفى أثناء ما كان يكسب تأييد أعضاء الكونجرس بمطالبة ليوبولد بالكونجو، اكتشف سانفورد حليفًا غير متوقع هو السناتور جون تايلر مورجان (John Tyler Morgan) من ولاية ألاباما، وهو بريجادير جنرال سابق فى الجيش الكونفدرالى [الجنوبى]، وكان يرأس لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس. ومثل الغالبية الساحقة من السياسيين الجنوبيين البيض فى ذلك العصر كان يرتعد فَرَقًا من شبح ملايين العبيد المحرَّرين ونسلهم الذين يضمرون أحلامًا متوعدة عن المساواة. وكان السناتور ذو المظهر العنيف والشارب ضئيل الجسم ولكنه كان صاخبًا فى نوبات الغضب، وكان يتوعد منذرًا بشأن أخطار "حكم الزنوج الذى سيُفرض بالقوة"، لأن السود "مندسون ... وسط عائلات البيض"، حيث يمكنهم أن "يتسببوا فى مصير أسوأ من الموت لامرأة ساذجة". وظل مورجان قلقًا لسنوات حول "مشاكل" هؤلاء السكان السود المتزايدين فى العدد. وكان الحل الذى يقترحه، وصادقه على ذلك كثيرون، حلا بسيطا: أرسلوهم إلى أفريقيا مرة أخرى!

وفى مراحل عديدة من تاريخه المهنى الطويل كان مورجان لا يفتأ يحث على "خروج عام" للسود الجنوبيين، وفى مرات نادى بإرسالهم إلى هاواى وإلى كوبا وإلى الفلبين التى كان يدعى، ربما بسبب بعدها السحيق، أنها "الموطن الأصلى للزنوج". غير أن أفريقيا كانت على الدوام اختياره الأول. وبالنسبة له، كانت دولة ليوبولد الجديدة هبة من السماء. ألن يحتاج ذلك الإقليم إلى عمالة لتنميته ؟ وألن يكون الكونجوليون متحمسين للتجارة مع الولايات المتحدة إذا وجدوا أن الأمريكيين الذين عرفوهم لهم نفس لون البشرة ؟ وألا يمكن أن تصبح الكونجو سوقًا لفائض إنتاج الجنوب من القطن ؟

وصرح في الكونجرس فيما بعد بأن "أفريقيا جاهزة للزنوج مثلما أن جنات عدن كانت جاهزة لآدم وحواء ... ففي حوض الكونجو نحن نجد أحسن أنواع الجنس الزنجي، ويستطيع الزنجي الأمريكي ... أن يجد مجالاً لجهوده".[1]

ووافقه سانفورد على ذلك تمامًا. وعلى الرغم من أنه وُلد في كونيتيكت؛ فإنه بمجرد أن استثمر أمواله في الجنوب سرعان ما استوعب فكرة 'أعيدوهم – إلى – أفريقيا' التي كان رجال الأعمال البيض هناك ينادون بها. وكان قد صرح بأنه "يمكن أن يصبح الكونجو متنفسًا لاستثمارات وطموحات مواطنينا السود في مجالات أكثر مناسبة لهم من السياسة". واستمر حتى نهاية حياته يروج لفكرة "أرض كنعان الجديدة لبني إسرائيل المحدثين"، والتي يمكن أن تكون "الأرضية التي تفرغ شحنات الكهرباء المتجمعة في السحب السوداء التي تخيم فوق الولايات الجنوبية". ولقد عثر سانفورد ومورجان على هذا الأمر صدفةً وبطريقة رائعة. وبدأ مورجان بدوره يتلقى صناديق برتقال فلوريدا.

وفي أوائل سنة ١٨٨٤ قدم مورجان مشروع قرار إلى الكونجرس تأييداً لادعاءات ليوبولد في الكونجو، وكان قد أرسل مسودته إلى سانفورد مسبقًا. وطالب سانفورد بالمزيد، مثل أي جماعة ضغط سنحت لها الفرصة. فأضاف إلى الأراضي التي أشار إليها مورجان "أراض تصرف في نهر الكونجو" كلمات "روافده والأنهار المجاورة"، وهي جملة يمكن تفسيرها بأنها تعني كل أواسط أفريقيا. وخفف مجلس الشيوخ من حدة ذلك، وسرعان ما مرر نسخة معدلة من مشروع مورجان. كما أصدر أيضًا ألف نسخة من تقرير مطول عن الكونجو باسم مورجان وإن كان سانفورد قد كتب غالبيته. وجاء في التقرير: "يمكن الجزم باطمئنان على أنه لم يحدث من قبل أن شعبا همجيًا تولته الرعاية الخيرة لمشروع مثلما حدث لقبائل الكونجو، ولم يحدث من قبل أن بُذِل جهد نبيل وصادق في سبيل ... رفع شأنهم".

---

(١) ألقى مورجان تلك الخطبة تأييدًا لمشروع قانون لاعتماد ميزانية لتمويل تكاليف نقل السود الجنوبيين المهاجرين إلى الخارج. ورداً على ذلك الاقتراح اتخذ مؤتمر للأمريكيين الأفارقة عُقد في شيكاجو قراراً يحث على تمويل فدرالي لهجرة البيض الجنوبيين، وعلى الأخص السناتور مورجان.

ونظراً لإدراكه أن جمهوريي الرئيس آرثر يرهفون السمع باهتمام للشئون التجارية؛ فإنه عمل على أن تصدر الغرفة التجارية فى نيويورك قراراً تعضد فيه اعتراف الولايات المتحدة بمؤسسة ليوبولد. وبدأت تقارير صحفية مؤيدة لأعمال ليوبولد الإنسانية تتصدر صفحات كبريات الصحف الأمريكية، مدفوعة، كما كان العهد آنذاك، بمبالغ مالية دفعها سانفورد سرا. ولعل حملة سانفورد المتعددة الطبقات كانت أكثر الضغوط تعقيداً فى واشنطن لصالح حاكم أجنبى فى القرن التاسع عشر، وآتت أُكُلها يوم ٢٢ أبريل سنة ١٨٨٤ . فقد أعلن وزير الخارجية أن الولايات المتحدة الأمريكية تعترف بحقوق ليوبولد الثانى فى الكونجو. وكانت أول دولة تفعل ذلك.

وكان ليبولد يدرك أنه يدين لسانفورد بتلك الضربة الموفقة العظمى، وكان يدرك أيضاً أن ما يهم "الجنرال" أكثر من المال هو الإطراء الملكى. فدعا إلى الإفطار جرترود زوجة سانفورد التى كانت قد عادت إلى بلجيكا. وكتبت بعدها إلى زوجها: "إنى لا أستطيع أن أعبر لك عن كل المديح والثناء الذى كاله الملك لك ... ولا يمكن يا عزيزى أن يكون هناك من هو أكثر ثناء عليك ورقة معى من الملك والملكة".

وفى خضم ضغوطه البارعة التى قام بها فى واشنطن كان سانفورد يوزع وثائق هنا وهناك تحوى خلطاً متقناً لأسماء المؤسسة الدولية للكونغو، التى يسيطر عليها ليوبولد سيطرة تامة، والاتحاد الدولى الأفريقى، الذى كان فى تلك اللحظة فى حكم الميت ولكنه لا يزال يُتَذكَّر بصورة مبهمة بوصفه جمعية إنسانية لمستكشفين مشهورين وأولياء عهود ودوقات كبار. وكان الجميع فى حال من التشوش المستساغ. بل إن فريلينجيوسن وزير الخارجية، فى تصريحه الرسمى بالاعتراف استخدم كلا الاسمين فى نفس الجملة:

> "تعلن حكومة الولايات المتحدة عن تعاطفها وموافقتها على الأهداف النبيلة والإنسانية للمؤسسة الدولية للكونجو، التى ترعى بالفعل شئون الدول المستقلة التى نشأت هناك، وسوف تصدر أوامرها لضباط الولايات المتحدة العاملين براً وبحراً بالاعتراف بعلم الاتحاد الدولى الأفريقى عَلَمًا لحكومة صديقة".

وسرعان ما اختفت تلك الوثيقة، مثل كل ما يماثلها من وثائق رسمية، فى أضابير خزائن البيروقراطية. ولكنها فيما بعد تغيرت بطريقة غريبة يبدو أن أحداً لم يدركها. فعندما أعيد طبع تلك العبارة بالذات فى العام التالى فى كتاب ستانلى الأكثر مبيعًا "الكونجو وتأسيس الدولة المستقلة: قصة عمل واستكشاف" (The Congo and the Founding of Its Free State: A Story of Work and Exploration)، الذى تُرجِم إلى لغات عدة وقُرِئ فى جميع أنحاء العالم، كان النص مختلفاً. وكان التغير الجوهرى هو أنه لم يشر إلا إلى المؤسسة الدولية للكونغو التى يملكها ليوبولد بالكامل. وفى أغلب الظن أن الكاتب الذى قام بتلك التغييرات كان الملك شخصيًا، الذى راجع بكل دقة مخطوط ستانلى فصلاً فصلاً. وعرف ليوبولد فوائد إعادة كتابة التاريخ قبل أن يعرفها ستانلى بزمن طويل، وكان الأخير يصحح بخط يده أيضًا ما يخطه الكُتاب من مخطوطات.

* * *

كتب ستانلى يقول: "إن اعتراف الولايات المتحدة كان بمثابة ميلاد للمؤسسة فى حياة جديدة"، وكان محقًا فى ذلك. وفى نفس الآونة، وبينما كان سانفورد يتأهب للعودة منتصراً إلى بلجيكا، أنهى الملك صفقة أخرى فى فرنسا. فمثلما كان الحال فى واشنطن، كان للملك رجله فى باريس، وهو تاجر قطع فنية ذو اتصالات جيدة يدعى آرثر ستيفنز. وكان يتفاوض مباشرة مع جول فرى (Jules Ferry) رئيس الوزراء بينما كان ليوبولد يدفع راتبًا شهريًا سخيًا لصحفى بجريدة "لو تمب" (Le Temps) ذات النفوذ كى يضمن سيلاً من المقالات المتعاطفة حول نشاطه فى الكونجو.

ولم يحس الفرنسيون بالتهديد من جانب بلجيكا الضئيلة ولا بسبب الحجم الهائل لمطالب ليوبولد. وكان تخوفهم الأساسى من إفلاس الملك - وهو الشىء الذى كانوا متأكدين من أنه سيحدث - نتيجة لخطته الباهظة التكاليف لإنشاء خط سكك حديدية حول الشلالات، فقد يبيع الإقليم بكامله إلى إنجلترا منافستهم الأولى فى الاستعمار. وعلى أية حال، أفلم ينادى ستانلى المرة تلو المرة بأن يصير الكونجو بريطانياً ؟

وفكر ليوبولد فى أن هذا الوابل المتهور المنهمر من عشق ستانلى للإنجليز قد يكون فى حقيقة أمره مفيداً له. وكان قد أسر للكولونيل شتراوتش قبل ذلك بعدة شهور، بعد وابل من تلك الطلقات أطلقها ستانلى قائلاً: "فى رأيى أننا لا يجب أن نحاول أن نصحح الأمور. فلا ضير أن تتخوف باريس من إنشاء محمية بريطانية فى الكونجو". ولكى يهدأ من قلق الفرنسيين اقترح ليوبولد علاجاً. فإن أبدت فرنسا مطالبه فسوف يمنحها 'حق الأفضلية' (droit de preference) فى الكونجو - وهو ما يطلق عليه محامو العقارات اليوم حق الرفض الأول [حق الشفعة فى القانون المصرى]. وارتاح الفرنسيون وسرعان ما وافقوا. فهم لثقتهم من أن سكك حديد ليوبولد المرتقبة سوف تسارع بإفلاسه وسيضطر حينئذ إلى بيعهم الأراضى، فقد اعتقدوا أنهم قد حققوا صفقة طيبة.

وفُتن الأمريكيون برقة سانفورد ووداعته فلم يبالوا بتحديد حدود ذلك الإقليم النائى الذى اعترفوا ضمنياً بأنه من ممتلكات ليوبولد. بينما كانت فرنسا راغبة فى ترسيم تلك الحدود على خريطة، حيث شملت غالبية حوض نهر الكونجو.

وكان ليوبولد قد استخدم كلمات 'دول مستقلة' فى خطابه إلى الرئيس آرثر. ولكنه فى بياناته التى صرح بها فى الأشهر القليلة التالية تحولت تلك الكلمات إلى 'دولة'. أما فيما يتعلق بالمؤسسة فصرح صحفى بلجيكى سنة ١٨٨٤، مفسراً فكر الملك، بأنها "كانت كياناً مؤقتاً وستختفى عندما تنتهى الأعمال". وبواسطة خفة اليد تلك فإن الكيان الذى اعتُرِف به من قبل قائمة مطولة من دول العالم خلال العام التالى تحول تدريجياً من اتحاد فدرالى لدول تحت حماية مؤسسة خيرية إلى مستعمرة واحدة يملكها رجل واحد.

ووجد ليوبولد أن أقسى بندقة يتوجب عليه أن يكسرها هو بسمارك مستشار ألمانيا. وفى بادئ الأمر أوقع الجشع الملك فى مشاكل. فقد كتب رسالة إلى بسمارك يخبره فيها أنه بجانب حوض الكونجو فإنه يطالب بملكية مناطق غامضة التحديد "أخلتها مصر، وفيها لا تزال تجارة الرقيق مزدهرة. وأفضل شىء للقضاء على جذور

المشكلة والقضاء عليها قضاءً مبرمًا هو السماح لتلك [المقاطعات] بأن تندمج وتدار بواسطة دولة جديدة". ولم يكن بسمارك غبيًا فسطر تعليقًا على الهامش بجوار تلك الجملة: "محتال". وبجوار جملة عن اتحاد فدرالى بين دول مستقلة، كتب "أوهام". ولما ذكر ليوبولد أن الحدود المضبوطة للدولة أو الدول الجديدة سوف يتم تحديدها فيما بعد قال بسمارك لواحد من مساعديه: "إن جلالته يكشف عن ادعاءات وأنانية ساذجة لشخص إيطالى يظن أن سحره وجماله سيمكنانه من أن يستحوذ على أى شىء".

وعلى الرغم من كل ذلك فقد تفوق ليوبولد فى الدهاء حتى على المستشار الحديدى، وكان ذلك مرة أخرى بفضل الوسيط المثالى. كان جرسون بليخرودر (Gerson Bleichroder) هو ممول بسمارك، وهو الذى مول حفر نفق سان جوتارد تحت جبال الألب وغيره من المشاريع، وكان رجلاً يملك نفوذًا كبيرًا خلف الكواليس فى برلين. وكان الملك قد تقابل معه قبل تلك الآونة بعدة سنوات فى أوستند، وهو المصيف البلجيكى الراقى، وأيقن أنه شخص يمكن الاستفادة منه. وكان بليخرودر قد أثبت حسن نوايا ليوبولد بنقله ٤٠٠٠٠ فرنك تبرعًا من الملك لجمعية أفريقيا فى برلين. وكان يبلغ بروكسل بأحدث أنشطة القصر، وفى النهاية تمكن من إقناع صديقه المستشار بسمارك بقبول مطالب ليوبولد فى الكونجو، وفى المقابل كُلف بليخرودر ببعض الأعمال البنكية من قبل مستشارى ليوبولد، كما نال فرصة الاستثمار الشخصى فى الكونجو. وكانت هناك عازفة للبيانو، قيل إنه على علاقة عاطفية بها، فدعيت لإقامة حفل موسيقى فى البلاط البلجيكى حيث قلدها ليوبولد وسامًا.

وكانت مفاوضات الملك مع بسمارك قد وصلت ذروتها فى أعقاب عودة ستانلى إلى أوروبا فى صيف سنة ١٨٨٤ . ولخمسة أيام نزل المستكشف ضيفًا على ليوبولد الذى كان يقضى إجازة فى الشاليه الملكى بأوستند، وهى فيلا ممتدة على شاطئ البحر وتتناثر فيها الأبراج والقلاع. وأحضر الملك طباخًا خاصًا كى يقدم لستانلى إفطارًا إنجليزيًا تقليديًا كل صباح، وكان الرجلان يتباحثان حتى ساعة متأخرة من الليل. وبينما كان ستانلى يتأهب للرحيل وصلت رسالة من بسمارك بها استفسارات عن حدود دولة الكونجو الجديدة، ومكث ستانلى بضع ساعات لكى يرسمها على خريطة

كبيرة على حائط غرفة مكتب الملك. وكان بسمارك قد أقنع نفسه بأنه من الأوفق للكونجو أن تقع فى يد بلجيكا الضعيفة الضئيلة وتكون مفتوحة للتجارة الألمانية عن أن تسقط فى يد فرنسا التى تؤمن بالحماية أو البرتغال أو إنجلترا القوية. ووافق على الاعتراف بالدولة الجديدة مقابل ضمانات لحرية التجارة فى الكونجو (ومثل كل الآخرين، لم يكن بسمارك يعلم شيئًا عن النص الكامل لمعاهدات ليوبولد مع زعماء العشائر).

* * *

وفى أوروبا كان التلهف العارم للأراضى الأفريقية قد صار ملموسًا تقريبًا. وكانت ثمة بعض الادعاءات المتضاربة تحتاج حلا، كما كان من الجلى أن هناك حاجة لقواعد أساسية تسمح بمزيد من تقسيم الكعكة الأفريقية. وعرض بسمارك أن يستضيف مؤتمرًا دبلوماسيًا فى برلين لمناقشة بعض تلك الأمور. وكان المؤتمر بالنسبة لليوبولد فرصة سانحة لإحكام قبضته على الكونجو.

وفى ١٥ نوفمبر ١٨٨٤ اجتمع ممثلو القوى الأوروبية على مائدة كبيرة على شكل حدوة حصان تطل على حدائق المقر الرسمى ذى القرميد الأصفر لبسمارك بشارع فيلهلمشتراسه (Wilhelmstrasse). واتخذ حشد الوزراء والمبعوثين الرسميين بملابسهم الرسمية مجلسهم تحت السقف المعقود والثريات المتلألئة، وشمل كونتات وبارونات وكولونيلات ووزيرًا ممثلاً للإمبراطورية العثمانية. وكان بسمارك يرتدى ملابس بلاط قرمزية اللون وحيا الحاضرين بالفرنسية وهى لغة الدبلوماسية (lingua franca)، وأمامه خريطة كبيرة لأفريقيا، وبدأ المندوبون العمل.

وعلى الرغم من أن ستانلى كان قد أشعل التدافع على الأراضى الأفريقية أكثر من أى شخص آخر، فإنه كان يتوجس شرًا من الجشع الذى يملأ الجو. وكتب يقول إن ذلك ذكَّره كيف كان "أتباعى السود يندفعون بسكاكينهم اللامعة خلف فريسة صيد فى أثناء رحلاتنا". وكان مؤتمر برلين هو ذروة التعبير عن عصر اتضح فيه أن الحماس

الوليد للديمقراطية له حدود واضحة، وأن الفرائس المذبوحة ليس لها صوت فى التصويت. بل إن جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill) الفيلسوف الكبير للحرية الإنسانية كتب فى كتابه "عن الحرية" (On Liberty): "إن الاستبداد هو صيغة مشروعة للحكم عند التعامل مع الهمج شريطة أن يؤدى إلى تحسين أحوالهم". ولم يكن هناك أفريقى واحد جالس إلى المائدة فى برلين.

كان ليوبولد فى موقف قوى بعد أن اعترفت الولايات المتحدة وألمانيا بدولته الجنينية، وبعد إبرام صفقة حق الرفض الأول مع فرنسا. ولم تكن مؤسسته الدولية للكونجو حكومةً – وفى الحقيقة بدا أن المندوبين فى المؤتمر مرتبكون بشأن وضعها – وعلى هذا فلم تُمثل رسميا فى برلين. ولم تكن لدى ليوبولد أية مشكلة فى أن يبقى على علم بما كان يجرى فى المؤتمر. وأول شىء كان صديقه بليخرودر بمثابة أذنه فى العاصمة الألمانية، والذى أقام وليمة فخمة للمندوبين. ويضاف إلى ذلك أن الملك كانت له علاقات وثيقة بما لا يقل عن ثلاثة من وفود الدول.

أولها، ممثلو بلجيكا الذين كانوا من مرءوسيه المخلصين، وواحد منهم عُين سكرتيراً للاجتماع. وثانيها، أن ليوبولد كان على دراية وثيقة بصورة استثنائية بالأمور السرية فى وزارة الخارجية البريطانية، لأن المساعد الخاص للوزير كان يدين بمبلغ كبير من المال لرجل أعمال صديق للملك كان من بين المساهمين الأصليين فى إرسال ستانلى إلى الكونجو. ويضاف إلى ذلك أن مستشاراً قانونيًا للوفد البريطانى هو السير ترافرس تويس (Sir Travers Twiss) كان الملك قد استشاره مؤخراً فى شأن معاهداته مع رؤساء العشائر فى الكونجو. وأخيراً من الذى عُين كواحد من المندوبين الأمريكيين الاثنين فى المؤتمر؟ إنه هنرى شلتون سانفورد، الذى كان يرسل للملك رسائل محملة بالأنباء بصورة شبه يومية. ومن كان "المستشار الفنى" للوفد الأمريكى، حتى رغم تلقيه مرتبًا شهريًا من ليوبولد؟ هنرى مورتون ستانلى. وفيما بين جلسات المؤتمر كان ليوبولد يرسل سانفورد إلى باريس وستانلى إلى لندن فى مهمات ضغط دبلوماسية.

وعلى الرغم من أن دور ستانلى فى برلين كان بصفة عامة أنه رمز لطموحات ليوبولد فى الكونجو؛ فإنه لقى حفاوة وترحيبًا من كل الحاضرين وقضى أوقاتًا رائعة.

وكتب فى يومياته: "هذا المساء نالنى شرف العشاء مع الأمير بسمارك وعائلته. والأمير رجل عظيم وأب حنون ويتميز بالبساطة الرائعة مع أسرته ... ووجه لى الأمير أسئلة عن أفريقيا وتبين لى أنه بصورة عامة متفهم لأوضاع تلك القارة تفهمًا جيداً". وكان بسمارك، وكان لا يزال فى بدايات استحواذه على إمبراطورية ألمانية أفريقية ضخمة، سعيداً بأن المستكشف الشهير يحث على اهتمام ألمانيا بالقارة. فنظم لستانلى سلسلة من المآدب والمحاضرات فى كولون وفرانكفورت وفايسبادن.

وفى برلين المكتسية بالثلوج، لم يكن هناك أحد تقريبًا من المشاركين فى المؤتمر قد شاهد من أفريقيا أكثر من صور المناظر الطبيعية المرسومة على قوائم الطعام فى مآدب بسمارك، فيما عدا ستانلى. ولهذا فعندما كان أحدٌ يتساءل عن السبب فى أن مطالب ليوبولد بهذا الحجم الهائل كان ستانلى يجيب بثقة من أمضى لتوه خمس سنوات فى الكونجو لحساب الملك. وذكر أحد الدبلوماسيين أن ستانلى فى أوائل أيام المؤتمر اتجه إلى خريطة كبيرة لأفريقيا "وفى الحال استرعى انتباه كل المندوبين بشرحه التفصيلى لمعالم حوض الكونجو، ثم تحدث فى النهاية عن الأقاليم [الملاصقة] التى من الضرورى أن تكون تحت نفس نظام الحكم لضمان أقصى قدر من حرية المواصلات".

واشتد أزيز البرقيات ذهابًا وجيئة بين برلين وبروكسل حيث كان ليوبولد يتابع كل حركة. وخلافًا لما هو شائع، لم يقم مؤتمر برلين بتقسيم أفريقيا؛ فالغنائم كانت هائلة الحجم، وسيحتاج تقسيمها كلها إلى المزيد من المعاهدات. غير أنه بحل بعض المطالب المتعارضة (مع حلف مستقل تفاوض الملك بشأنه مع فرنسا) ساعد المؤتمر ليوبولد فى أمر مهم: فكلٌ من الملك وفرنسا والبرتغال نال أراضى بالقرب من مصب نهر الكونجو، ولكن ليوبولد نال أكثر شىء كان يتلهف عليه وهو ميناء متادى على الامتداد السفلى للنهر وكذلك الأراضى التى يحتاجها لبناء سكك حديدية من هناك حول الشلالات إلى بحيرة ستانلى.

وأهم من ذلك فى نظر ليوبولد كان شبكة الاتفاقيات الثنائية التى أبرمها مع دول أخرى فى أثناء وبعد المؤتمر، والتى تعترف بمستعمرته تحت الإنشاء وتحدد حدودها.

فعندما كان يتفاوض مع البريطانيين، على سبيل المثال، ألمح إلى أنه إن لم يحصل على كل الأراضى التى يريدها فإنه سوف يترك أفريقيا كلية، الشىء الذى يعنى، وفقًا لاتفاقية حق الرفض الأول التى أبرمها، أنه سوف يبيع الكونجو لفرنسا. ونجحت الخدعة ورضخت بريطانيا.

كان الأوروبيون لا يزالون يقصرون تفكيرهم فى ثروات أفريقيا على الشريط الساحلى، ولم يكن هناك أى خلاف على التخلى لليوبولد عن المساحات الشاسعة التى كان يريدها من داخلية البلاد. وكان ثمة سبب جوهرى مكنه من أن يضع يده على تلك المساحة الهائلة هو أن الدول الأخرى كانت تظن أنها تعطى موافقتها على ما يشبه مستعمرة دولية - تحت رعاية ملك البلجيكيين لا ريب فى ذلك، ولكنها مفتوحة للتجار من سائر أنحاء أوروبا. ويضاف إلى إيماءات الموافقة الروتينية على حرية الملاحة والتحكيم فى المنازعات والبعثات التبشيرية المسيحية وغير ذلك، أن الاتفاق الجوهرى الذى تمخض عنه مؤتمر برلين كان أن مساحة مهولة الحجم من أواسط أفريقيا، شاملاً أقاليم ليوبولد فى حوض الكونجو، سوف تكون منطقة تجارة حرة.

وأنهى المؤتمر أعماله فى فبراير ١٨٨٥، بتوقيعات على اتفاق وجولة أخيرة من الخطب. ولم يحقق أحد فائدة أكبر من التى حققها الرجل الذى لم يحضر، الملك ليوبولد الثانى. وعند ذكر اسمه فى أثناء حفل التوقيع وقف الحاضرون وصفقوا. وقال المستشار بسمارك فى خطابه الختامى للمندوبين: "إن دولة الكونجو الجديدة مقدر لها أن تكون أهم منفذ لما ننوى عمله، وإنى أتوجه بخالص تمنياتى بالتقدم السريع، ولتحقيق التطلعات النبيلة لمنشئها الشهير". وبعد ذلك بشهرين، وكأنما هى علامة تعجب متأخرة فى ختام خطبة بسمارك، ظهرت سفينة حربية أمريكية هى لانكاستر عند مصب نهر الكونجو وأطلقت واحدًا وعشرين طلقة مدفع تحية للراية الزرقاء ذات النجمة الذهبية.

* * *

لم يبد العديد من البلجيكيين اهتماماً بفوران دبلوماسية ملكهم الأفريقية، إلا أنه بمجرد انتهائها بدءوا يدركون، بمزيد من الاندهاش، أن مستعمرته الجديدة كانت أكبر من إنجلترا وفرنسا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا مجتمعةً. وبلغت مساحتها واحداً على ثلاثة عشر من مساحة القارة الأفريقية، وأكثر من ستة وسبعين ضعف مساحة بلجيكا نفسها.

ولكي يفرق بصورة واضحة بين دوريه، فكر ملك البلجيكيين أولاً فى أن يطلق على نفسه لقب "إمبراطور الكونجو"؛ كما حلا له أن يلهو قليلاً بفكرة إلباس رؤساء العشائر المخلصين أردية رسمية تشابه ما يرتديه حراس برج لندن السمان من أردية حمراء شهيرة. ثم استقر رأيه على الاكتفاء بأن يكون مجرد "عاهل الكونجو المطلق". وفى السنوات التالية أشار ليوبولد إلى نفسه عدة مرات بوصفه "مالك الكونجو"، وهو وصف أكثر دقة – لأن اهتمامه الرئيس فى الإقليم كان جمع كل ما يمكنه من الثروة. ولم تشاركه الحكومة البلجيكية بأية صورة من الصور فى سلطانه كعاهل مطلق للكونجو. وكانت الدهشة تنتاب وزراءه، مثلهم فى ذلك مثل أى شخص آخر، عندما يفتحون صحفهم الصباحية ويجدون أن الكونجو قد أعلنت عن قانون جديد أو أبرمت اتفاقية دولية جديدة.

وعلى الرغم من أن الكيان الذى اعترف به رسميا مؤتمر برلين ومختلف الحكومات كان الاتحاد الدولى الأفريقى أو المؤسسة الدولية للكونغو (أو كلاهما معًا فى حالة وزارة الخارجية الأمريكية المرتبكة)؛ فإن ليوبولد قرر أن يجرى تعديلاً آخر فى الاسم. فتخلى عن التظاهر بوجود "جمعية" خيرية تعمل فى الكونجو وتركها تتبخر. ولم يبق دون تغيير إلا العلم الأزرق ذو النجمة الذهبية. فأصدر أمرا ملكيا فى ٢٩ مايو ١٨٨٥ أعاد فيه تسمية قطره الجديد والذى هو تحت سيطرته الخاصة وأطلق عليه اسم 'دولة الكونجو الحرة'. (Etat Independant du Congo). وسرعان ما نشأ لها نشيد وطنى، "نحو المستقبل". وأخيراً، وفى سن الخمسين، أصبح لليوبولد المستعمرة التى طالما حلم بها.

الفصل السادس

تحت راية نادى اليخت

فى الوقت الذى كان فيه سلطان ليوبولد عبر البحار يتعاظم كانت حياته العائلية فى الوطن تنحدر من سيىء إلى أسوأ. وازداد لجوؤه إلى عشيقات شتى بحثًا عن السلوى، وكانت إحداهن بلجيكية أطلق عليها البلجيكيون فورًا كنية 'ملكة الكونجو'. وفى أبريل ١٨٨٥ وبعد مضى ستة أسابيع فقط من انتصاره الدبلوماسى فى برلين، ذُكر اسم الملك فى محكمة بريطانية بوصفه واحدًا من زبائن 'بيت مناف للآداب' كان يحاكَم بإيعاز من لجنة لندن لمكافحة التجارة فى الفتيات الإنجليزيات عبر القارة. وشهد أحد خدم ذلك البيت السابقين بأن الملك كان يدفع مبلغ ٨٠٠ جنيه إسترلينى شهريا مقابل تزويده بصورة مستمرة بشابات بعضهن كن ما بين العاشرة والخامسة عشر سنة مع ضمان أن يكن عذارى. وذكرت صحيفة باريسية أن هناك شائعات بأن ليوبولد عبر القنال سرًا إلى إنجلترا على متن يخته ودفع مبلغًا ضخمًا لمديرة ذلك البيت للتأكد من أن اسمه لن يُذكر مرة أخرى. والأمر الأكثر احتمالاً وجعل القضية تُغلق بسرعة غير معتادة هو ما تردد من أن ولى العهد البريطانى أمير ويلز كان من بين زبائن ذلك البيت. فأرسلت وزارة الداخلية البريطانية مبعوثًا خاصًا إلى المحكمة، ومن الواضح أنه كان رسالة مقنعة لكل من يهمه الأمر بأنه من المستحسن الإقلال من الحديث فى هذا الأمر. وبعد أن أقرت مديرة البيت بذنبها حُكم عليها بغرامة ضئيلة على نحو لافت للنظر.

وعندما بلغت لويز كبرى بنات ليوبولد السابعة عشرة زوجها أبوها من أمير من الأسرة المالكة النمساوية - المجرية يكبرها سنًا بكثير. وبعد احتفالات عمت المدينة، كانت ليلة الزفاف التى قضاها العروسان فى قصر ليكن ليلة عصيبة حتى أن العروس فرت إلى حدائق القصر برداء النوم وأعيدت بواسطة خادمة وأعطتها أمها محاضرة فى واجباتها الزوجية. وبعد ذلك بسنوات وقعت لويز فى براثن ديون ضخمة وانزلقت إلى مغامرة عاطفية مع ضابط من الخيالة. وبعد أن دخل الضابط فى مبارزة مع زوجها قامت السلطات النمساوية بسجنه وخيرت لويز بين أن تعود لزوجها أو تودَع فى مصحة عقلية، فاختارت المصحة ورفض ليوبولد أن يتحدث معها ثانية. وخوفًا من حدوث المزيد من الإحراج فقد حث على تشديد حراستها. وأخيرًا أُطلق سراح ضابط الخيالة وتمكن من إنقاذ لويز بطريقة دراماتيكية، ولكنه مات بعد ذلك بفترة وجيزة. وطوال بقية حياتها البائسة كانت تشترى الملابس بنفس الهوس الذى كان أبوها يحاول أن يشترى به الأقطار، وكان هوسًا قسريًا التهم ما هو أكثر من نصيبها من الثروة الملكية. وفى النهاية تمكن دائنوها الساخطون من وضع أيديهم على جانب من خزانة ثيابها وباعوها بالمزاد العلنى: ستة وثمانون خمارًا، وواحدة وعشرون عباءة من الحرير أو من المخمل، وثمانى وخمسون مظلة.

ولم يكن حال ليوبولد كأب بأحسن حالاً مع ابنته الوسطى ستيفانى. فعندما بلغت السادسة عشرة زوَّجها من رودلف ولى عهد النمسا والمجر ذو اللحية السوداء بحيث تصبح الإمبراطورة يومًا من الأيام. وكان ليوبولد يحسد أسرة الهابسبورج بوجه خاص لأنهم، بخلافه، لم يكن يعوقهم برلمان أو دستور إلا قليلاً. غير أن رودولف وصل إلى بروكسل ليقابل ستيفانى لأول مرة مصطحبًا معه عشيقته الأخيرة، الشىء الذى تبين أنه كان نذير سوء لما جرى بعد ذلك من أحداث.

وكانت مستعمرة الملك الجديدة هى سلواه وملاذه من بؤسه الأسرى. وفيما بعد كانت لويز تذكر أن الكونجو "كانت هى موضوع الحديث الوحيد من حولى". وبالنسبة لليوبولد كانت شئون الكونجو تسير بصورة أكثر سلاسة إذا ما قارنها بشئون أهل بيته. فبمجرد أن وجد اللحظة السياسية المناسبة للاستيلاء على أقاليمه الجديدة،

وجد نفسه أيضًا فى لحظة تكنولوجية مناسبة تمكنه من إحكام قبضته عليها. فبينما كان يستعد لتنمية المستعمرة الهائلة الحجم، وجد تحت تصرفه عدداً من الأدوات لم تكن متاحة لبناة الإمبراطوريات فى أزمنة سابقة. وكانت أدوات حاسمة، لأنها سرعان ما مكنت بضعة آلاف من الرجال البيض العاملين فى خدمته من السيطرة على ما يقرب من عشرين مليون أفريقى.

وبادئ ذى بدء كانت الأسلحة. فالبنادق العتيقة التى كانت تُعمر من فوهتها والتى كانت أقصى ما يمكن لغالبية الكونجوليين الحصول عليها لم تكن أحسن إلا قليلاً من بنادق جيش جورج واشنطن فى حرب الاستقلال الأمريكية. غير أن الأوروبيين بدءًا من أخريات ستينيات القرن التاسع عشر بدءوا يعتمدون على البنادق التى تعمر من مؤخرتها والتى كانت قد أثبتت فعاليتها القاتلة للتو فى الحرب الأهلية الأمريكية. فكانت تقذف المقذوفات إلى مسافات أبعد وأكثر دقة، وبدلاً من استخدام البارود السائب، الذى كان عديم الجدوى تحت الأمطار، استخدمت خراطيش نحاسية مضادة للماء وسريعة التعمير.

وسرعان ما تلا ذلك تقدم أكثر حسماً وهو البندقية التكرارية التى كانت تستطيع إطلاق دستة أو أكثر من الطلقات دون أن تحتاج لإعادة التعمير. وسريعاً بعد ذلك ظهر المدفع الرشاش والذى كان كما كتب عنه الشاعر هيلارى بيلوك (Hilaire Belloc):

مهما يحدث فلدينا

مدفع ماكسيم الذى لا يملكون

وأداة أخرى سمحت للأوروبيين بالسيطرة الفعلية على كل أفريقيا الاستوائية فى العقدين من الزمان اللذين أعقبا مؤتمر برلين هو المعارف الطبية. وكان مستكشفو منتصف القرن يتهمون الملاريا بأنها السبب فى كل شىء من الغازات المنبعثة من المستنقعات إلى النوم فى ضوء القمر، ولكن أيًا كان سببها فقد تعلموا أن الكينين هو علاج ناجع. وقرب نهاية القرن حدث فهم أعمق للملاريا والبول المدمم، كما سيطر الباحثون

على الحمى الصفراء وغيرها من الأمراض، وبدأ فى الانخفاض معدل وفيات الأوروبيين فى أفريقيا الاستوائية والذى كان مرتفعًا ارتفاعًا مخيفًا.

وأخيرًا، وبسبب الجغرافيا غير العادية للكونجو، فإن أداة واحدة كانت أكثر فائدة لليوبولد من غيره من الاستعماريين، وقد شاهدناها وهى تعمل وهى السفينة البخارية. وكان أفارقة الكونجو يطلقون عليها اسم "البيت الذى يمشى على الماء"، أو، وفقًا لصوتها "كوتوكوتو". كانت السفينة البخارية أداة للاستعمار طوال القرن التاسع عشر، وتخدم الجميع من البريطانيين على ضفاف نهر الجانج (Ganges) فى الهند إلى الروس على نهرى أوب (Ob) وإيرتيش (Irtysh) فى سيبيريا. وشملت سفن الكونجو كلاً من السفن ذوات العجلات المجدافية الجانبية أو تلك التى فى مؤخرة السفينة، وكلها كانت مزودة بظُلات للحماية من الشمس الاستوائية. وعادة ما كانت طويلة وضيقة البدن، ومزودة بشبكة لجر الأثقال السطحية لإزاحة عوائق الكثبان الرملية التى لا حصر لها والتى يمتلئ بها النهر وروافده. وأحيانًا كانت تتدلى من الظلة شبكات من السلك لحماية القبطان ومدير الدفة من السهام.

وفى تلك الآونة كان البخار قد حل بصورة عامة محل الأشرعة فى سفن أعالى البحار، مما جعل الرحلة الطويلة من أوروبا إلى شاطئ أفريقيا أسرع وأقرب إلى أن تكون ذات جدول مواعيد ثابت. وحملت تلك البواخر الموجة التالية من عملاء ليوبولد إلى أفريقيا. وبنهاية سنة ١٨٨٩ كان ٤٣٠ رجلاً أبيض يعملون فى الكونجو: تجار وجنود ومبشرين ومديرين لدولة ليوبولد الوليدة. وشكل البلجيكيون أقل من نصفهم، وذلك لأن وطن ليوبولد كان ما زال لا يبدى اهتمامًا كبيرًا بالممتلكات الجديدة للملك. ومما هو ذو دلالة أن الغالبية الساحقة من عملاء ليوبولد كانوا ضباطًا فى إجازات مطولة فى الجيش البلجيكى وغيره من الجيوش الأوروبية.

وبوجود طاقم العمل فى مواقعه والأدوات فى يديه أصبح ليوبولد جاهزًا للبدء فى بناء البنية التحتية اللازمة لاستغلال مستعمرته. وكان أول بند فى برنامجه هو إنشاء نظام أولى للنقل فى الكونجو؛ فمن دونه لا يمكن نقل ثروات الإقليم إلى الساحل، مهما

كانت تلك الثروات، إلا على الأقدام. وفى سنة ١٨٨٧ شرعت جماعة من المساحين فى رسم خريطة للطريق الذى سوف تسلكه السكك الحديدية لتلتف حول مسافة ٢٢٠ ميلاً من الشلالات الخطيرة. وتسبب البعوض وشدة الحرارة والحميات والتضاريس الوعرة المرصعة بالوديان العميقة فى حدوث أضرار بالغة مما ترتب عليه ضياع ثلاث سنوات قبل أن يبدأ العمال فى إنشاء الخط.

وفى أثناء ما كانت تلك الأعمال جارية تكون جهاز إدارى لدولة الكونجو فى بلجيكا مثلما تكون فى المستعمرة ذاتها. وحاول هنرى شلتون سانفورد أن يجد لنفسه عملاً كرئيس تنفيذى لشئون المستعمرات فى بروكسل، وكتب إلى زوجته وهو مفعم بالأمل فى ذلك: "إن ذلك النمط من العمل هو ما أريده بالضبط، ففيه الشهرة والمال وإشباع الذات بعمل الخير... وأظن أنى سوف... أقترح خطة عمل، وأعرض خدماتى." غير أن آماله تبددت لأن ليوبولد كان يدرك أن قدرات سانفورد على إقامة الولائم السخية فى واشنطن لم تكن تقابلها موهبة فى الإدارة أو القسوة التى يحتاج إليها الملك. وعوضًا عن ذلك، سمح ليوبولد لسانفورد بأن يجمع العاج وغيره من المنتجات من الكونجو، وأعطاه وعداً بالمساعدة (لم يتحقق كما تبين فيما بعد) بتزويده بالحمالين والمبانى والنقل على البواخر. غير أن بعثة سانفورد الاستكشافية، كما أطلق على مشروعه من قبيل الكياسة، سرعان ما حذت حذو ما سبقها من مشاريعه. فكما هو مألوف، حاول سانفورد أن يدير كل شىء من بلجيكا، فتكاثرت عليه الديون وأرغمته على بيع جزء من مجموعته الفنية وعلى الانتقال إلى قصر أصغر حجمًا. وفى تلك الأثناء أدمن رجله المسئول عن أعماله فى الكونجو الشراب، وأصاب الصدأ غلايات البواخر وهى على البر.

كان ليوبولد رجل أعمال أفضل بكثير من سانفورد، ولكنه بدوره بدأ يجد نفسه تحت ضغوط مالية. وكان قد ورث ثروة طائلة، إلا أنه بحلول أخريات ثمانينيات القرن التاسع عشر تبخرت غالبيتها الساحقة على المستكشفين والبواخر والمرتزقة والسلاح وغير ذلك من نفقات الكونجو. وسوف تستمر كل تلك النفقات - بل وستتزايد - إن كان يأمل فى تحقيق أرباح من استغلال الإقليم. فمن أين سيأتى المال ؟ وكان الحصول عليه من الحكومة البلجيكية أمرًا صعبًا، لأن الدستور كانت به مادة تحتم موافقة البرلمان إن

أراد ليوبولد أن يصير ملكًا لدولة أخرى. ولكى يحصل على موافقته اضطر إلى أن يعد بألا يصبح الكونجو عبئًا ماليًا على بلجيكا. وكان قد أقنع المتشككين من أعضاء البرلمان بأن لديه موارد مالية تتيح له تنمية الإقليم، رغم أن ذلك لم يكن صحيحًا.

وفى الفترة ما بين ١٨٨٥ و١٨٩٠ أمضى الملك معظم وقته يبحث عن المال. واستطاع لفترة أن يستدين من بنوك، ولكنه وصل إلى الوقت الذى رفض فيه آل روتشيلد، دائنوه الرئيسون، أن يقرضوه المزيد. وتوضح مئات الخطابات التى أرسلها خلال تلك الفترة قلقه المفرط إزاء مشكلة التمويل. وفقد الكثير من وزنه وجافاه النوم، ولاحظ وزراؤه أنه قد صار مكتئبًا وغائب الذهن. وكان يشتهر بشهيته الهائلة (كثيرًا ما كان يطلب الطبق الرئيسى مرة أخرى بعد أن يفرغ من وجبة دسمة، وذات مرة فى أحد مطاعم باريس التهم وحده طائرين كاملين من طيور التَدْرُج [pheasants])، وفى محاولة منه لكسب تعاطف الرأى العام واجتذاب الأموال أشاع أنه توقف عن تناول واحد من أصناف الغداء يوميا من قبيل التقشف. وفى ذات يوم صاحت به الملكة مارى – هنرييت: "سوف تفلسنا يا ليوبولد بمستعمرتك الكونجو!".

وتمكن الملك من جمع بعض الأموال من بيع سندات، وإن كان أقل بكثير مما كان يأمل. وكتب رسالة إلى البابا يستحثه على أن تبتاع الكنيسة سندات الكونجو لتشجيع نشر كلمة المسيح. واستطاع اجتذاب مستثمرين خصوصيين للسكك الحديدية وقلة من المشاريع الأخرى، ولكن بشروط أنقصت من حجم نصيبه فى مشاريع كان شديد الوثوق فى ربحيتها الكبيرة. واستقر فكره على أن الحل الوحيد لأزمته المالية يكمن فى قرض ضخم. ولما كان بالفعل مثقلاً بديون باهظة فإن المصدر المحتمل الوحيد لمثل ذلك القرض كان البرلمان البلجيكى. وكان ليوبولد يأمل أن مرور الزمن قد يجعل أعضاء البرلمان ينسون وعوده السابقة، ولهذا انتظر طويلاً قبل أن يقترب من البرلمان. وبينما هو ينتظر عمل على تلميع سمعته كمحسن ومحب للخير.

* * *

تواصل شعور الأوروبيين بالنقمة على تجار الرقيق من 'العرب' الذين اتخذوا من زنزبار والساحل الشرقى لأفريقيا قاعدة لهم. وفى الحق فلا بد من الإقرار بأنهم نشروا الرعب فى كثير من مناطق شرق أفريقيا ووسطها، واستمروا يبيعون العبيد الذين يمسكون بهم على طول الشاطئ الشمالى الشرقى للمحيط الهندى والخليج الفارسى. غير أن المبرر الأخلاقى الأوروبى حول هذا الأمر كان مختلطًا أكثر من ذى قبل بشبق متنام للحصول على مستعمرات أفريقية. وكان من الملائم أن غالبية تجار الرقيق كانوا مسلمين، مما سمح للأوروبيين بأن يغلفوا جشعهم بالتقوى، وكسب ليوبولد كثيراً من الثناء لرعايته للمبشرين المسيحيين فى مستعمرته الجديدة؛ وخلف أثرًا قويًا بشجبه القوى لتجارة العبيد بحيث انتُخِب رئيسًا شرفيًا لجمعية حماية الأجناس الأصلية، وهى مؤسسة بريطانية وقورة لحقوق الإنسان.

وابتهج الملك ابتهاجًا كبيراً لما اختيرت بروكسل مقراً، لمدة ثمانية أشهر، لاجتماعات متقطعة بدأت فى نوفمبر ١٨٨٩ لمؤتمر عقدته القوى العظمى لمكافحة تجارة الرقيق. وكان الملك 'الخيِّر' يستضيف المندوبين بغبطة وسرور، وعُرِض فى غرفة اجتماعات المؤتمر بوزارة الخارجية البلجيكية نير عبيد متشعب. وكتب كبير المندوبين البريطانيين إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول: "إنه لعمل شاق، كل تلك الولائم وحفلات الاستقبال والحفلات الراقصة"، ولأسباب دبلوماسية كان لا بد أن تحضر تركيا مؤتمر مكافحة تجارة العبيد بالرغم من أن العبيد كانوا أمراً مشروعًا فى تركيا. وانفجر مندوبها ضاحكًا عندما شجب المتحدثون نظام الحريم الإسلامى بوصفه حافزاً لتجارة العبيد.

وبالنسبة للدبلوماسيين كان المؤتمر عبارة عن حفل ممتد. وكانت غرفة اجتماعاتهم تطل على شارع أنيق وسط المدينة، واستعاد أحد الموظفين ذكرياته عن الكونت فون كفنهولر (Count von Kevenhuller) مندوب النمسا والمجر: "كلما لاحت فى الشارع قبعة امرأة كان يهب واقفًا ويهرع إلى النافذة كأنما يحركه زنبرك. وكل مرة كانت مناسبة للابتهاج. وأخيراً، وخوفًا من أن تفوته فرصة لممارسة رياضته المفضلة صاح الناس كلهم من أول المائدة الخضراء لآخرها كى ينبهوه باقتراب امرأة حسناء جديدة".

كان مؤتمر مكافحة تجارة العبيد هدية لليوبولد، فقد توقف المندوبون عن تسديد نظرات الإعجاب للمارات فى الشارع لكى يوافقوا على خطط اقترحها الملك لمكافحة تجارة العبيد – وهى خطط، كانت، ويا للصدفة، تتشابه تشابهًا مذهلاً مع خطط إنشاء بنية تحتية باهظة التكاليف للنقل التى كان يأمل فى إنشائها فى الكونجو. وتحدث الملك عن الحاجة إلى محطات محصنة وطرق وسكك حديدية وبواخر، وكلها لتأمين طوابير من القوات التى تطارد تجار الرقيق. وبكل شهامة عرض تقديم خدمات دولة الكونجو الجديدة فى سبيل هذا الغرض النبيل، ولم يطلب مقابل ذلك إلا أن يخوله المؤتمر حق فرض مكوس على الاستيراد لتمويل الهجمة على تجارة الرقيق. ووافقت القوى فى النهاية، وكان ذلك فى جوهره تعديلاً لصالح ليوبولد فى قرارات مؤتمر برلين الذى كان قد ضمن حرية التجارة.

وارتاع هنرى شلتون سانفورد، الذى كان حاضراً مؤتمر مكافحة تجارة الرقيق كمندوب أمريكى. فقبل ذلك بست سنوات كان قد نجح فى الحصول على اعتراف الولايات المتحدة بالكونجو تحت سيطرة ليوبولد مقابل توقيعه (أى سانفورد) على اتفاق يعد بحرية التجارة، والآن فإن ليوبولد يطالب فجأة برسوم جمركية. وأحس سانفورد، وقد تبدد إعجابه الساذج بليوبولد، بأن الملك قد خانه. وكان سانفورد، بعد أن اشتدت عليه آلام النقرس والأرق وتخلل الشيب لحيته وبانت على وجهه تأثيرات السن والمشاكل المالية، قد تحول إلى شخص مختلف عن الفاتن ذى القبعة العالية الذى كانه منذ ست سنوات. ومات بعد سنة من انفضاض المؤتمر، شاعراً بمرارة بخيبة الأمل فى ليوبولد ومثقلاً بالديون. وانتهت استثماراته فى الكونجو إلى لا شىء، ولم يتبق منه هناك إلا سفينة بخارية تزن ستة أطنان وتسمى الجنرال سانفورد.

وبينما كان المؤتمر لا يزال يعقد جلساته، دعا ليوبولد ستانلى إلى بلجيكا لمدة أسبوع. وتحدث ستانلى إلى المندوبين، ومنحه ليوبولد نيشان صليب الكونجو الكبير، ونظم مأدبة وحفل أوبرا على شرفه، ودعاه للإقامة فى الغرف القرمزية المطلية المذهبة فى القصر الملكى والتى تُخصص عادة للملوك الزائرين. وفى مقابل ذلك ألقى ستانلى خطبة أثنى فيها على مضيفه للبلجيكيين:

"مم تتكون عظمة عاهل؟ إن كانت هى مدى امتداد أقاليمه فيكون إمبراطور روسيا هو أعظمهم. وإن كانت هى روعة وقوة مؤسسته العسكرية يتبوأ فيلهلم الثانى [قيصر ألمانيا] مكان الصدارة. ولكن إن كانت العظمة الملكية هى حكمة وصلاح العاهل فى قيادة شعبه بعناية الراعى وهو يرعى قطيعه، فإن أعظم عاهل هو أنت".

كان ليوبولد يستغل ستانلى مثلما يدعو رئيس أمريكى حديث أحد مشاهير نجوم السينما ليرافقه فى حملته الانتخابية. وكانت زيارة ستانلى لبروكسل جزءًا أساسيًا من حملة علاقات عامة أُعدت بدقة للاحتفال بمرور خمسة وعشرين عامًا على تولى الملك العرش. وأقام الملك أيضًا حفلاً بحديقة قصر ليكن لألفين وخمسمئة من علية القوم فى بلجيكا افتتح فيها أمام المدعوين المشدوهين صوبات القصر الجديدة ذات القباب الزجاجية والتى كانت بها أكبر مجموعة خاصة للنباتات فى العالم بما تحويه من تشكيلة متنوعة وغريبة من الأشجار والنباتات. بل إن بورصة بروكسل، التى امتنعت لمدة طويلة عن الاستثمار فى مشاريع الملك الأفريقية، أقامت حفل استقبال ضخم على شرفه، وزينت صالة البورصة برماح أفريقية وواحدة من أغرب باقات الزهور وهى أربعمئة ناب فيل مجمعة على صورة أزهار.

وكانت حملة ليوبولد موجهة لهدف واحد هو المال. وبينما كانت جهوده تقترب من ذروتها أبرم اتفاقية مع أعضاء مهمين فى مجلس الوزراء، كانوا قد بدءوا يدركون أن ممتلكات الملك الأفريقية قد تكون ذات قيمة كبيرة يومًا من الأيام. وأعلن ليوبولد أن البرلمان إن منحه القرض الذى يبتغيه فإنه سوف يهب الكونجو لبلجيكا فى وصيته. وهكذا فعندما طلب أخيرًا هذا الملك الكريم، الذى عُرف بكونه محاربا صليبيًا ضد تجارة الرقيق، والذى يثنى عليه ستانلى المستكشف الشهير، ويحتفى به رعاياه المخلصون، عندما طلب من البرلمان قرضًا بخمسة وعشرين مليون فرنك (١٢٥ مليون دولار أمريكى بأسعار اليوم) حصل على ما يريد، ودون فوائد.

ولعل عنجهية ليوبولد المثيرة تتبدى أكثر ما يكون فى الوثيقة الغريبة التى فيها يوصى بسرور بواحد من أقطاره إلى الآخر.

"نحن ليوبولد الثانى ملك البلجيكيين، وعاهل دولة الكونجو المستقلة، نرغب فى منح أرض الآباء المحبوبة ثمار الجهد الذى بذلناه لسنوات طوال فى القارة الأفريقية ... ونعلن، بشهادة الحاضرين، أننا نهب إلى بلجيكا، بعد موتنا، كل حقوقنا الملكية فى دولة الكونجو المستقلة".

وكان هناك تحريف إضافى للمعنى. فعندما أعلن الملك عن وصيته كُتبت بتاريخ سابق، بحيث يبدو هذا التوريث كأنما هو عمل من أعمال الجود والكرم بدلاً من كونه جزءًا من صفقة مالية.

* * *

وفيما يتعلق بهنرى مورتون ستانلى، لم تكن السنوات الخمس التى سبقت زيارته الرسمية لبروكسل سنة ١٨٩٠ سنوات سهلة. فمنذ انتهاء أعمال مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥، كان ليوبولد يفكر فيما يفعله بستانلى. ولضمان أن المستكشف لن يذهب للعمل فى خدمة البريطانيين أبقاه فى العمل كمستشار. إلا أن الملك أصبح لا يحتاج الآن إلى مستكشفين، بل إلى مساحين ومهندسى مناجم وبناة سكك حديدية وقباطنة للسفن البخارية وجنود ومديرين. وقبل ذلك الوقت بسنوات كان الملك قد وعد بتعيين ستانلى مديرًا عامًا لدولة الكونجو المستقبلية. إلا أنه عاد وأعطى وعداً للفرنسيين (الذين كانوا ممتعضين من ستانلى بسبب تجاوزه للحدود فى استكشافاته وإقلاله من شأن برازا رجلهم) بألا يعود إلى استخدام ستانلى فى الكونجو مرة أخرى، وذلك مقابل اعترافهم بحقوقه فى الكونجو. ولم تعد هناك أية فائدة تعود على الملك من ستانلى المزعج إلا فى العلاقات العامة. وذات مرة ذكر أحد رؤساء الوزراء البلجيكيين أن ليوبولد: "يتعامل مع الرجال كما نستخدم نحن الليمون، فعندما يعصرهم حتى يجفوا يلقيهم جانبًا".

وخمن ستانلى أن ليوبولد قد عقد صفقة سرية مع الفرنسيين، وأحس بالألم، كما حدث له فى حياته مرارًا. فمعدات رحلاته الأفريقية كانت محزومة وجاهزة ولكن ليس هناك من تكليفات يقوم بها. ولم يكن محتاجًا إلى المال الذى يتلقاه من ليوبولد: فهو

يتكسب أكثر منه بكثير من محاضراته وكتبه. وعلى الرغم من ذلك فقد حافظ على ولائه السيئ الطالع للملك، حتى والملك مستمر فى التملص منه بقوله، كما اشتكى ستانلى فى خطاب أرسله سنة ١٨٨٦، "نحن لا نعلم متى نحتاجك بالضبط، ولكنى سوف أخطرك، يا عزيزى مستر ستانلى، مع إعطائك الوقت اللازم للاستعداد".

وكان ستانلى يعاود التفكير فى الزواج كلما كان يأمل فى الرحيل إلى أفريقيا، حتى رغم أنه، كما اعترف هو بيأس وقنوط، "فى الحقيقة، أنا لا أستطيع التحدث إلى النساء". ولأكثر من عام داوم على تودده الخجول الأخرق، وهذه المرة كانت مع رسامة لندنية من الأوساط الراقية تدعى دوروثى تينانت. وكانت ترسم الحوريات الإغريقية وأولاد شوارع لندن وصوراً لستانلى نفسه. وبدا أنه توافق مناسب، فقد كانت متعالية ولا تجيد التعامل مع الرجال مثلما كان ستانلى مع النساء. وكانت فى الرابعة والثلاثين من عمرها ولا تزال تتشارك مع أمها فى سريرها وتخاطب فى يومياتها والدها الذى مات منذ زمن بعيد. وحكى ستانلى لتينانت قصته البائسة عندما هجرته أليس بايك ثم طلب منها الزواج. غير أنها رفضته. ولما رُفض للمرة الثانية اقتنع بأن دوروثى تينانت أخذت عليه أصوله الطبقية المتواضعة. وكتب إلى صديق: " هذه المرأة أوقعتنى فى أحابيلها بتدفقها وتزلفها المثير للاشمئزاز وهداياها التافهة المنقوش عليها 'تذكرنى' وخطاباتها المعطرة".

وبينما كان ستانلى يتعذب خلال تلك التجربة، كانت طموحات ليوبولد تتعاظم. واشتعل شبقه إلى مستعمرات، وصار الآن يحلم بوادى النيل. وقال ذات مرة لرئيس الوزراء البلجيكى الذى كان يحاول أن يثنيه عن ذلك: "يا عزيزى الوزير، هل تظن أن المجد فى أن أكون فرعوناً ليس له ثمن؟ والكونجو ممل إن قورن بذلك". ثم صاح: "ولكن النيل هو زينة تاجى ولن أتخلى عنه قط!". وفى سنة ١٨٨٦ سنحت فرصة أتاحت لليوبولد، بانقضاضة واحدة، فرصة أن يتقدم خطوة فى سبيل تحقيق حلمه النيلى وأن يرى ستانلى يعمل مرة ثانية وأن يحكم قبضته على الكونجو.

فقد كان السودان، الذى تجرى فيه الأفرع العليا للنيل، تحت حكم بريطانى مصرى مشترك. غير أن المسافات كانت شاسعة والسيطرة رخوة. وقامت مجموعة من الثوار الأصوليين المسلمين، هم المهدية، بثورة فى منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر، وقتلوا الحاكم العام البريطانى وصدوا القوات البريطانية التى أُرسلت لقتالهم. وصُدمت إنجلترا، ولكنها كانت منشغلة بعدة حروب استعمارية فى أماكن أخرى، وقررت ألا تدخل تلك الحرب فى الوقت الحالى. واندفع الثوار جنوباً، حيث تصدى لهم حاكم الولاية الواقعة فى أقصى الجنوب والتى تتاخم حدودها الكونجو، وهو وضع لاءم ليوبولد كثيراً.

واستنجد الحاكم أمين باشا بأوروبا، ونشرت جريدة التايمز واحداً من خطاباته، وقامت حملة لإرسال قوة خاصة لمساعدته. وقالت التايمز: "إنها ستكون رحلة قصيرة للرحمة ومليئة بالمخاطر- لإنقاذ أمين باشا ... الذى تطوقه القبائل المتوحشة المعادية وتمنع عنه سبل الحضارة ومواردها". وكسبت الحركة عدداً كبيراً من المؤيدين وقد أشعلهم الحماس ضد الإسلام. واشتد حنق البريطانيين على الحركة المهدية عندما طالب زعيمها بحضور الملكة فيكتوريا إلى السودان والخضوع لسلطانه واعتناق الإسلام.

وصار أمام البريطانيين ليس فقط أشرار مسلمون وإنما بطل أبيض هو أمين باشا. فعلى الرغم من اسمه إلا أن الباشا المحاصَر كان يهودياً ألمانياً ضئيل الجسم، وكان اسمه الأصلى إدوارد شنيتزر (Eduard Schnitzer)، وكانت ملامح وجهه الأوروبية لا تخطئها العين ويلبس نظارة سميكة وطربوشاً أحمر، ويبدو وكأنه مندوب قصير النظر لحضور اجتماع دينى. وكان طبيباً وضليعاً فى لغات عديدة وغريب الأطوار، وبجانب محاولاته لحكم الإقليم كان يعالج المرضى، ويقف فى وجه المهدية، ويجمع عينات من الحياة النباتية والحيوانية، وصنع مجموعة من الطيور المحنطة للمتحف البريطانى.

وتبلورت خطط حملة الإنقاذ وانهمرت التبرعات. وتبرع فورتنم ومايسون (Fortnum and Mason) تجار المواد الغذائية بصناديق من الطعام المترف، وأرسل

المخترع هيرام ماكسيم (Hiram Maxim) أحدث طراز من مدفعه الرشاش، كما أُهديت إلى أمين باشا بزة نظامية جديدة. ومن كان أجدر بأن يقود حملة إنقاذ أمين باشا من هنرى مورتون ستانلى؟ وقبل المستكشف الدعوة بتلهف. وكان سروره عارمًا بوجه خاص بسبب مدافع ماكسيم، التى جربها فى منزل صانعها، وتأكد أنها قادرة على إطلاق الطلقات الستمئة فى الدقيقة التى أُعلن عنها. وصرح ستانلى بأن المدفع الجديد "سيكون ذا نفع جم فى معاونة الحضارة للتغلب على الهمجية".

وعندما رجا ستانلى ليوبولد أن يعفيه من عقده كمستشار حتى يتمكن من قيادة الحملة، وافق الملك - بشرطين. أولهما، أنه بدلاً من أن يسافر إلى أمين بالطريق الأقصر والأسهل من الساحل الأفريقى الشرقى مارًا خلال مرتفعات ألمانية وبريطانية، فإن على الحملة أن تسافر مخترقة كونجو ليوبولد، مما سيستلزم عبورها لغابات إيتورى المطيرة غير المستكشفة. وثانى شرط، كان أنه بمجرد أن يعثر ستانلى على أمين باشا فعليه أن يطلب منه البقاء حاكمًا لإقليمه - ولكن كإقليم من أقاليم دولة الكونجو.

وبهذا فإن ليوبولد لم يكن ليفوز فقط باستكشاف الركن المجهول من إقليمه وربما تكبيره وإنما كل ذلك كان سيتم على نفقة أناس آخرين. وجاء تمويل ذلك المشروع من مصادر شتى تراوحت بين الجمعية الجغرافية الملكية، إلى تجار بريطانيين أبدوا اهتمامًا بما كان يشاع أن أمين قد خبأ ما قيمته ٦٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى من العاج، إلى بارونات الصحافة الذين كانوا يدركون أن حملة استكشافية جديدة لستانلى ستزيد من مبيعات الصحف. وسافر ستانلى فى أوائل سنة ١٨٨٧، بعد أن استغل ببراعة مطالب مموليه العديدين. فقد أفاد شاهد أنه بوغت فيما بعد عندما تقابل صدفة مع ستانلى وقواته الضخمة وهم يسيرون حول الشلالات السفلى لنهر الكونجو ولاحظ أن حامل العلم فى مقدمة الطابور كان يحمل علم نادى اليخت فى نيويورك بناء على طلب جيمس جوردون بنت رئيس تحرير نيويورك هيرالد.

وأصدر ستانلى كتابه المعهود من جزأين وألفى صفحة الذى لاقى رواجًا كبيرًا، وتبين بعد ذلك أنه مجرد واحد من عديد من الكتب التى أصدرها حول حملة إنقاذ أمين

باشا. (وكان ستانلى فى أثناء تجنيده لضباطه يجعل كلاً منهم يوقع عقداً يتعهد فيه بألا ينشر كتاباً قبل مرور ستة أشهر على إصدار ستانلى لروايته "الرسمية"). غير أنه فيما عدا الفوائد التى جنتها الصحافة ودور النشر، كانت الحملة كارثة لكل من أسهم فيها تقريباً، ربما فيما عدا نادى اليخت فى نيويورك، الذى على الأقل حُمل علمه عبر القارة.

وانفجر غضب ستانلى المعتاد عدة مرات. فقد طرد خادمه الخاص من خدمته أربع مرات وأعاده إلى العمل فى كل مرة. وكانت له مباريات فى الصياح مع ضباطه البيض - وفيما بعد رسم العديد منهم صورة قاتمة عن ستانلى. وكتب واحد منهم: "كان يكفيه أبسط الأشياء لكى تدفع به إلى نوبة من الغضب العارم". وضاعف من مشاكل أعمال هنرى سانفورد المترنحة فى الكونجو بأن صادر سفينته التى كانت لا تزال تحت الإنشاء كى تعمل كصندل لقواته وأعادها بعد شهور فى حالة يرثى لها من الدمار. وكان أهم خطأ إستراتيجى ارتكبه هو أنه قسَّم قواته المكونة من ثمانمئة جندى وحمالين إلى طابورين بحيث يتمكن هو ومعه مجموعة صغيرة سريعة الحركة من الوصول إلى أمين باشا وإنقاذه بسرعة، ذلك الإنقاذ المثير الذى سيكون عنواناً رئيساً فى الصحف.

وكما هو معهود عنه أساء ستانلى اختيار معاونيه. فالضابط الذى تركه ليترأس طابور المؤخرة وهو الميجور إدموند براسلت (Major Edmund Bracelet) أصيب فى التو بلوثة جنون. فأعاد متعلقات ستانلى الشخصية إلى مصب النهر. وأرسل ضابطاً آخر فى رحلة شاذة لمسافة ثلاثة آلاف ميل وتستغرق ثلاثة أشهر كى يرسل برقية لا معنى لها إلى إنجلترا. ثم وقر فى ذهنه أن هناك من يحاول تسميمه، وكان يتخيل الخونة من حوله من كل جانب. وجلد واحداً منهم ثلاثمئة جلدة (أودت بحياته). وكان يطعن الأفارقة بعصا ذات رأس من الصلب، وأمر بتقييد العشرات بالأغلال، كما عض امرأة فى قرية. وأطلق عليه أفريقى الرصاص وأردى براسلت قتيلاً قبل أن يتمكن من ارتكاب المزيد.

وفى تلك الأثناء شق ستانلى طريقه بصعوبة مخترقاً الغابة المطيرة على رأس طابور الطليعة، وحكم على أحد الفارين من العمل بالشنق وأمر بجلد الكثيرين، وبعضها كان ينفذها بنفسه. وترتب على اضطراب توزيع المؤن أن حماليه وجنوده كانوا

فى معظم الوقت على شفا المجاعة. وفيما يتعلق بالسكان الوطنيين الذين شاء حظهم العاثر أن يعيشوا فى الطريق الذى كان يسلكه، كانت الحملة تتعامل معهم وكأنما هى جيش من الغزاة، فأحياناً كانت تعتقل النساء والأطفال رهائن إلى أن يزودهم شيخ القبيلة بالطعام. وكتب واحد من ضباط ستانلى فى مذكراته: "اليوم أجهزنا على آخر حمولة من المؤن ... ولا يرغب الوطنيون فى بيع الطعام بل ولا حتى يعرضون ذلك. وكحل أخير لا بد لنا من الإمساك ببعض نسائهم". وذكر آخر: "بمجرد أن يلوح لنا أنهم قد يهاجموننا كان ستانلى يصدر الأمر بإحراق كل القرية حولنا". ووصف ضابط آخر المجزرة بطريقة عارضة وكأنما كانوا فى رحلة صيد:

> "كان أمراً مثيراً أن نقبع فى الغابة نراقب الوطنيين بهدوء وهم يؤدون أعمالهم اليومية. وكانت بعض النسوة تصنع دقيق الموز بسحق الموز المجفف. وأمكننا رؤية الرجال وهم يبنون الأكواخ ومنشغلين بأمور أخرى، وكان الصبية والفتيات يلعبون ويغنون ... وافتتحت الصيد بإطلاق الرصاص على شاب فى صدره فسقط كالحجر ... وفى الحال انهالت دفعات الرصاص على القرية".

ووضع فرد من أفراد الحملة رأس شخص أفريقى مقطوعة فى صندوق من الملح وأرسلها إلى لندن كى يتم تحنيطها بواسطة محنط من بيكاديلى.

ومات أكثر من نصف حملة ستانلى الطليعية المكونة من ٣٨٩ رجلاً بينما كانوا يشقون طريقهم بالمناجل فى غابة إيتورى المطيرة، وفى أحيان كثيرة لم يكونوا يقطعون أكثر من أربعمئة ياردة فى اليوم. وعندما فرغ منهم الطعام صاروا يشوون النمل. وكانوا يضطرون إلى تسلق الجذور العملاقة للأشجار وإلى نصب معسكرهم فى المستنقعات فى خضم وابل مدرار من الأمطار الاستوائية، دامت فى بعض الأحيان سبع عشرة ساعة دون انقطاع. وكان الرجال يفرون ويضلون طريقهم فى الأحراش ويغرقون أو يموتون من التيتانوس والدوسنتاريا والقرح الغنغرينية. وقُتل آخرون من سهام سكان الغابات وفخاخهم المسممة بعد أن ارتاع السكان من أولئك الغرباء المسلحون الذين يعيثون فساداً فى أراضيهم.

وعندما وصلوا إلى أمين باشا كان ستانلى ومن بقى على قيد الحياة من رجاله جوعى ومستنفذين من الإرهاق. ولما كانت معظم مؤنهم على مبعدة مئات الأميال خلفهم مع طابور المؤخرة وقائده المجنون، فإن المستكشف لم يستطع أن يقدم للباشا الضئيل الحجم سوى بعض الذخيرة وبريد المعجبين وعدة زجاجات من الشمبانيا ورداء نظامياً جديداً - تبين أنه أكبر منه بكثير. وفى الحقيقة كان ستانلى هو الذى طلب مؤناً من أمين باشا. وكتب ستانلى: "قابلنا الباشا مرتدياً حلة من نسيج قطنى فى بياض الثلج ومكوية كيًا جيداً ومقاسها ممتاز عليه، ولم تبد على وجهه أى آثار للمرض أو القلق، بل كان فى حالة جسدية جيدة وراحة بال". وكان أمين لا يزال يجمع بسرور عينات للمتحف البريطانى، ورفض بأدب عرض ستانلى أن يُلحِق مقاطعته بدولة الكونجو الجديدة. وكان أشد ما أثار ارتباك الطابور الطليعى المغطى بالوحل لحملة إنقاذ أمين باشا، أن تهديد الثوار قد هدأ منذ خطابات أمين التى أرسلها للاستغاثة قبل بضع سنوات، وتبين أنه غير متلهف على الإنقاذ.

وكتب أمين فى مذكراته: "كان أشد ما يتخوف منه ستانلى أن يعود من دونى؛ لأن كل شىء كان يتوقف على مقدرته على اصطحابى معه، ففى تلك الحالة فقط ... يمكن اعتبار الحملة قد نجحت نجاحًا باهراً ... وكان يفضل أن يموت ولا يعود من دونى!" ونجح ستانلى أخيراً فى إقناع الباشا المتمنع بالعودة معه إلى أوروبا، وإلى حد ما كان السبب فى اقتناعه بالعودة مع ستانلى أن مجرد وصول حملة الإنقاذ التى تسارع بإطلاق النيران قد أثار ثوار المهدية من جديد. وهكذا شق ستانلى وأمين وأتباعهما طريقهم لعدة شهور متجهين إلى ساحل أفريقيا الشرقى، ووصلوا إلى البحر عند موقع ألمانى صغير يقع فيما هو اليوم تانزانيا.

وأطلقت بطارية طلقات مدفعيتها تحية لهم، وأقام المسئولون مأدبة للرجلين فى مطعم الضباط بالموقع. وعزفت لهم فرقة موسيقية بحرية، وألقى ستانلى وأمين وميجور ألمانى خطبًا. وكتب ستانلى: "كان النبيذ ممتازًا ومثلجًا". ثم حدث أن أمين كان قصير النظر، وكان يتنقل على مائدة الوليمة ذهابًا وجيئة يتسامر مع المدعوين ويحتسى الشمبانيا، ثم خطا من نافذة فى الدور الثانى يبدو أنه ظنها تفتح على شرفة فسقط إلى

الشارع وأصيب فى رأسه ففقد الوعى. ومكث فى مستشفى ألمانى محلى لمدة شهرين، ولم يتمكن ستانلى من اصطحابه معه إلى أوروبا منتصراً. ومما زاد من ارتباك ستانلى أن أمين باشا، بعد أن أفاق من غيبوبته، لم يعمل لا لحساب منقذيه البريطانيين ولا لحساب ليوبولد بل اشتغل لدى الألمان.

ولمدة شهرين بعد عودة ستانلى سنة ١٨٩٠ ثار جدال محموم فى إنجلترا حول فقدان أكثر من نصف قوة الحملة والفظائع التى ارتُكِبت تحت قيادته. وسخرت منه مجلة أسبوعية:

وعندما أصابته حرارة شمس أفريقيا بالوهن

كانت إراقة الدماء بمدافع ماكسيم مثيرة للابتهاج

ولقد كانت حملة إنقاذ أمين باشا وحشية حقًا. ولكن أولئك الذين شجبوها فاتهم أنها مسألة ثانوية، بالمقارنة بإراقة الدماء التى كانت فى بداياتها فى أواسط أفريقيا.

الفصل السابع

المنشق الأول

تعاملت وصية ليوبولد مع الكونجو وكأنما هى قطعة أرض خالية من السكان يتحكم مالكها فى مصيرها. وفى هذا الصدد لم يكن الملك يختلف عن أوروبيى عصره، يستوى فى ذلك المستكشفون والصحفيون وبناة الإمبراطوريات، الذين كانوا يتحدثون عن أفريقيا وكأنما كانت خالية من الأفريقيين: رقعة فسيحة من الأرض الخالية تنتظر أن تُملأ بالمدن وخطوط السكك الحديدية التى تشيدها أعاجيب الصناعة الأوروبية.

وعوضاً عن ذلك، احتاجت النظرة لأفريقيا كقارة بها مجتمعات مترابطة وكلٌ له حضارته وتاريخه، إلى قفزة من التفهم العاطفى لم تستطع أن تفعلها إلا قلة نادرة من الزوار الأوروبيين أو الأمريكيين الأُوَل للكونجو. فإن فعلتها فذلك سيعنى رؤية نظام حكم ليوبولد ليس كأداة للحضارة وإنما سرقة للأرض واستلاب للحرية. غير أنه حدث لأول مرة أن زائراً زار الكونجو ونظر إليها بتلك الرؤية. فهيا بنا نلحق به فى محطة على ضفاف نهر الكونجو، فى يوم قائظ رطب فى منتصف شهر يوليو سنة ١٨٩٠ عندما سطر أحاسيسه لأول مرة على الورق.

فقد أصبح هناك الآن عدد من محطات ليوبولد على شبكة النهر وفروعه، وكل منها تجمع ما بين قاعدة عسكرية ونقطة تجميع للعاج. وتتكون المحطة النموذجية من عدد قليل من المبانى ذات أسقف من القش ولها شرفات مظللة، وتحيط بها أشجار النخيل، وبها مساكن للموظفين البيض. ويرفرف العلم الأزرق ذو النجمة الذهبية على سارية.

ويتوفر بعض الطعام من أشجار الموز ومن حديقة ينمو بها المنيهوت وغيره من الخضروات، وبها حظائر للدجاج والماعز أو الخنازير. وهناك حصن دفاعى صغير مقام فوق أكمة صناعية وبه منافذ للبنادق، وكثيراً ما وُجد بالمحطة أيضًا معتقل محاط بالأسلاك الشائكة. وتوضع أنياب الفيلة تحت سقيفة أو فى العراء ويحرسها حراس مسلحون، فى انتظار نقلها إلى الساحل. وعلى الشاطئ تتجمع زوارق الكانو المحفورة فى جذوع الأشجار بجوار أكوام من الخشب المقطوع أطوالاً قصيرة لاستخدامه فى غلايات السفن البخارية. وتقع واحدة من أهم المحطات فى أعالى النهر على مبعدة ألف ميل من ليوبولدفيل عند مساقط ستانلى، وهى الحد الأعلى للملاحة على المجرى الرئيس لنهر الكونجو.

وفى محطة مساقط ستانلى فى ذلك اليوم من أيام يوليو جلس رجل فى الأربعين من عمره وهو يكاد ينفجر من الغضب. وشرع فى الكتابة بخط جميل ورشيق. ولعله كان يجلس فى الخلاء وظهره مستند إلى جذع نخلة، أو لعله استعار منضدة من كاتب المحطة. ويمكننا أن نتبين من مجموعة صوره الرسمية القليلة الجامدة الملامح أن شعره كان مقصوصًا قصيراً، وأن شاربه كان ذا أطراف مدببة طويلة، وكان يرتدى بابيونًا وياقة بيضاء عالية ومنشاة. وربما كان ذلك اليوم على ضفة النهر أشد حرارة من أن يسمح ببابيون وياقة، وربما لا، فبعض الزائرين كانوا يرتدون الملابس الرسمية فى الكونجو فى جميع الأوقات.

والوثيقة التى تتدفق من قلم الرجل خلال الأيام التالية هى حجر زاوية فى آداب حقوق الإنسان والتحقيقات الصحفية. وكان عنوانها "خطاب مفتوح إلى جلالة الملك المبجل ليوبولد الثانى ملك البلجيكيين وعاهل دولة الكونجو المستقلة، من الكولونيل المحترم جيو. و. ويليامز من الولايات المتحدة الأمريكية".

وبالفعل كان جورج واشنطن ويليامز أمريكيًا. غير أنه لم يكن كولونيلاً، وهو ادعاء سبب له المتاعب فيما بعد. كما أنه كان أسود. وبسبب ذلك، بصورة عامة، تجوهل طويلاً. ومن بين الحشد المتلهف من الزائرين الذين اجتذبتهم الكونجو عندما بدأ

ليوبولد فى استغلالها، كان ويليامز أول منشق كبير. وعلى غرار كثير من الرحالة ممن وجدوا أنفسهم فى جحيم ضميرى، كان قد بدأ رحلته بحثًا عن شيء كان يرجو أن يكون أشبه بالجنة.

* * *

كان ويليامز قد جاء إلى الكونجو من خلال مسيرة بدت وكأنما مرت به فى حيوات مختلفة. فقد ولد فى بنسلفانيا سنة ١٨٤٩ ولم يتلق إلا تعليمًا ضئيلاً، وفى سنة ١٨٦٤ تطوع فى الحرب الأهلية الأمريكية - وكان نصف أمى ولم يكن قد بلغ السن القانونية للتطوع، ومستخدمًا اسمًا مستعارًا - فى الفرقة ٤١ للقوات الملونة فى الجيش الاتحادى. وشارك فى عدد من المعارك فى أثناء الهجوم على ريتشموند وبيترسبرج فى الشهور الأخيرة للحرب وجُرح فى القتال.

وفيما بعد، مثل كثيرين غيره من المحاربين القدامى فى الحرب الأهلية العاطلين عن العمل، تطوع للقتال فى صفوف الجيش المكسيكى الذى كان يقاتل لإسقاط زوج أخت ليوبولد الثانى الطموح ولكن ذى الحظ السيئ، الإمبراطور مكسميليان. ولما عاد إلى الوطن، ولا يملك مهارات تؤهله لعملٍ إلا الجندية، تطوع فى الجيش الأمريكى وأمضى معظم عام مع كتيبة من الخيالة يقاتل هنود السهول. وحدث أحيانًا فى أثناء النصف الثانى من عام ١٨٦٧ أن تلاقت خطاه مع مراسل صحفى شاب يدعى هنرى مورتون ستانلى عندما أمضى الاثنان بعض الوقت فى كانساس.

وبعد أن ترك الجيش فى العام التالى، درس ويليامز لفترة قصيرة فى جامعة هوارد، التى عندما كان يذكرها فى سنواته المتأخرة كان ينطقها بطريقة تجعلها أقرب فى الأسماع إلى جامعة هارفارد. كما ادعى أيضًا فيما بعد أنه حاصل على درجة الدكتوراه وهو الشيء الذى لم يحدث قط. غير أنه كان رغم ذلك طالبًا متقد الذكاء، وبعد أن انتقل إلى معهد نيوتن اللاهوتى خارج بوستون تمكن من ضغط مقرر ثلاث سنوات فى سنتين. وفى خطابات كتبها فى أعقاب أيامه فى الجيش مباشرة لم يكتب

كلمة واحدة بتهجئة صحيحة إلا فيما ندر، وكانت تراكيب جمله مشوشة بشكل محزن. لكنه بعدها بسنوات قليلة كان يستطيع أن يكتب بتدفق وسلاسة حسب الإيقاع السائد لوعاظ القرن التاسع عشر. وتحمل خطبة ألقاها عند تخرجه من نيوتن سنة ١٨٧٤ السمات الرئيسية التى قادته إلى الكونجو بعدها بست عشرة سنة :

"لمدة تقارب ثلاثة قرون كانت أفريقيا يُسلب منها أبناؤها الحالكو السواد ... إن زنجى هذا البلد يستطيع أن يلتفت إلى إخوته السكسونيين ويقول، مثلما قال يوسف لإخوته الذين باعوه بخسة ونذالة، ... إننا بعد أن تعلمنا فنونكم وعلومكم قد نعود إلى مصر ونخلص باقى إخوتنا الذين لا يزالون فى منازل العبودية. وسيأتى ذلك اليوم!".

وكان ويليامز قد بدأ بالفعل يكتب ويتحدث عن عبودية أقرب - هى أوضاع السود الأمريكيين، متحملاً الردة الطويلة التى حدثت بعد الحرب الأهلية من إعدامات دون محاكمة إلى عنف جماعة كوكلوكس كلان، وعودة الحكم المتسيد للبيض فى كل أرجاء الجنوب. وبوصفه من قدامى المحاربين، اشتد حنقه بوجه خاص لأن الحرب التى أنهت تجارة العبيد لم تسفر إلا عن تحقيق جزء ضئيل من الآمال التى عُقدت عليها.

وفى السنة التى تخرج فيها من معهد اللاهوت تزوج ويليامز وأصبح راعيًا للكنيسة الثانية عشرة المعمدانية، وهى التجمع الرئيس للسود فى بوسطون. ولم يمكث طويلاً فى تلك الوظيفة وكذلك كان حاله فى وظائف أخرى تالية. ويبدو أن حياته كانت مشبعة بالضجر وعدم الاستقرار، لأنه على الرغم من تحقيقه لنجاحات ضخمة فى كل مهنة جديدة امتهنها، فإنه قلما بقى فيها طويلاً.

ولم يمض إلا عام فى وظيفته كقسيس حتى انتقل إلى مدينة واشنطن وأسس صحيفة قومية للسود هى "فرد من العامة" (the Commoner) وتفاخر العدد الأول بنشر خطابات تهنئة من مشاهير دعاة إلغاء الرق فردريك دوجلاس ووليم لويد جاريسون، ولكن الصحيفة سرعان ما توقفت عن الصدور، وعاد ويليامز إلى العمل الكنسى وكان هذه المرة فى سنسيناتى. وأخذ يكتب عموداً فى صحيفة محلية ومرة أخرى أنشأ

لنفسه صحيفة. ثم، وفي تحول فجائي آخر، استقال من كنيسته، ودرس القانون، والتحق متدربًا لدى محام. وفي سنة ١٨٧٩ في سن الثلاثين انتُخِب أول عضو أسود في المجلس النيابي لولاية أوهايو، حيث أثار ضجة بمحاولته إلغاء قانون يمنع الزواج المختلط بين الأجناس المختلفة. وترك المجلس بعد دورة واحدة.

وترك ويليامز أثرًا أعمق في وظيفته التالية، ولما تركها مرة أخرى خلف وراءه شيئًا جوهريًا وثابتًا. وكان ذلك هو مجلد ضخم بعنوان "تاريخ الجنس الزنجي في أمريكا من ١٦١٩ إلى ١٨٨٠، الزنوج كعبيد وكجنود وكمواطنين، علاوة على دراسة مبدئية لوحدة الأسرة الإنسانية وتاريخ مجمل لأفريقيا وتقرير عن الحكومات الزنجية في سييرا ليون وليبيريا". ونشره في مجلدين سنتي ١٨٨٢ و١٨٨٣، وقد أخذ الكتاب قراءه بداية من الممالك الأفريقية المبكرة حتى الحرب الأهلية وإعادة توحيد البلاد.

كان ويليامز رائدًا بين المؤرخين الأمريكيين في الاستعانة بمصادر غير تقليدية. وتوصل إلى ما لم يبدأ غالبية الأكاديميين في إدراكه إلا بعد ما يقرب من مئة عام: وهو عند الكتابة عن تاريخ شعوب ضعيفة وعاجزة فإن الاعتماد على المصادر التقليدية المطبوعة لا يكفي. وصحيح أنه في أثناء ما كان يتجول في أنحاء البلاد بحث في عدد لا يُحصى من المكتبات، ولكنه فعل ما هو أكثر من ذلك بكثير. فكتب خطابًا إلى صحيفة قومية للسود يسأل فيه قراءها أن يوافوه "بالمحاضر الرسمية لأي منظمات كنسية خاصة بالسود" وغير ذلك من وثائق. وكتب إلى الجنرال وليم تيكومسه شيرمان (William Tecumseh Sherman) يسأله رأيه في جنوده السود. وأجرى مقابلات صحفية مع زملائه من قدامى محاربي الحرب الأهلية. ولما ظهر كتابه المكون من ١٠٩٢ صفحة نال استحسانًا عامًا. وقبلها بعدة عقود كتبت صحيفة نيويورك تايمز (New York Times) مقرظةً ولكن مرغمة، "إنه لمن المشكوك فيه بشدة أن يتمكن أحد أفراد ذلك الجنس من تأليف عمل يستلزم قدرًا هائلاً من القدرات الطبيعية". وفيما بعد قرر و.إ.ب. دي بوا (W.E.B. Du Bois) أن ويليامز هو "أعظم مؤرخي جنسه".

وبدأ ويليامز يتنقل في جولات لإلقاء المحاضرات، مخاطبًا مجموعات المحاربين القدامى والمنظمات الأخوية والتجمعات الكنسية للسود والبيض. وكان من الواضح أن

لديه خطبة لكل مناسبة، من احتفالات الرابع من يوليو إلى اجتماعات جمعية واشنطن الأدبية، وسرعان ما وقع عقداً مع أكبر وكالة للمحاضرات آنذاك وهى وكالة جيمس ب. بوند والتى كان ستانلى أحد زبائنها. وتمكن من مقابلة كل شخص من هنرى وادوورث لونجفلو (Henry Wadsworth Longfellow) إلى رؤساء الجمهورية جروفر كليفلاند (Grover Cleveland) ورذرفورد ب. هيز (Rutherford B. Hayes)، وخرج كثير ممن قابلهم بانطباع إيجابى عن ذلك الشاب الجاد. وكان انطباع الكثير من الأمريكيين السود أقل من ذلك فقد اعتقدوا أن ويليامز قد أدار لهم ظهره فى سبيل تلهفه على مصادقة علية القوم من الأقوياء.

وعلى الرغم من النجاحات التى حققها، فإن النقود تسربت من بين أصابعه، وطارده الدائنون الغاضبون. وتدفقت طاقاته الهائلة فى مشاريع شتى. فكتب كتاباً ثانياً، عن خبرات الجنود السود فى الحرب الأهلية. وسافر إلى نيومكسيكو بحثاً عن أراضٍ يمكن فيها توطين المزارعين السود. وكتب عدة مقالات فى الصحف. وعمل محامياً لشركة كيب كود كانال (Cape Cod Canal). وألف مسرحية تتناول تجارة العبيد. وانغمس فى أعمال منظمات المحاربين القدامى، ونال لقب كولونيل الشرفى من أكثر تلك المنظمات أهمية وهى منظمة جيش الجمهورية الكبير (the Grand Army of the Republic) وأدلى بشهادة أمام الكونجرس مؤيداً لإنشاء نصب تذكارى لقدامى محاربى الحرب الأهلية من السود. ورشحه الرئيس تشستر أ. آرثر، الذى عمل فى حملته الانتخابية، سفيراً فى هايتى. غير أن آرثر ترك المنصب ونشر أعداؤه السياسيون الشائعات عن ديون ويليامز فلم يتم تعيينه فى ذلك المنصب.

وبينما كان فى البيت الأبيض ذات مرة ليقابل الرئيس آرثر، حضر شخص آخر ليقابل الرئيس فى نفس الوقت: هو هنرى شلتون سانفورد، الذى كان أيامها يسعى فى واشنطن لكى تعترف الولايات المتحدة بكونجو ليوبولد. وعَرَّف الرئيس ضيفيه كلاً بالآخر. ورأى ويليامز فى الكونجو الجنينية التى كان سانفورد يصفها فرصة سانحة لتحقيق الحلم الذى كان قد تحدث عنه فى خطبة تخرجه من معهد اللاهوت. فكتب لواحد من مساعدى ليوبولد مقترحاً الاستعانة بأمريكيين من السود للعمل فى الكونجو.

فلا شك أنها ستكون فرصة لهم للريادة والتقدم الذى كانوا محرومين منه فى الولايات المتحدة وقتئذ. كما قدم اقتراحًا إلى لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ بالاعتراف بالمؤسسة الدولية للكونجو وأضاف الكونجو إلى قائمة الموضوعات التى يتناولها فى خطبه.

وفى سنة ١٨٨٩ حصل ويليامز على تكليف بكتابة سلسلة من المقالات من أوروبا لصالح مؤسسة صحفية تُنشَر تزامنيًا فى أكثر من جريدة. وحاول أن يُعَيَّن عضوًا فى الوفد الأمريكى لمؤتمر مكافحة تجارة الرقيق المنعقد فى بروكسل غير أنه فشل فى ذلك؛ ولكنه عندما زار لندن كان يقدم نفسه بصفته عضوًا فى ذلك الوفد. فقد تبين له أن بروكسل هى مدينة مليئة بالأوروبيين الذين يحاول كل منهم أن يبز الآخر فى شجب تجارة الرقيق، وفى هذا المناخ ترك الشاب الأمريكى ابن العبد المعتق انطباعًا حسنًا. وعلى الرغم من قائمة منجزاته المثيرة لم يستطع ويليامز أن يقاوم إضافة شىء من الزخرفة إليها:

> [كتبت صحيفة بلجيكا المستقلة (L'Independance Belge)]: كتب الكولونيل ويليامز، الذى نال رتبته فى الحرب الأهلية، خمسة أو ستة أعمال على الأقل عن الزنوج ... وهو أول من اقترح اعتراف الولايات المتحدة اعترافًا رسميًا بدولة الكونجو، وسُمِح له فى هذا الصدد بإلقاء خطبة كبيرة أمام لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ فى واشنطن كُللت بالنجاح التام.

وكانت أول مقالة صحفية أرسلها ويليامز من بلجيكا إلى الوطن هى مقابلة صحفية مع ليوبولد، الذى وصفه بأنه "متحدث لبق ومسل. وقد قُص شعره ولحيته الكاملة بعناية وانتشر بها اللون الرمادى بغزارة. وهو ذو ملامح قوية وواضحة وحادة، وعيناه صافيتان وسريعتان، وتلمع بالاهتمام الذكى من خلف زوج من النظارات".

وعندما سأل ويليامز الملك عما يتوقعه مقابل الأموال التى أنفقها فى سبيل تطوير الكونجو، أجابه ليوبولد: "إن ما أفعله هناك إنما أفعله كواجب مسيحى تجاه الأفارقة البؤساء، وإنى غير راغب فى استرداد فرنك واحد من كل الأموال التى أنفقتها".

وانبهر ويليامز، مثل كثيرين غيره، بذلك اللقاء الأول مع الرجل الذى أطلق عليه "واحد من أنبل الملوك فى العالم؛ فهو إمبراطور أقصى أمنياته أن يخدم قضية الحضارة المسيحية، وأن يعزز مصالح رعاياه، ويحكم بحكمة ورحمة وعدل".

وأدرك ليوبولد أنه لكى يفتن هذا الزائر بالذات ويؤثر فيه فإن عليه أن يعطى لمشاريعه أذنًا صاغية، لأن ويليامز فى ذات المقال قرر أن الملك "أثبت أنه مستمع رائع". ويبدو أن ما استمع إليه كان خطة ويليامز التى كان ينادى بها منذ زمن بتشغيل الأمريكيين السود فى أفريقيا. واتفق ويليامز مع شركة بلجيكية على أن تتعاقد مع أربعين حرفى ماهر للعمل فى الكونجو، كما وضع خططًا لتأليف كتاب عن الإقليم. إلا أنه لما عاد إلى الولايات المتحدة وتحدث عن خطته العشوائية فى جامعة للسود فى فيرجينيا قوبل بالتشكك من الحاضرين الذين جابهوه بأسئلة كثيرة عن الحياة فى أفريقيا لم يستطع الإجابة عنها. وفى تلك اللحظة قرر أن يؤجل خطة البحث عن عمالة وأن يزور الكونجو أولاً ويجمع المادة اللازمة لكتابه.

وترتب على ذلك أنه كان عليه أن يدبر التمويل اللازم لتذاكر السفر بالبواخر وتكاليف الطعام والمؤن والحمالين للرحلة حول الشلالات. وكان الراعى الرئيسى الذى تمكن من إقناعه هو كوليس ب. هنتنجتون (Collis P Huntington) بارون السكك الحديدية الأمريكية، الذى كان مستثمرًا ثانويًا فى سكك حديد الكونجو. وتقابل ويليامز معه وأتبع اللقاء بوابل من خطابات الإطراء والتملق أثمرت عن إعانة مالية صغيرة لرحلته الأفريقية.

وفى ديسمبر من عام ١٨٨٩ تقابل ويليامز مع الرئيس بنجامين هاريسون (Benjamin Harrison) فى البيت الأبيض. وليس من الواضح ما إذا كان هاريسون قد أعطاه أكثر من تمنياته برحلة طيبة إلى أفريقيا، غير أن ويليامز، كما كان دأبه طوال حياته، استغل فيما بعد ذلك اللقاء مع رجل يملك السلطان فى الإيحاء بأنه كان يؤدى له مهمة سرية عظمى.

وفى الوقت الذى كان فيه ويليامز يستعد لرحلته ملقيًا بالتلميحات عن اتصالاته مع الرئيس وهنتنجتن، اشتدت شكوك ليوبولد ومعاونيه فى أنه قد يكون يعمل خفية لحساب

رجال أعمال أمريكيين ينوون الانتقال إلى الإقليم. وعندما مر ويليامز ببروكسل فى طريقه إلى الكونجو قال فيما بعد:

"بُذل كل جهد ممكن لإثنائى عن مهمتى. وأُرسل لمقابلتى ضابط من أسرة الملك بهدف إقناعى بعدم زيارة الكونجو. وأسهب فى الحديث عن الصفات المميتة للمناخ فى فصل الأمطار، وعن مخاطر ومشاق السفر بالقوافل والتكاليف الهائلة للرحلة ... وبعد ذلك أرسل الملك فى طلبى وقال ... إن السفر فى ذلك القطر أمر صعب، وأصعب منه الحصول على طعام مأمون للرجال البيض؛ وإنه يرجو أن أؤجل رحلتى إلى الكونجو لمدة خمس سنوات على الأقل؛ وإن كل ما أنشده من معلومات يمكننى الحصول عليها فى بروكسل. وأجبت جلالته بأنى سأذهب إلى الكونجو الآن، وسأبدأ رحلتى خلال أيام".

وفيما بين يناير ١٨٩٠ وأوائل العام التالى أبحر ويليامز حول القارة الأفريقية بأكملها، وكان يرسل بانتظام رسائل عاجلة إلى هنتنجتون يسأله المزيد من المال. وتمكن من مقابلة كل الناس من نائب رئيس جمهورية الترنسفال البويرية إلى سلطان زنزبار إلى خديوى مصر، كما حصل على عضوية فخرية فى النادى الإنجليزى بزنزبار وألقى محاضرة فى الجمعية الخديوية الجغرافية بالقاهرة. غير أن أهم زياراته كانت للكونجو، حيث أمضى ستة أشهر، متنقلاً على الأقدام حول الشلالات السفلى وبالباخرة فى النهر العظيم، مع توقفات كثيرة، فى طريقه إلى مساقط ستانلى.

* * *

كان سرعة الإبحار فى النهر بالباخرة فى تلك الأوقات لا تتجاوز ثلاثين ميلاً فى اليوم، وأحيانًا أبطأ من ذلك عند الإبحار ضد اتجاه التيار. وكانت السفينة تتوقف كل يوم بعد الأصيل، عند موقع من مواقع الدولة أو محطة إرسالية تبشيرية، ولكن فى الأغلب كانت تُربط إلى الشاطئ ليلاً. وكان القبطان يضع حراسًا ويرسل مجموعة من

الحطابين السود لقطع أشجار كوقود لرحلة اليوم التالى. ووصف أحد المسافرين المنظر التقليدى:

"عندما يحل الظلام كانت توقد نار عظيمة، وعلى ضوئها يقطِّع الرجال الأشجار إلى كتل صغيرة، يبلغ طول كل منها ثلاثة أو أربعة أقدام ... وكان منظراً مصحوباً بأصوات ضربات الفئوس، وأصوات سقوط الأشجار، ثم مشهد ضوء النار، مع أزيز المناشير ... ثم تنتقل الكتل من يد إلى يد حتى تُحَمَّل على الباخرة".

وكان المسافرون من الأوروبيين أو الأمريكيين ينامون فى قمرات على ظهر السفينة عادة على السطح العلوى؛ بينما ينام الحطابون على الشاطئ. وفى الفجر تنطلق صفارة فيعود الطاقم إلى السفينة أو يركبون زوارق كانو تجرها السفينة، ثم تدفع العجلات المجدافية فى المؤخرة السفينة ببطء متجهة إلى أعلى النهر.

وبينما كان ويليامز يبحر صعوداً فى النهر فى تلك المراحل البطيئة كان لديه وقت كاف يقضيه فى أفريقيا التى طالما حلم بها. كان ذا قدرات على الملاحظة الذكية وخبيراً متمرساً فى المقابلات الصحفية، ولديه مقدرة - نادرة بين الصحفيين مثل ندرتها بين المؤرخين - على عدم التأثر بما سبق أن كتبه آخرون. وفى القرى والمحطات الحكومية ومحطات التبشير على طول ضفاف النهر لم يجد المستعمرة المحكومة بالرقة والاعتدال كما وصفها ستانلى وآخرون غيره، بل وجد ما وصفه بـ "سيبيريا القارة الأفريقية". وتركزت انطباعاته فى الوثيقة الرائعة التى كتبها عند مساقط ستانلى، عندما لم يستطع أن يكبح جماح غضبه أكثر من ذلك.

وفى مستهل الخطاب المفتوح إلى الملك، يتسم ويليامز بالاحترام: "أيها الصديق العزيز العظيم، إن لى الشرف أن أرفع إلى مسامع جلالتكم بعضاً من الانطباعات حول دولة الكونجو المستقلة، المبنية على الدراسة الدقيقة". إلا أنه فى الفقرة التالية يحيل ليوبولد إلى سلطة أعلى، "ملك الملوك". ويبدو واضحاً أن الرب غير راض عما يحدث فى الكونجو.

كان الخطاب المفتوح من عمل رجل يبدو عليه الارتياع المزدوج: أولاً مما رآه، وثانياً "لقد أفقت من السحر وأُصبت بخيبة أمل وانهارت آمالي بكل معنى الكلمة بعد كل ما قلته وكتبته عن أشياء جديرة بالثناء في الكونجو قطراً ودولةً وعاهلاً". وفي الحال تقريباً انبرى ويليامز للعمل متقمصاً إحدى مهنه الكثيرة، مهنة المحامي:

"إن كل تهمة أنا على وشك توجيهها إلى حكومة جلالتكم الشخصية في الكونجو قد تم التأكد منها بدقة؛ وهناك قائمة بشهود صادقين ومن ذوي الأهلية، ووثائق، وخطابات، وسجلات رسمية، وبيانات تم إعدادها بإخلاص". وسيتم الاحتفاظ بالوثائق "حتى يحين الوقت لإنشاء لجنة تحقيق لها صلاحيات استدعاء الأشخاص والاطلاع على الأوراق، وسلطات حلف اليمين، وتشهد بصحة تلك الاتهامات أو زيفها". ومن اليسير أن نتخيل ثورة ليوبولد وهو يجد نفسه مخاطَبًا بصيغة الاتهام من أجنبي، ومن شخص حاول هو من قبل أن يثنيه عن التوجه إلى الكونجو، ثم، وهذه هي الطامة الكبرى، هو رجل أسود.

ولو كان الخطاب المفتوح قد طبع مثل هذا الكتاب الذي بين يديك لما زادت صفحاته على اثنتي عشرة. غير أن ويليامز في ذلك الحيز الضيق تنبأ بكل التهم الرئيسة تقريباً التي كالتها الحركة الدولية للاحتجاج في الكونجو بعد ذلك بما يربو على عقد من الزمان. وعلى الرغم من أنه بحلول عام ١٨٩٠ نُشر في أوروبا نقد متناثر لدولة الكونجو التابعة لليوبولد؛ فإن غالبيته تركزت على تحيز الملك ضد التجار الأجانب. أما اهتمام ويليامز فكان بحقوق الإنسان، وكان ذلك الاهتمام أول اتهام مفصل ومرتب لنظام ليوبولد الاستعماري يوجهه أحد. وإليكم اتهاماته الرئيسة:

- استخدم ستانلي ومساعدوه البيض وسائل مختلفة من الخدع لإيهام الأفارقة أن البيض لديهم قوى خارقة، حتى يجبروا رؤساء عشائر الكونجو على التنازل عن أراضيهم لليوبولد. فمثلاً: "تم شراء عدد من البطاريات الكهربائية من لندن، تُلصق على الذراع تحت السترة وتتصل بشريط في راحة يد الأخ الأبيض، فإذا ما تصافح مع أخ أفريقي مصافحة حارة كان الأخ الأفريقي يشتد عجبه من أن الأخ الأبيض على درجة من القوة بحيث يكاد يسقطه على

الأرض ... وعندما كان الوطنى يتساءل عن التباين فى القوة بينه وبين أخيه الأبيض تأتيه الإجابة بأن الرجل الأبيض يستطيع اقتلاع الأشجار وأداء أكثر أعمال القوة الاستثنائية". وخدعة أخرى كانت استخدام عدسة مكبرة لإشعال سيجار، وبعدها "كان الرجل الأبيض يفسر ذلك بعلاقته الوثيقة بالشمس، ويعلن أنه لو طلب منه أن يحرق قرية أخيه الأسود فإنه سيفعل ذلك." وفى خدعة أخرى كان الرجل الأبيض يعمر بندقية بطريقة ملفتة للنظر ولكنه يدحرج الرصاصة سرا داخل كمه. ثم يناول البندقية لرئيس عشيرة أسود ويقف على مسافة منه ويطلب من الرئيس أن يصوب البندقية ويطلقها؛ فينحنى الرجل الأبيض الذى لم يصب بأذى ويستخرج الرصاصة من حذائه. "ويمثل تلك الأفعال... وبضع صناديق من الجين مُنحت قرى بأكملها إلى جلالتكم". وكتب ويليامز يقول: "إن الأرض التى اشتُريت بتلك الوسيلة كانت أقاليم ليس لجلالتكم أى حق فى المطالبة بها مثلما أطالب أنا بأن أكون رئيس أركان حرب الجيش البلجيكى".

- كان ستانلى أبعد ما يكون عن بطل عظيم، بل كان طاغية. فقد "كان اسمه يثير الرعب إذا ذُكر أمام هؤلاء الناس البسطاء؛ وهم يذكرون وعوده التى أخلفها، وتجديفه الوافر، ومزاجه الحاد، ولطماته الثقيلة، ومقاييسه الصارمة العنيفة، التى سلبهم أرضهم بواسطتها". (لاحظ ادعاءات ويليامز، التى لم يكن معاصروه البيض يتخيلونها، بأن الأفريقيين لهم حقوق فى الأراضى الأفريقية). ومن بين مئات الأوروبيين والأمريكيين الذين سافروا إلى الكونجو فى الأيام الأولى لدولته، كان ويليامز الشخص الوحيد الذى سُجل أنه استجوب الأفارقة عن خبراتهم الشخصية مع ستانلى.

- إن إنشاء ليوبولد لقواعد عسكرية على طول النهر قد تسبب فى موجة من الموت والدمار، لأن الجنود الأفارقة الذين زُودت بها تلك القواعد كان من المفترض أن يطعموا أنفسهم. فكانت تلك القواعد القرصانية تجبر الوطنيين على تزويدهم بالأسماك والماعز والدجاج والخضروات تحت تهديد البنادق؛ فإن رفض الوطنيون ذلك كان الضباط البيض يحضرون ومعهم حملة قتالية من الجنود ويحرقون منازل الوطنيين.

- "إن حكومة جلالتكم تمارس القسوة المتناهية مع سجنائها، فتحكم عليهم بوضعهم فى الأغلال لأوهى الأسباب ... وكثيراً ما كانت تلك الأغلال، وهى مخصصة أصلاً للثيران، تحدث قرحًا فى رقاب المساجين تتجمع عليها أسراب الذباب، مما يضاعف من سوء حالة الجروح".

- كانت ادعاءات ليوبولد أن الدولة الجديدة توفر حكومة حكيمة وخدمات عامة مجرد خداع. فلم تكن هناك مدارس ولا مستشفيات إلا بضع أكواخ "لا تصلح لأن يسكنها حصان". وتقريبًا لم يكن هناك واحد من موظفى المستعمرة يعرف أية لغة أفريقية. "إن محاكم حكومة جلالتكم أبعد ما يكون عن الكمال، وغير عادلة ومتحيزة وتنتهك القانون". (وهنا ضرب ويليامز مثلا حيًا، مثلما كان يفعل كثيراً: أُطلق سراح خادم أبيض للحاكم العام كان قد سرق نبيذاً بينما اتهم الخدم السود زوراً وجُلِدوا).

- كان التجار وموظفو الدولة من البيض يخطفون النساء ويتخذون منهن محظيات.

- كان الضباط البيض يقتلون القرويين، أحيانًا لانتزاع نسائهم وأحيانًا أخرى لبث الرعب فى قلوب المتبقين على قيد الحياة لكى يجبروهم على العمل كعمال سخرة، وفى أحيان أخرى كان القتل لمجرد اللهو. "شاهد ضابطان بلجيكيان بالجيش، من فوق سطح سفينتهم، أحد الوطنيين فى زورقه على مسافة كبيرة منهم ... فتراهن الضباط بخمسة فرنكات على من يصيب الوطنى ببندقيته. وانطلقت ثلاث طلقات وسقط الوطنى قتيلاً وقد اخترقت رأسه رصاصة".

- وبدلاً من الصورة التى صور فيها ليوبولد نفسه كمحارب صليبى نبيل لتجارة الرقيق، "فإن حكومة جلالتكم تمارس تجارة الرقيق بالجملة والقطاعى. فهى تشترى وتبيع وتسرق العبيد. وتدفع حكومة جلالتكم مبلغ ثلاثة جنيهات إسترلينية مقابل العبيد الأقوياء الصالحين للخدمة العسكرية ... وقوة العمالة فى محطات حكومة جلالتكم فى أعالى النهر مكونة من العبيد من كل الأعمار ومن الجنسين".

ولم يتوقف ويليامز عند هذا الحد. فبعد ثلاثة أشهر من كتابته الخطاب المفتوح أصدر "تقرير عن دولة الكونجو وأراضيها مقدم إلى رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية". وفوجئ الرئيس هاريسون بذلك مثلما فوجئ ليوبولد من قبله. وفى خطابه إلى الرئيس كرر ويليامز اتهاماته مضيفًا أن الولايات المتحدة عليها مسئولية خاصة تجاه الكونجو، لأنها قد سبق لها أن "أدخلت تلك الحكومة الأفريقية إلى زمرة الدول". ومثلما حدث فى الخطاب المفتوح عزز ويليامز اتهاماته بأمثلة شخصية. "عند مساقط ستانلى عُرض علىَّ شراء العبيد فى وضح النهار؛ وفى الليل اكتشفت زوارق كانو محملة بالعبيد المقيدين معًا بقوة". وطالب ويليامز بخلع تلك الحكومة المستبدة القاسية وإحلال نظام جديد محلها يكون "محليًا لا أوروبيا، ودوليًا لا قوميا، وعادلاً لا قاسيًا".

وسواء كان ويليامز يطالب بحكم ذاتى أو وصاية دولية، فإن الأمر احتاج لسنوات عديدة قبل أن يطالب شخص آخر من أوروبا أو الولايات المتحدة بنفس المطالب. وفى خطاب أرسله إلى وزير الخارجية الأمريكى استخدم ويليامز جملة بدا وكأنه اقتبسها من محاكمات نورمبرج بعد ذلك بأكثر من نصف قرن. فقد كتب ويليامز يقول إن حكومة ليوبولد مدانة بارتكاب "جرائم ضد الإنسانية".

* * *

طُبع الخطاب المفتوح ككتيب صغير قبل انصرام سنة ١٨٩٠، بينما كان كاتبه لا يزال يستكمل جولته الأفريقية، ووُزع توزيعًا واسعًا فى كل من أوروبا والولايات المتحدة. وليس من الواضح من الذى دبر ذلك التوزيع، ولكن من المحتمل أن يكون شركة تجارية هولندية هى "نيو أفريكانش هاندلز فينوتشاب" (Nieuwe Afrikaansche Handels Vennootschap)، التى كان لها محطات تجارية فى الكونجو وتمتلك السفينة البخارية هولاند التى سافر ويليامز على متنها. وكان مسئولو الشركة حانقين لأن ليوبولد كان يمنع التجار الأجانب بفظاظة من العمل فى الكونجو، ويحتفظ لنفسه ولشركائه بشحنات العاج المجزية. غير أن ويليامز لم يسمح للشركة بالتدخل فى صياغة رسالته: فالخطاب المفتوح لا يتحدث عن التجارة الحرة إلا بصورة عابرة، وهى تأتى فى ذيل قائمة اتهاماته.

وبعد نشر الخطاب المفتوح خصصت صحيفة نيويورك هيرالد، التى سبق لها أن أرسلت ستانلى إلى أفريقيا، عموداً كاملاً للخطاب تحت عنوان مواطن أمريكى يعلن أن حكومة الدولة الأفريقية الحرة حكومة همجية - نطالب بالتحقيق. واستشهدت المقالة بستانلى الذى وصف الخطاب المفتوح بأنه "محاولة متعمدة لابتزاز المال". ومما زاد من تخوفات ويليامز أن راعيه الخيِّر كوليس ب. هنتنجتون قرر أنه غير منصف بصورة فادحة للملك، الذى كان "شديد التدقيق فى سبيل خير ورفاهية مواطنى ذلك البلد".

وكان ليوبولد غاضباً أشد الغضب وهو يطلب من السفير البريطانى فى بروكسل ألا يصدق ويليامز. وكتب السفير إلى وزارته بالوطن: "قد يكون كل ما يقوله الملك عن ويليامز صحيحاً، ولكنى أظن أن هناك جانباً كبيراً من الحقيقة المرة فى خطابه". وذكر واحد من مستشارى ليوبولد فى مذكراته اجتماعاً عاجلاً عُقد لمناقشة ما يمكن عمله إزاء 'نشرة ويليامز' التى صنعت منها الصحافة الباريسية "فضيحة حقيقية".

وسارع ليوبولد ومعاونوه بتدبير هجوم مضاد. فتساءلت صحيفة جورنال دى بروكسل (Journal de Bruxelles)، "بادئ ذى بدء، من هو السيد ويليامز، إن هذا الرجل ليس كولونيلاً بجيش الولايات المتحدة". وفى مقالات تالية أشارت الصحيفة إليه بوصفه "الذى يدعى أنه كولونيل"، و"الكولونيل المزيف"، و"الزنجى غير المتزن"، و"السيد ويليامز الذى ليس كولونيلاً". (وبالطبع لم يحدث أن تساءلت الصحافة البلجيكية عن حقيقة رتبة "الجنرال" هنرى شلتون سانفورد). كما هاجمت ويليامز أيضاً صحيفة 'لو موفمان جيوجرافيك' (Le Mouvement Geographique)، وهى صحيفة كانت على علاقات وثيقة بمشاريع ليوبولد فى الكونجو، وأوضحت أنه رغم أن وطنيى الكونجو لم يكونوا يلقون العدالة الكاملة دائماً، فإن ذلك ينطبق أيضاً على الهنود الأمريكيين.

غير أن صحفاً بلجيكية أخرى اهتمت باتهامات ويليامز. وكتبت الصحيفة الليبرالية 'لا ريفورم' (La Reforme) تقول: "مع هيمنة المضاربات التجارية على الكونجو، فإن حكماً شخصياً مطلقاً غير مسيطَر عليه وحاكمه المستبد الرئيسى لم تطأ أقدامه أرض البلد الذى يحكمه مطلقاً، من المؤكد بصورة قاتلة أن تصدر منه غالبية الأعمال الرهيبة التى أوضحها

الرحالة الأمريكى. وأعلنت صحيفة "لو كوريير دى بروكسل" (Le Courrier de Bruxelles): "نحن لا نميل إلى تقبل كل ما تود الإدارة الكونجولية أن تقدمه للدفاع عن نفسها تقبلنا لحقائق الإنجيل". والتقطت القصة أيضًا صحفٌ من بلاد أخرى، وتحدثت عن اتهامات ويليامز وأحيانًا نشرت مقتطفات مطولة منها.

وبحلول شهر يونيو ١٨٩١ وصل الغضب إلى البرلمان البلجيكى، حيث انبرى كثير من الأعضاء ورئيس الوزراء للدفاع عن الملك. وبعد ذلك ببضعة أسابيع أصدرت دولة الكونجو المستقلة تقريراً من خمس وأربعين صفحة موقعة من كبار مديريها. وذكرت البعثة البريطانية فى بروكسل فى تقرير لها إلى لندن أنه من الجلى أن ذلك التقرير يهدف "إلى دحض اتهامات ويليامز وغيره".

وفى تلك الأثناء كان ويليامز قد أنهى دورانه حول أفريقيا ووصل إلى مصر، حيث سقط مريضًا بالسل على نحو خطير. وكانت نقوده قد نفدت كالمعتاد. وبطريقته المعهودة فى ادعاء أنه فى مهمة عاجلة لحساب أناس أقوياء فقد تمكن بطريقة ما من إقناع المعتمد البريطانى فى القاهرة بتكليف طبيب بعلاجه. ولما لم يتبق معه سوى ١٤ جنيه إسترلينى فقد أرسل استغاثة عاجلة إلى هنتنجتون. وعندما استرد بعضًا من قواه احتال حتى تمكن من الإبحار مجانًا إلى إنجلترا على متن باخرة بريطانية. وتعرف فى الباخرة على شابة إنجليزية كانت تعمل مربية أطفال لدى أسرة بريطانية فى الهند، وفى أثناء الوقت الذى استغرقته الرحلة لوصولهما إلى بريطانيا كانت خطبتهما قد تمت. واستقر ويليامز فى لندن، رغم مصاعب من ديون سابقة جلبها على نفسه فى أثناء زيارة سابقة. غير أن درنه الرئوى تفاقم. وأخذته خطيبته وأمها إلى مدينة بلاكبول، حيث كانتا تأملان أن هواء البحر سوف يشفيه بحيث يستطيع استئناف العمل فى كتابه عن كونجو ليوبولد.

وتبددت أحلامهما. ففى صبيحة يوم ٢ أغسطس ١٨٩١ مات جورج واشنطن ويليامز وحوله خطيبته وأمها وقسيس وطبيب. وكان فى الواحدة والأربعين من عمره. وفى بلجيكا أشارت صحيفة لو موفمان جيوجرافيك إلى موته بارتياح، وقارنته بأولئك الذين

أحرقوا معبد دلفى. وكتب مؤرخ حديث للدبلوماسية هو س.ج.س. كوكى (S.J.S. Cookey): "أنقذ موته المبكر حكومة الكونجو من معارض عنيد مثير للارتباك". ودُفن فى بلاكبول فى قبر غير مميز. ولم يحدث إلا سنة ١٩٧٥ أن وُضع على قبره شاهد ضريح مناسب - دبره كاتب سيرته المؤرخ جون هوب فرانكلين (John Hope Franklin).

ولم يحدث إلا بعد الجنازة أن خطيبته البريطانية علمت أن له فى الولايات المتحدة زوجة وابنًا فى الخامسة عشرة. وفى هذه الخدعة وغيرها، من إهماله لديونه إلى تفاخره بدرجة دكتوراه لا وجود لها، هناك سمات لمحتال. ولكنها، إلى حد ما، تمثل جانب الضعف فى تلك الشخصية التى تمتلك جسارة استثنائية مكنته من تحدى ملك، وكل النظام الطبقى آنذاك. وعلى النقيض، على سبيل المثال، هناك جورج جرنفل، وهو تبشيرى بريطانى عريق زاره ويليامز على ضفاف نهر الكونجو. وهو أيضًا قد رأى رؤية العين كل صنف من أصناف سوء المعاملة بما فى ذلك موظفى دولة ليوبولد وهم يشترون عبيدًا مكبلة بالأغلال، ولكنه، كما كتب إلى وطنه بعد مقابلته لويليامز بعدة أيام، لا يشعر بأنه يستطيع "أن يناقش أفعال الدولة علنًا". ومهما كانت التفاصيل التى أوردها ويليامز فى الملخص الذى عمله، فإن كل ما أورده عن الكونجو سوف يؤيده فيه آخرون - وبغزارة - فيما بعد.

كان خطاب ويليامز المفتوح صيحة غضب أتت من القلب. ولم يجن منها شيئًا وأفقدته راعيه هنتنجتون. وكانت كفيلة بألا تمكنه من العمل، كما كان يأمل، على إحضار السود الأمريكيين إلى الكونجو. ولم تعد عليه بالأموال التى كان دائمًا فى احتياج له، وفى الشهور القليلة التى تبقت له قبل أن يقضى نحبه على شاطئ مصيف أجنبى، لم يكسب منها سوى الافتراءات. وبحلول الوقت الذى زار فيه الكونجو سنة ١٨٩٠ كان ما يناهز ألف أوروبى وأمريكى قد زاروا الإقليم أو عملوا فيه. كان ويليامز الوحيد الذى تحدث وبأعلى صوت وبانفعال ومثابرة حول ما أنكره أو تجاهله الآخرون. وستثبت السنوات التالية أن كلماته كانت تنبؤية.

الفصل الثامن

حيث لا وجود للوصايا العشر

أسس ليوبولد عاصمة دولته الجديدة فى الكونجو عند مدينة ميناء بوما، على ضفة النهر وعلى مسافة قليلة من المحيط الأطلنطى، حيث كان ستانلى قد أنهى اختراقه الملحمى للقارة سنة ١٨٧٧ . واكتملت بوما فى مستهل تسعينيات القرن التاسع عشر وبها ترام - مكون من عربات تجرى على شريط ضيق وتجرها آلة بخارية - يربط ما بين أرصفة الميناء الصاخبة ومستودعات الشركات التجارية وبين هضبة ذات جو أكثر اعتدالاً حيث توجد المكاتب الحكومية ومنازل الأوروبيين العاملين فيها. وازدانت بوما بكنيسة كاثوليكية مبنية من الحديد ومستشفى للأوروبيين ومكتب بريد وقاعدة عسكرية كان مدفعها يطلق طلقات التحية لكل شخصية مهمة تصل المدينة، وكان فيها أيضاً فندق من طابقين. وكان ما يقرب من خمسة وسبعين ضابطًا من البيض يستقلون الترام ثلاث مرات يوميا - ٦ صباحًا و٦,٣٠ و١١,٤٥ مساءً، متجهين إلى الفندق فى سفح التل ومخترقين مزرعة لأشجار الموز حيث يتناولون الطعام فى قاعة الطعام بالفندق. وكان الحاكم العام هو الأوروبى الوحيد الذى يتناول طعامه وحيداً فى قصره الفخم المبنى على الطراز الفيكتورى، ومتكامل بقبة ونوافذ ذات شيش على الطراز الفرنسى وشرفات مغطاة. وكان يحتفل سنوياً بعيد ميلاد الملك بما يتضمنه ذلك من احتفالات مثل استعراض للجنود ومسابقة لإصابة الأهداف وحفل موسيقى يغنى فيها كورال من الأطفال الكاثوليك.

وعلى الرغم من قصره المثير للإعجاب وحرسه المكون من حراس أفارقة يرتدون زيًا نظاميًا وطرابيش حمراء؛ فإن سلطات الحاكم العام للكونجو كانت أقل بكثير من سلطات حكام المستعمرات الأخرى من بريطانيين أو فرنسيين أو ألمان. فالكونجو كانت، أكثر من أية مستعمرة أخرى فى أفريقيا، تُحكم من أوروبا مباشرة. ولم يكن مقر القيادة الحقيقى لدولة الكونجو المستقلة فى بوما وإنما فى مجموعة من المكاتب فى بروكسل، واحد فى أروقة القصر الملكى، والآخرون بالقرب منه أو فى الجهة المقابلة من الشارع. وكان كل كبار موظفى الإدارة والموظفون من المستوى المتوسط منتقين ومعينين بواسطة الملك شخصيًا، وعلى القمة كان هناك مجلس وزراء مصغر من ثلاثة أو أربعة بلجيكيين مسئولين أمام ليوبولد مباشرة.

وكان حكم الرجل الواحد الذى يمارسه ليوبولد على هذا الإقليم الهائل الحجم يتناقض تناقضًا صارخًا مع سلطاته المتقلصة دومًا فى الوطن. وحدث فى سنواته الأخيرة وفى أثناء حديثه مع عدد من وزرائه أن الأمير ألبرت ابن أخيه وولى عهده فتح نافذة فانساب تيار من الهواء وأطار بعض الأوراق على الأرض. فأمره ليوبولد أن يلتقطها. فأسرع أحد الوزراء لجمع الأوراق بدلاً من الأمير، فقال له الملك: "دعه، فالملك الدستورى المستقبلى لا بد أن يتعلم أن ينحنى". غير أن الكونجو لم يكن به انحناء فسلطات ليوبولد هناك كانت مطلقة.

وعلى مستوى صغار الموظفين كان الملك يحكم مستعمرته برجال من البيض مسئولين عن مقاطعات ومحطات على النهر منتشرة فى أنحاء الإقليم الشاسع، وبعضها لم تكن البواخر تزوره إلا مرة كل بضعة أشهر. وفى أعماق داخلية البلاد كثيراً ما كانت الممارسة العملية متخلفة عن النظريات. غير أنه، على الأقل من ظاهر الأوراق، كان حتى أكثر رؤساء المحطات وضاعةً تُخصص له يوميا زجاجة من النبيذ الأحمر ومئونة وافرة من المربى الإنجليزية والزبدة الدنمركية واللحوم المعلبة والحساء والبهارات وكبد الإوز وغيرها من الفطائر المستوردة من محلات فيشر فى ستراسبورج.

وكان هناك وافر من الأوسمة لهؤلاء الموظفين تعكس طبقاتها التسلسل الهرمى الناشئ للحكم الإمبراطورى. وعلى سبيل المثال كانت هناك ست طبقات لنيشان نجمة أفريقيا تتراوح من الصليب الأكبر (grands-croix) وكوماندور (commandeurs) نزولاً إلى الميداليات المجردة. وبدوره كان لنيشان الأسد الملكى ست طبقات، وهو النيشان الذى ابتدعه ليوبولد "للإقرار بالأفضال والاعتراف بالخدمات التى قُدمت إلينا." وخصصت ميدالية خاصة لرؤساء العشائر الأفارقة مموهة بالذهب أو الفضة حسب "الخدمات" التى قُدِّمت. وكانت تحمل على أحد وجهيها صورة جانبية لليوبولد ويحمل الجانب الآخر الشعار الرسمى لدولة الكونجو وكلمات الإخلاص والتفانى.

وعادة ما كان الموظفون البيض فى كونجو ليوبولد من العزاب، واتخذ العديد منهم واحدة أو أكثر من الأفريقيات كمحظيات. غير أنه بحلول نهاية القرن شرع عدد قليل من الموظفين فى إحضار زوجاتهم، وبعضهم الآخر اتجه إلى وكالة استثمارية بريطانية متخصصة فى توفيق الرءوس وإرسال العرائس بالبريد من أوروبا.

وبصورة عامة تبين الصور الفوتوغرافية من محطات الكونجو النائية فى تسعينيات القرن التاسع عشر نمطًا واحداً. ونستنتج من الظلال الطويلة فى الصورة أنها التُقِطت فى ساعة متأخرة من الأصيل. ونشاهد فى الصورة اثنين أو ثلاثة من الرجال البيض مرتدين ملابس كاملة وأربطة عنق وقبعات مستطيلة للشمس، تشبه قبعات الشرطة فى لندن ولكنها بيضاء اللون. ويجلسون على مقاعد مجدولة وكلب يقبع تحت أقدامهم، أمام خيمة أو بناء بسيط سقفه من القش، وهم يبتسمون. ومن خلفهم يقف خدم أفارقة غير مبتسمين يحملون رموزًا لأوضاعهم: صينية تقديم أو منشفة مثنية على الذراع أو زجاجة جاهزة للصب منها. وعلى المنضدة نجد زجاجة نبيذ أو أكواب شاى، رمزًا للرفاهية المنزلية. ودائمًا ما كان الرجال البيض مكتسين بملابس بيضاء اللون.

* * *

وتدعمت مثل تلك المشاهد بعدد من المراسيم الملكية قادمة من بروكسل. أولها وأهمها صدر فى ذات اليوم من سنة ١٨٨٥ الذى أُعلِن فيه رسميا عن قيام دولة الكونجو؛ وقضى المرسوم بأن كل "الأراضى الخالية" هى ملك للدولة. ولم يحدد تعريفًا للأرض الخالية. ففى كل أنحاء العالم نجد أن الأراضى التى تبدو خالية هى فى حقيقة الأمر أراض متروكة عمدًا كى ترتاح التربة بينما تُزرع المحاصيل فى أماكن أخرى - ويتبدى ذلك على وجه الخصوص فى المناطق الاستوائية حيث تزيل الأمطار الغزيرة المواد الغذائية من التربة.

وكان ليوبولد يسعى وراء كل ما يمكن حصاده بسرعة. وفى هذا الصدد تعامل مع الأراضى الخالية وغير الخالية بوصفها من ممتلكاته، مدعيًا الحق فى كل ما ينتج منها من محاصيل. ولم يفرق بين أنياب فيل يتجول فى الأحراش وبين خضروات قروى يمكنها أن تطعم جنوده؛ فكل شىء كان ملكًا له.

غير أنه لم يكن يملك الوسائل لاستغلال الإقليم بكامله، فأصدر سلسلة أخرى من المراسيم اقتطع بها أجزاء من الإقليم قسمها إلى مساحات عملاقة أجَّر ما فيها من "أراض خالية" كامتياز لشركات خاصة لمدد طويلة. وكان للشركات صاحبة تلك الامتيازات حملة أسهم - غالبيتهم وإن لم يكن كلهم، من البلجيكيين - ومجالس إدارة متشابكة شملت عديداً من كبار موظفى دولة الكونجو. ولكن فى كل منها كانت الدولة - التى كانت فى الحقيقة تعنى ليوبولد نفسه - تملك ٥٠ فى المئة من الأسهم. وبهذا التنظيم كان ليوبولد يشبه مدير صندوق تنمية رأسمالية اليوم. وكان بصورة كبيرة قد تمكن من اجتذاب رءوس أموال يملكها أناس آخرون لخططه الاستثمارية بينما يحتفظ هو بنصف العائدات. وفى النهاية وصل ما يحتفظ به إلى أكثر من النصف مع ما كانت الشركات تدفعه للدولة من ضرائب ورسوم.

إلا أن الملك، خلافًا للرأسماليين فى السوق، كان يستغل القوات وموظفى الدولة علاوة على رءوس الأموال المستثمرة. وكان يستخدمهم بقسوة متناهية لإغلاق الإقليم فى وجه أغلب الأعمال التى ليس له فيها نصيب. فالشركة الهولندية التى استقل ويليامز

واحدة من بواخرها وجدت نفسها تواجه منافسة شرسة على العاج من موظفى دولة الكونجو الذين كانوا يوقفون بواخرها، بنيران المدفعية ذات مرة. وحسبما جاء فى رواية من روايات الشركة حدث فى مرة أن "حالة حصار أُعلنت على إقليم من الأقاليم وأُغلق فى وجه التجار. ولما رُفع الحصار كان كل العاج قد اختفى".

وفى تلك الأثناء داوم الملك على الادعاء بأن تحقيق الأرباح كان أبعد شىء عن ذهنه. وكتب إلى رئيس الوزراء فى أعقاب المناقشات البرلمانية سنة ١٨٩١: "إنى أشكرك لموقف الإنصاف الذى اتخذته بالأمس إزاء الافتراءات التى نشرها أعداء دولة الكونجو والاتهامات بالتكتم وروح التكسب. فدولة الكونجو بالقطع ليست مشروعًا استثماريًا. فإن كانت تجمع العاج فى بعض مناطق أراضيها فذلك لكى نعوض بعضًا من العجز فيه".

وإذا كان الأفارقة يُجبرون على المساعدة فى جمع العاج، فإن ذلك ليس بهدف جنى الأرباح والعياذ بالله، بل هو لإنقاذ أولئك الناس الذين دهمهم سواد الليل من جراء كسلهم وتراخيهم. والحديث عن الوطنيين الكسالى كان أمرًا مصاحبًا لكل اغتصاب أوروبى للأراضى الأفريقية، واستُغِل لتبرير غزو الأمريكيتين. وفى مرة صرح ليوبولد لصحفى أمريكى: "عند التعامل مع جنس كان يأكل لحوم البشر لعدة آلاف من السنين؛ فإنه من الضرورى استخدام وسائل تنفض عنهم كسلهم وتجعلهم يقتنعون بقدسية العمل".

وفى مستهل تسعينيات القرن التاسع عشر كان العمل الذى أثنى ليوبولد على قدسيته ووضعه فى أعلى المراتب هو الاستيلاء على كل ما يمكن العثور عليه من العاج. وجاب موظفو دولة الكونجو وأتباعهم من الأفارقة كل أنحاء القطر فى غارات للعاج، يقتلون الأفيال ويشترون الأنياب من القرويين مقابل الفتات أو مصادرته ببساطة. وكانت شعوب الكونجو تصطاد الفيلة لقرون خلت، غير أنهم صاروا الآن ممنوعين من بيعه أو توريده لأى شخص سوى لواحد من أعوان ليوبولد. وحدث تحسين شرير فى طريقة جمع العاج مهد السبيل لكثير مما حدث لاحقًا، ففى سنة ١٨٩٠ فرض الملك نظامًا للعمولات يتقاضى بمقتضاه وكلاءه فى السوق نسبة من قيمة العاج السوقية - ولكن بنظام تصاعدى. فكان العاج الذى يُشترى من أفريقيا بثمانية فرنكات للكيلوجرام يحصل عنه الوكيل على ٦ فى المئة من ثمنه فى الأسواق الأوروبية وهو أكثر من ذلك بكثير.

ولكن العمولة تتصاعد على مراحل حتى تصل إلى ١٠ فى المئة للعاج المشترَى بأربعة فرنكات للكيلو. وبهذا صار للوكيل الأوروبى حافز قوى لإجبار الأفارقة - تحت تهديد السلاح إن لزم الأمر - على قبول الأثمان المتدنية.

ولم تكن تلك الفرنكات البلجيكية تصل إلى أيدى صائدى الفيلة من الكونجوليين. فقد كانوا لا يتلقون إلا كميات ضئيلة من القماش والخرز وما شابه ذلك، أو عصياً من النحاس قررتها الدولة بوصفها العملة الرئيسية للإقليم. ولم يكن مسموحاً للأفارقة بالتعامل بالنقود. فالنقود المتداولة بحرية قد تهدم ما هو فى الأساس اقتصاداً مسيطَراً عليه.

كانت السيطرة على العمالة فى المقام الأول من الأهمية. وفى البداية كانت الدولة فى حاجة شديدة إلى حمالين. ومثلما كان حال ستانلى، كان كل مسئول يغامر بالابتعاد عن نظام المواصلات النهرى ويتوغل فى الأدغال لجمع العاج أو لإنشاء محطة جديدة أو إخماد عصيان - يحتاج لطوابير طويلة من الحمالين ليحملوا كل شىء من ذخيرة المدافع الرشاشة إلى النبيذ الأحمر والمعجنات. وكان عشرات ألوف الحمالين هؤلاء يتقاضون أجراً عن عملهم، وإن كان كثيراً ما لا يزيد عن الطعام الذى يقيم أودهم، ولكن غالبيتهم كانوا من المجندين قسراً. وحتى الأطفال كانوا يُجبرون على العمل : وشاهد مراقب أطفالاً ما بين السابعة والتاسعة يحمل كل منهم حملاً يبلغ وزنه اثنين وعشرين رطلاً (١١ كيلوجراماً).

وكتب موظف فى دولة الكونجو فى مذكراته مقرراً أمراً واقعاً: "حمل طابور من التعساء نحيلى الجسم، وهم مقيدون بالسلاسل فى رقابهم، صناديق أمتعتى متجهين إلى رصيف الميناء". وفى محطة التوقف التالية فى رحلته احتاج الأمر لمزيد من الحمالين للرحلة البرية : "كان هناك ما يقرب المئة منهم، يرتعدون من الخوف أمام الملاحظ، الذى كان يتجول بينهم وهو يفرقع بسوطه. ومقابل كل قوى ممتلئ الجسم وعريض المنكبين كانت الغالبية هياكل عظمية جافة مثل المومياوات، وقد تآكلت جلودهم ... وتشققت بندوب عميقة مغطاة بجروح متقيحة ... وعلى أية حال فقد قاموا بالمهمة".

وكانت الحاجة للحمالين أشد ما تكون عند النقاط التى ينسد عندها مجرى النهر بالشلالات، وبخاصة فى مسافة مسيرة ثلاثة أسابيع بين متادى المدينة الميناء وبحيرة

ستانلى- إلى أن تم إنشاء خط للسكك الحديدية. وكانت تلك المسافة بمثابة خط أنابيب تمر منه المؤن إلى داخلية البلاد والعاج وغيره من الثروات إلى البحر. وكان نقل السفن البخارية المفككة إلى القطاع العلوى من النهر من أشق الأعمال : فنقل باخرة واحدة كان يحتاج إلى جهد ثلاثة آلاف حمال. وإليكم الوصف الذى وصفه إدمون بيكار (Edmond Picard) وهو عضو فى مجلس الشيوخ البلجيكى سنة ١٨٩٦ لقافلة من الحمالين فى طريقها حول الشلالات:

بصورة متواصلة نقابل هؤلاء الحمالين ... سود وتعساء، ولا يرتدون إلا مئزر وسط قذرًا كريهًا، ويحملون أحمالهم على رءوسهم العارية ذات الشعر المجعد - صناديق وبالات وأنياب الفيلة ... وبراميل؛ وغالبيتهم تبدو عليه مظاهر المرض، وينحنون تحت وطأة أحمال يضاعف من وطأتها الإرهاق ونقص الطعام - الذى يتكون من حفنة من الأرز وبعض السمك المجفف النتن، ويشبهون التماثيل التى تقوم مقام العواميد فى المبانى بصورة جديرة بالشفقة، أو دواب حمل الأثقال، وأرجلهم فى نحافة أرجل القردة، ووجوههم غائرة وأعينهم جامدة ومستديرة بسبب انشغالهم بحفظ توازنهم ومن دوار الإرهاق. وهم على هذا المنوال يأتون ويذهبون بالآلاف ... وقد وضعتهم الدولة تحت إمرتها بواسطة مليشياتها القوية، بعد أن سلمهم إليها رؤساء عشائرهم الذين كانوا من عبيدهم ويستولون على رواتبهم، وهم يهرولون بسيقان منثنية وبطون متضخمة رافعين يدًا للإمساك بالحمولة، بينما تستند اليد الأخرى على عصا، وتنتشر طوابيرهم العديدة عبر الجبال والوديان كحشرات متربة ومبللة بالعرق مؤدية أعمالاً شاقة مثل سيسيفوس (Sisyphus)[١] ويلقون حتفهم على طول الطريق أو، إذا ما انتهت رحلتهم، يتوجهون إلى قراهم ليموتوا هناك من الإرهاق.

---

(١) فى الأساطير الإغريقية كان سيسيفوس ملكًا عاقبته الآلهة بجعله يحمل حجرًا ثقيلاً ويرفعه إلى قمة جبل ثم يتركه يتدحرج إلى السفح فينزل ويحمله مرة أخرى إلى القمة. ويستمر العقاب إلى الأبد (المترجم).

وكانت حصيلة الموت عالية بوجه خاص بين الحمالين الذين أُجبروا على حمل حمولات لمسافات طويلة. فمن بين ثلاثمئة حمال جَنَّدهم بول لومارينل مفوض الحكومة بإحدى المقاطعات سنة ١٨٩١ لمسيرة قسرية لما يزيد على ستمئة ميل لإنشاء محطة جديدة لم يعد منهم أحد.

* * *

كان ستانيسلاس لوفرانك (Stanislas Lefranc)، وهو كاثوليكي ورع ومن أنصار الملكية، بلجيكيًا يعمل كمدع عام وجاء إلى الكونجو كي يعمل كقاض. وفى صبيحة أحد أيام الأحد وبينما كان فى ليوبولدفيل، ترامت إلى أذنيه صرخات أطفال يصرخون بشدة.

ولما تتبع لوفرانك الصياح إلى مصدره وجد "نحو ثلاثين صبيًا، كثير منهم فى السابعة أو الثامنة، وقد اصطفوا منتظرين دورهم، وهم يشهدون فى هلع رفاقهم وهم يُجلَدون بالسياط. وانخرط غالبيتهم فى نوبات من البكاء ... ويقاومون برعب شديد بحيث أُمِر الجنود أن يمسكوا بأيديهم وأرجلهم كى يرفعوهم عن الأرض ... ونزل السوط على كل صبى خمس وعشرين مرة". وعلم لوفرانك أنه حدث فى الليلة السابقة أن بعض الصبية ضحكوا فى حضرة رجل أبيض، فأمر بمعاقبة كل الخدم من الصبية فى المدينة بخمسين جلدة. وكان موعد الدفعة الثانية المكون من خمس وعشرين جلدة فى السادسة من صباح اليوم التالى. وتمكن لوفرانك من إيقافها ولكنه تلقى تحذيرًا بألا يقدم مرة أخرى احتجاجات تتدخل فى النظام العام.

كان لوفرانك قد شاهد إحدى الأدوات الرئيسة لنظام حكم ليوبولد للكونجو فى أثناء استخدامها، والتى سرعان ما ترسخت فى أذهان سكان الإقليم بوصفها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحكم الرجل الأبيض مثلها فى ذلك مثل السفينة البخارية والبندقية. وكانت تسمى "الشيكوت" (chicotte)، وهى سوط من جلد فرس النهر مجفف فى الشمس يقطع فى شرائح لولبية ذات حواف حادة. وعادة ما تُجلد به الأرداف العارية للضحية. وتترك ضرباته

ندوباً دائمة؛ وقد تسبب أكثر من خمس وعشرين ضربة فقدان الوعى؛ وكثيراً ما تؤدى مئة جلدة أو أكثر، ولم يكن ذلك العقاب أمراً قليل الحدوث، إلى الوفاة.

وقُدر للوفرانك أن يشهد العديد من عقوبات الشيكوت، إلا أن حديثه عنها فى نشرات ومقالات صحفية نشرها فى بلجيكا لم تثر إلا القليل من ردود الأفعال.

> كان مدير المحطة يختار الضحايا ... فيلقون بهم على الأرض منكفئين على وجوههم... ويمسك اثنان من زملائهم وأحياناً أربعة بأقدامهم وأيديهم، وينزعون عنهم سراويلهم الداخلية القطنية ... وكلما هوى الجلاد بالشيكوت يحدث شريطاً قانياً على جلد الضحايا البائسين، الذين يلهثون ويتشنجون من الرعب، على الرغم من الإمساك بهم بإحكام ... وبعد الجلدة الأولى يطلق الضحايا التعساء صرخات مرعبة سرعان ما تتحول إلى تأوهات ضعيفة ... وفى تحسين متَفَنن فيه للشر عمد بعض الضباط، وقد شهدت أنا ذلك، إلى إجبار المعاقَبين على إلقاء التحية العسكرية باحترام وهم يلهثون بعد الانتهاء من العقاب.

ولم يفلح الاشمئزاز الصريح الذى أبداه لوفرانك إلا فى اكتسابه سمعة أنه غريب الأطوار أو مثير للمتاعب. فكتب عنه نائب الحاكم العام فى تقييمٍ لمرءوسيه إنه "يبدو عليه جهل مثير للاستغراب بأمور من واجبه أن يكون على دراية بها بسبب عمله. فهو موظف منخفض الجودة". وذكر لوفرانك أن المسئولين أمروا بنقل مكان تنفيذ العقوبات فى محطته إلى موقع جديد بدلاً من الموقع الملاصق لمنزله.

وباستثناء لوفرانك لم تسجل إلا قلة من الأوروبيين العاملين لحساب النظام صدمتها لمنظر الإرهاب المكرس بصورة رسمية. وبصفة عامة تقبل الرجال البيض الذين مروا على الإقليم، كضباط عسكريين وقباطنة بواخر أو موظفى الدولة أو الشركات ذات الامتياز، تقبلوا دون تفكير استخدام الشيكوت مثلما تقبل مئات الألوف من العسكريين تعيينهم، بعد ذلك بنصف قرن، كموظفين فى معسكرات الاعتقال النازية والسوفييتية. وكتب بريمو ليفى عن معاناته فى أوشفيتز (Auschwitz): "إن الوحوش موجودون بينهم

لكنهم أقل عدداً من أن يشكلوا خطورة. والأخطر منهم هم ... الموظفون الذين هم على استعداد لأن يصدقوا ويتصرفوا دون أن يوجهوا أسئلة".

ما الذى جعل الموظفين فى الكونجو يشاهدون بمثل هذا السرور والجذل الشيكوت وهى تعمل، وأن يتعاملوا، كما سنرى، مع الألم والموت أيضًا بوسائل أخرى؟ ومن البديهى أن الجنس هو بداية الحديث. فالأفارقة، بالنسبة للأوروبيين، كانوا مخلوقات أدنى منزلة: كسالى وغير متحضرين وأحسن قليلاً من الحيوانات. وفى الحق، كان أكثر أعمالهم شيوعًا هو حمل الأثقال مثل الحيوانات. وفى أى نظام يعتمد على الإرهاب لا بد من أن ينظر الموظفون إلى الضحايا بوصفهم أدنى درجة من البشر، وكانت أفكار العصر الفيكتورى عن الأجناس تكرس مثل تلك الدعاوى.

ومن البديهى أن الإرهاب فى الكونجو كان أيامها مؤيَدًا من السلطات. وكان الرجل الأبيض ينظر إلى التمرد بوصفه تحديًا للنظام الذى يتعيش منه. وكان كل من حولك مشاركًا. وإذا ما تماشيت مع النظام فسوف تتقاضى مرتبًا وتترقى وتُكافأ بالنياشين. وهكذا تَقَبَّل أناس يمكن أن يروعهم منظر الشيكوت وهى تستخدم فى شوارع بروكسل أو باريس أو ستوكهولم، تَقَبَّلوا هذا الفعل، فى تلك المنظومة المختلفة، بوصفه أمرا طبيعيا. ونستطيع سماع صدى هذا التفكير، فى إطار آخر، بعد ذلك بنصف قرن. فقد قال فرانز شتانجل (Franz Stangl) معلقًا على القتل الجماعى الذى كان يمارَس فى معسكرات النازى للموت فى سوبيبور (Sobibor) وتربلينكا (Treblinka) التى كان هو قائدها: "أقول لكم الحق، لقد تعود الإنسان عليها".

وفى مثل ذلك النظام ساعد شىء واحد الموظفين على أن "يتعودوا عليها" وهو وجود مسافة رمزية ضئيلة – لا تدركها الضحية – بين موظف مسئول والعمل الإرهابى ذاته. وكانت تلك المسافة الرمزية من الأمور التى استشهد بها النازيون كوسيلة للدفاع عن النفس فى المحاكمات التى جرت بعد الحرب العالمية الثانية. فعلى سبيل المثال، كان الدكتور يوهان بول كريمر، وهو طبيب بفرق الصاعقة (SS) النازية، كان يحلو له أن يقوم بأبحاثه التشريحية على الأنسجة البشرية وهى لا تزال طازجة، وشرح ذلك:

وُضِع المريض على طاولة التشريح بينما كان لا يزال حيًّا. ثم اقتربت من المنضدة وألقيت على الرجل بضعة أسئلة تتعلق بأبحاثي ... وبعد أن حصلت على ما أبتغيه من معلومات تقدم العامل من الرجل وقتله بحقنه بالقرب من القلب ... أما أنا فلم يحدث مطلقًا أني حقنت أيًّا من تلك الحقن القاتلة بنفسي.

وعلى الرغم من أن بعض البيض في الكونجو فضلوا أن يتعايشوا مع الشيكوت؛ فإن غالبيتهم وضعت مسافات رمزية مماثلة بينها وبين الآلة المفزعة. وكتب فيما بعد راءول دي بريموريل (Raoul de Premorel)، الذي عمل لحساب شركة كانت تعمل في حوض نهر كاساي: "في بادئ الأمر ... كنت أتولى بنفسي معاقبة أولئك الذين كان سلوكهم في اليوم السابق يستحق ذلك. ولكني سرعان ما وجدت أنه من الأفضل أن أوكل تنفيذ العقوبات لآخرين تحت إشرافي. وكانت أحسن خطة أن يتولى كل رئيس عمال أفريقي تنفيذ العقوبة على طاقمه".

وهكذا صارت معظم ضربات الشيكوت يقوم بها أفارقة على أجساد أفارقة آخرين. وبالنسبة للغزاة حقق ذلك هدفًا آخر. فقد خلق طبقة من رؤساء العمال من بين جنبات الشعب الخاضع، على غرار الكابوس (kapos) في معسكرات الاعتقال النازية، أو البريدوركي (predurki)، أو السجناء الموثوق بهم، في معسكرات العمل السوفيتية (gulag) ومثلما كان إرهاب الشعب جزءًا من الغزو، كان إجبار أشخاص آخرين على تنفيذ الإرهاب[٢].

وأخيرًا، فعندما يصبح الإرهاب هو الأوامر اليومية التي لا يناقشها أحد، فإن التعايش معه بكفاءة يصبح من صفات الرجولة، على شاكلة رباطة جأش الجنود في أثناء

---

(٢) أحيانًا كان الغزاة يأخذون حيطتهم عندما يكون ولاء المرءوسين مشكوكًا فيه. فعند تنفيذ حكم الإعدام في ثمانية عشر جندي متمرد أسود في بوما سنة ١٩٠٠، سجل الحدث مصور فوتوغرافي: أُوثق الثوار المدانون إلى أعمدة وكانت فرقة من الجنود السود الموالين قد أطلقت نيرانها لتوها. ولكن في حال ما إذا تردد الموالون، فإن سكان بوما البيض بأكملهم كانوا واقفين في صف طويل عمودي على المجموعتين، وبيد كل رجل أبيض معتمر بقبعة الوقاية من الشمس بندقية على أهبة الاستعداد.

:

المعارك. وكان ذلك هو منتهى "التعود عليها". وإليكم، على سبيل المثال، رئيس محطة يدعى جورج بريكوس (Georges Bricusse) يصف فى مذكراته تنفيذ حكم للإعدام أمر هو به سنة ١٨٩٥ فى رجل سرق بندقية:

> نُصبت المشنقة وربط بها الحبل على ارتفاع عال. ورفعوا الزنجي ووُضعت الأنشوطة حول عنقه. وتأرجح الحبل للحظات، ثم صوت حاد ثم تكوم الرجل على الأرض. طلقة فى مؤخرة العنق وانتهت الحفلة. وفى تلك المرة لم أتأثر البتة!! بينما شُحِب وجهى من الهلع عندما شاهدت الشيكوت تُستخدم لأول مرة. فأفريقيا لها فوائد رغم كل شيء فأنا الآن أستطيع السير فى النار مثلما أدخل حفل زفاف.

* * *

كان إطار نظام السيطرة الذى فرضه ليوبولد على مملكته المترامية الأطراف عسكرى الطابع. فبغير القوة المسلحة لا تستطيع إجبار الرجال على ترك بيوتهم وعائلاتهم وتحمل حمولات من خمسة وستين رطلاً لمدة أسابيع أو أشهر. وكان الملك مسروراً بوجه خاص بأنه يدير شئون جيشه الخاص فى أفريقيا، لأنه فى بلجيكا كان دائماً فى حالة صدام مع المشرعين [أعضاء البرلمان] الذين لم يكونوا يشاركونه تحمسه لبناء القلاع الضخمة، وإنفاق المزيد من الأموال على الجيش، وإصدار التشريعات بفرض التجنيد الإجبارى.

وكان ليوبولد يستغل المرتزقة الأفارقة منذ أن أرسل ستانلى ليثبت أقدامه فيما كان يدعى ملكيته فى الفترة ما بين ١٨٧٩ و١٨٨٤، وفى ١٨٨٨ نظمهم بصورة رسمية فى "القوة الشعبية" (Force Publique) وهو جيش دولته الجديدة. ونما ذلك الجيش على مدى السنوات الاثنتى عشرة التالية إلى ما يربو على تسعة عشر ألفًا من الضباط والجنود، وكان أقوى جيش فى أواسط أفريقيا. وفى أخريات تسعينيات القرن التاسع عشر كان

يلتهم أكثر من نصف ميزانية الدولة. وكان ذلك الجيش يعمل كقوات مضادة لحرب العصابات وجيش احتلال وقوات شرطة لعمال الشركات، كلها فى آن واحد. وكان مقسماً بصورة عامة إلى حاميات صغيرة مكونة بصورة نموذجية من بضع عشرات من الجنود السود تحت إمرة ضابط أو ضابطين من البيض وتقيم الحامية على ضفة نهر. وتضخمت أعداد المواقع العسكرية التى لم تكن فى البداية أكثر من حفنة اليد إلى ١٨٣ بحلول سنة ١٩٠٠، و٣١٣ سنة ١٩٠٨ .

وكان لدى 'القوة الشعبية' ما يشغلها من الأعمال. فكثير من رعايا الملك الجدد كانوا شعوباً محاربة كانت ترد على القتال بالقتال. وقام ما يزيد على اثنتى عشرة مجموعة عرقية مختلفة بثورات كبرى ضد حكم ليوبولد. وحارب شعب الياكا (Yaka) البيض لما يزيد على عشر سنين قبل أن يتم إخضاعهم سنة ١٩٠٦ . وحارب شعب الشوكوى (Chokwe) عشرين سنة، وأنزلوا خسائر فادحة بجنود ليوبولد. وعبأ البوا (Boa) والبودجا (Budja) أكثر من خمسة آلاف رجل وشنوا حروب عصابات من أعماق الغابة المطيرة. ومثلما استخدم الأمريكيون كلمة 'التهدئة' (pacification) فى فيتنام فقد كان يُطلق على الحملات العسكرية للقوات الشعبية رسميا اسم 'استطلاعات التهدئة' (reconnaissances pacifiques).

كان تاريخ أواسط أفريقيا قبل وصول الأوروبيين حافلاً بالحروب والغزوات على غرار تاريخ أوروبا، وحتى فى أثناء حكم ليوبولد لم يكن كل العنف فى الكونجو بين المستعمِرين والمستعمَرين. ولما كان العديد من شعوب الكونجو قد تحاربوا من قبل فيما بينهم فقد كانت القوة الشعبية تعمد إلى التحالف مع مجموعة عرقية لهزيمة مجموعة أخرى. غير أنه سرعان ما كانت المجموعة الأولى تجد نفسها وقد قُهرت بدورها. ولما كانت القوة الشعبية منتشرة ومتفرقة فى إقليم شاسع فقد استغل قواد ليوبولد بذكاء ذلك النمط من التحالفات المتغيرة. وفى النهاية رغمًا عن ذلك، فإن تفوق قوة نيرانها حسمت الموقف وحققت الانتصار – وكُتب التاريخ بواسطة المنتصرين.

غير أننا نلمح أحيانًا، حتى فى تلك السجلات، لمحة من التصميم عند أولئك الذين قاوموا الملك. فقد كان هناك فى كاتانجا فى أقصى الجنوب محاربون من شعب السانجا (Sanga) يقودهم زعيم عشيرة يدعى مولومى نياما. وعلى الرغم من أن القوات الحكومية كانت مسلحة بالمدفعية؛ فإن قوات نياما قاومت ببسالة وقتلت ضابطًا وجرحت ثلاثة جنود. ثم لجأوا إلى كهف كبير من الحجر الطباشيرى يسمى تشاماكيل. وأمر قائد القوة الشعبية جنوده بإشعال النيران على مداخل الكهف الثلاثة كى يجبرهم الدخان على الخروج، وبعد أسبوع أرسل رسولاً للتفاوض مع مولومى نياما على الاستسلام ورفض الزعيم ورجاله ذلك، فأشعل الجنود النيران مرة أخرى وحاصروا الكهف لثلاثة أشهر. وعندما تمكنت القوات أخيراً من دخول الكهف وجدوا ١٨٧ جثة. وخوفًا من أن يخلفوا وراءهم مزاراً للشهداء قامت القوات بإحداث انهيار أرضى بتدبير تفجيرات لطمس كل آثار وجود كهف تشاماكيل وأجساد مولومى نياما ورجاله.

وقامت ثورة أخرى على مسار القوافل عند الشلالات السفلية لنهر الكونجو. فقد بنى أحد عملاء الدولة، وهو بلجيكى سيئ السمعة يدعى يوجين رومل (Eugene Rommel)، محطة هناك لتدبير حمالين للعمل على الدرب ما بين متادى وبحيرة ستانلى وهو مسيرة ثلاثة أسابيع والذى كانت الدولة تحتاج فيه لخمسين ألف رجل فى السنة فى منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر. وكانت الدولة – حسب أوامر ليوبولد الصريحة – تلجأ إلى عمالة السخرة، بخلاف البعثات التبشيرية البروتستنتية وبعض التجار الخصوصيين الذين كانوا يستأجرون الحمالين للعمل على ذلك الدرب ويتفقون معهم على الأجور. وأطلق رومل على محطته اسم "باكا باكا" ومعناها "الأسْر الأسْر".

وقام زعيم عشيرة محلى يدعى نزانسو (Nzansu) بثورة، وأوقع رومل فى كمين وقتله فى ٥ ديسمبر ١٨٩٣، وأحرق محطته ودمرها بالكامل. كما أحرق الثوار موقعين قريبين للدولة ونهبوهما، وقتلوا اثنين من الموظفين البيض وجرحوا عدداً آخر. ولكن نزانسو استبقى موكمبونجو (Mukimbungu)، وهى بعثة تبشيرية سويدية على طريق القوافل. بل إنه منح المبشرين بعض المؤن التى عثر عليها ملقاة فى درب القوافل وأعاد

بعض البضائع التى كان رجاله قد استولوا عليها من محطة البعثة. وكتب واحد من التبشيريين، هو كارل تيودور أندرسن، إلى رئاسة كنيسته فى السويد يقول:

إذا كان أصدقاؤنا فى مقر البعثة فى أرض الوطن قلقين على سلامتنا نتيجة خطابات وصلتهم وتقارير صحفية حول القلاقل فى هذه الأنحاء، فإنى أود أن أؤكد لهم ... أن زعيم الثوار الرئيس نزانسو من كاسى قد أعلمنا أنه لا يريد أن يؤذى أياً منا لأننا دائماً كنا نثبت أننا أصدقاء للشعب الأسود. ولكنه توعد رجال الدولة بالموت. وكل من يعلم الأوضاع هنا لا يمكن أن يندهش لذلك.

وأثارت هذه الثورة بالذات قلق الدولة لأنها قطعت تماماً حركة المرور على الطريق الحيوى للقوافل إلى بحيرة ستانلى. ولكى تقضى على الثوار أرسلت السلطات قوة مكونة من خمسة عشر ضابطاً أبيض ومئتى جندى أسود. وبعد بضعة أسابيع كتب تبشيرى سويدى آخر هو س.ن. بوريسون (C. N. Borrisson) إلى وطنه: "لم يفر الثوار ... ولكنهم تجمعوا فى قرية زعيمهم يدافعون عنها حتى الموت رغم أن قرى أخرى قد أُحرقت".

ويمضى بوريسون يتحدث بقوة عن الثوار الذين لا نستطيع سماع صوتهم:

"إن المرء يزرع ما يحصده. وفى الحقيقة فإن الدولة هى السبب الحقيقى لتلك الثورات. ومن الغريب أن أناساً يدعون أنهم متحضرون يعتقدون أن بإمكانهم أن يعاملوا أندادهم من البشر - حتى ولو كانوا من لون آخر - بأية طريقة تحلو لهم ... ولا شك أن المرحوم مستر رومل كان واحداً من أسوأ الحقراء [من الموظفين]. ولا يجب أن يتحدث المرء بسوء عن الموتى ولكنى يجب أن أذكر ببساطة بعض الأشياء الصغيرة لأثبت أن الثورة كانت مبررة ... فقد كان يعتقل النسوة إذا ما رفض الناس نقل [المؤن] أو أن يبيعوه البضائع بأسعار أقل من أسعار السوق ... ولم يكن يتورع عن أن يأتى إلى محطتنا

ويختطف البنات من مدارسنا ... ويعاملهن بطرق خسيسة. وفى صبيحة أحد أيام الأحد ذهبت ومعى الأخ أندرسن إلى قرية مجاورة وتمكنا من تحرير ثلاث نساء تعيسات كان جنوده قد سجنوهن بسبب أن إحداهن طالبت بثمن إبريق حجرى كان الجنود قد استولوا عليه منها ...

ولكن ماذا كان يحدث لكل النسوة اللواتى كن يُأخَذن أسيرات؟ كان بعضهن يُطلق سراحهن ... بعد أن يبذل الرجال قصارى جهدهم فى سبيل استرداد أعزائهم. وأخريات كن يُجبرن على العمل فى الحقول وكبغايا ... وأخبرنا رجالنا المبجلون هنا والدموع تملأ عيونهم والغيظ الوفير فى قلوبهم أنهم شاهدوا مؤخراً مجموعة من سبعمئة امرأة مقيدات سويا ومنقولات [إلى الساحل على متن البواخر]. وقالوا: "سواء قطعوا رءوسهن أو رءوس دجاجات فالأمر سيان لديهم ...".

وعلى هذا هل يستطيع أى فرد أن يندهش لأن السخط قد طفا أخيراً على السطح؟ إن نزانسو زعيم الثورة وقاتل [رومل] لم يرد أن يكون أكثر من إنجلبركت (Engelbrekt) الكونجو وجوستاف واسا (Gustaf Wasa) قومه. وأتباعه يدينون له بالولاء مثلما كان السويديون يدينون بالولاء لزعمائهم فى تلك الأيام.

وكان المبشر يقارن باثنين من الوطنيين السويديين من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وكانوا من النبلاء الذين قادوا ثورات للفلاحين السويديين ضد ملوك أجنبية قاسية. ونجحت ثورة واسا وانتخب ملكًا على السويد. أما نزانسو فكان أقل حظا. فقد قاتل هو ورجاله ضد قوات ليوبولد الشعبية لمدة ثمانية أشهر، وعلى الرغم من عدد من حملات إحراق الأرض أُرسلت ضدهم؛ فإنهم استمروا فى القتال بصورة متقطعة لمدة خمس سنوات. ولا يبدو أن هناك تسجيلاً لما آل إليه مصير نزانسو.

* * *

كان كل الضباط من ذوى الرتب وبعض الرقباء فى القوة الشعبية من البيض، وغالبيتهم من بلجيكا وبعضهم من أقطار أخرى. وعادة ما كانت جيوشهم الأصلية سعيدة بذهابهم حتى يكتسبوا بعض الخبرات القتالية لبضع سنوات. وكان كل الجنود العاديين من السود. وفى السنوات الأولى كان بالقوة بعض المرتزقة من زنزبار والمستعمرات البريطانية بغرب أفريقيا. غير أنهم سرعان ما فاقهم عدداً جنود من الكونجو ذاته أغلبهم من المجندين. وحتى أولئك الذين تطوعوا فعلوا ذلك، كما شرح جندى منهم لزائر أوروبى، "لأنهم يفضلون أن يكونوا فى صفوف الصيادين عن أن يكونوا مع الفرائس". ومع ضآلة المرتبات وسوء التغذية والجلد بالشيكوت لأتفه الأخطاء فقد حاول العديد منهم أن يفر من الجندية، وفى الأيام الأولى كان الضباط يستنفذون جانبًا كبيراً من وقتهم فى محاولة الإمساك بهم. ولكى تقلل السلطات من احتمالات فرارهم عمدت إلى إرسال المجندين الجدد إلى مناطق شديدة البعد عن مواطنهم الأصلية. وكان على كل جندى ينهى مدة السنوات السبع من الخدمة أن يواجه رحلة من بضع مئات إلى ألف ميل كى يعود إلى موطنه. وأحيانًا لم يكن يُسمح لهم بالسفر حتى ولو أنهى سنوات خدمته.

وكثيراً ما كان شعور الجنود بالإحباط يتمخض عن حركات تمرد، تتراوح ما بين ضخم وهين. وحدث أول تمرد ضخم فى القاعدة الحربية فى لولوابورج (Luluabourg) فى إقليم السافانا جنوب الوسط سنة ١٨٩٥ . وكان ماتيو بلزر (Mathieu Pelzer) قائد القاعدة رجلاً سيئًا يستأسد على من هم أضعف منه مستخدمًا قبضاته، ويأمر بجلد الجنود ١٢٥ جلدة بالشيكوت بصورة روتينية. وعندما قضت محظيته الأفريقية ليلة مع رجل آخر أمر بقتلها. وفى مرة أمر بلزر بجلد جندى، غير أنه قبل أن يبدأ الجندى المنوط به استخدام الشيكوت فى تنفيذ الأمر تقدم رقيب يدعى كاندولو وانتزعها من يده. وفى أعقاب ذلك بقليل اندلعت ثورة ضد بلزر وقادها عدد من ضباط الصف الأفارقة الغاضبين وعلى رأسهم كاندولو.

وهاجم الجنود بلزر وأصابوه بجراح ففر إلى الأدغال واختبأ فيها، غير أن الثوار تعقبوه وقتلوه. وبقيادة كاندولو، الذى أصبح يرتدى اللون الأبيض ويمتطى ثوراً،

اتجه الثوار إلى المواقع الأخرى للقوات الشعبية وحشدوا الأنصار من بين الجنود السود وقتلوا عدداً من الضباط البيض. وسيطر الثوار لمدة تربو على نصف عام على معظم مقاطعة كاساى. وفى الأدغال كانوا يتفرقون إلى مجموعات صغيرة تعمل فى مساحات واسعة ونجحت فى تجنب أو إيقاف سلسلة من الحملات ذات التسليح الثقيل التى أرسلت لمواجهتهم. وبعد ذلك بعام قدر ضباط القوة الشعبية القلقون أنه ما زال هناك أربعمئة أو خمسمئة ثائر طليق يعملون على تجنيد أعضاء جدد ويتحالفون مع الزعماء المحليين للعشائر ضد الدولة. وكان مجمل ما تكبدته القوة الشعبية لإخماد تلك الثورة أرواح عدة مئات من الجنود السود والحمالين وخمسة عشر من البيض من الضباط وضباط الصف. وكان أحد هؤلاء أمريكيا هو الملازم ليندساى بيرك (Lindsay Burke)، وهو مواطن من نيو أورلينز فى السابعة والعشرين من العمر ولم يكن قد أمضى فى أفريقيا إلا أقل من عام، وقُتِل هو وسبعة وعشرون من رجاله بعد أن وقعوا فى كمين فى أوائل سنة ١٨٩٧ . وقُتِل كاندولو زعيم الثوار فى إحدى المعارك، ولكن اثنين من مساعديه هما يامبا – يامبا (Yamba-Yamba) وكيمبوكى (Kimpuki) استمرا يقاتلان حروب عصابات حتى قُتِلا فى أثناء القتال سنة ١٩٠٨، بعد ثلاثة عشر سنة على بدء الانتفاضة.

وفى الجانب الآخر من القطر فى أقصى الشمال الشرقى اندلع تمرد كبير سنة ١٨٩٧ بين ثلاثة آلاف جندى وعدد مماثل من الحمالين والعمالة المساعدة. وكان الرجال قد فاض بهم الكيل فجأة بعد أن أُجبِروا على السير لعدة أشهر فى الأدغال والمستنقعات فى حملة متجددة لليوبولد بحثاً عن منابع النيل. ودام القتال ثلاث سنوات وهم يواجهون القوة الشعبية الموالية طابوراً بعد طابور ويتصارعون على مساحة ستمئة ميل من الأحراش والسافانا حول سلسلة من البحيرات على حدود الكونجو الشرقية. وحارب سوياً ثوار من مجموعات عرقية مختلفة تحت علمهم الأحمر والأبيض، وحافظوا على الانضباط العسكرى ونصبوا الكمائن كى يستكملوا نقص مؤنهم من سلاح وذخيرة. ومنحهم زعماء العشائر المتعاطفين معهم تأييدهم، بما فى ذلك الإنذار بدقات الطبول عن تقدم القوات المعادية. بل إن السجل الرسمى للقوات الشعبية يعترف بأن الثوار "أثبتوا شجاعة فى القتال جديرة بقضية أفضل".

وبعد مرور أكثر من عامين على اندلاع الثورة تمكن الثوار من حشد ألفين وخمسمئة جندى لمهاجمة موقع فائق التحصين. وتقلص فى هذا القتال عدد مجموعة من مرتزقة القوة الشعبية الحكومية من ثلاثمئة رجل إلى ثلاثة رجال. وكان الثوار لا يزالون يوالون القتال سنة ١٩٠٠ عندما انسحب أخيراً ألفا رجل منهم عبر الحدود إلى أراض ألمانية، هى اليوم رواندا وبوروندى، حيث سلموا أسلحتهم مقابل السماح لهم بحق الاستيطان.

وهذا التمرد الطويل الأجل هو الحالة الوحيدة فى تاريخ كونجو ليوبولد التى نعثر فيها على شاهد عيان لما كانت عليه الأحوال فى صفوف الثوار. ففى أبريل من سنة ١٨٩٧ قبض هؤلاء المتمردون على قسيس فرنسى هو الأب أوجست أشت (Auguste Achte)، الذى أوقع نفسه دون قصد فى أيديهم بعد أن افترض أن ذلك "المعسكر الهائل" الذى وجده مصادفة لا بد من أن يكون معسكراً لحملة من حملات القوة الشعبية. وارتعب أشت لما وجد نفسه بدلاً من ذلك وسط ما يقرب من ألفى ثائر، كان قادتهم يرتدون الأردية النظامية الموشاة بالذهب للضباط التى استولوا عليها وكذلك مسدساتهم، وأدرك أنه ميت لا محالة. وسلك بعض الثوار معه سلوكًا خشنًا وأخبروه أنهم قد أقسموا على أن يقتلوا كل الجنس الأبيض. غير أن قادة المجموعة تجادلت معهم، وأوضحوا لهم أن هناك فرقًا بين البيض الذين يعملون مع حكومة الكونجو الكريهة وأولئك الذين لا يعملون معها. وذكر أشت أن مولامبا زعيم تلك المجموعة أخبره أنهم سيبقون على حياته "لأنى لم يكن معى بندقية، وكنت أعلم كلمة الرب، وأرعى المرضى من الوطنيين، وأنى (وهى الأمر الذى حسم الجدل) لم يحدث أنى ضربت أسود". ووصل الثوار إلى هذه النتيجة بعد أن استجوبوا عشرة من الشباب الأفريقى كان القس يعلمهم المبادئ الدينية.

ولدهشة الأب أشت الشديدة، ذبح الثوار ماعزًا وأطعموه، وأعطوه فنجانًا من القهوة، وقدموا له هدية من العاج ليعوضوه عن بضائعه التى صادروها "حتى لا تكتب إلى أوروبا شاكيًا أننا سرقنا منك". وبعد بضعة أيام، أطلقوا سراحه. وأخبره الثوار أنهم قتلوا ضباطهم البلجيكيين لأن الضباط كانوا يعاملونهم معاملة الحيوانات، ولم يحصلوا على مرتباتهم لعدة أشهر، وكان الجنود والزعماء يُجلَدون ويُشنَقون لأتفه المخالفات. وتحدثوا عن ضابط أبيض قتل ستين جنديا فى يوم واحد لأنهم رفضوا أن

يعملوا فى يوم أحد، وآخر كان "يضع بيديه الملح والفلفل على الجروح النازفة الناتجة عن الشيكوت وأمر بإلقاء المرضى الموجودين فى موقعه فى نهر لوالابا".

وقال مولامبا لأشت: "لمدة ثلاث سنوات نمت الكراهية ضد البلجيكيين فى قلبى وخنقته. وعندما شاهدتُ دانيس [البارون فرانسيس دانيس (Baron Francis Dhanis) قائد القوة الشعبية فى المنطقة] وجهًا لوجه مع أبناء وطنى الثائرين ارتعدت من الفرحة: فها قد أقبلت لحظة الخلاص والانتقام". وذكر ثوار آخرون لأشت أنهم اختاروا مولامبا ملكًا لهم واثنين آخرين كنواب له، وأنهم يريدون إقامة دولة مستقلة خالية من البيض. وكانت تلك الانتفاضة وغيرها من ثورات القوة الشعبية أكبر من مجرد تمردات لجنود ناقمين؛ بل كانت إرهاصات بحروب العصابات ضد الاستعمار التى هزت أواسط وجنوب أفريقيا بدءًا من ستينيات القرن العشرين.

* * *

وفى الوقت الذى أصدر فيه ليوبولد مراسيم مهيبة تحرم تجارة الرقيق، لم يحدث فى الواقع أن زائرًا من زوار الكونجو، فيما عدا جورج واشنطن ويليامز، تحدث عن الأمر الواضح: وهو أنه ليس فقط الحمالون بل حتى جنود القوة الشعبية كانوا جميعًا، فى حقيقة أمرهم، عبيدًا. ويضاف إلى ذلك أن وكلاء الدولة من البيض، وفقًا لنظام وافق عليه الملك شخصيا، كانوا يتقاضون علاوة إضافية تتحدد حسب عدد الرجال الذين يتمكنون من تسليمهم إلى القوة الشعبية. وفى بعض الأحيان كان الوكلاء يشترون الرجال من زعماء عشائر متعاونين كانوا يسلمون بضائعهم البشرية مكبلة بالأغلال. (وجاء فى صفقة سجلتها مذكرات مفوض إحدى المناطق، أن اثنين من زعماء العشائر من إقليم بونجاتا سنة ١٨٩٢ تقاضوا خمسة وعشرين فرنكًا للشخص الواحد مقابل تسليم ستة مراهقين). وكان موظفو دولة الكونجو يحصلون على عمولة إضافية مقابل "تخفيض نفقات جمع الرجال" - وهى دعوة مقنعة للمحافظة على أموال الدولة باختطاف هؤلاء الرجال مباشرة بدلاً من دفع مبالغ مقابلهم لزعماء عشائرهم.

غير أن تجارة الرقيق كانت دائمًا مزينة بألفاظ منمقة، يستخدمها حتى الضباط فى ميادين القتال. وكتب أحد الضباط هو لويس روسو (Louis Rousseau) فى تقريره الشهرى عن شهر أكتوبر ١٨٩٢: "وصل قاربان لتوهما ... وبهما الرقيب لنز ومعه ٢٥ متطوعًا من إنجويتا (Engwettra) مكبلين بالأغلال، وغرق منهم اثنان بينما كانا يحاولان الفرار." وفى الحقيقة فإن ثلاثة أرباع هؤلاء "المتطوعين" ماتوا قبل أن يُسلموا إلى مواقع القوة الشعبية، وفقًا لما كتبه ضابط كبير فى نفس السنة وقد استبد به القلق. ومن بين الحلول التى اقترحها لتجنب مثل تلك "الخسارة" أن يتم النقل بطريقة أسرع وأن تُستخدم أغلال أخف وزنًا من السلاسل الحديدية الثقيلة. وتوضح وثائق تلك الفترة أن موظفى دولة الكونجو كانوا يطلبون المزيد من الأغلال بصورة متكررة. ولاحظ ضابط مشكلة عبور طوابير المجندين للجسور الضيقة المصنوعة من جذوع الأشجار فوق نهيرات الأدغال: "إذا سقط واحد من [الرجال المحرَّرين] وهم مكبلون سويا من أعناقهم فإنه يجذب معه الطابور بأكمله فيختفون".

وفى بعض الأحيان كان الضباط البيض الذين تولوا المفاوضات مع زعماء القرى لتسليمهم "متطوعين" من الجنود والحمالين، يتعاملون مع نفس المصادر التى كانت تعمل فى تجارة الرقيق على الساحل الشرقى وهم من الأفارقة العرب. وكان أقوى هؤلاء التجار المستقرين فى زنزبار هو حامد بن محمد المرجيبى، والذى اشتهر باسم تيبو تيب (Tippu Tip). وقيل إنه اكتسب كنيته من صوت أهم وسيلة كان يستخدمها تجار الرقيق وهى بندقية المسكيت القديمة.

كان تيبو تيب رجلاً داهية وواسع الحيلة وقد جمع ثروة من العاج ومن الاتجار بالعبيد، وهو نشاط تجارى أمكنه التوسع فيه بطريقة مثيرة، والفضل يعود إلى ستانلى لاكتشافه طريق أعالى نهر الكونجو(٣). وكان ليوبولد يعلم أن نفوذ تيبو تيب وحنكته الإدارية قد

---

(٣) كان تيبو تيب يزود ستانلى بالحمالين، وكان ستانلى يدرك من حقائق الأمور ما يجعله لا يلحف فى السؤال عن سبب ربطهم بالأغلال أحيانًا. وفى رحلتين من رحلات ستانلى الاستكشافية اصطحب معه تيبو تيب وبطانته جانبًا من الطريق. ومن بين أسباب أن رحلة المستكشف السيئة الحظ لإنقاذ أمين باشا قد جلبت كل ما اجتلبته من الانتقاد فى أوروبا أنه حدث فى لحظة ما أن ستانلى صادر بطريقة متعجرفة سفينة بخارية تابعة لإرسالية تبشيرية لنقل جنوده إلى أعالى نهر الكونجو. وشاهد المبشرون المذهولون سفينتهم وهى تحمل جانبًا من الحملة يشمل تيبو تيب وخمس وثلاثين من زوجاته ومحظياته.

جعلا منه الحاكم الفعلى لشرق الكونجو. وفى سنة ١٨٨٧ طلب منه الملك أن يعمل كحاكم للإقليم الشرقى للمستعمرة، وتكون عاصمته عند مساقط ستانلى، وقبل تيبو تيب؛ ووظف عدداً من أقاربه كى يعملوا تحت إمرته. وفى تلك المرحلة المبكرة، ومع الانتشار الواسع الممتد لقوات ليوبولد العسكرية، كانت الصفقة فى مصلحة الطرفين. (تعاقد الملك أيضاً على شراء حرية عدة آلاف من عبيد تيبو، ولكن بشرط أن يعملوا لسبع سنوات فى القوة الشعبية، وهو ما اكتشفه سريعاً هؤلاء "المحَرَّرون" وآخرون غيرهم). ورغم أن ليوبولد نجح فى معظم فترات حياته فى أن يخدع كل الناس كل الوقت؛ فإن مشهد ذلك المحارب الصليبى لتجارة الرقيق وهو يتعامل مع أكبر تجار الرقيق فى أفريقيا كان حافزاً لبداية التذمر ضد الملك فى أوروبا.

وفى النهاية افترق الرجلان كلٌّ فى طريق. فقد حدث أن موظفى الدولة من البيض الطموحين فى الكونجو الشرقية، ودون الحصول على موافقة رؤسائهم فى بروكسل، خاضوا عدة معارك منتصرة ضد بعض جنرالات العرب الأفارقة فى الإقليم، تلك المعارك التى تحولت إلى حملة نبيلة ضد تجار الرقيق من "العرب" الجبناء. ورفعها أدب البطولات الاستعمارية إلى موقع متميز فى الأساطير الرسمية لتلك الفترة، لا تزال أصداؤه تتردد فى بلجيكا إلى يومنا هذا. غير أن القوات العسكرية فى الكونجو على مر السنين أراقت من الدماء ما هو أكثر بكثير فى سبيل إخماد عدد لا يحصى من انتفاضات الأفارقة بما فى ذلك ثورات من بين صفوف تلك القوات ذاتها. ويضاف إلى ذلك أنه بمجرد انتهاء تلك الحملة الخبيثة ضد تجار الرقيق، أعاد ليوبولد عدداً كبيراً منهم إلى أعمالهم كموظفين فى الدولة.

* * *

ماذا كان الإحساس عندما تُأسر وتُستعبد بواسطة غزاة الكونجو البيض؟ فى مناسبة نادرة نسمع صوتا أفريقيا يصف خبراته. وقد سجلها أمريكى من عملاء الدولة يتحدث اللغة السواحلية وهو إدجار كانيسيوس (Edgar Canisius) الذى وجد نفسه وقد استثيرت مشاعره بدرجة غير متوقعة بعد أن استمع إلى قصة روتها له

"امرأة متقدة الذكاء تدعى إلانجا (Ilanga)". وفيما بعد عندما تقابل مع الضابط والجنود الذين كانوا قد أسروها وصل إلى قناعة بأنها كانت صادقة حقًا. والأحداث التى وصفتها حدثت فى الجــزء الشرقى من الإقليم، بالقـرب من نيانجوى (Nyangwe)، وهى المدينة التى رأى فيها ستانلى لأول مرة النهر العملاق الذى تبين فيما بعد أنه نهر الكونجو. وإليكم رواية إلانجا كما سجلها كاتسيوس:

قريتنا تسمى وانيندو (Waniendo) على اسم زعيمنا نيندو (Niendo) وهى قرية كبيرة بالقرب من نهر صغير، وتحيط بها حقول كبيرة للمنيهوت (cassava- mohago) والذرة (muhindu) وغيرها من الأطعمة، ونحن جميعًا نكد فى مزارعنا، والطعام متوفر لدينا دائمًا ... ولم يحدث أن نشبت حروب فى بلدنا، ولم يكن الرجال يملكون أسلحة كثيرة سوى السكاكين ...

وكنا جميعًا منهمكين فى عزق الأرض فى حقول مزارعنا، لأننا كنا فى فصل الأمطار، والأعشاب تنمو بسرعة، عندما أقبل عداء على القرية يقول إن مجموعة كبيرة من الرجال آتية إلى القرية، وإنهم يرتدون جميعًا قبعات حمراء وأردية زرقاء، ويحملون بنادق وسكاكين طويلة، ويصحبهم عدد كبير من الرجال البيض، رئيسهم هو كيبلانجا [وهو الاسم الأفريقى لضابط من القوة الشعبية يدعى أوسكار ميشو (Oscar Michaux) الذى كان ليوبولد شخصيًا قد أهداه سيفًا]. وفى الحال جمع نيندو كبار الرجال إلى منزله، بينما دقت الطبول لاستدعاء الناس إلى القرية. وعُقد اجتماع مطول، وأخيرًا أخبرونا أن نذهب إلى الحقول فى هدوء ونأتى بالبندق المطحون ونبات لسان الحمل والمنيهوت للمحاربين القادمين، والماعز والدجاج للرجال البيض. وذهبت كل النسوة بالسلال وملأنها ووضعنها على جانب الطريق ... وكان نيندو يظن أنه بإعطائه هدايا من الطعام الوفير فإن ذلك سوف يقنع الرجال بأن يسيروا فى طريقهم دون إيذائنا. وهذا ما حدث ...

وعندما انصرف الرجال البيض ومحاربوهم ذهبنا مرة أخرى لأعمالنا، راجين ألا يعودوا؛ ولكن ذلك حدث خلال فترة قصيرة. ومثلما حدث فى المرة السابقة جمعنا لهم كومة كبيرة من الطعام؛ ولكن كيبلانجا لم ينصرف بسرعة هذه المرة، بل نصب معسكره بالقرب من قريتنا، وأتى جنوده وسرقوا كل دجاجنا وماعزنا ومزقوا نباتات المنيهوت الخاصة بنا؛ ولكننا لم نأبه لذلك طالما لم يؤذونا. وفى الصباح التالى ... مباشرة بعد طلوع الشمس فوق التل، حضرت إلى القرية مجموعة كبيرة من الجنود، فدخلنا بيوتنا ومكثنا فيها. ولم يمض وقت طويل حتى اندفع الجنود صائحين وأخذوا فى تهديد نيندو ببنادقهم. واقتحموا المنازل وانتزعوا الناس منها. وأتى إلى منزلنا ثلاثة أو أربعة وأمسكوا بى وبزوجى أوليكا أيضًا وكذلك بأختى كاتينجا. وجرونا إلى الطريق وأوثقونا معًا بحبال حول رقابنا، بحيث لا نستطيع الفرار. وكنا نبكى جميعًا فقد أدركنا الآن أنهم سيأخذوننا كعبيد. وضربنا الجنود بكعوب بنادقهم وأجبرونا على السير إلى معسكر كيبلانجا، الذى أمر بربط النساء وحدهن كل عشرة بحبل واحد وكذلك فعل بالرجال. وعندما تم جمعنا جميعًا - وكان هناك آخرون من قرى أخرى وكثيرون من قريتنا وانيندو - أحضر الجنود سلالاً مليئة بالطعام كى نحملها، وبعضها كان يحوى لحومًا بشرية مدخنة ...

ثم شرعنا فى السير بسرعة، وكانت أختى كاتينجا تحمل رضيعها على ذراعيها، فلم يجبروها على حمل السلال؛ ولكن زوجى أوليكا أُجبر على حمل معزاة. ومشينا حتى بعد الظهيرة، ثم عسكرنا بالقرب من جدول، حيث سعدنا بشرب الماء فقد كان العطش قد اشتد بنا. ولم نكن قد أكلنا شيئًا فالجنود لم يعطونا شيئًا نأكله ... وفى اليوم التالى استأنفنا السير، ولما نصبنا معسكرًا عند الظهر أعطونا شيئًا من الذرة ولسان الحمل جُمعت بالقرب من قرية كان أهلها قد فروا منها. واستمر الوضع هكذا كل يوم حتى اليوم الخامس عندما انتزع الجنود طفل أختى من يديها وألقوا به وسط

الحشائش وتركوه ليموت، وأجبروها على حمل بعض أوانى الطبخ كانوا قد عثروا عليها فى القرية المهجورة. وفى اليوم السادس اشتد بنا الضعف من قلة الطعام ومن السير المتواصل والنوم على الحشائش الرطبة، ولم يتحمل زوجى، الذى كان يمشى وراءنا حاملاً المعزاة، أكثر من ذلك فجلس على الأرض على جانب الطريق ورفض أن يسير أكثر من ذلك. فضربه الجنود، ولكنه صمم على عدم التحرك. وعندئذ ضربه أحد الجنود على رأسه بمؤخرة بندقيته فسقط على الأرض. وأمسك أحد الجنود بالمعزاة، بينما قام اثنان أو ثلاثة منهم بطعن زوجى بالسكين الطويلة التى يضعونها فى نهاية بنادقهم. ورأيت الدماء تتدفق، ثم لم أره بعد ذلك، فقد عبرنا فوق أعلى التل واختفى عن أعيننا. وقُتل العديد من الشباب بنفس الطريقة، وأُلقى بالكثير من الأطفال فى الأحراش ليموتوا ... وبعد مسيرة عشرة أيام وصلنا إلى المياه العظيمة ... وأخذونا فى زوارق كانو فعبرنا إلى نياجوى (Nyangwe) مدينة الرجال البيض.

* * *

وحتى الأطفال لم يكونوا يفلتون من صرامة نظام حكم ليوبولد. وكتب الملك يوم ٢٧ أبريل ١٨٩٠: "إنى مؤمن بأننا يجب أن ننشئ ثلاث مستعمرات للأطفال، واحدة فى أعالى الكونجو بالقرب من خط الاستواء، وتكون عسكرية الطابع وبها رجال دين بهدف التوعية الدينية والتعليم المهنى. وواحدة فى ليوبولدفيل تحت إشراف رجال الدين ومعهم رجل عسكرى للتدريبات العسكرية. وثالثة فى بوما مثل تلك التى فى ليوبولدفيل. والهدف من مثل تلك المستعمرات هو إمدادنا بالجنود فى المقام الأول. ولهذا فعلينا بناء ثلاث ثكنات كبيرة فى بوما وليوبولدفيل وبالقرب من خط الاستواء ... يتسع كل منها لألف وخمسمئة طفل وإداريين". وبناء على أوامر ليوبولد تلك أصدر الحاكم العام بعد ذلك بستة أسابيع توجيهاته إلى مفوضيه الإقليميين: "من الآن فصاعداً يتم جمع أكثر ما يمكن جمعه من الأطفال الذكور" ليملأوا بهم ثلاث مستعمرات.

وبمرور السنين أُنشئت مستعمرات أطفال كثيرة أخرى بواسطة المبشرين الكاثوليك. وخلافًا للبعثات التبشيرية البروتستنتية، التى كانت أجنبية وخارج نطاق سيطرة ليوبولد، كانت البعثات الكاثوليكية بلجيكية فى غالبيتها ونصيراً مخلصًا للملك ونظام حكمه. (بل إن إحدى الجماعات الكهنوتية البلجيكية وهى جماعة آباء شوت، أطلقت اسم مدير واحدة من كبرى الشركات صاحبة الامتيازات على إحدى محطاتها). وكان ليوبولد يغدق الأموال بسخاء على تلك الجماعات الكاثوليكية، واستخدم أحيانًا نفوذه المالى هذا فى نشر القساوسة، وكأنما هم جنود، فى مناطق كان يريد تقوية نفوذه فيها.

ومن الناحية النظرية كان الأطفال الذين تجمعهم تلك الإرساليات "أيتامًا". غير أن مفهوم اليتم بالصورة الأوروبية المعهودة لم يكن له وجود فى المجتمعات الأفريقية وهى مجتمعات بكر وعلى الفطرة وتتسم بحضور قوى للعلاقات الأسرية والعشائرية الواسعة. فكان أولئك الأطفال أيتامًا بالمعنى الحرفى للكلمة لأن آباءهم فى أحيان كثيرة قد قتلتهم القوة الشعبية. وفى أعقاب غاراتهم المميتة فى كل أرجاء الإقليم كان الجنود كثيراً ما يجمعون من بقى على قيد الحياة، سواء كانوا بالغين أو أطفالاً، ويحضرونهم إلى الإرساليات الكاثوليكية.

> [وكتب قسيس كاثوليكى إلى رئاسته سنة ١٨٩٩]: "زودنا مسيو ديفوس بخمسة مساجين مغلولة أعناقهم، كى يجمعوا الطين لصنع الطوب، كما زودنا بخمسة وعشرين عاملاً من إبمبو لجمع الأخشاب ... منذ آخر قافلة للأطفال من بوتا وصل ٢٥ آخرون ... ومن وقت لآخر كنا نقوم بتعميد بعض الصغار منهم، تحسبًا لموتهم ... وفى ١ يوليو احتفلنا بالعيد القومى لدولة الكونجو المستقلة. ففى الساعة الثامنة تجمعنا ومعنا كل أطفالنا والعلم أمامنا عند أسفل السلم المنحوت فى سفح الجرف الصخرى كى نرحب بالقائد ديفوس وجنوده. وفى عودتنا إلى الإرسالية سار الأطفال فى المقدمة يتبعهم الجنود ... وفى أثناء القداس ... أُعلن عن رفع خبز القربان المقدس بنفخ الأبواق.

وعادة ما كانت مستعمرات الأطفال تُحكم بالشيكوت والأغلال. وحدثت حركات تمرد كثيرة. وكان مصير غالبية الذكور المتخرجين من مستعمرات الدولة، من بقى منهم على قيد الحياة بعد مخاطر الاختطاف والنقل والإلحاق القسرى بالمدرسة، أن يصبحوا جنوداً، تنفيذاً لأوامر ليوبولد. وكانت مستعمرات الدولة تلك هى المدارس الوحيدة التى تمولها الدولة للأفارقة فى كونجو ليوبولد.

وكانت الأمراض منتشرة فى صفوف الأطفال سيئى التغذية والمثخنين بالكدمات الذين حُشدوا فى مستعمرات الدولة والإرساليات الكاثوليكية، كما كانت الوفيات عالية وكثيراً ما تعدت ٥٠ فى المئة. ومات آلاف آخرون من الأطفال فى أثناء الرحلات الطويلة متجهين إلى المستعمرات. ومن بين أصل ١٠٨ صبى أُجبروا على السير إلى مستعمرة الدولة فى بوما فى فترة ١٨٩٢-١٨٩٣ لم يتمكن إلا اثنان وستون منهم من الوصول إلى وجهتهم؛ مات ثمانية منهم فى الأسابيع القليلة التالية. وكتبت رئيسة مستعمرة كاثوليكية للبنات إلى موظف كبير من موظفى الدولة سنة ١٨٩٥: "كان عدد كبير من البنات فى شدة المرض عند وصولهن بحيث ... لم تتمكن راهباتنا من إنقاذهن، ولكن كلهن نلن سعادة التعميد المقدس؛ وهن الآن ملائكة فى السماء يقِمن الصلوات لملكنا العظيم".

* * *

وعلى الرغم من تلك الصلوات كان الملك العظيم يواجه المزيد من المتاعب الداخلية فى الوطن. وأول ما واجهه هو أن آماله فى أن يرى ابنته ستيفانى إمبراطورة على النمسا والمجر انتهت بكارثة. فقد أدمن زوجها الأمير رودولف ولى العهد الخمر والمورفين. وذات يوم سنة ١٨٨٩ عُثر عليه وعشيقته ميتين فى كوخ صيد - ومن الواضح أنها كانت حادثة انتحار مزدوج - رغم أن الشائعات بأنه قُتل بواسطة أعداء سياسيين ظلت حية لسنوات. وعلى أية حال لم تتمكن ستيفانى مطلقاً من أن تصير إمبراطورة. وهرع ليوبولد إلى فيينا حيث أرسل له مجلس الوزراء البلجيكى تعازيه. وأجاب الملك،

وكان فى خضم حملته لجمع الأموال لتطوير الكونجو: "إننا نشكركم لأحاسيسكم الكريمة تجاه الكارثة التى حلت بنا. ونحن نعلم شعور الوزراء ونعول على تعاطفهم فى الامتحان الرهيب الذى أنزله الرب بنا. افعلوا قدر مستطاعكم لمساعدة المسيو فان نوس [المدير العام للشئون المالية فى دولة الكونجو] فى عرض المزيد من الأسهم فى الأسواق؛ فسيكون ذلك مناسبًا تمامًا لى. وأشكركم مرة أخرى".

وفيما بعد تزوجت الأرملة ستيفانى من كونت مجرى لم يكن دمه ملكيًا بما فيه الكفاية لإرضاء ليوبولد، وكان الملك يشير إلى زوج ابنته بكلمة "راعى الأغنام هذا". ومثلما فعل مع أختها لويز، رفض ليوبولد أن يتحدث مع ستيفانى مرة أخرى.

وبجانب بناته المتمردات وعراكه معهن كانت أخته المجنونة كارلوتا قد احتُجِزت فى قصرها على مشارف بروكسل، ويبدو أنها كانت تؤمن بأنها لا تزال إمبراطورة المكسيك. وكانت تعلق ثوب زفافها على الحائط وقد ذبلت أزهاره وكذلك صورة لمعبود مكسيكى مزدان بالريش. ويقال إنها كانت تقضى أيامها تتكلم مع دمية بالحجم الطبيعى ومرتدية زيًا إمبراطوريًا. وزودت الأقاويل عن الأوهام التى كانت تعيش فيها صحافة الفضائح فى كل أنحاء أوروبا بفيض لا ينتهى من الحكايات. وعندما اشتعلت النيران فى قصرها أشيع أن كارلوتا خرجت إلى الشرفة وأخذت تصيح فى ألسنة اللهب "هذا ممنوع هذا ممنوع!".

ولكن المشاكل العائلية لم يكن لها أى أثر على طاقات ليوبولد ونشاطه. وبدا الأمر وكأنه يعتبره فى حكم المقرر أن هذا الجانب من حياته هو جانب تعيس وأنه يعيش من أجل أهداف أخرى، أهمها دوره كملك وعاهل للكونجو. وكان وهو يتلفت من حوله فى تسعينيات القرن التاسع عشر يلاحظ أن البلجيكيين، الذين كانوا غير مبالين فى السابق، قد بدءوا يشاركونه فى أحلام الغزو والمجد. وتسللت تلك الأوهام، مغلفة بالخيالات العنصرية السائدة فى ذلك الزمان، إلى قصص تلامذة المدارس. وحوت واحدة من تلك القصص تمجيدًا لملازم بلجيكى شاب استشهد فى سبيل القضية الاستعمارية فى أثناء إخماد ثورة سنة ١٨٩٧:

كان الموقف ميئوسًا منه. وبدا أن كل شيء قد ضاع. ولكن دى لو كورت الباسل اندفع إلى الثغرة.

وبمعاونة من ضباط بلجيكيين آخرين ومن تبقى من فصائلهم، تمكن من إيقاف الشياطين السود الذين اندفعوا إلى مطاردة الطابور ... وبدا وكأن رءوسًا شريرة سوداء تظهر من كل ركن، مكشرين عن أسنانهم البيضاء ...

وسقط صريعًا ... وأدرك أن لحظة الموت قد حانت ... وكان مبتسمًا ومحنقًا وهو يتسامى إلى ما هو أرفع منزلة، ويفكر فى مليكه ورايته ... ونظر للمرة الأخيرة إلى القطيع الصارخ للشياطين السود.

وهكذا مات شارل دى لو كرت وهو فى شرخ شبابه مواجهًا العدو.

كانت تلك السنوات فترة سلام فى أوروبا مما سبب إحباطًا لكثير من الشباب الأوروبى. وبالنسبة لشاب يتطلع إلى القتال، وبخاصة مع عدو متواضع التسليح، كان الكونجو هو المكان الذى تتجه إليه أنظاره. وكذلك كان الكونجو للرجل الأبيض مكانًا للإثراء وممارسة السلطة. وإن كنتَ مفوضًا لإقليم فقد تدير إقليمًا يماثل هولندا أو بلجيكا فى الحجم. وإن كنتَ رئيس محطة فقد تكون على بعد مئة ميل من أقرب موظف أبيض؛ وبمقدورك أن تجبى ما تشاء من ضرائب على صورة عمالة أو عاج أو أى شيء آخر، وتجمعها بالطريقة التى تريدها، وتفرض ما يعن لك من عقوبات. فإذا ما تماديت فإن العقاب، إن وُجد، لن يزيد على ضربة خفيفة على الرسغ. وحدث أن رئيس محطة فى مانيانجا على الشلالات العظمى ضرب اثنين من خدمه الخاص حتى الموت سنة ١٨٩٠ فكان عقابه مجرد خمسمئة فرنك غرامة. فكل ما كان يهم هو استمرار تدفق العاج إلى بلجيكا. وكلما أرسلتَ منه كمية أكبر كلما زادت مكاسبك. وكتب ضابط شاب إلى أسرته سنة ١٨٩٤: "فليحيا الكونجو فلا شيء أروع منه! فعندنا حرية واستقلال وحياة ذات آفاق عريضة. وهنا أنت حر لا مجرد عبد للمجتمع ... وهنا الفرد هو كل شيء! محارب ودبلوماسى وتاجر!! ولم لا!" ومثلما كان الحال مع ستانلى ذى الأصول المتواضعة؛ فإن الكونجو كان فرصة لمثل هؤلاء الناس لتقدم هائل فى المرتبة الاجتماعية.

فالشخص الذى كان مقدراً له أن يكون مجرد كاتب فى بنك أو سمكرى فى أوروبا طوال حياته كان بمقدوره بدلاً من ذلك أن يصبح من جنرالات الحرب أو تجار العاج أو من كبار صيادى الفرائس أو من مالكى الحريم.

وكان ليون روم (Leon Rom) واحداً من هؤلاء، ولد فى مونز وهى مدينة ريفية بلجيكية. وتطوع فى الجيش فى سن السادسة عشرة، لكنه لم يحصل من التعليم على ما يؤهله لكى يصير ضابطًا. ثم عمل كاتب حسابات فى شركة تخليص جمركى، غير أنه سرعان ما سئمها. وفى سنة ١٨٨٦ حضر إلى الكونجو فى الخامسة والعشرين من عمره بحثًا عن المغامرة. فى وقت لم يكن فى الإقليم أكثر من بضع مئات من الرجال البيض، وكان تقدمه سريعًا. وسرعان ما وجد روم نفسه مفوضًا لإقليم متادى، وبهذه الصفة تولى إجراءات عقد أول زواج مدنى لزوجين من البيض فى دولة الكونجو. وبعد ذلك عمل قاضيًا لفترة وجيزة. ومع قلة أعداد البيض الذين يديرون شئون المستعمرة الشاسعة لم تكن ثمة تفرقة واضحة المعالم بين العمل المدنى والعمل العسكرى، وسرعان ما كُلف روم بتدريب السود للقوة الشعبية. وكان الراتب سخيا؛ فبمجرد ترقيته لرتبة نقيب كان مرتبه يزيد بنسبة ٥٠ فى المئة على مرتب عقيد فى الجيش البلجيكى فى الوطن.

ونال روم عديداً من الميداليات والمجد بعد مشهد قام به فى معركة ضد "العرب" عندما دخل بتهور إلى قلعة للأعداء ليتفاوض معهم على شروط الاستسلام. ووفقًا لإحدى الروايات: "تطوع روم بطريقة عفوية ... فذهب دون سلاح ولم يصحب معه إلا مترجمًا، ومن الموقع المتفق عليه لهذا اللقاء شاهد كل القوات العربية محتشدة خلف استحكاماتها وبنادقهم فى وضع الاستعداد. ثم أقبل رسول يحمل مصحف السلطان دليلاً على حسن النية ودعاه إلى دخول القلعة. ورغم خشية المترجم الذى اشتم رائحة شرك، إلا أن روم صمم على دخول معسكر الأعداء. وبعد ساعتين من المفاوضات غادر ذلك العرين حاملاً معه راية عربية دليلاً على الاستسلام". وتتبدى فى رواية روم نفسه إثارة أكثر: فقد سيطر على العرب المراوغين بفضل "سلوكه الحازم"، بينما يقول له المترجم

المذعور وهو يرتعش: "سيدى، إنهم سوف يقتلونك!" ونحن لا نعلم ما إذا كان تَقَبُّل ذلك الاستسلام كان على تلك الدرجة المُدَّعاة من الخطورة أم لا. فقد كانت واحدة من مميزات العمل كضابط فى القوة الشعبية أن أقرب صحفى كان على مبعدة آلاف الأميال، وبهذا فيمكنك مع بضع أصدقاء تشكيل سجل منجزاتك البطولية بكل حرية.

ولم يقتصر تقدم روم إلى أعلى على الرتب العسكرية؛ فقد كانت له جوانبه الفكرية أيضاً. ففى كل مرة كان يعود فيها إلى أوروبا كان يحضر معه عدداً من نماذج الفراشات ساعدته على أن يُنتخب عضواً فى جمعية الحشرات البلجيكية. وكانت مثل ذلك التكريم إضافة إلى سيف الضابط وقبعته التى تحمل نجمة دولة الكونجو أمراً أكبر بكثير من حياة كاتب حسابات ريفى.

وهناك شىء آخر بين طيات تلك الروايات المتكررة بإلحاح عن الثروة والمجد التى حققها الشباب من الرجال البيض فى الكونجو: وهو الإشارة المستترة بأنك تستطيع أن تترك وراءك فى أوروبا مبادئك الأخلاقية البورجوازية. فالمستعمرات فى كل أنحاء العالم، بالنسبة للأوروبيين، كانت تشكل وسيلة للتملص المريح. وكتب كيبلينج (Kipling):

اشحنى بالسفينة إلى أى مكان شرق السويس

حيث تستوى أحسن الأمور مع أسوئها

وحيث لا وجود للوصايا العشر

ولا يستطيع إنسان أن يطالب بأى شىء

وكان تطبيق الوصايا العشر فى الكونجو أقل بكثير من أغلب المستعمرات الأخرى. وكانت بلجيكا دولة صغيرة بينما الكونجو مترامى الأطراف، وكانت معدلات وفيات البيض فى أفريقيا الاستوائية شديدة الارتفاع. (وحاولت السلطات جاهدة إخفاء مثل تلك الإحصائيات، ولكن قبل سنة ١٨٩٥ مات ثلث موظفى الدولة من البيض هناك؛ ومات آخرون بعد عودتهم إلى أوروبا من مضاعفات الأمراض.) ولكى يجد ما يحتاجه من الرجال لتشغيل الشبكة الهائلة من المحطات النهرية فى أقاليم تتوطن فيها الملاريا،

فقد عمد ليوبولد إلى تجنيد لا بلجيكيين فقط من أمثال ليون روم ولكنه حاول اجتذاب الشباب البيض من كافة أرجاء أوروبا بإغرائهم بحوافز مثل الإثراء السريع من نظام العمولات الدسمة نظير جمع العاج. وكثير ممن أتوا للعمل فى الكونجو كانوا مثل المرتزقة الذين انضموا إلى الفرقة الأجنبية الفرنسية (Foreign Legion) أو صيادى الثروات الذين احتشدوا أفواجًا فى موجتى البحث عن الذهب اللتين حدثتا أيامها، فى جنوب أفريقيا وكلونديك (Klondike) فى كندا. ومع توفر فرص القتال والإثراء صار الأوروبيون ينظرون إلى الكونجو بوصفه مزيجًا من اندفاعة الذهب والفرقة الأجنبية معًا.

وشملت تلك الموجة الأولى من عملاء ليوبولد رجالاً مطحونين هاربين من مشاكل زوجية وإفلاسات أو إدمان خمور. وتلخص أغنية شائعة آنذاك المزاج العام لتلك الأيام. ويصف واحد من الموظفين فى مذكراته أنه فى أول عهده فى الكونجو أقام فى فندق قذر فى ميناء وصوله وكان يبقى مستيقظًا طوال الليل من جراء صخب السكارى فى حانة الفندق الذى كانوا يغنون تلك الأغنية دون انقطاع. ومقطعها الأول كان كما يلى:

هناك الذين انفجروا غاضبين من عائلاتهم
وانغمسوا فى الديون.. وتظاهروا عبثًا بالبلاهة
وفى ليلة رائعة ضجروا من عشيقاتهم
فشدوا الرحال - والحزن يملأ قلوبهم - إلى الكونجو ...

وفى أثناء ذلك كان الأفارقة يغنون فى الكونجو أغان شديدة الاختلاف. وترجم مبشر واحدة منها:

يا أمي.. كم نحن سيئو الحظ
ولكن الشمس ستقتل الرجل الأبيض
ولكن القمر سيقتل الرجل الأبيض
ولكن الساحر سيقتل الرجل الأبيض

ولكن النمر سيقتل الرجل الأبيض

ولكن التمساح سيقتل الرجل الأبيض

ولكن الفيل سيقتل الرجل الأبيض

ولكن النهر سيقتل الرجل الأبيض

الفصل التاسع

لقاء مع مستر كيرتس

فى أوائل أغسطس ١٨٩٠، وبعد عدة أسابيع من كتابته الخطاب المفتوح الغاضب إلى ليوبولد، أنهى جورج واشنطن ويليامز رحلة عودته الطويلة تجاه مصب نهر الكونجو إلى محطة كينشاسا على بحيرة ستانلى. وتقابلت سفينته، إما فى مياه البحيرة أو عندما كانت راسية على ضفة النهر عند كينشاسا، مع سفينة أخرى كانت فى بداية رحلتها تجاه منابع النهر، هى روا دى بلج (Roi des Belges) وهى سفينة طويلة أشبه بصندوق وذات عجلات مجدافية خلفية وقمرة القبطان على سطحها العلوى. ولو كان ويليامز تمكن من إلقاء نظرة على طاقم السفينة الأخرى لشاهد ضابطًا ربعة القوام وذا لحية سوداء وعينين تبدوان، فى الصور الفوتوغرافية التى لدينا، وكأنما ضاقتا بشكل دائم توقيًا من الشمس الاستوائية. وظل هذا الضابط الشاب الحديث الوصول إلى الكونجو بجوار القبطان طوال الرحلة إلى أعالى النهر، يتعلم منه أسرار النهر تمهيدًا لأن يقود سفينة بمفرده.

وكان ذلك الضابط تحت التدريب نموذجًا للبيض الذين أتوا إلى الكونجو فى تلك الآونة: شاب أعزب فى احتياج إلى عمل، ويتلهف على المغامرات مع وجود بعض المشاكل فى ماضيه. وكان كونراد كورزنيوفسكى (Konrad Korzeniowski)، المولود فى بولندا، قد شب على صورة ذهنية لأفريقيا منبنية على الإغراء الغامض لكل ما هو مجهول: "عندما كنت فى التاسعة من عمرى أو ما يقاربها ... وبينما كنت أشاهد خريطة لأفريقيا أيامها وأضع إصبعى على الأماكن الخالية التى تمثل لغز القارة الذى

لم يُحَل، قلت لنفسي: "عندما أكبر سأذهب إلى هناك." وفى شبابه الذى أمضى جانبًا منه فى فرنسا، تكاثرت عليه الديون وانغمس، كما يدعى، فى تهريب الأسلحة، وحاول الانتحار مرة. وبعد ذلك قضى ما يزيد على عقد من الزمان يعمل ضابطًا على سفينة تجارية بريطانية وتعلم الإنجليزية خلال رحلاتها، وإن لم يتخلص قط من لكنته البولندية الواضحة. وفى أوائل سنة ١٨٩٠ حاول كورزنيوفسكى عبثًا الحصول على وظيفة قبطان فى البحر. وفى أثناء تجواله فى لندن بحثًا عن عمل كانت المدينة تموج بروايات عن حملة إنقاذ ستانلى لأمين باشا التى كانت قد انتهت لتوها، فبدأ يفكر فى الأرض الغريبة التى كانت موضع أحلام طفولته. فسافر إلى بروكسل وتقدم بطلب للعمل فى الكونجو، وعاد مرة أخرى إلى بلجيكا لحضور المقابلة الشخصية للوظيفة فى ذات الوقت الذى كان فيه ستانلى ينهى زيارته الاحتفالية للمدينة.

وفى المناقشات التى سبقت حصوله على الوظيفة أظهر كورزنيوفسكى ذو الأعوام الاثنين والثلاثين أنه، مثل الغالبية الساحقة فى أوروبا، يؤمن بأن رسالة ليوبولد فى أفريقيا هى رسالة نبيلة و"حضارية". ثم ودع أقرباءه وأبحر إلى الكونجو على متن السفينة التى حملت أول شحنة من القضبان وصواميل الربط للسكك الحديدية الجديدة. ومثلما كان يفعل كل الرجال البيض المتجهين إلى داخلية البلاد، كان عليه أن يبدأ أولاً بالسفر على الأقدام من متادى حول الشلالات، مع قافلة من الحمالين السود. وبمجرد وصوله أخيراً إلى النهر ملأ دفتر يومياته بملاحظات عملية لبحار، بها مداخلات مطولة عن الأماكن الضحلة من النهر ومواقع إعادة التزود بالوقود وغيرها من الموضوعات التى خلت منها الخرائط الملاحية البدائية المتاحة. وسوف يمضى ما يقرب من عقد آخر قبل أن يتمكن قبطان السفينة البخارية الطموح من الكتابة عن سمات أخرى للكونجو لم تذكرها الخرائط، وفى ذلك الوقت سيعرفه العالم باسم جوزيف كونراد.

وأمضى فى الكونجو ما يصل مجموعه إلى ستة أشهر، أمضاها وهو يحمل معه المخطوط غير المكتمل لروايته الأولى "حماقات ألماير" (Almayer's Folly). ولم تستغرق رحلة الألف ميل من التدريب فى النهر صعوداً من بحيرة ستانلى إلى مساقط ستانلى إلا أربعة أسابيع، وكانت رحلة سريعة بسرعة سفن تلك الأيام. وكانت الملاحة تحتاج

حذراً لوجود مرتفعات رملية وصخور تحت المياه ومناطق ضحلة قليلة الغور، وبخاصة فى أعالى النهر وفى موسم الجفاف. وكتب فيما بعد: "وكان هدير الدمدمة المكتومة لمساقط ستانلى يملأ هواء الليل الثقيل فى آخر مرحلة قابلة للملاحة فى أعالى نهر الكونجو ... وقلت لنفسى فى خوف: 'هذه بالضبط هى نقطة تفاخرى الصبيانى' ... فيا لها من نهاية لأحلام يقظة صبى كان يظن أنها حقيقة مثالية!".

وعند مساقط ستانلى سقط كل من كونراد وقبطان السفينة مرضى. وأبل كونراد سريعًا، وفى الجزء الأول من رحلة العودة إلى مصب النهر - وكانت السفينة تسير فى اتجاه التيار بضعف سرعة رحلة الذهاب - تولى قيادة السفينة. غير أنه بعد بضعة أسابيع من انتهاء الرحلة فسخ عقده وبدأ الرحلة الطويلة عائداً إلى أوروبا.

وحطمت مجموعة من الأمور المريرة المخيبة للآمال أحلام كونراد. ففى البداية اشتبك بعنف مع موظف فى الشركة التى كان يعمل لحسابها، وكان معنى ذلك أنه لن يُقدر له أن يصير قبطانًا لسفينة بخارية قط. ثم سقط مريضًا مرة أخرى بالملاريا والدوسنتاريا بعد عودته إلى مصب النهر، واضطر إلى قضاء نقاهة فى محطة إرسالية أمريكية معمدانية تقع على بحيرة ستانلى، تحت إشراف طبيب الإرسالية الإسكتلندى. وظل ضعيفًا حتى اضطروا إلى حمله عائداً إلى الساحل ولم يسترد صحته تمامًا قط. وأخيراً راعه الجشع والقسوة بين الرجال البيض الذين رآهم فى الكونجو بحيث تغيرت آراؤه عن الطبيعة البشرية بصورة دائمة. وقال مرة لصديقه الناقد إدوارد جارنت إنه بعد مكوثه فى أفريقيا لمدة ستة أشهر لم تكن فى رأسه "فكرة واحدة".

وبعد ثمان سنوات من التأمل والتفكير فى تجربته فى الكونجو حولها كونراد إلى 'قلب الظلمات'، ولعلها أكثر رواية قصيرة له بالإنجليزية أعيد طبعها. وتحولت مذكراته الملاحية فى سجل سفينته - "ممر لولونجا ... شمال شرقى إلى شمال شمال شرقى. على الجانب الأيسر أغصان أشجار غارقة. قياس عمق المياه بالقامة: ٢، ٢، ٢، ١، ١، ٢، ٢، ٢، ٢"- تحولت إلى نثر لا يدانيه أى نثر كتبه أدباء من الرحالة إلى الكونجو على مر السنين:

"كان الإبحار فى النهر صُعُداً يشبه الرجوع إلى أول بدايات نشأة العالم، حين كانت النباتات تعربد فى الأرض والأشجار الكبيرة ملوكًا. جدول ماء خال، صمت مطبق، غابة لا سبيل إلى اختراقها. كانت الريح ساخنة وثقيلة وراكدة. ولم يكن ثمة ابتهاج بالشمس الساطعة. وامتدت مجارى المياه المهجورة إلى مسافات معتمة كئيبة. وعلى ضفة النهر الفضية ربضت أفراس النهر والتماسيح تتشمس جنبًا إلى جنب. وسارت المياه المنبسطة وسط تجمع من الجزر ذات الغابات. وتضل طريقك فى هذا النهر مثلما تضل طريقك فى الصحراء وتشق طريقك وسط مياه ضحلة محاولاً العثور على المجرى العميق حتى يخيل إليك أنك تعرضت للسحر وانقطع إلى الأبد ما بينك وبين كل شىء عرفته".

ومارلو، القصاص فى 'قلب الظلمات' الذى يعبر عن ذات كونراد، كانت قد استأجرته شركة تتاجر فى العاج كى يبحر بسفينة بخارية فى نهر لا يحمل اسمًا وشكله على الخريطة يشبه "ثعبانًا عظيم الجرم وغير متلوى، رأسه فى البحر وجسمه مرتاح فى قوس بعيد فى إقليم شاسع وذيله ضائع فى أعماق الإقليم". وهو متجه إلى محطة يرأسها مستر كيرتس، وهو وكيل الشركة ونجمها الطموح الذكى. وكان كيرتس قد جمع كميات أسطورية من العاج، ولكن مارلو يعلم وهو فى طريقه إليه أنه قد انغمس فى أمور وحشية غير محددة. وتنجح سفينة مارلو فى صد هجوم قام به السود وتنقذ شحنة من العاج وكيرتس المريض، ويموت كيرتس على سطح السفينة وهو يتحدث عن خططه المبالغ فيها، بينما هم متجهون إلى مصب النهر.

ورغم أن كونراد صور شخصية كيرتس بصورة تخطيطية سريعة؛ فإنها بقيت حية فى أذهان ملايين القراء : صورة الموظف الأبيض المنعزل وحيداً فى أعالى النهر الكبير، بأحلامه عن الفخامة، ومخزونه الكبير من العاج النفيس، وإقطاعيته الخاضعة لسلطانه المقتطعة من الأحراش الأفريقية. ولعل أوضح ما نتذكره هو مارلو على ظهر السفينة البخارية وهو يحدق من خلال منظاره ثنائى العينين مشاهداً ما خُيل إليه أنها قطع للزينة فوق أعمدة السور أمام منزل كيرتس – ثم اكتشافه أن كل واحدة عبارة عن

"رأس رجل أسود جافة وذات عينين غائرتين انسدلت أجفانها وكأنما هى نائمة على قمة العمود، وانكمشت شفاهها فكشفت عن صف من الأسنان".

ودأب المدرسون فى المدارس الثانوية والكليات الجامعية، الذين ناقشوا ذلك الكتاب مع آلاف التلاميذ على مر السنين، على النظر إليه من منظور فرويد ويونج ونيتشه؛ وعلى اعتباره من كلاسيكيات الأساطير، ومثالاً على طهارة العصر الفيكتورى والخطيئة الأصلية، ومن منظور ما بعد الحداثة وما بعد الإمبريالية. ولم يرغب القراء الأوروبيون والأمريكيون فى الاعتراف بحجم الإبادة العرقية والقتل فى أفريقيا عند انعطاف القرن، فقطعوا ما بين رواية قلب الظلمات وجذورها التاريخية. ونحن نقرؤها كحكاية رمزية ذات مغزى أخلاقى تصلح لكل عصر وكل مكان، لا ككتاب يتحدث عن زمن معين وتدور أحداثه فى مكان محدد. وفى مرتين من الثلاثة التى تحولت فيها القصة إلى فيلم سينمائى، وأوضحها ما أنتجه فرانسيس فورد كوبولا (Francis Ford Coppola) باسم 'سفر الرؤيا الآن' (Apocalypse Now)، لم تدر أحداث الرواية فى أفريقيا. غير أن كونراد نفسه كتب: "إن قلب الظلمات هى تجربة ... ابتعدت قليلاً (وقليلاً جداً) عن الأحداث الواقعية". ومهما كانت قيمة الكتاب من الناحية الأدبية فإن ما يهمنا ويخدم أهدافنا هو كم كان دقيقاً ومفصلاً وصفه لتلك 'الأحداث الواقعية' التى دارت فى كونجو الملك ليوبولد سنة ١٨٩٠، بينما كان استغلال الإقليم يدور بهمة ونشاط.

ويبدأ مارلو رحلته فى القصة، مثلما فعل كونراد، بمسيرة طويلة حول الشلالات: "وسمعت صلصلة خافتة من خلفى فالتفت ورائى. وشاهدت ستة رجال سود يشقون طريقهم فى طابور. كانوا يسيرون منتصبى القامة وببطء، وهم يحافظون على اتزانهم وفوق رءوسهم سلال صغيرة مليئة بالتراب، وتزامنت الصلصلة مع خطوات أقدامهم ... وكنت أستطيع أن أرى كل ضلع من ضلوعهم، وكل مفصل فى أطرافهم كان يشبه عقدة فى حبل، وهناك طوق حديدى يحيط بعنق كل واحد منهم وكل الأطواق مربوطة سويا بسلسلة كانت حلقاتها تتأرجح بينهم وتصدر صليلاً رتيباً". وكان أولئك هم العمال وهم يبدأون العمل فى مد سكك ليوبولد الحديدية.

ويصف مارلو، بعد بضع صفحات، بقعة تجمع فيها بعض عمال السكة الحديدية الجوعى ليموتوا فيها. وعلى مسافة أبعد على الطريق كان يرى "كل حين عاملاً بكامل عدته ميتًا على جانب الطريق، وبجواره قرعة لحفظ المياه خالية وعصا طويلة"، ويلحظ "جثة غامضة لزنجي متوسط العمر وبها ثقب رصاصة في جبهته". وهذا ببساطة هو تسجيل لما رآه كونراد نفسه في مسيرته حول الشلالات في طريقه إلى بحيرة ستانلي. وهو يذكر في مذكراته عن يوم ٣ يوليو ١٨٩٠: "قابلت ضابطًا من ضباط الدولة وهو يقوم بالتفتيش؛ وبعدها بدقائق رأيت في مخيم جثة واحد من الباكونجو. هل قُتل بالرصاص؟ رائحة مروعة". وفي اليوم التالي: "رأيت جثة أخرى ملقاة على الطريق في وضع تأملي". وفي ٢٩ يوليو: "في الطريق اليوم مررت بهيكل عظمي مربوط إلى عمود".

وفي أثناء سيره الطويل حول الشلالات يصف مارلو أيضًا كيف كان الأهالي يفرون ليتجنبوا تجنيدهم كحمالين: "خلت المنطقة من السكان منذ زمن بعيد. فلو حدث أن عصابة من الزنوج الغامضين المسلحين بكل أنواع الأسلحة المخيفة قامت فجأة بالسير على الطريق [في إنجلترا] بين مدينتي ديل وجريفزإند وهم يقبضون على الفلاحين من يمينهم ويسارهم ليحملوا عنهم حمولاتهم الثقيلة، فأظن أنه سرعان ما ستخلو كل مزرعة وكوخ هناك ... مررت خلال العديد من القرى المهجورة". وهذا أيضًا كان ما رآه كونراد بنفسه. وكاد حمالو القافلة التي كان القصاص يصاحبها أن يقوموا بتمرد في أثناء الرحلة. وبعدها لم تمض إلا ثلاث سنوات ونصف حتى قامت ثورة عنيفة على نفس ذلك الطريق، عندما قاتل الزعيم نزانسو ورجاله معركتهم الطويلة الخاسرة ضد القوة الشعبية.

وفي وصفه لقوافل الحمالين التي كانت تسير على ذلك الطريق، يعطي مارلو ملخصًا واضحًا للاقتصاد الليوبولدي: "سيل من ... النفايات والأقمشة القطنية والخرز والأسلاك النحاسية تتدفق إلى أعماق الظلمات وفي مقابلها يتقاطر العاج النفيس". وفي ١٨٩٠ كان ذلك هو أنفس سلع المستعمرة. ويقول مارلو: "إن كلمة 'عاج' ترن في الجو وهي في الهمسات والتنهدات. حتى ليظن المرء أنهم يصلون له،" بل إنه يشرح نظام ليوبولد لعمولات الوكلاء: "وكان الشعور الحقيقي الوحيد هو التلهف على التعيين في محطة تجارية حيث يُجمع العاج، حتى يتمكنوا من كسب العمولات".

وحافظ كونراد على التزامه بالواقعية فى خلقه للشخصية الفاتنة القاتلة التى كانت محور روايته، وربما كانت أشهر شرير أدبى فى القرن العشرين. ومن الجلى أن عدة شخصيات حقيقية قد أوحت إليه بشخصية مستر كيرتس، ومن بينهم كان جورج أنتوان كلاين (Georges Antoine Klein)، وهو وكيل فرنسى لشركة لجمع العاج عند مساقط ستانلى. ومرض كلاين ومات على ظهر سفينة، مثلما حدث لكيرتس فى الرواية، بينما كان كونراد يقود السفينة روا دى بلج فى عودتها إلى مصب النهر. وهناك نموذج آخر مشابه لشخصية كيرتس هو الميجور إدموند بارتيلو (Major Edmund Barttelot)، وهو الرجل الذى تركه ستانلى ليقود الطابور الخلفى فى حملة أمين باشا. وبارتيلو، كما ذكرنا، هو الرجل الذى أصيب بلوثة من الجنون، وأخذ يضرب الناس ويجلدهم ويقتلهم حتى قُتل فى النهاية. وكان بلجيكى يدعى آرثر هوديستر (Arthur Hodister) نموذجًا آخر لكيرتس واشتهر بحريمه من النساء الأفريقيات وبجمعه لكميات هائلة من العاج. وفى آخر الأمر أفرط هوديستر فى استخدام عضلاته بقسوة متناهية فى أقاليم تقع تحت نفوذ زعماء الحرب من العرب الأفارقة وتجار العاج المحليين الذين قبضوا عليه وقطعوا رأسه.

غير أن الحشد الغفير من كتاب السيرة الذاتية والنقاد الذين تناولوا كونراد قد أهملوا بصورة تكاد تكون تامة أقرب الرجال شبهًا بكيرتس. وهو رجل قابلناه من قبل وهو المتفاخر المتهور الكابتن ليون روم من القوة الشعبية. ولعل كونراد استمد من روم السمة المميزة لشريره: وهى مجموعة الرءوس الأفريقية حول منزل كيرتس.

كانت "المحطة الداخلية" فى رواية "قلب الظلمات"، وهى المكان الذى كان مارلو ينظر إليه من نظارته المعظمة فيجد مجموعة كيرتس من رءوس المتمردين الأفارقة المتغضنة، متمركزة فى مكان ما على مساقط ستانلى. وفى سنة ١٨٩٥ بعد مرور خمس سنوات على زيارة كونراد لذلك الموقع، عُين ليون روم رئيسًا لتلك المحطة. ووصف صحفى ومستكشف بريطانى مر بمنطقة مساقط ستانلى فى أعقاب إرسال حملة عسكرية تأديبية ضد بعض الثوار الأفارقة وكتب يقول: "أُخذت نساء وأطفال كُثُر، وأُحضر واحد وعشرون رأسًا إلى المساقط، واستخدمها الكابتن روم للتزيين فأحاط بها بستانًا للزهور

أمام منزله!" فإن كان كونراد لم يقرأ ذلك الوصف، الذى ظهر فى مجلة 'سنشورى ماجازين' (Century Magazine) الواسعة الانتشار، فيكاد يكون فى حكم المؤكد أنه قرأه فى مجلة 'ساترداى ريفيو' (The Saturday Review)، التى كان معجبًا بها، والتى أعادت نشر القصة فى عدد ١٧ ديسمبر ١٨٩٨، وكان ذلك التاريخ فى غضون بضعة أيام من تاريخ شروع كونراد فى كتابة رواية 'قلب الظلمات'.

ويضاف إلى ذلك احتمال أن يكون كونراد وروم قد تقابلا فى الكونجو.

ففى يوم ٢ أغسطس سنة ١٨٩٠ أنهى كونراد ورجل أبيض آخر وقافلة من الحمالين مسيرتهم التى دامت شهرًا كاملاً من الساحل إلى داخلية البلاد. وقبل خمسة أميال من وصول القافلة إلى قرية كينشاسا على ضفاف بحيرة ستانلى، حيث كانت روا دى بلج راسية، كان عليها أن تمر من خلال موقع مجاور هو ليوبولدفيل. وكان بين هذين التجمعين من المبانى المكسوة بالقش مسيرة ساعة ونصف. (وسرعان ما تضخما واندمجا فى مدينة واحدة أطلق عليها البلجيكيون اسم ليوبولدفيل وهى اليوم كينشاسا). وعندما مرت قافلة كونراد، فى سيرها الشاق على الطريق على ضفة النهر، فى ليوبولدفيل كان رئيس المحطة هناك هو ليون روم. ولم يسطر كونراد فى مذكراته أى شىء فى ذلك اليوم ٢ أغسطس، كما لا يوجد فى دفتر روم، الذى يسجل بخط جميل بكل دقة أى غارات أو حملات قد تكسبه ميدالية أخرى، أى ذكر لحملة قامت من ليوبولدفيل فى تلك الآونة. فلو كان روم موجودًا فمن المؤكد أنه كان سيبادر بالترحيب بقافلة بها أوروبيون من القادمين الجدد، فلم يكن هناك سوى بضع عشرات من البيض فى ليوبولدفيل وكينشاسا، والجدد لا يأتون كل يوم. فلو كان قد حدث تبادل للحديث أو غير الحديث بين روم وكونراد فلن نعرف الحقيقة مطلقًا. وتكونت مجموعة روم من واحد وعشرين رأسًا أفريقية من أماكن متباينة وأوقات مختلفة وعلى مدى خمس سنوات من ذلك التاريخ، غير أن كونراد عندما قرأ عن روم فى ديسمبر ١٨٩٨، فمن المحتمل أنه ربط بينه وبين الضابط الشاب الذى كان قد التقاه فى الكونجو.

* * *

وتعتبر رواية 'قلب الظلمات' واحدة من أقسى الإدانات للاستعمار فى كل ما صدر فى الأدب من روايات، غير أن من المثير للعجب أن مؤلفها كان يعتبر نفسه استعمارياً متحمساً عندما يكون الأمر متعلقًا بإنجلترا. وكان كونراد يعترف باغتصاب ليوبولد للكونجو ويدرك حقيقته: "الرعب! الرعب!" كما قالت شخصيته كيرتس وهو على فراش الموت. وكان مارلو، بديل كونراد فى الرواية، يفكر متأملاً كيف أن "غزو الأراضى، الذى يعنى انتزاعها من أناس يختلفون عنا فى لون بشرتهم أو لهم أنوف أكثر فلطحةً، ليس بالأمر الجميل إن تأملت فيه بعمق". إلا أن مارلو يذكر فى الحال وقبل أن يزفر الشهيق الذى استنشقه، كيف أن تلون الأقاليم البريطانية باللون الأحمر على خريطة العالم هو "مشهد جميل لأنك تدرك أن عملاً جاداً يتم هناك"؛ فالاستعماريون البريطانيون كانوا "حَمَلَة لشعلة من النار المقدسة". وكان مارلو يتحدث بالنيابة عن كونراد، الذى لم يعرف حدوداً لحبه لوطنه بالتبنى. وكان كونراد يحس بأن "الحرية ... يمكن أن توجد فقط تحت العلم الإنجليزى فى أى مكان فى العالم". وفى ذات اللحظة التى كان يشجب فيها التلهف الأوروبى على الثروات الأفريقية فى روايته، كان يستثمر أمواله فى منجم للذهب بالقرب من جوهانسبرج.

كان كونراد رجلاً ينتمى لعصره ومكانه بصورة أخرى أيضًا. وكان أسيراً لما تحدث عنه مارك توين (Mark Twain)، فى سياق آخر، وأطلق عليه "انطباع الرجل الأبيض عن نفسه بأنه أقل همجية من الهمج الآخرين". وفى السنوات الأخيرة تعرضت 'قلب الظلمات' لهجوم مبرر لتصويرها الشخصيات السوداء، التى لا تنطق بأكثر من بضع كلمات قليلة. وفى الحقيقة هى لا تنطق مطلقًا: بل تخور؛ وتغنى؛ وتصدر عنها "دندنة من التعاويذ الغريبة، وضجيج وحشى انفعالى"، وتطلق فيضًا من الكلمات المذهلة التى لا تشبه أصوات لغة بشرية ... مثل أصوات صلوات شيطانية". والرسالة الحقيقية للكتاب، كما قال شينوا أشيب (Chinua Achebe) الروائى النيجيرى هى: "كفوا أيديكم عن أفريقيا وإلا! وكان على مستر كيرتس أن يتنبه إلى ذلك التحذير ويبقى رغبته الكريهة فى النهب دفينة فى قلبه مقيدة بالأغلال. ولكنه كشف نفسه بحماقة أمام إغراء الأدغال الذى لا يقاوَم وهكذا كشفته الظلمات".

ومهما كانت درجة تشبعها بعنصرية العصر الفيكتورى فإن 'قلب الظلمات' تبقى أعظم تصوير روائى للأوروبيين فى تكالبهم على أفريقيا. وعندما يودع مارلو عمته قبل توجهه إلى عمله الجديد، فإنها أخذت "تحدثه عن 'إثناء تلك الملايين الجهلة عن عاداتهم البشعة'، حتى ضايقتنى. وتجاسرت على التلميح بأن الشركة هدفها الربح[1]". ويستمر رجال كونراد البيض فى اغتصابهم للقارة بدعوى أنهم يرفعون من شأن الوطنيين، ويدخلون 'الحضارة' ويخدمون 'القضية النبيلة'.

وتتجسد كل تلك الأوهام فى شخصية مستر كيرتس. فهو مزيج من قاتل يجمع الرءوس ومثقف هو "رسول ... العلم والتقدم". وهو رسام، يبدع "رسمًا تخطيطيًا بالزيت" لامرأة تحمل شعلة يجدها مارلو فى المحطة المركزية. وهو شاعر وصحفى، وكتب، من بين ما كتب، تقريراً من سبع عشرة صفحة - "تنطق بالبلاغة ... وقطعة نثرية جميلة" - إلى الجمعية الدولية لمكافحة العادات الهمجية. وفى نهاية تقريره، الذى يفيض بالمشاعر الرفيعة، يشخبط كيرتس بخط مرتعش: "أبيدوا كل إنسان بهيمى غير ذى إدراك!"

ومن خلال تصويره لتظاهر كيرتس بالتحضر والعقلانية كشف كونراد النقاب عن سمة اتسم بها التغلغل الأبيض فى الكونجو، حيث يسهم الغزو بالقلم والحبر فى توطيد أركان الاجتياح بالبندقية والمدفع الرشاش. ومنذ أن شق ستانلى طريقه فى نهر الكونجو بالرصاص ثم سارع بتأليف كتاب من جزأين، حقق أعلى المبيعات، حاول جامعو العاج والجنود والمستكشفون أن يقلدوه - على صورة كتب وآلاف من المقالات لمجلات

---

(١) لا يظهر الرابع الأكبر، الملك ليوبولد، فى رواية 'قلب الظلمات' ولكنه يظهر فى رواية 'الورثة' الأقل انتشاراً والتى اشترك فورد مادوكس فورد (Ford Madox Ford) مع كونراد فى تأليفها. فواحد من شخصياتها الرئيسية هو الدوق دى ميرش ذو اللحية العظيمة، الذى يسيطر على محمية جرينلاند. وللدوق جمعية تسمى جمعية تجديد المناطق القطبية وهى مكرسة لرفع شأن الإسكيمو الغارقين فى الظلمات بإنشاء خط للسكك الحديدية وإلباسهم الملابس المناسبة وغير ذلك من مزايا الحضارة. واستثمر الدوق أموالاً فى صحيفة إنجليزية فى محاولة منه لاكتساب غطاء صحفى مؤيد لأنشطته 'الخيرية'. وكان يردد: "لقد أسبغنا حمايتنا على السكان الوطنيين، وحافظنا على مصالحهم وأبقيناها نصب أعيننا". وجرينلاند فى الرواية غنية بالبترول والذهب.

الجمعيات الجغرافية والصحف المهتمة بالاستكشاف الاستعمارى التى كانت رائجة فى أخريات القرن التاسع عشر رواج مجلة ناشيونال جيوجرافيك (National Geographic) فى الولايات المتحدة اليوم. وكان الأمر وكأنما مجرد الكتابة عن أفريقيا هو البرهان القاطع الذى لا يدحضه شك على تفوق الحضارة الأوروبية. وهذا الجانب من جوانب شخصية كيرتس يدفعنا إلى الشك فى أن كونراد فى خلقه له استوحى ليون روم بصورة جزئية. وقد رأينا أن روم كان عالم حشرات فى طور التكوين. كما كان رساماً أيضاً؛ وعندما كان لا يكون منشغلاً بجمع الفراشات والرءوس كان يرسم صوراً للوجوه ومناظر طبيعية، يحتفظ متحف بلجيكى بخمسة منها اليوم. وأهم ما يلفت النظر أنه كان كاتباً أيضاً.

وفى سنة ١٨٩٩، وكان قد عاد إلى بلجيكا، نشر روم كتاباً من تأليفه بعنوان "زنجى من الكونجو" (Le Negre du Congo) وهو كتيب صغير وغريب - مرح ومتعجرف وسطحى إلى أبعد الحدود. ويتناول فى فصول قصيرة "الزنجى بصورة عامة" (Le Negre en general)، المرأة السوداء والطعام والحيوانات الأليفة والطب المحلى وغير ذلك. كان روم صياداً متحمساً يحب أن يقف متهللاً وتُلتقَط له الصور الفوتوغرافية فوق جثة فيل ميت. وكتب فصلاً مطولاً عن الصيد بلغ طوله ما يعادل الفصول التى كتبها عن المعتقدات الدينية الكونجولية وطقوس الموت ونظم تتابع زعماء العشائر فى الحكم مجتمعة.

والصوت الذى نسمعه فى كتاب روم يشابه كثيراً ما نتخيل سماعه من مستر كيرتس وهو يكتب تقريراً إلى الجمعية الدولية لمكافحة العادات الهمجية. ويقول روم عن "الجنس الأسود" (la race noire): "هو نتاج حالة من توهان العقل، وأحاسيسه خشنة وعواطفه فظة وغرائزه بهيمية، ويضاف إلى ذلك أنه مغرور وتافه. والشاغل الأول للرجل الأسود والذى يكرس له الجانب الأكبر من حياته يتلخص فى التمدد على حصير تحت أشعة الشمس الدافئة مثلما يتمدد تمساح على الرمال ... وليس لدى الرجل الأسود أدنى اهتمام بالوقت، وإذا ما سأله أوروبى عن ذلك فهو عادة يجيب إجابة غبية".

وهناك ما هو أكثر في هذا المجال. فمثلاً عندما يتحدث روم عن الكونجوليين المجندين للعمل كحمالين، يقول إنهم يمتعون أنفسهم بشكل رائع. فبينما القافلة تنتظم صفوفها في الصباح الباكر، يشتد صخب الحمالين، ويحاول كل منهم "أن ينجح في الحصول على مكان في الصف على هواه، مثل أن يكون بجوار صديق كي يحكيا لبعضهما عن أحلام الليلة السابقة، أو يتحدثا في تفاصيل قائمة الطعام الذى سيتناولانه في محطة التوقف التالية وتنوعها ومذاقها".

ولا بد أن روم قد شرع يخطط لكتابه بينما هو في مكان ما في الكونجو. فهل أسرَّ روم لكونراد، بعد أن اكتشف أنه يتحدث الفرنسية بطلاقة، بعضًا من أحلامه الأدبية؟ وهل شاهد كونراد إحدى رسوم روم على الحائط في ليوبولدفيل، مثلما شاهد مارلو إحدى رسوم كيرتس؟ أم أن الأمر كان محض مصادفة أن روم الجامع الحقيقي للرءوس وكيرتس الجامع التخيلي لها كانا رسامين وكاتبين في آن واحد؟ لن نتمكن قط من الوصول إلى الحقيقة.

وهناك عدد آخر من الأمور المتشابهة تشابهًا محيرًا بين ليون روم ومستر كيرتس. ففي الرواية ينجح كيرتس في أن "ينال إعجاب الأفارقة في المحطة الداخلية وولعهم به: فزعماء العشائر يزحفون على الأرض في حضرته، والناس يطيعونه بإخلاص العبيد، وهناك امرأة أفريقية رائعة الجمال من الجلي أنها عشيقته. وفي سنة ١٨٩٥ كتب ضابط مستنكر من ضباط القوة الشعبية في مذكراته يتحدث عن وضع شديد الشبه بذلك يتناول ضابطًا من زملائه:

> إنه يجعل رجاله يموتون جوعًا بينما يعطي للنسوة السود في حريمه طعامًا وفيرًا (فهو يريد أن يتصرف مثل زعيم عربي كبير) ... وأخيرًا، ارتدى ملابسه الرسمية داخل منزله وجمع نساءه والتقط قطعة من الورق وتظاهر بأنه يقرأ لهم فيها أن الملك قد عينه زعيمًا كبيرًا وأن من معه في المحطة من البيض الآخرين هم مجرد موظفين صغار ... وجلد امرأة زنجية تعسة خمسين جلدة عندما رفضت أن تكون عشيقته ومنحها لواحد من جنوده.

ومما له دلالة ما ذكره كاتب المذكرات فى تقديمه لذلك الضابط: "هذا الرجل يريد أن يتقمص دور روم آخر".

وفى النهاية يبدو أن نزعة كيرتس إلى القتل العمد تشى بأصداء تفاصيل أخرى عن روم. فعندما كان روم رئيس محطة عند مساقط ستانلى أرسل الحاكم العام تقريراً إلى بروكسل جاء فيه أن بعض الوكلاء "قد عُرِفوا بأنهم قاموا بقتل أرتال من الناس لأسباب واهية". ثم يذكر حديقة زهور روم الشهيرة المزدانة بالرءوس البشرية، ثم يضيف: "وقد نصب مشنقة دائمة أمام المحطة!"

ولا ندرى هل كان روم يمارس فعلاً أحلام السلطان والقتل والمجد عندما مر كونراد خلال ليوبولدفيل سنة ١٨٩٠، أو أنه كان يكتفى بالحديث عنها. ومهما كانت الأحوال فإن الأرضية الأخلاقية لرواية 'قلب الظلمات' والشخصيات المبهمة المحورية فيها هى من إبداع شخص لم يكن مجرد روائى ولكنه مراقب مفتوح العينين أمسك بتلابيب زمانٍ ومكانٍ بدقة ثاقبة.

الفصل العاشر

الجميلة الباكية

كان المطر ينهمر فى لندن يوم ١٢ يوليو ١٨٩٠، ورغم ذلك تجمعت الجماهير أمام كنيسة وستمنستر، غير عابئة بالسيل المنهمر. وسار آلاف الناس ذهابًا وجيئة على الرصيف الزلق محاولين إلقاء نظرات على علية القوم الذين كانوا يترجلون من عرباتهم ويصطفون داخل الكاتدرائية بين صفين من رجال الشرطة: جلادستون رئيس الوزراء السابق، ورئيس مجلس العموم، ووزير الخزانة، وحشد من الدوقات والأمراء، ونسوة مرصعات بالمجوهرات، وجنرالات تزين صدورهم النياشين. وضاقت الكنيسة بأغنياء القوم ومشاهيرهم حتى وقفوا فى الممرات بين الكراسى.

وأخيرًا توقفت عربة أمام الكنيسة وترجل منها الرجل الذى كان الجميع ينتظرونه، مرهقًا وشاحب الوجه ويتوكأ على عصا. كان هنرى مورتون ستانلى على وشك أن يفعل شيئًا أكثر إثارة لرعبه من كل مغامراته الأفريقية. فقد كان ينوى الزواج.

كانت العروس دوروثى تينانت رسامة وجوه لطبقات المجتمع العليا وغريبة الأطوار وكانت قد رفضت الزواج منه من قبل. ففى أثناء ما كان المستكشف يشق طريقه فى الأدغال بحثًا عن أمين باشا غيرت تينانت رأيها. وفى أعقاب عودته إلى إنجلترا بدأت ترسل له خطابات غرامية ملتهبة. "لنتخيل قطعة من الأرض البرية غير مزروعة ولنفترض أنه حدث ذات يوم أن تلك الأرض قد حُرثت وبُذرت فيها بذور القمح. فلو كان الحقل يستطيع الكلام لقال: 'إنى لم أنتج قمحًا من قبل'. ولكن القمح مختبئ فى أعماق صدر

الحقل كل ذلك الوقت ... إن حبى هو شعلة لن تموت قط، وبدأت كشرارة صغيرة لا تستطيع أن تراها فى الضوء، والآن تتوهج مثل شعلة مذبح الكنيسة".

فإلى مذبح الكنيسة إذن. وانتشرت الأنباء وارتفعت أسعار رسوماتها إلى عنان السماء، وانهالت التهانى من كل أركان المعمورة. وأهدت الملكة فيكتوريا إلى تينانت دلاية مرصعة بثمانية وثلاثين قطعة ماس، وأرسل إليها توماس إديسون واحداً من آلات فونوغرافه الجديد. ومن بلجيكا أرسل الملك ليوبولد ممثله الكونت دارش كى يكون إشبينًا.

وفى اليوم المشهود، أصيب ستانلى بالتهاب مؤلم فى المعدة. وكان يعاوده من قبل، غير أن ارتجاعه اليوم لم يكن فى الأغلب من قبيل الصدفة. ومشى يترنح فى ممشى الكنيسة ولكنه اضطر للجلوس على مقعد جزءًا من الحفل. وبعد إتمام الزواج احتاج إلى المساعدة كى يركب العربة مع عروسه. وشقت العربة طريقها بين الجماهير المتدافعة فى حراسة خيالة الشرطة، وكادت الجماهير أن تسد الطريق تماماً. وفى حفل الاستقبال استلقى ستانلى على أريكة فى غرفة منفصلة معتمة، وهو يصيح من الألم. واستمر مرضه فى أثناء شهر العسل.

وطوال حياة ستانلى كانت تدور بداخله حرب بين التلهف على أن يتقبله المجتمع وبين الخوف من التقارب والألفة. ويعتقد فرانك ماكلين، وهو أدق من كتبوا سيرة ستانلى، أن الخوف كان أقوى بحيث إن الزواج لم يكتمل مطلقًا. والأدلة على ذلك ضمنية بوجه عام. فدوروثى ستانلى لم تنجب أطفالاً قط، ومن الجلى، ورغم خطاباتها، أنها كانت تعانى من اضطرابات عصبية خاصة بها. وفى قرار غير رومانسى بالمرة أصر ستانلى على أن يرافقهما مساعده الشاب فى رحلة شهر العسل إلى سويسرا. وأخيراً هناك سطور فى مذكرات ستانلى عن شهر العسل تم شطبها بالحبر، ويبدو أن زوجته فعلت ذلك بعد موته. ولكن من الممكن قراءة نهاية واحدة من تلك الجمل: "لا أظنه أمرًا لائقًا بالزوجة أن تحصل على تلك الملذات مقابل أن تجعلنى أشعر كأنى قرد فى قفص. ويستنتج ماكلين: "كان رعب ستانلى من النساء عظيماً، بحيث إنه عندما طُلب

منه أخيرًا أن يشفى غليل زوجة انهار ستانلى واعترف أنه يعتبر الجنس أمرًا خاصًا بالحيـوانات".

وسواء كان ذلك الاستنتاج صحيحًا أو لا، فإن عوامل الكبت والإعاقة التى سببت كل تلك الآلام الشديدة لستانلى تذكرنا بأن المستكشفين والعسكريين الذين قاموا بالهجمة الأوروبية على أفريقيا لم يكونوا أحيانًا بالصلابة والإقدام والمكر التى عزتها إليهم الأساطير، بل كانوا رجالاً متوترين وتعساء ومنساقين وهاربين من أمور فى ماضيهم أو فى داخلية نفوسهم. وكل ما قيل عن الدوافع الاقتصادية للتوسع الاستعمارى - وهى البحث عن المواد الخام والعمالة والأسواق - كلها كانت دوافع صحيحة، ولكن كان بجانبها أيضًا عوامل نفسية.

وآذن زواج ستانلى بانتهاء استكشافاته؛ فقد كرس وقته للشهرة. وبعد أن تمكن أخيرًا من ولوج أعتاب المجتمع الراقى، تحول إلى ما يشابه النموذج الكاريكاتيرى لسلوكيات ذلك المجتمع. فسافر فى أرجاء العالم يلقى المحاضرات وخطابات ما بعد العشاء، متلقيًا الشهادات الفخرية ومفتتحًا خطوط السكك الحديدية ومانحًا للقاءات الصحفية. وصب جام غضبه ضد الكسل والاشتراكية والفسق والفجور، و"تدنى الجودة" واتحادات العمال والقومية الأيرلندية والعمل لثمانى ساعات يوميا والصحفيات من الإناث وخدم الفنادق الأمريكية ("غير المدربين وغير المنضبطين والكسالى وسيئى التربية"). ومُنح لقب سير وانتخب عضوًا فى البرلمان. وعندما قام برحلة إلى الولايات المتحدة وكندا لإلقاء المحاضرات اصطحب معه مساعده الشاب مرة أخرى واصطحبت زوجته أمها. وسافر ستانلى عبر القارة فى أبهة ملكية، مصحوبًا بوصيفين، فى عربة قطار خاصة تحوى كل شىء حتى بيانو كبير. وأُطلق على العربة اسم هنرى م. ستانلى.

* * *

ولم تمض إلا سنتان على دخول ستانلى بهو الكنيسة وهو يعرج حتى حقق رجل آخر إنجازًا استكشافيًا رائعًا فى الكونجو. وعلى خلاف رحلات ستانلى كانت رحلات ذلك الرجل راقية ولا يشوبها العنف. ولكن وليم شبارد (William Sheppard) لا يظهر

إلا لماماً فى حوليات الاستكشافات، لأنه لم تكن تنطبق عليه الصورة التقليدية للمستكشف الأبيض فى أفريقيا. فبادئ ذى بدء لم يكن أبيض اللون.

ومن المفارقات أن الذى حث شبارد، وهو أمريكى أسود، على الذهاب إلى الكونجو أصلاً كان عضواً أبيض بمجلس الشيوخ عن ولاية ألاباما ومن المؤمنين بتفوق الجنس الأبيض وهو السناتور جون تايلر مورجان (John Tyler Morgan)، وكان من بين من أسهموا فى تدبير اعتراف الولايات المتحدة بكونجو ليوبولد بأمل أن يهاجر السود الأمريكيون إلى هناك. وكان مورجان وزملاؤه من أنصار دعوة "أعيدوهم إلى أفريقيا" والمتحمسين لها قد قدروا منذ زمن أن الخطوة الأولى هى إرسال مبشرين من الأمريكيين السود إلى القارة. وكان مورجان يأمل أن يصبحوا رأس جسر ويتبعهم ملايين الأمريكيين السود ويكون أفضل لو تم ذلك سريعاً. ومنذ زمن مبكر يناهز سنة ١٨٦٥ - وهى السنة التى فقد فيها البيض الجنوبيون كل آمالهم فى إبقاء السود فى مكانهم كعبيد - وافق المجلس العام للكنيسة المشيخية الجنوبية على الشروع فى تجنيد مبشرين "من بين الجنس الأفريقى فى هذه القارة ليحملوا الإنجيل ببركة الرب إلى أرض أسلافهم".

ولم يبدأ تنفيذ ذلك المخطط إلا بعد مرور سنوات بعد الحرب الأهلية. وكان السبب أن الكنيسة المشيخية الجنوبية، التى كان تأييدها للعبودية قد أدى بها إلى الانفصال عن بروتستنتيى الشمال، لم يكن بها، وهو أمر بديهى، إلا قلة قليلة من الأعضاء السود. وعلى الرغم من ذلك فإن خطة "أعيدوهم إلى أفريقيا" التى تبناها غلاة العنصريين البيض من أمثال مورجان توافقت جزئياً مع مصالح بعض الأمريكيين الأفارقة. فرغم أن عدداً قليلاً أبدى اهتماماً بالعودة إلى أفريقيا بصورة دائمة؛ فإن جورج واشنطن ويليامز لم يكن الأمريكى الأسود الوحيد فى زمانه الذى رغب فى العمل هناك. وكان للقس وليم شبارد طموحات مماثلة، ومن المحتمل أن ذلك كان لنفس السبب الذى لم يتحدث عنه أحد: وهى أنها قد تكون وسيلة للإفلات من العوائق المذلة للتفرقة العنصرية داخل الولايات المتحدة..

ولد شبارد فى فيرجينيا عام ١٨٦٥، ودرس فى معهد هامبتون فى نفس الولاية، وهو واحد من المعاهد القليلة الخاصة بالدراسات المتقدمة والمخصصة للسود فى

الجنوب. وبعد فترة دراسية أخرى فى المعهد الدينى للملونين فى تسكالوسا بولاية ألاباما عمل راعيًا لكنيسة بروتستنتية فى مونتجومرى وأطلانطا حيث اكتسب سمعة بالنشاط والحيوية والجسارة. وفى وقت ما أنقذ شخصًا من الغرق، وفى مناسبة أخرى ارتقى عدوًا سلالم ثلاثة طوابق فى بيت يحترق كى ينقذ امرأة وأصيب بحروق فى أثناء ذلك. وفى أخريات ثمانينيات القرن التاسع عشر بدأ فى إرسال الالتماسات إلى الكنيسة المشيخية الجنوبية لكى ترسله إلى أفريقيا كمبشر.

وأبقته الكنيسة منتظرًا لمدة عامين فهى لم تكن لترسله إلى أفريقيا إلا إذا وُجد رجل أبيض يكون رئيسًا له. وفى النهاية ظهر فى الأفق رجل دين أبيض طموح بتشجيع من السناتور مورجان شخصيا - هو القس صمويل لابسلى (Samuel Lapsley)، وكان أصغر من شبارد بعام وابن الشريك السابق لمورجان فى مكتب المحاماة. وعلى الرغم من أن أحدهم كان من نسل العبيد والآخر من نسل ملاك العبيد؛ فإن القسيسين الشابين توافقا بشكل جيد وشدا الرحال سويا إلى الكونجو. وفى طريقهم، وبتوصية من مورجان وهنرى شلتون سانفورد، قابل لابسلى الرئيس بنجامين هاريسون فى واشنطن والملك ليوبولد الثانى فى بروكسل. ولم يشارك شبارد فى أى من هاتين المقابلتين لكونه أسود اللون. وأصر سانفورد على أن يرتدى لابسلى قبعة حريرية عالية عند مقابلته لليوبولد، وفتن الملك لابسلى مثلما كان يفتن غيره من الزوار.

وفى مايو ١٨٩٠ وصل شبارد ولابسلى إلى الكونجو، وأقاما بضعة أسابيع فى محطة إرسالية على مشارف متادى. وبينما كان الاثنان يجمعان الحمالين والمؤن لرحلتهما حول الشلالات السفلى لنهر الكونجو، كان شخص آخر يفعل الشىء ذاته فى شوارع تلك المدينة المقامة على سفح تل وهو جوزيف كونراد الذى بدأ مسيرته مع قافلته متجهًا إلى بحيرة ستانلى بعد الأمريكيين بأحد عشر يومًا.

وبعد أن تداولا مع المبشرين المتمرسين عند بحيرة ستانلى قرر لابسلى وشبارد أن يقيما أول محطة تبشيرية للكنيسة المشيخية الجنوبية فى أقصى أعالى نهر كاساى. واتجه شبارد إلى الأدغال لعدة أسابيع ليجمع الخدم من الأفارقة، بينما أقام لابسلى

فى محطة إرسالية أمريكية فى ليوبولدفيل، حيث تلاقى مرة أخرى مع كونراد. (ويبدو أن الروائى لم يعانى من الملاريا والدوسنتاريا فقط وإنما من بعض التبشير بالمذهب البروتستنتى. فقد كتب لابسلى، فى خطاب له إلى الوطن، يقول عن كونراد: "هو مريض فى حجرة على الطرف الآخر للساحة. وأستطيع أن أرى من حيث أجلس ... عبر أشجار النخيل وثماره، نافذته مباشرة. وهو شخص مهذب. وهناك إنجيل إنجليزى على مائدته آمل فى أن أستخدمه معه").

وبمجرد إتمامهما لاستعداداتهما، توجه المبشران الشابان إلى كاساى. وتحمل الخطابات التى أرسلها لابسلى إلى الوطن فى تلك الفترة رنة إعجاب بشبارد كان من المستحيل أن تصدر على أرض الوطن من رجل أبيض تجاه رجل أسود. "إن الرجال من قبيلة الباتيك يعتقدون أن 'مونديل ندوم'، أى الرجل الأبيض الأسود، كما يطلقون على شبارد، هو رجل ليس له مثيل ... فمزاجه رائق ومتوازن – وهو حقا رجل ذو كياسة غير طبيعية وشخصية قوية. ولهذا فأنا أشكر الرب على شبارد". وهو يصف شبارد بأنه "ولد تاجراً ... وأنا أتركه يقوم بأغلب المشتريات"، ويتحدث بإعجاب عن قدرات شبارد الجسمانية ومهارته فى الصيد، وحنكته فى التعامل مع العواصف التى هددت باقتلاع خيامهم، وكيف أنه تدلى لمسافة خمسة عشر قدماً على مرساة تحت سطح الماء كى يخلصها من أغصان أعاقت حركتها. وفى مرة اصطاد فرس نهر وقفز إلى الماء ليقيده بالحبال، وأفلت بأعجوبة من تمساح كان يريد اصطياد ذلك الفرس. وكان من المفترض أن ذلك الرجل الأسود هو الشريك المرءوس فى الإرسالية، ولكننا ونحن نقرأ خطابات لابسلى نتذكر مسرحية جيمس بارى (James Barrie) 'كريكتون الرائع' (The Admirable Crichton)، وفيها يتحطم يخت به مجموعة من البريطانيين من علية القوم على شاطئ جزيرة، ويصبح الوصيف الواسع الحيلة هو الزعيم.

كان وليم شبارد أول مبشر أمريكى أسود فى الكونجو. وحين ننصت إليه فى كتابه وخطاباته ومقالاته الصحفية التى كتبها على مدى العقدين التاليين، وفى الخطب التى ألقاها فى هامبتون على مستمعين مبهورين فى أثناء إجازاته، نسمع شخصاً يختلف تمام الاختلاف عن الغالبية الساحقة من الأمريكيين والأوروبيين الذين زاروا أفريقيا قبله.

وما من شك فى أنه مبشر مسيحى بروتستنتى، وبقى كذلك طوال الأعوام العشرين التى قضاها فى أفريقيا. وفى أحيان قليلة كان يعبر عن الازدراء المعهود "للظلمات الكثيفة للوثنية" و"الهمج المتوحشين العرايا وهم ينحنون أمام الأوثان، وتملأهم الخرافات والخطيئة". غير أن لهجته غالبًا ما كانت جد مختلفة. وكتب شبارد إلى صديق له فى الولايات المتحدة: "لقد وددت دائمًا أن أعيش فى أفريقيا، فقد أيقنت أنى سأكون سعيداً، وأنا الآن كذلك". وهو يقبل بحماس على التعرف على البيئة المحيطة به على ضفاف نهر كاساى: "بدأنا فى الحال فى دراسة لغتهم بأن نشير إلى الأشياء ونكتب الأسماء التى يعطونها لنا". وحصل على ببغاء أليف وقرد أسود صغير أطلق عليه بدعابة اسم تيبو تيب، على اسم تاجر الرقيق العربى الأفريقى. وصار صوته، الذى أصبح أقوى وأكثر امتلاء بالثقة، صوت رجل يشعر أنه قد عاد إلى وطنه، وهو يشعر بذلك بطريقة قد يكون من الخطورة عليه أن يحاول سبر أغوارها بالكامل، ربما لاعتبارات سياسية ودينية. وهو سعيد لوجوده وسط 'أهله' وفى 'بلد أجداده'.

وفى أوائل سنة ١٨٩٢ اضطر لابسلى إلى التوجه إلى بوما، العاصمة، فى مهمة عمل متعلقة بالإرسالية، وترك شبارد وحيداً لعدة أشهر على ضفة نهر كاساى. وعندما أتت سفينة إلى موقعه وقابلها شبارد بسرور معتقداً أنها تحمل لابسلى صُدم عندما وجد خطابًا من مبشر آخر:

عزيزى الأخ شبارد:

سوف تُدهش وتحزن عندما تعلم أن صديقك ورفيقك القس س. ن. لابسلى، بينما كان هنا على الساحل أصيب بحمى صفراوية ونزيف بولى، وفى يوم ٢٦ مارس توفى".

وارتبكت الكنيسة المشيخية الجنوبية لما وجدت نفسها وقد أصبح رجل أسود رئيسًا بالأمر الواقع لإرساليتهم الجديدة فى الكونجو، فأرسلت مزيداً من المبشرين البيض إلى الكونجو. وفى الوقت الذى وصلوا فيه كان شبارد قد اكتسب خبرة سنين عديدة فى الإقليم، وأصبحت له، وفقًا لما قرره تاجر بلجيكى، شعبية كبيرة "لدى شعب الباكوبا، الذى كان هو الوحيد الذى يتحدث لغتهم من بين كل الأوروبيين".

وداوم شبارد على الازدهار. وكان يعشق الصيد واشتهر بخطبه التى تفتن الجماهير وبقوته الجسمانية. وركب ما وصفها هو بمرح بأنها أول دراجة فى أواسط أفريقيا. ويبدو أن طرائقه المرحة فى الحياة قد جعلته محبوباً من الجميع سوداً وبيضاً. وقد تصلح القصة التالية لتكون مقياساً لشعبيته الجارفة. ففى أخريات حياته هجر زوجته وعشق امرأة قروية أفريقية وأنجب منها ابناً، فلم تقض تلك الخطيئة على وظيفته فى الكنيسة. وانتهى الأمر بذلك الابن الذى كان يدعى شابيت، وهو الاسم الذى كان الأفارقة يطلقونه على أبيه، بأن عمل مديراً لمطبعة الإرسالية.

وبخلاف المبشرين الآخرين، وكانوا فى مجملهم يبدون شديدى الكآبة، كان شبارد يظهر فى الصور الفوتوغرافية مستمتعاً بوقته، سواء كان واقفاً فوق فريسة صادها أو مستعرضاً بابتهاج شديد ثعباناً عملاقاً ميتاً أو عازفاً على آلة البانجو. وهو يقف طويل القامة وضخم الجسم بين مجموعة من المحاربين السود يحملون الرماح والتروس وممسكاً برمح هو الآخر. أو حاملاً بندقية وقد افتر ثغره عن ابتسامة عريضة ومن حوله جمع من الرجال يحملون الأقواس والسهام. وفى كل مرة يتخذ شبارد وضعاً مميزاً عند التصوير. فهو يرتدى قبعة شمس بيضاء وقميصاً أبيض ورباط عنق أبيض وبذلة بيضاء من الكتان بل حتى حذاء أبيض من قماش الخيام. وهو يدفع بصدره إلى الأمام ويضع يديه فى ثقة على وسطه بين جمع من الأفارقة، وابتسامته دافئة وتنطق بالكبرياء وكأنما هو صاحب إقطاعية. وكانت له النظرة المميزة لمدرب فريق كرة يتيه فخراً بفريقه المنتصر.

تقع المنطقة التى يعمل بها شبارد على حدود موطن قبيلة الكوبا. وكان الكوبا من بين أعظم فنانى أفريقيا، فيصنعون الأقنعة والتماثيل والمنسوجات والتحف المنحوتة بإتقان؛ وكانت المجموعة الفنية التى جمعها شبارد، والتى آلت غالبيتها إلى كليته الأم فى فيرجينيا، كانت أول مجموعة مهمة يستحوذ عليها أجنبى. وكتب شبارد ملاحظاته الإثنوجرافية عن شعب الكوبا وغيرهم من قبائل منطقة كاساى وسجل أساطيرهم المتوارثة عن أسلافهم وعاداتهم الطقوسية ومحاصيلهم الزراعية. ورغم صراحته عندما يذكر أن بعض ممارساتهم - مثل التضحية البشرية وقتل النسوة ممن يتهمن بالسحر -

تصيبه بالرعب؛ فإن كتاباته توضح مدى فضوله المتسم بالاحترام والتعاطف تجاه العادات الأفريقية الذى يختلف اختلافا جذريا عن الأحكام القاسية المتسرعة لأشخاص من أمثال ستانلى. وكان شبارد متأثرًا بوجه خاص بشعب الكوبا الذى "يجعل المرء يحس أنه يدخل مرة أخرى إلى أرض تسودها الحضارة ... ولعلهم أخذوا حضارتهم من قدماء المصريين – أو أن المصريين استمدوا حضارتهم من الباكوبا!" وانبهر شبارد عندما شاهد كأسًا احتفاليًا للكوبا لاحتساء نبيذ البلح، ومنقوش عليه وجه له تقاطيع تشبه شبهًا مذهلاً الوجوه الموجودة على آثار قدماء المصريين. وكتب شبارد: "الكأس مصنوع من خشب الماهوجانى والوجه الذى عليه يبدو أنه يؤكد أساطيرهم التى تقول إنهم قدموا منذ سنوات سحيقة القدم من أراض بعيدة".

بقيت مملكة الكوبا بمنأى عن متناول يد تجار الرقيق سواء من الساحل الشرقى أو الغربى بسبب موقعها المتوغل فى أعماق القارة. وكان الكوبا يقدرون أهمية عزلتهم وفعلوا كل ما فى وسعهم لإبقاء الغرباء بعيدًا. وكان موطنهم داخلاً فى نطاق الحدود التى اعترفت أوروبا بتبعيتها لليوبولد، ولكن سلطانه على المناطق النائية بقى حبرًا على ورق فى تلك المرحلة المبكرة من إنشاء المستعمرة. ولمدة عقد كامل حاول التجار البلجيكيون التغلغل إلى مملكة الكوبا وتم منعهم مرات عدة، وكانت الهدايا التى يرسلونها إلى ملكهم تعاد إليهم.

وفى سنة ١٨٩٢ حقق شبارد الشىء الذى لا يملك أغلب الأنثروبولوجيون إلا أن يحلموا به. فقد أصبح أول أجنبى يصل إلى مدينة إيفوكا مقر بلاط كوت أمبويكى الثانى (Kot aMbweeky II) ملك الكوبا. وكان الملك قد هدد مرارًا بأن يقطع رأس كل من يساعد الأجانب على الدخول ولذا لم يجرؤ إنسان على إخبار شبارد باتجاهات السير. واستغرق منه الأمر ثلاثة أشهر ومعه مجموعة من الأفارقة حتى تمكنوا من أن يجدوا طريقهم إلى العاصمة، التى عثروا عليها أخيرًا بمتابعتهم سرا لأثر قافلة للعاج. وكان شبارد لا يزال مرتديًا ملابسه البيضاء، بما فى ذلك حذاءه الأبيض من قماش الخيام. "وما كان فى الماضى"، كما كتب هو بمرارة، بذلته الكتانية البيضاء.

واشتد غضب الملك وأمر بإحضار شبارد ومن معه وكل من عاونه، إلى القصر لقطع رءوسهم. ثم اكتشف أن الدخيل أسود اللون ويستطيع التحدث ببعض اللغة الكوبية. وقرر شيوخ المملكة أن ذلك يعنى أنه روح متجسدة. بل وأعلنوا أنهم يعلمون من هو: فهو بوب ميكابى (Bope Mekabe) وهو ملك سابق. ووفقًا لأقوال شبارد فلم يكن أى شىء يقوله لهم عن ملكه الأعظم فى السماوات ليقنعهم بغير ذلك[١].

كانت تلك الزيارة واحدة من اللحظات المهمة فى حياة شبارد وزودت من أعقبه من الدارسين بمنجم هائل من المعلومات، لأن شعب الكوبا كان لديه واحد من أكثر النظم السياسية فى أواسط أفريقيا تعقيداً. وبقى شبارد فى بلاط الكوبا أربعة أشهر، وكتب ملاحظاته عن كل شىء من طقوس البلاط إلى أعمال قوات الشرطة الملكية التى تتعامل مع السرقات وغيرها من الجرائم. وكان الخدم يفرشون الأرض أمامه بجلود الفهود كى يسير عليها كلما ذهب لزيارة الملك، الذى كان يجلس على عرش من العاج ويرتدى تاجًا من الخرز والريش.

وكتب شبارد: "لقد اشتد ولعى بشعب الباكوبا ... فلديهم أجمل سحنة رأيتها فى أفريقيا، وهم يتميزون باللباقة والاحترام والشجاعة وملامحهم مبتسمة وهم فى غاية الكرم حقاً. ومعارفهم عن النسيج والتطريز والحفر على الخشب وصهر المعادن هى الأرقى فى كل أفريقيا الاستوائية". وحضر شبارد اجتماعًا يُعقد سنويًا لرؤساء العشائر وكبار القوم من مدن المملكة، حيث يقدم كل منهم تقريراً عن المواليد والوفيات والمحاصيل وغير ذلك من أحداث منطقته ويقدم رقصة احتفالية. وكان عنوان الكتاب الذى ألفه فيما بعد عن خبراته فى أفريقيا "الرواد البروتستنتيون فى الكونجو" (Presbyterian Pioneers in Congo) غير أن شعب الكوبا يهيمن على الكتاب رغم وضوح عدم بروتستنتيته. وكتابه هذا هو دراسة قيمة مستقاة من مصادرها الأولية عن

(١) هناك تفسير مغاير ليان فانسينا عالم الأنثروبولوجيا المعروف: فنظرًا لأن اسم بوب ميكابى لا وجود له فى تسلسل ملوك الكوبا فهو يظن أنه من المرجح أن الكوبا أدركوا من كان شبارد، وكانوا يحاولون ببساطة أن يتملقوه بأن يكشفوا له خطط الأوروبيين الآخرين الذين كانوا يريدون دخول المملكة.

واحدة من آخر الممالك الأفريقية العظيمة التى لم يغيرها النفوذ الأوروبى. وكتب شبارد يقول إن أسطورة الخلق عند شعب الكوبا "تقرر أن أول بشر كانوا رجلاً وامرأة أُنزلا من السماء بحبل ثم فكا أنفسيهما منه وجُذب الحبل إلى السماء".

وبعد فترة وجيزة من زيارته للكوبا عاد شبارد إلى الولايات المتحدة فى إجازة. وفى طريقه دُعى لإلقاء محاضرة فى قاعة إكستر فى لندن. وتقديرًا لرحلته إلى مملكة الكوبا واكتشافه لبحيرة لم يكن الأوروبيون يدرون عنها شيئًا انتُخِب زميلاً فى الجمعية الملكية الجغرافية، وهو المبشر المشيخى الوحيد الذى نال مثل ذلك التكريم. كما أطلقت الجمعية اسم بحيرة شبارد على البحيرة التى اكتشفها. وفى واشنطن قدم شبارد إلى الرئيس جروفر كليفلاند هدية هى حصيرة كوبية من الخيزران المجدول، وفى زيارة تالية أهدى تيودور روزفلت غليونًا وغطاءً للسرير من ألياف النخيل. وفى تلك الزيارات إلى الوطن ألقى شبارد عددًا لا يُحصى من الخطب فى الكليات والجامعات والكنائس فى طول البلاد وعرضها، وكان لعظاته المتحمسة عن أفريقيا أثر فى تجنيد المزيد من المبشرين السود للمشيخية. وتزوج من واحدة منهم هى لوسى جرانت، وهى معلمة ومغنية موهوبة كان يعرفها معرفة سطحية منذ أن كان طالب لاهوت. ولتزويد العدد الكبير من محطات الإرسالية الذى انتهى إليه الحال، بالعاملين، أُرسل المزيد من المبشرين المشيخيين البيض أيضًا إلى أفريقيا، وكان الرئيس دائمًا من البيض. وفى السجلات الرسمية للجمعية التبشيرية للمشيخيين الجنوبيين والتى تُنشر فى الولايات المتحدة، كان شبارد والمجندين الجدد يشار إليهم دائمًا بكلمة (ملون) أو حرف (م) بجوار أسمائهم. غير أن شبارد لم يحس فى أفريقيا أنه فى منزلة أدنى: فقد أطلق على واحد من أبنائه اسم ماكساماليتج على اسم واحد من أبناء ملك الكوبا.

وليس بمستغرب أن يكون شعب الكوبا سعداء بطرائقهم فى الحياة، ولم يبالوا كثيرًا بالمسيحية رغم صداقتهم مع شبارد. ولم يتحول إلى المسيحية فى محطة الإرسالية التى كان شبارد يديرها إلا عدد قليل. غير أن شبارد صار شخصًا مشهورًا فى الوطن لاكتشافاته بحيث إن المشيخيين تخوفوا من ردود أفعال الرأى العام العدائية لو أغلقوا إرساليته فى مملكة الكوبا ونقلوه إلى مكان آخر.

وبمرور الوقت استسلم كل إقليم كاساى، مثل باقى أنحاء الكونجو، للقبضة المحكمة لدولة الكونجو. وبعد انصرام ثمانى سنوات على رحلة شبارد التاريخية وصلت قوات ليوبولد أخيراً إلى عاصمة الكويا ونهبتها.

* * *

كانت الغارة على العاصمة قد تسبب فيها، مثل عديد من الأحداث فى الكونجو، اكتشاف حدث بعيداً. ففى ذات يوم قبل بضعة أعوام من أول حضور لشبارد إلى أفريقيا، كان طبيب بيطرى له لحية بيضاء مهيبة يقوم ببعض أعمال السمكرة فى دراجة ابنه الثلاثية العجلات بمنزله فى بلفاست فى أيرلندا. وكان جون دنلوب يحاول جاهداً أن يحل مشكلة طالما أرقت بال راكبى الدراجات لسنين طوال وهى: كيف تسير بدراجتك سيراً ناعماً دون أن يكون بها زنبرك ؟ وتمكن دنلوب أخيراً من ابتكار طريقة عملية يصل بها إلى الحل المنشود منذ زمن، وهو إطار مطاطى قابل للنفخ. وفى سنة ١٨٩٠ بدأت شركة دنلوب فى صنع الإطارات - مما تسبب فى هوس عام بالدراجات ونشأة صناعة جديدة فى وقت يتناسب، كما تبين فيما بعد، مع ظهور السيارة.

وكان الأوروبيون يعلمون عن المطاط منذ أن رآه كريستوفر كولومبس فى جزر الهند الغربية. وفى أخريات القرن الثامن عشر نحت عالم بريطانى الاسم الإنجليزى (rubber) لتلك المادة بعدما لاحظ قدرتها على محو الكتابة بالقلم الرصاص. ومنح الإسكتلندى تشارلز ماكينتوش (Charles Macintosh) اسمه إلى اللغة سنة ١٨٢٣ عندما تفتق ذهنه عن طريقة للإنتاج الواسع النطاق لأمر كان هنود الأمريكيتين يمارسونه منذ زمن بعيد: وهو وضع المطاط على الأقمشة لجعلها غير منفذة للماء. وبعد ذلك بستة عشر عاماً سكب المخترع الأمريكى تشارلز جوديير (Charles Goodyear) دون قصد مادة الكبريت على بعض المطاط الساخن فى فرنه. واكتشف أن المزيج الناتج لم يتحول إلى الصلابة أو صارت له رائحة كريهة بعدما برد أو أصبح لزجاً عند تسخينه - وكانت تلك مشاكل جوهرية واجهت من قبل كل من حاول صناعة الأحذية عالية الساق أو معاطف المطر من

المطاط. غير أن صناعة المطاط العالمية لم تبدأ فى الازدهار إلا فى أوائل تسعينيات القرن، أى بعد أن ثَبَّت دنلوب إطارات هوائية فى دراجة ابنه الثلاثية العجلات بخمس سنوات. وتنامت فى العالم الصناعى شهية مفتوحة، ليس فقط للإطارات المطاطية، وإنما للخراطيم والأنابيب والحشيات وما شابه ذلك، ولتغليف أسلاك التلغراف والتليفون والأسلاك الكهربية بالمطاط العازل، وسرعان ما شمل ذلك الكرة الأرضية بأسرها. وفجأة وجدت المصانع نفسها عاجزة عن الحصول على ما تحتاجه من تلك السلعة السحرية، فارتفعت أسعارها خلال تسعينيات القرن ارتفاعًا كبيرًا. ولم يُحدِث ذلك الازدهار الاقتصادى أثرًا فى أى مكان أشد من تأثيره الهائل على حياة الناس فى الغابة الاستوائية المطيرة حيث تتلوى كرمات المطاط البرية بطريقة ثعبانية على جذوع الأشجار الشاهقة وتغطى ما يقرب من نصف مساحة كونجو ليوبولد.

وبالنسبة لليوبولد كان الازدهار الاقتصادى للمطاط هبة قادمة من السماء. فقد انزلق بصورة خطيرة فى الديون من جراء استثماراته فى الكونجو، ولكنه صار يدرك الآن أن العائد قد يكون أكثر ربحية مما يتخيله. ورغم أن العالم لم يفقد تلهفه على العاج؛ فإنه بحلول أواخر تسعينيات القرن تفوق عليه المطاط الخام باكتساح كمصدر رئيسى للعائدات فى الكونجو. ولما تأكد حسن حظه صار الملك يستجوب الموظفين العائدين من الكونجو ويستفسر منهم عن كل تفاصيل محصول المطاط؛ وأصبح يتلقى سيلاً لا ينقطع من البرقيات والتقارير من الإقليم، ويضع ملاحظاته وتعليماته على هوامشها ثم يمررها لمساعديه للعمل بمقتضاها. وتموج خطاباته فى تلك الفترة بالأرقام: أسعار السلع فى الأسواق العالمية، نسب الفوائد على القروض، كميات البنادق المشحونة إلى الكونجو، أطنان المطاط التى تُشحن إلى أوروبا، وأبعاد قوس النصر الذى يزمع إنشاءه فى بروكسل مع تدفق الأرباح التى حصل عليها حديثًا. وقراءة مراسلات الملك تشبه قراءة خطابات رئيس مجلس إدارة إحدى المؤسسات التى طورت لتوها مُنتَجًا مربحًا جديداً، وتسابق الزمن لكى تفيد منه قبل أن تبدأ خطوط إنتاج المنافسين فى الإنتاج.

وكانت المنافسة التى أقلقت ليوبولد أيما قلق هى من المطاط المزروع الذى لا يأتى من كرمة وإنما من شجرة. غير أن أشجار المطاط تستلزم الكثير من الرعاية وتحتاج لعدة سنوات كى تنمو وتصبح كبيرة بدرجة تسمح بنزح المطاط السائل منها. وكان الملك يلح بنهم فى طلب المزيد من كميات المطاط البرى من الكونجو لعلمه بأن الأسعار سوف تهوى بمجرد أن تصل أشجار مزارع المطاط فى أمريكا الجنوبية وآسيا إلى مرحلة النضج. وقد حدث ذلك فعلاً ولكن بعد أن تمتع الكونجو بازدهار اقتصادى نتيجة للمطاط البرى لمدة تقرب من عقدين. وطوال تلك الفترة استمر البحث عنه دون هوادة.

ومثلما كان الحال مع الرجال الذين كانوا يأتون بالعاج، فإن موردى المطاط إلى دولة الكونجو والشركات الخاصة كانوا يُكافَئون حسب الكميات التى يقدمونها. وفى سنة ١٩٠٣ نال وكيلٌ "غزير الإنتاج" عمولة تعادل ثمانية أضعاف مرتبه السنوى. ولكن الأموال الوفيرة تدفقت عائدة إلى أنتورب وبروكسل، وفى العاصمة تجمعت بصفة خاصة على جانبى شارع بريدرود (Brederode)، وهو شارع صغير يفصل ما بين خلفية القصر الملكى وعدة أبنية تحوى مكاتب لدولة الكونجو ومكاتب خاصة بالعمليات الاقتصادية الخاصة بالكونجو.

وإضافة إلى أن الدولة التى كان ليوبولد يسيطر عليها شخصيا كانت تحصل على نصف أرباح الشركات التى كانت لديها امتيازات، كان الملك يحقق أرباحًا أكثر بكثير من الأراضىَ التى تستغلها الدولة مباشرة. غير أن لدينا إحصائيات أوضح بكثير من الشركات ذات الامتيازات بسبب أن تلك الشركات كانت تُدار بأسلوب أقل سريةً من أساليب الملك. ففى سنة ١٨٩٧، على سبيل المثال، أنفقت شركة واحدة، هى شركة الهند الأنجلوبلجيكية للمطاط والاستكشاف (Anglo-Belgian India Rubber and Exploration Company) أو (هـ.أ.ب.م.)، ١,٣٥ فرنك لكل كيلوجرام فى حصاد المطاط فى الكونجو وشحنه إلى مقر رئاسة الشركة فى أنتورب – حيث باعته بأسعار وصلت فى بعض الأحيان إلى ١٠ فرنك للكيلوجرام، وهو ربح يربو على ٧٠٠ فى المئة. وبحلول سنة ١٨٩٨، وصل ثمن مخزون الشركة ما يقارب ثلاثين ضعف أسعار ما قبلها بست

سنوات. وما بين سنتى ١٨٩٠ و١٩٠٤ وصل مجمل أرباح الكونجو من المطاط إلى ستة وتسعين ضعفًا. وبنهاية القرن أصبحت دولة الكونجو المستقلة أكثر مستعمرات أفريقيا ربحًا ولا تدانيها أية مستعمرة أخرى. وأتت الأرباح بسرعة لأن حصاد المطاط البرى، إذا استبعدنا مصاريف النقل، لا يحتاج إلى زراعة ولا سماد ولا رأس مال يُنفَق فى شراء آلات باهظة الثمن. فهو لا يحتاج إلا إلى عمالة.

كيف يمكن العثور على تلك العمالة ؟ شكَّل ذلك مشكلة لحكام الكونجو. فلم يكن بمقدورهم أن يجمعوا الرجال ببساطة ويقيدوهم سويا بالأغلال، ويقسرونهم على العمل تحت رقابة ملاحظ يحمل الشيكوت كما كانوا يفعلون مع الحمالين. فلكى يجمعوا المطاط البرى كان على الرجال أن ينتشروا فى الغابة المطيرة ويتسلقوا الأشجار.

والمطاط سائل يجرى فى أوعية الأشجار ثم يتخثر؛ والكلمة الفرنسية 'كاوتشوك' (caoutchouc) مشتقة من كلمة لهنود أمريكا الجنوبية تعنى 'الخميلة الباكية'. والخميلة الباكية فى الكونجو كانت كرمة إسفنجية طويلة من فصيلة لاندولفيا (Landolphia). ويصل قطرها عند قاعدتها إلى قدم، والكرمة قد تلتف صعوداً حول شجرة لمسافة مئة قدم أو أكثر، حيث تتمكن من الوصول إلى أشعة الشمس. وهناك تتفرع إلى أغصان منها ما قد يلتف حول الفروع العليا لست شجرات أخرى. ولكى يُجمع المطاط فلا بد من إحداث شق فى الكرمة بسكين ويعلق دلو أو وعاء فخارى ليجمع السائل المتقطر ببطء، وهو سائل نباتى غليظ القوام ويشبه اللبن. ومن الممكن إحداث شق صغير فتسيل نقاط السائل مثل نقاط الصنبور أو تقطع الكرمة كليةً، فتنتج كميات أكبر من المطاط ولكن الكرمة تموت – وهو أمر ممنوع رسميا ولكنه كان يمارَس على نطاق واسع. وعندما تُستنزف الكرمات المتاخمة لقرية من القرى فعلى العمال أن يزيدوا من تغلغلهم فى الغابة حتى يصل الأمر، وهذا يحدث سريعًا، إلى أن العمال يسيرون لمسافة يوم أو يومين كى يعثروا على كرمة جديدة. وعندما تُستنزف ارتفاعات الكرمة القريبة من الأرض يبدأ العمال فى تسلق الأشجار كى يصلوا إلى السائل. وكتب مبشر: "مررنا ... برجل على الطريق وقد انكسر ظهره عندما وقع من أعلى شجرة بينما ... كان ينضح

بعض الكرمات". ويضاف إلى ذلك أن الأمطار الاستوائية المدرارة فى معظم فصول السنة حولت مناطق شاسعة من الغابة المطيرة، حيث تنمو كرمات المطاط البرى، إلى مستنقعات.

ولم تكف المدفوعات من الحلى الزائف أو الأسلاك النحاسية لحمل الناس على المكوث فى الغابة المغمورة أيامًا فى كل مرة ليقوموا بعمل بمثل تلك المشقة والألم الجسمانى. وكان على جامع المطاط أن يجفف السائل حتى يتخثر، وكثيرًا ما كانت الوسيلة الوحيدة لحدوث ذلك هى أن ينشره على ذراعيه وفخذيه وصدره. وكتب لويس شالتان (Louis Chaltin)، وهو ضابط من ضباط القوة الشعبية، فى مذكراته سنة ١٨٩٢: "فى المرات الأولى لا يخلو الأمر من الألم عندما ينزع الرجل المطاط من الأماكن ذات الشعر من جسمه. والوطنيون لا يحبون جمع المطاط بل يجب إجبارهم عليه".

كيف كانوا يُجبَرون عليه ؟ وتسربت الأنباء والإشاعات شيئًا فشيئًا إلى أوروبا. وذكر القنصل البريطانى فى تقرير له سنة ١٨٩٩: "هاكم مثال لما يجرى أُخبرت به فى أعالى [نهر] أوبانجى. وكانت الطريقة التى اتبعها هذا [هؤلاء] الضابط [الضباط]... هى أن يصل إلى قرية من القرى فى زوارق الكانو، وكثيرًا ما كان السكان يفرون عند وصولهم؛ ثم يترجل الجنود ويبدأون فى السلب والنهب مستولين على كل الدجاج والحبوب إلخ، من المنازل؛ وبعد ذلك يهاجمون السكان حتى يتمكنوا من الإمساك بنسائهم ويبقوهن رهينات حتى يحضر زعيم المنطقة الكمية المطلوبة من كيلوجرامات المطاط. وعندما يتم ذلك تباع النسوة إلى ملاكهن مقابل ماعزتين للمرأة، وهكذا يتنقل من قرية لأخرى حتى يتم جمع الكمية المطلوبة من المطاط".

وأحيانًا تكون الرهائن من النساء وفى أحيان أخرى من الأطفال، وأحيانًا من الشيوخ أو الزعماء. وكان بكل محطة حكومية أو تابعة لشركة فى مناطق المطاط معتقل مخصص للرهائن. فإن كنت قرويًا ذكرًا فإن رفض الأوامر بجمع المطاط قد تعنى موت زوجتك. وهى قد تموت على أية حال، فالطعام فى المعتقلات كان نادرًا والأوضاع قاسية. وكتب جورج بريكوس (Georges Bricusse)، وهو ضابط بالقوة الشعبية، فى يومياته فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٨٩٥: "إن النسوة اللواتى أخذناهن فى الغارة الأخيرة على

إنجويترا (Engwettra) لا يكففن عن إثارة المتاعب، وكل جندى يريد إحداهن، وحراس المعتقل الذين من المفترض أن يراقبوهن يفكون أغلال أجملهن ويغتصبوهن".

ومن البديهى أن ليوبولد لم يعلن مطلقًا أن أخذ الرهائن هو سياسة رسمية؛ فإن وجه شخص ما مثل تلك الاتهامات فإن السلطات فى بروكسل كانت تبادر بنفيها مظهرة سخطها. ولكن هناك فى الأدغال بعيداً عن الأعين المتطفلة، يتلاشى التظاهر. بل إن التعليمات الخاصة بأخذ الرهائن كان يتضمنها كتاب تعليمات شبه رسمى هو 'دليل المسافر والمقيم فى الكونجو' (Manuel du Voyageur et du Resident au Congo) كانت الإدارة تعطى نسخة منه لكل وكيل وكل موقع للدولة. وكان ذلك الدليل المكون من خمسة أجزاء يغطى كل شىء من حمل الخدم على الطاعة إلى التحية الصحيحة بإطلاق نيران المدفعية. وكان أخذ الرهائن من الأعمال الروتينية:

> إن أخذ السجناء فى أفريقيا ... هو من الأمور اليسيرة، لأنه لو حدث أن الوطنيين اختبئاوا فهم لن يبتعدوا كثيراً عن قريتهم ولا بد من أن يعودوا للبحث عن الطعام فى الحدائق المحيطة بالقرية. فإن أحكمتَ الرقابة على تلك الحدائق فمن المؤكد أنك ستمسك ببعض الناس بعد فترة قصيرة ... فإذا ما حصلت على كفايتك من المساجين فعليك أن تختار من بينهم شخصاً طاعنًا فى السن، ويفضل أن يكون امرأة، وتقدم لها هدية وترسلها إلى زعيمها لتبدأ المفاوضات. وغالبًا ما يوافق الزعيم على إرسال ممثلين عنه، من فرط تلهفه على إطلاق سراح قومه.

ونادراً ما يتيح التاريخ لنا فرصة الاطلاع على مثل تلك التعليمات المفصلة لأولئك القائمين على تنفيذ تعليمات نظام حكم قائم على الإرهاب. فنجد الأفكار المفيدة عن أخذ الرهائن فى جزء من الدليل يسمى 'مواضيع عملية' صاغتها لجنة تحرير مكونة من نحو ثلاثين عضواً. وهناك عضو فيها - عمل على الكتاب خلال فترة العامين التى أعقبت وصمه بصفة جامع الرءوس - هو ليون روم رئيس المحطة عند مساقط ستانلى.

* * *

كان أخذ الرهائن عملاً تفرد فيه الكونجو خلافًا لغيره من الأنظمة التى تمارس أعمال السخرة. غير أنه كان يشبهها فى نواحٍ أخرى. فكان الكونجو يتعامل بنظام الحصص، وكذلك كان نظام الجولاج السوفييتى بعد ذلك بعقود، وهو نظام آخر كان يمارس أعمال سخرة العبيد لاستخراج المواد الخام. ففى سيبيريا كانت الحصص عبارة عن أمتار مكعبة من الأخشاب أو أطنان من خام الذهب يستخرجها السجناء من المناجم كل يوم؛ وفى الكونجو كانت الحصة كيلوجرامات من المطاط. وفى المنطقة المخصصة لشركة الهند الأنجلوبلجيكية للمطاط والاستكشاف والتى كانت تقع على انحناءة نصف الدائرة العظيمة لنهر الكونجو، على سبيل المثال، كانت الحصة المفروضة على كل قرية ثلاثة إلى أربعة كيلوجرامات من المطاط المجفف لكل ذكر بالغ كل أسبوعين – وكانت تعنى فى الحقيقة عملاً يستغرق كل وقت هؤلاء الرجال. وكانت الحصص أكبر من ذلك فى أماكن أخرى وقد تزداد بمضى الوقت. وفى حوض نهر مونجالا (Mongala River) فى أقصى الشمال، وكانت تسيطر عليها شركة أخرى هى 'جمعية أنفرس للتجارة فى الكونجو' (Societe Anversoise du Commerce au Congo)، قَدَّر موظف بالشركة أنه لكى يتمكن جامعو المطاط من الوفاء بحصتهم كانوا يضطرون إلى البقاء فى الأدغال أربعة وعشرين يومًا من كل شهر، حيث بنوا أقفاصًا بدائية ليقيموا فيها لتحميهم من هجوم الفهود، ولم تكن حماية كافية فى كل مرة.

ولكى يصلوا إلى الأجزاء العالية عن الأرض من الكرمة كان الرجال المتلهفون على كل قطرة من المطاط يقطعون الكرمة كلها أحيانًا، ثم يقسمونها إلى قطع ويعصرون المطاط من كل قطعة. وعلى الرغم من أن دولة الكونجو أصدرت أوامر مشددة تحرم قتل الكروم بهذه الطريقة؛ فإنها استخدمت أيضًا الشيكوت للرجال الذين لا يوردون كميات كافية من المطاط. وصارت الشيكوت هى سيدة الموقف. ورأى شاهد عيان أفريقيين يحفرون على الجذور كى يجدوا من المطاط ما يفى بالحصة المفروضة عليهم.

كان النظام عسكريًا بكامله. وتناثرت حاميات القوة الشعبية فى كل مكان، وكثيرًا ما ساهمت بنيرانها لمساعدة الشركات ذات الامتياز. ويضاف إلى ذلك أنه كان لكل شركة قوتها العسكرية الخاصة بها، وأُطلق عليها اسم 'الخفراء' من قبيل التمويه.

وكانت الشركات تتصرف فى الأمور العسكرية، بل وفى كل الأمور، وكأنها امتداد لدولة الكونجو. وفى حالة أخذ الرهائن أو إخضاع قرية متمردة كثيراً ما كان خفراء الشركات وجنود القوة الشعبية يخرجون للقتال معاً.

وفى أى مكان تنمو فيه كروم المطاط كان السكان يوضعون تحت سيطرة مشددة. وعادة ما كان الناس يضطرون للحصول على تصاريح من الدولة أو الشركة إن أرادوا زيارة صديق أو قريب فى قرية أخرى. وفى بعض المناطق كان السكان يُجبَرون على ارتداء لوحة معدنية مرقمة مربوطة بحبل حول أعناقهم حتى يتمكن وكلاء الشركة من التأكد من أنهم أوفوا بحصتهم من المطاط. وجُنِّدت أعداد هائلة من الأفارقة للعمل فى ذلك الجيش من العمال: وتسجل وثائق شركة الهند الأنجلوبلجيكية للمطاط والاستكشاف، وكانت مسئولة عن جزء ضئيل من إنتاج المطاط فى دولة الكونجو، أن بالشركة سبعة وأربعون ألف جامع للمطاط سنة ١٩٠٦ .

وكانت طوابير الرجال المكدودين تسير على ضفاف الأنهار حاملة فوق رءوسها سلالاً بها كتل المطاط الرمادية اللون، وتسير بها عشرين ميلاً أو أكثر لتتجمع بالقرب من منازل الوكلاء الأوروبيين، الذين كانوا يجلسون على شرفات منازلهم ويقومون بوزن حمولات المطاط. وعند إحدى نقاط جمع المطاط أحصى أحد المبشرين أربعمئة رجل يحملون سلالاً. وبعد أن يُسلَّم المطاط كان يُقسَّم إلى بلاطات غير مستوية بحجم حقيبة سفر ويُترك فى الشمس ليجف. ثم يُشحن نزولاً فى النهر على صنادل تجرها السفن البخارية، وهى أول مرحلة فى الرحلة الطويلة إلى أوروبا.

وكانت الدولة والشركات فى المعتاد تدفع للقرويين ثمن مطاطهم على صورة قطع من القماش والخرز وملء بضع ملاعق من الملح أو سكين. وهى أشياء لا تكاد تكلفهم شيئًا والسكاكين أساسية فى جمع المزيد من المطاط. وفى مناسبة واحدة على الأقل تقاضى زعيم العشيرة الذى أجبر قومه على جمع المطاط أجره على صورة كائنات بشرية. وسجلت الوثائق التبادل التالى سنة ١٩٠١ بعدما شب نزاع قانونى بين اثنين

من الموظفين البيض بالقرب من مساقط ستانلى. وكان الشاهد الذى سُئل هو ليامبا زعيم قرية تسمى ماليندا:

س: هل أعطاك مسيو هوتيو [موظف فى شركة] نساء أحياء أو أطفالاً؟

ج: نعم، أعطانى ست نساء وطفلين.

س: فى مقابل ماذا؟

ج: مقابل المطاط الذى جلبته إلى المحطة، وأخبرنى أنى أستطيع أن آكلهم أو أقتلهم أو أستخدمهم كعبيد - كيفما أود.

وكانت الغابة المطيرة المتاخمة لنهر كاساى غنية بالمطاط، ووجد وليم شبارد وغيره من المبشرين المشيخيين أنفسهم فى خضم طوفان. وكان الكاساى أيضًا مسرحًا لبعض أعنف حركات المقاومة لحكم ليوبولد. وهاجم رجال مسلحون يتبعون زعيمًا متحالفًا مع النظام وعاثوا فسادًا فى الإقليم الذى كان شبارد يعمل فيه ونهبوا وأحرقوا ما يزيد على عشر قرى. ولجأ فيض من اللاجئين إلى محطة شبارد يطلبون العون.

وفى سنة ١٨٩٩ صدرت الأوامر إلى شبارد من رؤسائه أن يتوغل فى الأدغال، مع ما فى ذلك من خطورة عليه شخصيا، كى يستقصى عن أسباب القتال، فرضخ وهو كاره. وهناك وجد الأرض تلطخها الدماء وعثر على قرى مدمرة والعديد من الجثث، ورائحة الأجساد المنتنة تزكم الأنوف. وعندما وصلوا إلى مخيم المغيرين التقطت عيناه مشهد أشياء كثيرة ينبعث منها الدخان. "وقادنا الزعيم إلى كومة من عصى أُوقدت تحتها نار هادئة وتبين لى أن فوقها أياد يمنى، عددتها فوجدتها ٨١ يدًا." وقال الزعيم لشبارد: "انظر! هذا هو برهاننا. وأنا دائمًا أقطع اليد اليمنى لأولئك الذين نقتلهم حتى تثبت للدولة عددهم". واستعرض لشبارد بتباه بعض الجثث التى أتت منها تلك الأيدى. وكان الدخان يحافظ على الأيدى فى ذلك المناخ الساخن الرطب، فقد تنقضى أيام أو أسابيع قبل أن يتمكن الزعيم من عرضها على الموظف المسئول ويتلقى منه الثناء على ما فعله من قتل.

وكان شبارد قد عثر مصادفة على واحد من أفظع مظاهر نظام ليوبولد لجمع المطاط. وكان قطع الأيدى، على غرار أخذ الرهائن، سياسة متعمدة، كما اعترف بذلك فيما بعد الموظفون حتى الكبار منهم. وذكر تشارلز لومير (Charles Lemaire) بعد تقاعده: "فى أثناء عملى فى الكونجو عملت كمفوض أول للإقليم الاستوائى. وبمجرد أن اشتد الحديث عن المطاط كتبت للحكومة، 'لكى نجمع المطاط فى الإقليم ... فلا بد من قطع الأيدى والأنوف والآذان".

فإذا ما رفضت قرية الخضوع لنظام المطاط، فإن قوات الدولة أو الشركة أو حلفائهما تبادر أحيانًا بقتل كل من تقع عليه أعينهم، فتصل الرسالة إلى القرى القريبة. غير أنه فى مثل تلك الأحوال كان بعض الضباط الأوروبيين تنتابهم الشكوك وعدم الثقة. فكانوا يطالبون الجنود بدليل على أن كل طلقة تُعطَى لهم قد استُخدمت فى قتل شخص ما، ولم تضع هباء فى صيد، أو، ما هو أسوأ، أى أن تكون قد حُفظت جانبًا للاستخدام المحتمل فى تمرد. وكان البرهان التقليدى هو اليد اليمنى من جثة. وأحيانًا لم تكن تؤخذ من جثة، كما ذكر ضابط لمبشر، "قد يحدث أن جنديا يطلق رصاصة لصيد حيوان، ثم يقوم بقطع يد رجل حى". وبلغ الأمر أن بعض الوحدات العسكرية عينت "موظفًا لحفظ الأيدى"؛ وكانت مهمته أن يقوم بتدخينها.

ولم يكن شبارد الأجنبى الوحيد الذى شاهد الأيدى المقطوعة فى الكونجو، ولا كان آخرهم. ولكن المقالات التى كتبها لصحف الإرساليات حول الفظائع التى عثر عليها أعيد طبعها واستُشهِد بها على نطاق واسع، سواء فى أوروبا أو فى الولايات المتحدة، وكان هو، إلى حد ما، السبب فى أن الناس عبر البحار صاروا يربطون بين الكونجو والأيدى المقطوعة. وبعد مضى ست سنوات على الاكتشاف الصارخ لشبارد، تحدث إميل فاندرفلد (Emile Vandervelde) الزعيم الاشتراكى فى البرلمان البلجيكى، فى معرض هجومه على الأشغال المدنية الباهظة التكاليف التى كان ليوبولد يبنيها وينفق عليها من أرباحه من الكونجو، وذكر "أقواس النصر التذكارية التى سوف يطلَق عليها يومًا من الأيام أقواس الأيدى المقطوعة". وفى النهاية كان مقدرًا لصراحة وليم شبارد أن تستثير غضب السلطات ويجد فاندرفلد نفسه، وهو محام، يدافع عن شبارد فى محكمة كونجولية. ولكننا بذلك نستبق أحداث قصتنا.

ومع انتشار إرهاب المطاط فى أنحاء الغابة المطيرة انطبعت فى ذاكرة الناس ذكريات بقيت حية طوال حياتهم. وحدث بعد ذلك بنصف قرن أن قسيساً كاثوليكياً كان يسجل التاريخ الشفهى ونقل عن رجل يدعى تسوامبى (Tswambe)، تحدث عن موظف بالدولة يدعى ليون فيفيه (Leon Fievez) كان يكن له كراهية خاصة، فقد دأب ذلك الموظف على ترويع منطقة على ضفة النهر على مسافة ثلاثمئة ميل شمالى بحيرة ستانلى:

> كان كل السود يؤمنون بأن ذلك الرجل هو شيطان منطقة خط الاستواء ... وكان عليك أن تقطع أيدى كل الجثث التى تُقتَل فى القتال. وكان يريد أن يرى عدد الأيدى التى يقطعها كل جندى، الذى كان عليه أن يحضرها فى سلة. ... وكل قرية ترفض أن تجمع المطاط كانت تُمحَى محواً. وعندما كنت شاباً رأيت الجندى موليلى [تابع فيفيه]، وكان حينئذ يحرس قرية بويكا، يتناول شبكة كبيرة ويضع فيها عشرة من الوطنيين المقبوض عليهم، ويربط حجرة ضخمة فى الشبكة، ثم يلقيها فى النهر ... وكان المطاط هو مصدر كل ذلك العذاب؛ ولهذا لا نريد أن نسمع اسمه يتردد مرة أخرى. فالجنود جعلوا الشباب يقتلون أو يغتصبون أمهاتهم وأخواتهم.

وينقل ضابط من القوة الشعبية مر خلال موقع فيفيه فى سنة ١٨٩٤ أقوال فيفيه نفسه يصف ما فعله عندما أبت القرى المحيطة بموقعه أن تزود قواته بالأسماك ونبات المنيهوت التى طالبهم بها: "لقد شننت عليهم حرباً. وكانت أمثولة واحدة كافية: قطعت مئة رأس، ومنذ ذلك الحين توفرت المؤن بالمحطة. إن هدفى كان إنسانياً بحتاً. قتلت مئة شخص ... ولكن ذلك سمح لخمسمئة غيرهم بالبقاء على قيد الحياة".

وبمثل تلك القواعد "الإنسانية"، والتى شملت قطع الأيدى والرءوس، فاز بالمعركة ساديون مثل فيفيه. واستخدم قائد محطة فى مبيما مسدسه ليحدث ثقوباً فى شحمة آذان أفارقة. وكان راؤول دى بريمورل (Raoul de Premorel)، وهو وكيل عمل فى منطقة نهر كاساى، يستمتع بإعطاء جرعة كبيرة من زيت الخروع للأشخاص الذين

يشك فى أنهم متمارضون. وعندما قدم قروى مطاطه مخلوطًا بالطين أو الحصى، فى محاولة محمومة منه كى يفى بالحصة المفروضة عليه، أجبره الوكيل ألبريك ديتيج (Alberic Detiege) على أكلها. وعندما لم يستخدم حمالان دورة المياه المخصصة لهما أمر جان فردوسين (Jean Verdussen) مفوض الإقليم باستعراضهما أمام القوات ووجوههم ملطخة بالمواد البرازية.

ولما انتشرت أنباء جنود الرجل الأبيض وسلالهم المحملة بالأيدى المقطوعة فى أنحاء الكونجو، تأكد بين الأفارقة الإيمان بأسطورة هى نقيض لافت للنظر للهاجس الأبيض عن أكل السود للحوم البشر. فقد قيل إن علب اللحم المحفوظ الموجودة فى منازل البيض لم تكن تحوى لحم الحيوان المرسوم على العلبة وإنما أياد مفرومة.

الفصل الحادى عشر

جمعية سرية للقتلة

حدث ذات مرة أن ليوبولد وفيلهلم الثانى قيصر ألمانيا كانا يشاهدان عرضًا عسكريًا فى برلين، وأسر ليوبولد للقيصر مبديًا تذمره من تآكل سلطات الملكيات: "فى الحقيقة لم يتبق لنا نحن الملوك سوى المال!" وسرعان ما أتى المطاط لليوبولد بالمال بكميات لم يكن يحلم بها، غير أن الكونجو وحدها لم تكن لتكفى لإرضائه. ولما كان يحلم بإمبراطورية تشمل نهرى أفريقيا الأسطوريين، نهر الكونجو ونهر النيل. فقد ظن أنه يستطيع أن يصل النهرين معًا بسكك حديد هائلة. وفى أوائل تسعينيات القرن أرسل بعثات استكشافية إلى الشمال الشرقى من الكونجو تجاه وادى النيل. وتمكنت إحداها من اكتشاف مناجم النحاس القديمة فى بحر الغزال، واهتمت بإعلان تبعيتها لليوبولد شخصيا مع تكليف دولة الكونجو بالحماية العسكرية.

وفى النهاية أوقف الفرنسيون تقدم الملك أبعد من ذلك فى اتجاه وادى النيل، ولكنه كان يحلم بالفعل بمستعمرات هناك. وكان يقول: "إننى أود أن أجعل بلجيكتنا الصغيرة، بملايينها الستة، عاصمة لإمبراطورية مترامية الأرجاء، فهولندا وإسبانيا والبرتغال كلها فى تدهور وانحطاط ويومًا من الأيام سوف تُعرض مستعمراتها للبيع". كما استفسر من وليم جلادستون رئيس الوزراء البريطانى عن إمكانية استئجار أوغندا.

وكان ليوبولد حريصًا على أن يزين مخططاته الاستعمارية بأية أفكار عاطفية إنسانية تلوح فى الأفق. ففى سنة ١٨٩٦ فاجأ رئيس وزراء بريطانى آخر، هو اللورد

ساليسبيورى، باقتراح إرسال جيش سودانى تحت إمرة ضباط من دولة الكونجو لغزو واحتلال أرمينيا لوضع حد للمذابح [التى كانت تركيا ترتكبها ضد الأرمن] التى استثارت مشاعر الأوروبيين بعنف". (وظنت الملكة فيكتوريا أن ليوبولد ابن عمها قد أصابته الهلاوس). وعندما كانت هناك أزمة فى كريت، اقترح أن القوات الكونجولية تساعد فى حفظ النظام. وبعد أن كسبت الولايات المتحدة حربها مع إسبانيا اقترح أن تستأجر مؤسسة ما بعضًا من الممتلكات الإسبانية مثل جزر الكنارى فى المحيط الأطلنطى أو جزر كارولين فى جنوب المحيط الهادى. وأوضح فى اقتراحه أن تُسجل تلك المؤسسة فى دولة "محايدة" مثل دولة الكونجو المستقلة.

ولم تشغل أى من تلك الأحلام ليوبولد عن إدارة مصدر دخله الرئيس. غير أنه أبقى الأرباح المتنامية من الكونجو سرًا دفينًا كى لا يثار موضوع رد الدين الضخم الذى استدانه من الحكومة البلجيكية. فلم تكن دولة الكونجو تعلن عن ميزانياتها طالما كان بمقدور ليوبولد أن يفعل ذلك. وعندما فعلت ذلك أخيرًا ذكرت أرقامًا لأرباحها تقل عن الحقيقة بكثير.

ومن بين الوسائل التى تستطيع أن تسيطر بها على بلدك قدرتك على إصدار سندات. وأصبح ذلك فى النهاية مصدرًا للدخل لليوبولد يكاد يساوى الدخل من المطاط. وقيل إن ليوبولد أصدر سندات تساوى أكثر من مئة مليون فرنك، أو ما يساوى بالتقريب نصف بليون من دولارات اليوم. وباع بعضًا منها، وأهدى بعضًا لمحاسيبه، واستبقى بعضها لملكيته الخاصة، واستخدم جزءًا منها بديلاً للنقود لتمويل مشاريع الأشغال العامة فى بلجيكا. ولما كان أجل استرداد السندات يحين بعد زمن طويل يصل فى بعضها لتسع وتسعين سنة فقد كان ليوبولد يعلم أن دفع رأس المال سيكون مشكلة تخص شخصًا آخر. وكان من المفترض أن أموال السندات مخصصة لتنمية الكونجو ولكن ما أُنفق منها هناك كان قلة نادرة.

كان ليوبولد يفضل أن ينفق تلك الأموال فى أوروبا، مع ما يأتيه من أرباح مطاط الكونجو. وعلى الرغم من أنه كان رجلاً داهية وطموحًا؛ فإن ميوله اتسمت بفقر الخيال،

فقد استخدم ثروته الهائلة الجديدة بطريقة لا تجد له مكانًا فى كتب التاريخ قدر ما تفسح له فى كتب دليل إرشاد السياح. فقد أنشأ سلسلة من النصب التذكارية وبنى أجنحة جديدة فى القصر ومتاحف ومراكز للمعارض فى كافة أنحاء بلجيكا. وفى أوستند مصيفه المفضل صب ليوبولد ملايين الفرنكات فى متنزهات وحدائق عامة متعددة وبهو ذى أبراج متقنة (زُينت بخمسة وثمانين ألف نبات عند افتتاحها) فى حلبة السباق التى كان يرتادها. كما مولت أرباح المطاط أيضًا مضمارًا للجولف فى بلدة كلمسكيرك (Klemskerke) القريبة، وشاليها ملكيا فى رافرسيد (Raversijde)، وعددًا لا حصر له من التجديدات والتوسعات فى قلعة ليكن. ووهب ليوبولد رسميًا العديد من تلك الثروات إلى وطنه كهدية ملكية مصحوبة بصخب إعلامى شديد، رغم أنه استمر يعيش فى القلاع والقصور كعهده دائمًا. وكانت أهدافه الحقيقية من تلك الهبات الملكية هى أن يجعل أمته تدفع تكاليف صيانة تلك الممتلكات ويبعدها عن متناول أيدى بناته الثلاث، التى يجبره القانون البلجيكى أن يورثهن ممتلكاته الشخصية.

وفى سنة ١٨٩٥ بلغ ليوبولد سن الستين، وأصابه وسواس المرض لما طعن فى السن. وإذا سعل مساعد من مساعديه كان يعرِّض نفسه للإبعاد لعدة أيام. وكان دائم الخوف من أن يصاب بالبرد، فكان يرتدى كيسًا غير منفذ للماء حول لحيته إذا ما خرج فى جو مطير أو سبح فى البحر. وكان يأمر بغلى مفارش القصر كل يوم لقتل الجراثيم.

وكان يعيش معظم وقته فى ليكن إذا لم يكن مسافرًا. وكان يستيقظ مبكرًا ويستحم بماء بارد ويشذب لحيته الكبيرة ويتلقى تدليكًا لجسمه ثم يقرأ بريد الصباح الباكر ويتناول إفطارًا ضخمًا - نصف دستة من البيض المسلوق، وكومة من خبز التوست وبرطمانًا كاملاً من المربى. ثم يمضى أغلب النهار يتمشى فى حدائقه وصوباته الزجاجية المحببة إليه، وكثيرًا ما كان يقرأ البريد ويملى ردوده فى أثناء المشى، وكان على سكرتيريه أن يتعلموا كيف يكتبون وهم سائرون. وكان الغداء يستغرق نصف ساعة بالضبط، وفى أثناء الأكل يقرأ الملك الصحف وأحيانًا يسطر تعليماته على هوامش الخطابات بخط لا يكاد يُقرأ بحيث يقضى مساعدوه ساعات قلقة كل يوم يحاولون فك طلاسمه. وكان على باقى أفراد العائلة الذين يتناولون الطعام معه أن يبقوا صامتين.

وبعد الظهيرة كان يتوجه إلى القصر الملكى وسط بروكسل ليقابل المسئولين والزوار، ثم يعود إلى ليكن لتناول وجبة المساء. وكانت لحظة الذروة فى يومه هى وصول جريدة التايمز من لندن. فبعد ظهر كل يوم تصل نسخة من الجريدة الصباحية ملفوفة بعناية يُلقى بها من القطار السريع بين أوستند وبازل فى أثناء مروره بمحطة السكك الحديدية الخاصة فى ليكن والتى تحمل الشعار الملكى. ويقوم أحد العاملين بكى الصحيفة - الجراثيم مرة أخرى - ويقرأها الملك فى سريره ليلاً. (وعندما انضمت التايمز إلى جوقة معارضيه أعلن الملك فى غضب أنه سيتوقف عن الاشتراك فيها. ولكنه كان يرسل وصيفه سراً كل ليلة إلى محطة القطار فى بروكسل ليشترى له نسخة).

ولعل ليوبولد كان يحب التايمز لأنها كانت صحيفة موجهة لا إلى بلد صغير بل إلى بلد قوى. وعلى أية حال، فإن تلهفه على المستعمرات امتد إلى كل أركان العالم. ففى ١٨٩٧ شرع فى استثمار الأرباح الناتجة من الكونجو فى خط سكك حديدية فى الصين، انتهى إلى أنه ربح أموالاً وفيرة من الصفقة. وكان ينظر إلى ذلك البلد [الصين] كما كان ينظر إلى "الكعكة الأفريقية الرائعة"، كوليمة للالتهام، وكان جاهزاً كعهده دائماً لأن يدعو نفسه إلى المائدة. وقال عن الخط الذى كان يأمل أن يحصل عليه لسكك حديده: "هذا هو العمود الفقرى للصين؛ فإن أعطوه لى فسآخذ معه أيضاً قطعة كبيرة من اللحم". وحاول أن يقوم بعملية تبادل: عمال صينيين للكونجو مقابل جنود كونجوليين للصين، وكان وجود جنود كونجوليين فى الصين سيعطيه موطئ قدم، مثل غيره من القوى الغربية التى كانت تناور فى الشرق الأقصى آنذاك. وابتاع عدة قطع أراضى صغيرة فى الصين باسم دولة الكونجو المستقلة. وعندما أرسل وفداً من دولة الكونجو للتفاوض - ومن البديهى أنهم كانوا جميعاً من البلجيكيين - تظاهر لى هونج - تشانج نائب الإمبراطور الصينى بالدهشة قائلاً: "هل كنت على صواب عندما ظننت أن كل الأفارقة سود البشرة؟"

* * *

وفى الكونجو أدى ازدهار المطاط إلى ازدياد التلهف على تنفيذ المطلب الملح لبناء أعظم عمل هندسى فى الإقليم: السكك الحديدية الضيقة بين متادى وبحيرة ستانلى التى تلتف حول الشلالات العظمى. وفى بعض الأوقات تطلب المشروع عمل ستين ألف عامل. وعلى الرغم من أن الخط لم يزد طوله على ٢٤١ ميلاً، ولم يتعد عرضه نصف العرض القياسى لخطوط السكك الحديدية الأمريكية؛ فإن المناخ والأمراض وطبيعة الأرض جعلته واحداً من أكثر مشاريع البناء تثبيطاً للهمم فى التاريخ. فقد استغرق بناء الأربعة عشر ميلاً الأولى ثلاث سنوات. ووصف أحد المساحين الأوائل تلك المسافة الوعرة بأنها "كومة من الأحجار الهائلة الحجم التى تبدو فى بعض الأماكن وكأنما ألقتها فوق بعضها بعضًا أيادى عمالقة". واحتاج الخط إلى بناء تسع وتسعين جسراً بلغ مجموع أطوالها اثنى عشر ميلاً.

وكان عمال البناء يُجلبون من الأقاليم البريطانية والفرنسية فى غرب أفريقيا، ومن هونج كونج ومكاو، ومن جزر الهند الغربية البريطانية. وبقيت فكرة جلب عمال صينيين للعمل فى الكونجو مسيطرة على فكر ليوبولد. وكتب إلى أحد معاونيه: "كم سيكلفنا إنشاء خمس قرى صينية كبيرة فى الكونجو؟ واحدة فى الشمال، وأخرى فى الشمال الغربى، وواحدة فى الشرق، وأخرى فى الجنوب، وواحدة بين متادى وليوبولدفيل. وكم سيكلفنا إحضار ألفى صينى لتحديد حدودنا؟" وتبخرت فكرة القرى الخمس. ولكن حلم ليوبولد تكلف حياة ٥٤٠ عاملاً صينياً جُلبوا للعمل على السكك الحديدية سنة ١٨٩٢، فقد مات ثلاثمئة منهم فى أثناء العمل أو فروا إلى الأدغال. ولم ير أحد غالبية الباقين، رغم العثور على العديد منهم فيما بعد على بعد يزيد على خمسمئة ميل فى داخل البلاد. فقد ساروا تجاه شروق الشمس، محاولين الوصول إلى الساحل الشرقى لأفريقيا ومنه إلى وطنهم.

ويبدو أن بضع مئات من العمال من جزيرة بربادوس بالبحر الكاريبى قد أُخبروا بأنهم ذاهبون للعمل فى مكان آخر؛ فعندما رست سفينتهم فى بوما فى سبتمبر ١٨٩٢ وأدركوا أنهم فى الكونجو ثاروا ثورة عارمة. وأطلق الجنود النار عليهم فقتلوا اثنين وجرحوا المزيد، وأُرسل الباقون إلى نهاية الخط فى متادى فى نفس اليوم وبدأوا العمل.

كان الخط الحديدى نجاحًا هندسيًا متواضعًا وكارثة إنسانية مروعة. فقد مات الرجال من الإصابات والدوسنتاريا والملاريا وكلها زاد من حدتها سوء الطعام والجلد بلا هوادة من قبل قوة ميليشيا السكك الحديدية المكونة من مئتى رجل. وكانت القطارات تخرج عن الخط؛ وتنفجر عربات بضاعة محملة بالديناميت ممزقة العمال سواء من السود أو البيض. وأحيانًا لم يكن المأوى متوفرًا لنوم العمال، وكان العمال المتمردون يُقادون إلى العمل مكبلين بالأغلال. وكان بمقدور الأوروبيين من رؤساء العمال أو المهندسين أن يبطلوا عقودهم ويعودوا إلى أوطانهم، وكثيرون فعلوا ذلك دون انقطاع. أما السود والآسيويون فلم يكن ذلك مسموحًا لهم. وعندما كانت الأبواق تدق فى الصباح كانت حشود العمال الغاضبين تلقى تحت أقدام الملاحظين الأوروبيين بأجساد زملائهم الذين ماتوا فى أثناء الليل.

ونشأت أسطورة تردد صداها فى أماكن أخرى من أفريقيا أن كل صامولة رباط تُربط ثمنها حياة أفريقى وكل عمود تلغراف يقام ثمنه حياة أوروبى. وحتى فى الأرقام الرسمية الوردية كانت حصيلة الوفيات ١٣٢ من البيض و١٨٠٠ من غير البيض. إلا أن بعض التقديرات ترفع عدد غير البيض إلى ١٨٠٠ سنويا فى السنتين الأوليين، وهما اللتان كانتا الأسوأ. وانتشرت الجبانات على الخط الحديدى. ومرة تلو المرة كان العمال يحاولون الفرار؛ فقد هاجم ثلاثمئة رجل ملوحين بمطارقهم ومجاريفهم ومعاولهم مرفأ متادى وحاولوا أن يُكرِهوا سفينة فى الميناء على حملهم إلى أوطانهم. فمنعهم الحراس المسلحون بالهراوات الذين كانوا هم أنفسهم مجندين من زنزبار. وأضرب عمال آخرون أو فروا إلى أقاليم برتغالية متاخمة.

وفى سنة ١٨٩٨ ، بعد مضى ثمانى سنوات على بدء الإنشاء، انطلقت أول قاطرة بخارية قصيرة وبدينة ومزينة بالرايات وتجر وراءها عربتى قطار، وقطعت الطريق بأكمله من متادى إلى بحيرة ستانلى. وكان فى استقبالها خيمة كبيرة مزدانة بالورود، وكبار المسئولين والعسكريين وضباط السكك الحديدية وأسقف، وحضر الجميع حفل الغداء واحتسوا الشمبانيا فى صحة ليوبولد. وقام علية القوم بربط احتفالى لآخر قضيب من قضبان السكة الحديدية، وأطلقت المدفعية واحدًا وعشرين طلقة تحية،

وأطلقت السفن البخارية فى بحيرة ستانلى صفاراتها. وأقام المسئولون نصبًا تذكاريًا على الطريق البرى للقوافل الذى حلت محله السكة الحديد. وكان النصب يتكون من تماثيل معدنية لثلاثة حمالين بالحجم الطبيعى - واحد يحمل على رأسه صندوقًا كبيرًا، وارتمى الاثنان الآخران على الأرض بجواره من الإرهاق. وحملت اللافتة الكلمات التالية: حررتهم السكة الحديد من الأحمال. ولم تذكر اللافتة شيئًا عما حملهم على العمل كحمالين فى المقام الأول.

ورغم أنها اشتملت على منحنيات شديدة الحدة ومنحدرات شديدة الانحدار جعلت الرحلة تستغرق يومين بدلاً من يوم واحد؛ فإنها زادت بصورة جوهرية من سلطان الدولة وثرائها. وصار إنتاج الدولة من المطاط الذى يربو على أحد عشر مليون طن سنويًا فى نهاية القرن بمقدوره الآن أن يصل إلى البحر من ميناء البواخر فى بحيرة ستانلى دون أن يُحمل لثلاثة أسابيع على رءوس الرجال. وفى الاتجاه الآخر حملت عربات القطارات السفن البخارية مفككةً إلى قطع أكبر كثيرًا مما كان الحمالون يستطيعون حمله. وسرعان ما أصبحت ليوبولدفيل أكثر الموانئ النهرية ازدحامًا فى أواسط أفريقيا، وتستطيع استقبال سفن بخارية حتى حمولة خمسمئة طن. وتحولت السفينة فيل دى بارى (Ville de Paris) ذات المجاديف الجانبية وحمولة ستين طنًا إلى قارب للتنزه على نهر السين بباريس.

* * *

كان ليوبولد يأخذ حذره من الأجانب العاملين فى الكونجو باستثناء أولئك العاملين فى الدولة أو فى مشاريع مثل السكك الحديدية. غير أنه كان يتحمل على مضض مجموعة منهم، هم بضع مئات من المبشرين البروتستنت الأجانب مثل وليم شبارد ورفاقه، أتت غالبيتهم الساحقة من إنجلترا والولايات المتحدة أو السويد، وهى أقطار كان ليوبولد يأمل فى أن ينال رضاها. وكان المبشرون قد حضروا إلى الكونجو متلهفين على التبشير بالإنجيل، وعلى أن يحاربوا تعدد الزوجات، وأن يعلموا الأفارقة الإحساس

الفيكتورى بالخطيئة[1]. غير أنه لم يمض وقت طويل، بسبب إرهاب المطاط، حتى بدأ المبشرون يجدون صعوبة فى العثور على أجساد يكسونها وأرواح يخلصونها. فالقرويون المذعورون صاروا يختفون فى الأدغال لأسابيع عندما يشاهدون دخان سفينة بخارية مقبلة على الأفق. وواجه مبشر بريطانى مراراً تساؤلات من أفارقة يقولون: "هل لدى المخلص الذى تحدثوننا عنه أى سلطة ليخلصنا من عناء المطاط؟" ووجد المبشرون أنفسهم، دون توقع وبالتأكيد دون أن يقصدوا أن يلعبوا ذلك الدور، قد أصبحوا يلعبون دور المراقبين فى المعارك، ولم يكن شبارد بأى حال هو الوحيد الذى كان شاهد عيان. ففى سنة ١٨٩٤ سجل مبشر سويدى أغنية كونجولية دالة على اليأس:

سئمنا من العيش فى ظل هذا الطغيان

نحن لا نتحمل أن تؤخذ نساؤنا وأطفالنا بعيداً

ويسىء معاملتهن البيض المتوحشون

سوف نشن الحرب ...

ونحن نعلم أننا سوف نموت.. ولكننا نرغب فى الموت

نحن نرغب فى الموت

وبدءاً من منتصف تسعينيات القرن، وبسبب المبشرين، كان على ليوبولد أن يتعامل مع احتجاجات متناثرة، مثل مقالات شبارد، حول الأيدى المقطوعة وقتل الأفارقة. ولكن المنتقدين فى أول الأمر لم يثيروا إلا القليل من الانتباه، فهم لم يكونوا متمرسين فى العلاقات العامة تمرس الملك، الذى سخر سحره الهائل لتحييدهم.

وكبداية، شجع المسئولين عن الجمعيات التبشيرية على الحديث معه مباشرة، وحث شخصياً أحد رجال الدين الفرنسيين على أن يفعل ذلك: "بدلاً من اللجوء إلى الصحافة

---

(١) سجل أحد كبار موظفى الدولة، كان فى زيارة لمدينة أوبوتو على نهر الكونجو فى يومياته متعجباً، أن مبشراً بريطانيا أراد منه أن يصدر "قانوناً يجبر الوطنيين على ارتداء ملابس".

الذى هو أمر بغيض دائماً (toujours desagreable)". ثم استخدم بحنكة كلاً من الوعد والتهديد. ففى الوقت الذى كان يسعى فيه لمصادقة زعمائهم عمل على تذكير الجمعيات التبشيرية بقدرة حكومة الكونجو على فرض ضرائب أو حرمانهم من التصاريح ببناء إرساليات جديدة. وعانت الإرسالية المشيخية الجنوبية، التى كان شبارد يعمل فيها، الأمرين فى سبيل الحصول على أراض جديدة كانت تريدها للبناء عليها.

ولعل المبشر السويدى المعمدانى إ. ف. سيوبلوم (E. V Sjoblom) كان أعنف ناقد لليوبولد فى أخريات تسعينيات القرن التاسع عشر، فقد كان يتحدث إلى كل من يستمع إليه ونشر فى الصحافة السويدية سنة ١٨٩٦ هجوماً مفصلاً على إرهاب المطاط الدائر فى الكونجو، وهو هجوم التقطته الصحافة فى بلاد أخرى. وفى اجتماع شعبى عُقد فى لندن فى السنة التالية شرح سيوبلوم كيف كان جنود القوة الشعبية يكافَئون حسب عدد الأيدى التى جمعوها. "أخبرنى وكيل من الوكلاء أنه شاهد بنفسه أحد ضباط الدولة فى أحد المواقع يدفع عدداً محدداً من القضبان النحاسية (وكانت عملة محلية) للجنود مقابل عدد من الأيدى أحضروها. وأخبرنى أحد الجنود ... 'وَعَدَنا المفوض بتخفيض سنوات تجنيدنا إذا جلبنا عدداً كبيراً من الأيدى. وقد أحضرت بالفعل عدداً كبيراً من الأيدى، وأتوقع أن تنتهى سنوات تجنيدى سريعاً'". وتوعد مسئولو الدولة سيوبلوم فى الكونجو نفسها وسرعان ما بادروه بهجوم مضاد فى الصحافة البلجيكية والبريطانية.

وكان هـ. ر. فوكس بورن خصماً مطلعاً آخر لليوبولد. وكان يعمل سكرتيراً لجمعية حماية السكان الوطنيين، وهى مجموعة ثابت إلى رشدها منذ أن انتخبت ليوبولد رئيساً فخريا لها قبل عقد من الزمان. وأشيع أن الملك زار شخصيا مقر جريدة التايمز فى لندن كى يقنع الصحيفة بعدم نشر مقالات فوكس بورن.

غير أن ليوبولد نحى علانيةً منحًى مغايراً ، فقد أعرب عن صدمته العميقة للتقارير التى تتحدث عن أعمال شريرة فى مناطق خاضعة لسلطانه. وأمكنه التعايش مع أغلب الاتهامات دون حدوث أضرار تُذكر، لأنها كانت تتعلق بفظاعات ارتُكِبت ضد أفارقة.

ولكنه واجه فى سنة ١٨٩٥ أول حرج حقيقى فى أوروبا عندما عمد ضابط من ضباط دولة الكونجو، اشتهر بفرط وحشيته، إلى "التجاسر على قتل رجل إنجليزى" حسب وصف صحفى بريطانى مصدوم.

وفى الحقيقة كان الضحية أيرلنديا: تشارلز ستوكس، وهو تاجر ينبض بالحيوية وذو شعور ملتهب، كان قد تحول إلى وطنى، كما يحب البريطانيون أن يعبروا عنها، عندما تزوج من امرأة أفريقية. وكانت تجارة ستوكس فى العاج تنافس الاحتكار المربح الذى كان ليوبولد يحاول أن يفرضه عليها فى الكونجو الشرقية. كما اتُّهِم أيضًا ببيع السلاح للعرب الأفارقة. وانطلقت حملة من القوة الشعبية للبحث عن ستوكس بالقرب من الحدود الشرقية، وعثرت عليه وشنقته على مشنقة. وأرعدت الصحافة البريطانية وصبت جام غضبها. كما ثارت موجة من الاحتجاج فى ألمانيا أيضًا، لأن مركز تجارة ستوكس كان شرق أفريقيا الألمانية، وكان من المفترض أن دولة الكونجو مفتوحة أمام التجار الألمان. وعبثًا حاولت حكومة الكونجو أن تخمد صيحات الاحتجاج، واضطرت للاعتراف بخطئها ودفعت تعويضات مالية ضخمة للحكومتين البريطانية والألمانية. ولكن ذلك لم ينه الأمر. وأعلنت صحيفة ألمانية أنه إذا كانت حكومة الكونجو تعدم رجلاً أبيض بمثل تلك العجرفة فماذا تفعل فى السكان الوطنيين؟ وشرعت الصحافة الأوروبية توجه مزيداً من اهتمامها لأنباء فظائع الكونجو.

وكان على ليوبولد أن يتصرف. وفى سنة ١٨٩٦ شكل لجنة لحماية السكان الوطنيين: من ستة من أبرز المبشرين فى الكونجو، ثلاثة منهم من الكاثوليك البلجيك، وثلاثة من البروتستنت الأجانب. ولاقى تشكيل اللجنة ترحيبًا فى كل مكان فى أوروبا، وبخاصة فى إنجلترا، التى كانت أكبر مصدر لقلق الملك من الانتقاد. وكتبت صحيفة مانشستر جارديان تقول: "إنه لمما يُسجل لصالح الملك ليوبولد أنه واجه حقائق الموقف بإنصاف".

ولم يلحظ إلا قلة قليلة من الناس أنه لا يوجد عضو واحد من أعضاء اللجنة يقيم فى أى من مناطق المطاط الرئيسة التى أتت منها التقارير عن الأعمال الوحشية،

ولا أن الأعضاء متناثرون على مساحة تزيد على ألف ميل، ولا أن الملك لم يمنحهم نقوداً للسفر وللاجتماعات، ولا أن أحد أعضائها البريطانيين قد سبق له أن نصح زملاءه من المبشرين بعدم نشر أى قصة تتعلق بالفظائع، ولا أن مبشراً آخر قد قام بمسح الحدود بين الكونجو وأنجولا لحساب ليوبولد، وأخيراً أن اللجنة ليست لها صلاحيات من أى نوع لإخطار سلطات دولة الكونجو بأية مفاسد تكتشفها.

ولم تجتمع اللجنة سوى مرتين، وفى كل مرة، لم يتمكن إلا ثلاثة من أعضائها الستة من الحضور لطول المسافة والتكاليف. ولكن بالنسبة لليوبولد كانت الحركة ضربة معلم فى العلاقات العامة، وعزز انتصاره بزيارات إلى إنجلترا وألمانيا والسويد فى صيف ١٨٩٧ . ثم انشغل البريطانيون بحرب البوير لبضع سنوات تالية، واختفت - أو كادت - الهجمات على ليوبولد فى الصحافة الأوروبية. وشن منتقدو ليوبولد بعض الهجمات المتفرقة، ولكن لا يبدو أن أحداً أعارها اهتماماً. فيئسوا من جذب مزيد من الانتباه مرة أخرى.

ولو كان فى أوروبا استطلاعات للرأى وقتئذ لأظهرت أن ليوبولد كان فى ذروة التأييد والرضا فى السنوات الختامية للقرن سواء فى الخارج أو فى الداخل. وفى بلجيكا اشتد الشعور الوطنى الاستعمارى وتدفق شعراً:

على الشطآن حيث يجمعهم صوت عاهل حكيم

يتحدى جنودنا المناخ العنيد بقلوب بها سكينة

لكسر أغلال الأفارقة وإخضاع العرب القساة

ولكن صوت العاهل كان يدفع جنوده من الخلف بدلاً من أن يجرهم وراءه، لأنه رغم أن الكونجو كان الحب الذى سيطر على حياته؛ فإن أقدامه لم تطأ أرضها مطلقاً.

لماذا كان يتوجب عليه أن يفعل ذلك؟ إن الكونجو فى ذهن ليوبولد لم يكن بلد الحمالين الجوعى والرهائن المغتصبة وعبيد المطاط المهزولين. بل كان إمبراطورية

أحلامه بأشجارها العملاقة وحيواناتها الغريبة وسكانها المتنين الشاكرين له حكمه الحكيم. وبدلاً من الذهاب إلى هناك أتى ليوبولد بالكونجو إليه - ذلك الكونجو، النتاج المسرحي لأحلامه. فازدانت جدران غرفة النوم في قطاره الخاص بأخشاب الماهوجاني الأحمر، وعُرضت حيوانات منه في حدائق الحيوان البلجيكية، وأضاف جناحا خاصا بنباتات الكونجو إلى أجنحة الصوبات الزجاجية بقصر ليكن (ما زالت مليئة بأشجار النخيل حتى اليوم)، وجعل على قمته أربع قباب زجاجية صغيرة تعلوها قبة مثمنة الشكل تحمل نجمة وهي شعار دولته الخاصة [الكونجو].

بل إن ليوبولد أحضر لنفسه سكان ذلك الكونجو الهادئ المثير والذي جعل منه مسرحًا لخيالاته. ففي سنة ١٨٩٧، عندما افتتح معرض عالمي في بروكسل، كان أكثر عرض تحدث عنه الناس على مشارف المدينة، في ترفورين (Tervuren). فقد حضر ما يزيد على مليون زائر ليشهدوا احتفالات الكونجو. وتراوحت المعروضات ما بين الآلة العظيمة للحضارة والتي طالما تغنى بها ستانلي (الذي زار المعرض مرتين)، وهي مدفع ماكسيم، إلى مجموعة كبيرة من المطرزات تصور البربرية والحضارة، الأصنام والمسيحية، تعدد الزوجات والحياة الأسرية، العبودية والحرية. غير أن أروع مشهد كان مشهدًا حيًا: ٢٦٧ من السود رجالاً ونساءً وأطفالاً استوردوا من الكونجو[٢].

---

(٢) لم يكن هؤلاء هم السكان الأصليون الوحيدون الذين عُرِضوا في معارض العالم وغيرها من الأماكن عند ختام القرن. ولعل أبشع حالة كان أوتا بنجا، وهو قزم من الكونجو، عُرض في جبلاية القرود بحديقة حيوان برونكس في نيويورك في سبتمبر ١٩٠٦ . وشاركه في القفص قرد من فصيلة أورانج يوتان. وكان الزائرون يمعنون النظر في أسنانه المصفوفة، كما ألحت مقالات الصحف، بهدف التهام لحوم البشر. ولكي تعزز ذلك الانطباع، عمدت سلطات الحديقة إلى ترك بعض العظام متناثرة من حوله على أرضية القفص. وأعلنت قصيدة نُشرت في صحيفة نيويورك تايمز أن أوتا بنجا قد أُحضر "من موطنه أرض الظلام، إلى أرض الحرية، في سبيل العلم ، والإنسانية العريضة". وكان المتعهد الذي نظم ذلك العرض مبشراً مشيخياً سابقًا هجر الوعظ وتحول إلى مشاريع العمل الحر. وفي النهاية تمكن وفد من القساوسة السود من إنقاذ أوتا بنجا من حديقة الحيوان. وبقي في الولايات المتحدة وانتحر بعد ذلك بعشر سنين.

وقد أُحضروا بالقطار فى احتفال صاخب إلى محطة الشمال ببروكسل ثم ساروا عبر وسط المدينة ليستقلوا الترام متجهين إلى ترفورين. وهناك أقاموا فى ثلاث قرى بنيت لهم خصيصًا: قرية مطلة على نهر، وقرية فى غابة، وقرية "متحضرة". واستُكمل العرض بقزمين. وكان أفارقة القرى "غير المتحضرة" يستخدمون أدوات حجرية وطبولاً وأوانى طبخ جُلبت من أرض وطنهم. وكانوا يرقصون ويجدفون فى زوارق الكانو المحفورة فى جذوع الأشجار فى بحيرة صغيرة. وكانوا يُعرضون فى أثناء النهار فى أكواخ "أصلية" مصنوعة من الخيزران ولها أسقف متدلية من القش. غير أن أمل الرجال الأوروبيين فى أن يروا الأثداء الأسطورية للأفريقيات خاب، لأن النساء كن يرتدين أردية قطنية. وارتداء الملابس، كما أوضحت صحيفة محلية، هو "أول علامات التحضر".

وحضرت الملكة مارى - هنرييت وحاشيتها لمشاهدة الكونجوليين، فى استعراض نادر لاهتمامها بمشاريع زوجها فى الكونجو، فهؤلاء كانوا حلم ليوبولد الذى تحقق لحمًا ودمًا. وعندما علم الملك أن بعض الأفارقة يعانون من عسر الهضم من جراء الحلوى التى يعطيها لهم الجمهور أمر بتعليق لافتة تماثل لافتة "ممنوع إطعام الحيوانات" التى تنتشر فى حدائق الحيوان. وكانت اللافتة تقول: "اللجنة المنظمة تتولى إطعام السود".

وداعبت الصحافة المحلية قراءها ببحث ما إذا كان السود "غير المتحضرين" يشكلون خطورة. فاقترب مراسل من مجموعة منهم. "فى الوسط جلس الزعيم على جذع شجرة دون حراك وفى قداسة. وارتفع صوت بالغناء وحيدًا فى أول الأمر ثم ردد وراءه كورال مصحوبًا بالتصفيق بالأيدى والطرق بعصى على أشياء معدنية، مع تمايل للأجساد المنحنية. وماذا كان موضوع غناء المغنى المنفرد والكورال؟ كان عن الأعمال الرائعة لهيوبرت لوثير (Hubert Lothaire) [ضابط القوة الشعبية]". فكل شىء كان على ما يرام.

أما أفارقة القرية "المتحضرة" فشملوا تسعين جنديا من جنود القوة الشعبية، وبعضهم شكل فرقة موسيقى عسكرية. وسار الجنود فى طوابير عسكرية وعزفت

الفرقة، وأقيمت لهم وليمة عند اقتراب نهاية إقامتهم. ووقف رقيب أسود واقترح نخبًا للملك ليوبولد الثانى. وعندما أبحر الأفارقة عائدين إلى وطنهم كتبت صحيفة بحماس بالغ: "إن روح بلجيكا تتبعهم، وتحميهم مثل دروع جوبيتر. فلنر العالم دائمًا مثالاً للإنسانية!"

* * *

ولعل السفينة التى أقلت الكونجوليين عائدين إلى وطنهم عادت إلى بلجيكا بحمولة من المطاط، فقد كانت ثروات الكونجو تتدفق إلى أوروبا فى ذلك الوقت وفق برنامج محدد المواعيد. وكل بضعة أسابيع تصل ميناء أنتورب سفينة بخارية جديدة ورائعة مزودة بالأنوار والثلاجات الكهربائية محملة بالمطاط والعاج وغير ذلك من المنتجات. وكانت السفن تتبع شركة متفرعة من شركة إلدر دمبستر (Elder Dempster) وهى شركة ملاحية مقرها الرئيسى فى ليفربول كانت سفنها تبحر إلى غرب أفريقيا ذهابًا وإيابًا منذ زمن بعيد. وكانت الشركة تحتكر حق نقل البضائع من وإلى الكونجو. وبالنسبة لأى شخص مهتم بالكونجو لم يكن هناك فى أوروبا وظيفة أفضل من العمل فى إلدر دمبستر. وكان الأمر مثلما يود شخص أن يعرف ما يحدث لليهود سنة ١٩٤٢ أو ١٩٤٣ فيلتحق بعمل فى رئاسة السكك الحديدية النازية.

كانت إلدر دمبستر تحتاج لشخص يذهب إلى بلجيكا بصورة متكررة كى يشرف على وصول ورحيل السفن على خط الكونجو. وكلفت الشركة بتلك المهمة شابا من موظفيها كان ذكيًا وقادراً على العمل الشاق هو إدموند دين موريل (Edmund Dene Morel). وكان موريل، الذى كان فى منتصف عشرينيات العمر، يتحدث اللغتين مما صادف هوى لدى الشركة. فقد كانت أمه إنجليزية، وأباه كان موظفًا صغيرًا فرنسيًا مات شابًا ولم يترك معاشًا لأرملته وابنه الصغير. وبعد أن قضى طفولة على حافة الفقر فى إنجلترا وفرنسا ترك موريل المدرسة فى سن الخامسة عشرة وعمل فى باريس ليعول أمه المريضة. وبعد ذلك ببضع سنوات التحق بالعمل عند إلدر دمبستر فى ليفربول.

ولما عجز فى أول الأمر عن إعالة أمه ونفسه بالمرتب المتواضع لكاتب أخذ فى إعطاء دروس فى اللغة الفرنسية مقابل شلنين ونصف شلن فى الساعة. ثم عثر على عمل جانبى أعلى دخلاً وهو كتابة مقالات كصحفى مستقل تتناول الشئون التجارية الأفريقية وتُنشر فى صحيفتى شيبينج تلجراف (Shipping Telegraph) وليفربول جورنال أف كومرس (Liverpool Journal of Commerce). وعكست تلك المقالات آراء رجل الأعمال: فاحتفت بارتفاع إنتاج القطن وازدياد حمولة السفن ونادراً ما ناقشت الثوابت السائدة أيامها. ومدح بعضها نظام حكم ليوبولد. وكتب موريل فى إحداها: "إن الكونجو أمامه مستقبل عظيم، ... سوف تثبت الأيام أن تلك الأقاليم الشاسعة التى ارتبطت بوطنها بفضل حكمة الملك ليوبولد الثانى، ستكون مجالاً رائعًا للاستثمارات".

وشرع موريل فى السفر ذهابًا وجيئة عبر القنال الإنجليزى كمندوب لشركته لدى مسئولى دولة الكونجو. ونرى هنا وصفًا للمشهد الذى كان يراه مرة أو مرتين شهريا:

> رصيف ميناء أنتورب؛ وقد رست عليه سفينة بخارية؛ الأجراس تدق فى برج الكاتدرائية القديمة؛ صوت السلام الوطنى البلجيكى، وهناك حشد من الناس المتدافعين على الرصيف وعلى ظهر السفينة. بزات عسكرية، وأزياء نسائية ترفرف. ضباط السفينة ينسابون غادين ورائحين. أبواب العنابر تُغلق بإحكام. وينطلق البخار. الركاب المتوجهون إلى الكونجو محاطون بالأقارب والمودعين. رجال يشك الجميع حتى السذج فى قدرتهم على العيش وممارسة العمل فى أفريقيا الاستوائية. غالبيتهم من الشباب، ومن نوع ردىء، وأحجام ضئيلة وشاحبين ولا يصلحون لشىء. بعضهم يهتز منتحبًا؛ وآخرون يترنحون نصف مخمورين. ويرتدى كثيرون قبعات استوائية فلينية عريضة والبنادق معلقة على أكتافهم، يفخرون بامتلاكها لأول مرة فى حياتهم سواء القبعات أو البنادق. وهنا وهناك نشاهد أشخاصًا أكبر سنا لوحتهم الشمس إلى اللون البرونزى - ومن الجلى أنهم مروا بكل ذلك من قبل. ووجوههم،

> التى لا يود أحد أن ينظر إليها دون ريب، قد شوهتها ندوب القسوة والأعمال الوحشية، وبها عينان تملأهما الشهوات، وجوه يشيح عنها المرء برجفة اشمئزاز لا شعورية.

وبوصفه ممثل إلدر دمبستر فى بلجيكا كان موريل لا يكتفى بمجرد ممارسة العمل على رصيف الميناء وإنما يتعامل مع كبار موظفى ليوبولد أيضًا. وفيما بعد تذكر مشهدًا أثار شكوكه حدث فى مكتب واحد من كبرائهم:

> حجرة تطل على خلفية القصر الملكى فى بروكسل. حجرة كئيبة، سميكة السجاجيد كثيفة الستائر: حجرة ذات ظلال تجثم على الأنفاس. وفى وسطها رجل جالس إلى مكتب. وهو رجل بالغ النحافة إلى درجة الهزال، وأكتافه ضيقة ومحدودبة، وجبهته منحسرة إلى الوراء وذو أنف عالية مقوسة وآذان كبيرة منتشرة إلى الخلف وفك كبير وعيون باردة. ويبدو وجهه وهو مضطجع فى كرسيًا سلبيًا وغير إنسانى، ومتحجرًا لا دماء فيه، ممتلئًا بالعظام البارزة والتجاويف الكئيبة: هذا هو وجه "وزير الدولة" فى حكومة دولة الكونجو آنذاك ... ثم تتغير أسارير وجه وزير الدولة تغيرات غريبة مقلقة. ويصيبها ضرب من الارتعاشات اللاإرادية ... وكأنما وجه رجل آخر ينظر إلينا. وينحسر القناع الوظيفى المعصوم من الخطأ من على وجهه كما ينحسر قفاز عن اليد. وينحنى إلى الأمام ويشكو فى نبرة متقطعة من أن المعلومات السرية المتعلقة بشحنة آخر سفينة غادرت الميناء قد تسربت إلى الصحافة ... ويشير إلى الفقرة فى الصحيفة. والكلام يبدو بريئًا، فهو مجرد قائمة بالأصناف الرئيسة على سطح السفينة. ولكن تلك القائمة تحوى سردًا لصناديق لذخيرة البنادق، وصناديق لبنادق عسكرية حديثة ... وهنا يكمن الخطأ. وهذا هو الابتعاد عن أسرار المهنة. وبينما المتحدث يشجب فداحة العمل الأحمق يقوم من كرسيه وتحتقن وجناته النحيلة ويرتعش صوته ... ويشوح بيديه ذات العظام الناتئة. وهو لن يستمع لأى عذر، ولن يسمح بالمقاطعة.

ومرة تلو المرة يكرر كلمات 'أسرار المهنة' (secret professionnel) بتشديد انفعالى. ويتبدى العنف فى إيماءاته ... ويغادر أصغر الحاضرين سنًا الحجرة وهو يتساءل عن سبب الاحتياج لكميات كبيرة من أسلحة القتال ... ولماذا تبقى حكومة الكونجو صادراتها سرًا ولماذا تشعر بضيق شديد من "كشف الأسرار؟".

ورأى موريل على أرصفة ميناء أنتورب ما الذى تحمله سفن إلدر دمبستر. ولكنه سرعان ما أدرك أن السجلات التى يكتبها بعناية لمستخدميه لا تتطابق مع الإحصائيات التجارية التى تعلنها دولة الكونجو المستقلة للجمهور. وبينما هو يتفحص التناقضات بين مجموعتى الأرقام بدأت تتكشف له حلقة متقنة من التزوير. وصدمته ثلاثة اكتشافات:

أولها أن شحنة السلاح المرسلة إلى الكونجو والتى غضب وزير الدولة لافتضاح أمرها لم تكن استثناءً؛ بل كانت هى القاعدة: "إن سفن إلدر دمبستر المستخدمة فى تجارة الكونجو قد حملت فى السنوات القليلة الأخيرة وبطريقة منتظمة كميات هائلة من ذخيرة البنادق وآلاف من البنادق والمدافع الرشاشة مرسلة إما إلى الدولة ذاتها أو إلى عديد من الشركات 'التجارية' البلجيكية ... فماذا كان الغرض من تلك الأسلحة؟"

وكان الاكتشاف الثانى الذى حققه موريل أن شخصًا ما يقتطع لنفسه أرباحًا ضخمة من على السطح. "فكميات المطاط والعاج التى ترد من الكونجو إلى بلجيكا على متن سفن إلدر دمبستر ... تفوق بكثير الكميات التى تدل عليها عائدات حكومة الكونجو بما يعادل عشرات الملايين من دولارات اليوم ... ففى جيب من يصب هذا الفائض غير المعلن عنه؟"

وبان اكتشافه الأخير صارخًا أمام عينيه على الأرصفة، بينما كان يراقب تفريغ وتحميل السفن، وأكدته له سجلات إلدر دمبستر. فهناك عثر على أشد الرسائل إنذارًا بالسوء: "من بين أهم الواردات الذاهبة إلى الكونجو يتكون ما يقرب من ٨٠ فى المئة منها

من أصناف أبعد ما تكون عن أن تكون لأغراض التجارة. إلا أن الكونجو كان يصدر كميات متزايدة من المطاط والعاج، ومقابلها، من ظاهر أوراق إحصائيات الاستيراد، كان الوطنيون يكادون لا يتلقون شيئًا. فكيف كان يتم الحصول على المطاط والعاج؟ من المؤكد أنه ذلك لم يكن من خلال تبادل تجارى. فالبلد لا يدخلها شىء يُدفع مقابل ما يخرج منها".

وكان موريل على حق. ونحن نعلم الآن أن قيمة المطاط والعاج الواردة إلى أوروبا كل عام على متن سفن إلدر دمبستر كانت تعادل خمسة أضعاف قيمة البضائع الذاهبة إلى الكونجو والمرسلة إلى الأفارقة. وكان موريل يعلم أنه لا يمكن أن يكون أفارقة الكونجو يتلقون نقوداً مقابل المطاط والعاج - فقد كان يعلم أنه محرم عليهم التعامل بالنقود - أو التعامل فى بضائع تُستورد من أى مكان آخر، لأن إلدر دمبستر كانت تحتكر نقل البضائع. فمن الواضح أنهم لم يكونوا يتلقون شيئًا بالمرة.

وفى أخريات حياته تصادق موريل مع السير آرثر كونان دويل مبتكر شخصية شيرلوك هولمز صداقة حميمة. ولكن الشاب موريل توصل إلى استنتاج أعمق بكثير من أى استنتاج حققه هولمز. فبناء على ما رآه على أرصفة ميناء أنتورب ومن دراسته لسجلات شركته فى ليفربول، استنتج وجود تجارة العبيد - فى قارة أخرى وعلى بعد آلاف الأميال.

"إن الأرقام تحكى قصتها... ما من شىء سوى عمالة السخرة من نوع بغيض ومستمر يمكن أن تفسر وحدها تلك المكاسب التى لم يسمع بها أحد ... عمالة سخرة المستفيد المباشر منها هى حكومة الكونجو، عمالة سخرة تدار بواسطة أخلص خلصاء الملك نفسه ... لقد أصابنى الدوار والرعب من المغزى التراكمى لاكتشافاتى. وإنه لأمر سيئ أن تتعثر قدم المرء فى جريمة قتل. ولكن قدمى تعثرت فى عصابة سرية للقتلة والملك زعيمها".

وبهذا الوميض اللماح من المعرفة بواسطة موظف مغمور فى شركة ملاحة اكتسب الملك ليوبولد الثانى عدواً هائلاً.

الجـــزء الثـــانى

ملـك فـى ورطـة

الفصل الثانى عشر

داود وجولياث

مما هو مثير للاستغراب أنه فى الوقت الذى توصل فيه إ. د. موريل إلى اكتشافاته كانت غالبية الناس فى أوروبا والولايات المتحدة لا تدرى إلا أقل القليل عن وسائل ليوبولد للاستغلال. ولم تتحدث إلا قلة نادرة من الأوروبيين عند عودتها إلى أوطانها من الكونجو عن إراقة الدماء التى شاركوا فيها. وباستثناء جورج واشنطن وليامز قبل تلك الفترة بنحو عشر سنوات، درج الصحفيون الذين كانوا يذهبون إلى الكونجو على تقليد ستانلى فى تمجيد نظام حكم الملك. (فمثلاً سافر ستة وعشرون منهم للاحتفال بافتتاح السكك الحديدية فى ١٨٩٨). أما المبشرون الأجانب الذين شهدوا عدداً كبيراً من الفظائع فلم يكونوا يملكون ذكاء إعلاميا ولا نفوذاً سياسيًا. وفيما يتعلق بمنتقدى ليوبولد البريطانيين من الجمعيات الإنسانية البريطانية، فقد كان الرأى العام يعتبرهم من الآثار البالية لمعارك قديمة مثل إلغاء الرق وأناسًا دائمًا فى حالة من القلق حول شىء ما فى ركن مغمور من أركان المعمورة.

وقُدر لموريل أن يغير كل ذلك. فحتى تلك اللحظة لم يكن أحد من خصوم ليوبولد قد توصل إلى الحقائق والأرقام من إدارة الكونجو فى أوروبا التى اكتشفها موريل من موقعه الداخلى فى إلدر دمبستر. وحتى تلك اللحظة لم يكن أحد، باستثناء وليامز الذى مات قبل أوانه، يملك صفات سرعان ما اتضح توفرها فى موريل: وهى مهارته النادرة فى الدعاية لرسالته.

وبعد أن توصل موريل إلى اكتشافاته المذهلة أبى أن يبقى ساكتًا. وأول ما فعله أنه واجه رئيسه السير ألفريد جونز رئيس إلدر دمبستر للملاحة ورئيس الغرفة التجارية بليفربول - والقنصل الفخرى لدولة الكونجو فى ليفربول. "لم يكن رجلاً يسهل التفاهم معه. فقد كان يكره أن يأتيه أحد بحقائق كريهة ... وفى اليوم التالى سافر إلى بروكسل. ولما عاد لزم الصمت فيما يتعلق بى، ولاحظت برودًا فى سلوكه ... وأخبرنى أنه قابل الملك الذى وعده أنه سيتم تنفيذ إصلاحات، وأن البلجيكيين ينجزون أمورًا عظيمة ولا بد من إتاحة الوقت لهم كى يرتبوا البيت الأفريقى ويثبتوا أركان الانضباط".

كان مستخدمو موريل فى خطر عظيم. فلو نشر معلوماته على الملأ وأغضب الملك فإن الشركة قد تفقد العقد المربح لشحن البضائع من وإلى الكونجو. ولم يدر موظفو الشركة كيف يتصرفون مع ذلك الموظف الصغير المغرور الذى يخبرهم بأنه اكتشف أمرًا بشعًا عن أحسن عميل لديهم - ثم، ما هو أسوأ، يطالبهم بأن يفعلوا شيئًا إزاء ذلك.

وفى بلجيكا وجد موريل فجأة أن "المناخ قد تغير وألمحوا لى بمئة طريقة رقيقة أن وجودى غير مرغوب فيه". وفى مقر رئاسة إلدر دمبستر فى ليفربول أداروا له ظهورهم؛ ثم حاولت الشركة أن تشترى سكوته. فعرضوا عليه مرتبًا أكبر وترقية إلى وظيفة فى بلد آخر. وعندما لم يفلح ذلك عرضوا عليه مئتى جنيه سنويا مقابل أن يعمل مستشارًا لمدة ساعة واحدة يوميًا، وهى محاولة مكشوفة لشراء سكوته. ورفض موريل ذلك أيضًا. وفى سنة ١٩٠١ استقال من عمله وعمل كاتبًا كل الوقت، وقد ملأه "العزم والتصميم على أن أكشف وأدمر ما كنت أعرف أيامها أنه سلوك شرير لا أخلاقى ومبرر من الناحية القانونية ... مصحوبًا بأعمال همجية لا يمكن تصورها وتسبب فى إزهاق أرواح البشر على نطاق واسع".

وكان موريل يدرك أنه اتخذ خطوة مصيرية. وكتب يقول: "لقد أقلعت بالقارب، وليس هناك من عودة". وكان فى الثامنة والعشرين من عمره.

وانســاب من يدى مـوريل ســيل جـارف من الـهـجـوم على ليوبولد . وفى بـادئ الأمـر عمل فى صحيفة بريطانية تهتم بالشئون الأفريقية، ولكن رئيس تحريرها حَجَّم ما يمكنه قوله عن الكونجو. وهكذا شرع سنة ١٩٠٣ فى إصدار صحيفته الخاصة بتمويل من مصادر شتى، من بينها جون هولت، وهو رجل أعمال من ليفربول اشتهر بأمانته وكان بمثابة معلم لموريل. وصارت صحيفة "بريد غرب أفريقيا" (West African Mail)، وهى "مجلة أسبوعية مصورة تأسست استجابة للاهتمام المتزايد بسرعة بشئون غرب وأواسط أفريقيا"، صارت منبراً ليس عليه فيه رقيب.

* * *

كان موريل يبدو مثل لوحة فنية: ذا شارب كثيف ضخم مثل مقود الدراجة، وطويل القامة وله صدر مثل البرميل ينضح بالقوة والنشاط، وكانت عيناه الداكنتان تتألقان بالسخط. وكانت ملايين الكلمات التى تدفقت من قلمه بقية حياته تخرج منه وتملأ الصفحات فى خط سميك مائل إلى الأمام وقد تفلطح من فرط السرعة وكأنما لا وقت لديه يضيعه ليصل إلى هدفه.

ومن بعض النواحى كان موريل أصعب فى الفهم من غيره من شخصيات قصة الكونجو. وعلى سبيل المثال من اليسير أن نستوعب كيف أن طفولة ستانلى المؤلمة والفقيرة قد تكون مهدت لقسوة السلوك التى اتسمت بها حياته وكانت دافعاً لأن يحاول وضع بصمته على العالم. وقد يكون الدافع وراء الولع الملتهب بالعدالة الذى ملأ جوانح موريل أقل وضوحاً. وهو قد أمضى حياته فى عالم المال لا فى الحركات الاشتراكية التى ألهمت كثيراً من المكافحين عند انقلاب القرن. ولم يشارك فى أى نشاط سياسى أو اشتراكى فى شبابه. ورغم أن بعض أسلافه كانوا من الكويكرز (Quaker)؛ فإنه قد يكون اكتشف ذلك فى فترة تالية فى حياته، لأنه لا توجد سجلات تفيد بتلقيه تعاليم الكويكرز فى طفولته. وكان، من حيث الرسميات، عضواً غير متعصب فى كنيسة إنجلترا، ولكنه فى أعماق قلبه، مثل شخص آخر مثير للفتن ومن نسل الكويكرز أيضاً، هو توماس بين (Thomas Paine) لم يكن يأبه كثيراً لأى صورة من صور الدين المنظم.

ولم يكن لديه ما يكسبه من حملته ضد ليوبولد، بل خسر وظيفة واعدة فى إلدر دمبستر. وكان يعول أمًّا مريضة وزوجة وما صار سريعًا أسرة كبيرة. ومن كل ناحية لم يكن يبدو عليه ما ينم عن زعيم لحملة أخلاقية كبيرة. ويبدو أن مقدرته غير العادية على إظهار السخط كانت أمرًا وُلد معه، مثل شخص يولد بمواهب موسيقية عظيمة. وبعد أن علم ما علم فى بروكسل وأنتورب كتب: "كان أمرًا مستحيلاً ولا يتفق مع طبيعتى أن أجلس ساكنًا دون حراك".

وكان هذا الإحساس الكامن بالغضب هو ما صنع من موريل، فى فترة وجيزة، أعظم صحفى تحقيقات بريطانى فى عصره. وما إن عقد عزمه على تكشف كل ما يستطيع عن العمالة فى الكونجو وأن يكشفه للعالم، حتى أنتج وثيقة ضخمة عن الموضوع، ولو أن بعضها كان مكررًا: ثلاثة كتب كاملة، وأجزاء من كتابين آخرين، ومئات المقالات لكل كبريات الصحف البريطانية تقريبًا، إضافة إلى مقالات باللغة الفرنسية للصحف الفرنسية والبلجيكية، ومئات الخطابات المرسلة إلى رؤساء التحرير، وعشرات من النشرات (أصدر ستًا منها فى ستة أشهر متصلة، منها واحدة باللغة الفرنسية). وفعل كل ذلك بينما يواصل تحريره لصحيفة 'بريد غرب أفريقيا' ويكتب غالبية مقالاتها. وبجانب ما كان يوقعه باسمه كانت فيها أعمدة باسم 'أفريكانوس' أو 'مراقب' من المرجح أنها كانت من عمله. وقبل أن يمضى وقت طويل أصبح موريل يحرر ملحقًا شهريًا لصحيفته مخصصًا بالكامل لكشف الأعمال الظالمة فى الكونجو. ورغم انشغاله العميق بعمله؛ فإنه وجد وقتًا كافيًا لممارسة هواية هى جمع فصائل مختلفة من العثة.

وجمعت كتابات موريل بين الغضب المنظم والدقة المتناهية. فأتت كل تفصيلة فى كتبه من بحث دقيق، وتكدست الأدلة بجهد يشابه جمع محام للأدلة القضائية. وعلى مدى السنين تفحص كل من معجبيه وأعدائه أعماله بحثًا عن أخطاء فى الحقائق ولم ينجحوا إلا نجاحًا ضئيلاً. وحتى فى يومنا هذا، إذا تتبعت الغالبية الساحقة من الإحصائيات والاقتباسات المتعلقة بنظام المطاط فى الكونجو إلى مصادرها فستجد أن أول من نشرها كان موريل.

ورغم أن صوته سرعان ما أصبح أعلى صوت فى إنجلترا موجه ضد فظائع الكونجو وأكثرها نشاطًا؛ فإنه لم يكن الصوت الوحيد. فقد تحدث بقوة عدد من أعضاء البرلمان وبخاصة السير تشارلز ديلك (Sir Charles Dilke)، وكان واحدًا من أبلغ مؤيدى حقوق الإنسان فى يومه. كما كانت هناك الجمعيات التى تهتم بالشئون الإنسانية مثل جمعية مكافحة الرق وجمعية حماية السكان الأصليين، التى كانت تدعو إلى نشر مبادئ الخير المسيحية، والتى قد تبدو كتوجيهات من جهات عليا فى آذاننا اليوم، إلا أنها استُخدِمت فى شجب الفظائع أينما كانت، فى المستعمرات البريطانية أو فى أى مكان. واختلف موريل عنهم ليس فقط فى طاقاته الجارفة وإنما فى إيمانه المتحمس بأن الكونجو كان حالة فريدة بذاتها، فهى دولة بكامل هيئتها أُقيمت عمدًا وبمنهاجية على أساس عمالة العبيد. وكتب موريل: "إن دعاة الخير والإصلاح الاجتماعى يركزون على وحشية الأعمال التى اقتُرِفت، بينما جهودى منذ البداية كانت موجهة لإثبات أن تلك الأفعال كان لا بد من أن تحدث حتمًا إذا أخذنا فى اعتبارنا فرضية منطقية معينة [وهى استيلاء ليوبولد على أراضٍ بكل ما تنتجه]".

وكان للكاتبة مارى كينجسلى (Mary Kingsley) تأثير قوى على موريل، وكانا قد تصادقا قبيل وفاتها سنة ١٩٠٠ بقليل. وكانت كينجسلى قد أصدرت سنة ١٨٩٧ كتابها "رحلات فى غرب أفريقيا" وهو من كلاسيكيات أدب الرحلات وينبض بالحيوية والنشاط، كما كان من أوائل الكتب التى كتبها أوروبيون ويعاملون الأفارقة كبشر. فهى لم تر فيهم "همجًا" فى حاجة إلى التحضر ولكنها نظرت إليهم كأناس يعيشون فى مجتمعات متماسكة تمزقت بفعل الاستعماريين والمبشرين الذين لم يكونوا يقيمون أى وزن للحياة الأفريقية.

وكان من رأى موريل أن قانون ليوبولد باعتبار أية "أراضٍ" خالية ملكًا للدولة قد قضى تمامًا على الأنظمة التقليدية بشيوع ملكية الأرض ومنتجاتها. وكان قد علم من كينجسلى أن معظم الأراضى فى أفريقيا، وفقًا للتقاليد المتوارثة، هى ملكية عامة لواحدة من القرى، أو عشيرة أو قبيلة. فإن لم تُستغل فى الزراعة فقد كانت أرضًا للصيد أو مصدرًا لأخشاب البناء أو الحديد للأدوات والأسلحة أو أية مواد خام أخرى.

وبجانب كون الاستيلاء على أراضيهم سرقة، فإنه ترك الأفارقة دون أى شىء يقايضون به، وكان ذلك أمراً أزعج موريل كثيراً فقد كان يؤمن إيماناً مطلقاً بحرية التجارة. وكان مقتنعاً، مثل كينجسلى، بأن لا شىء مثل حرية التجارة يمكن أن يأخذ بيد الأفارقة إلى العصر الحديث بطريقة إنسانية. وافترض موريل، بطريقة تقليدية تثير التعجب بالنسبة لثائر مثير للفتن، أن ما يصلح لتجار ليفربول يصلح لأفريقيا. ومن الممكن أن نتقبل تلك الأفكار منه لأن عدداً من أصدقائه من رجال الأعمال فى ليفربول كانوا من الكويكرز الذين كانوا يأخذون المبادئ الأخلاقية فى العمل مأخذ الجد وكانوا يؤيدونه تأييداً لا حدود له.

ثم انهمك موريل فى الكتب والخطب والمقالات والنشرات المتعلقة بالكونجو. ولم يكن هناك مجال لأن يذهب إلى هناك شخصيا، لأن ليوبولد كان يمنع الصحفيين غير الوديين بصورة روتينية. غير أن ذلك لم يقلقه. فبمجرد أن أعلن عن نفسه جهاراً بأن لديه أدق المعلومات عن دولة الكونجو وأنه أكثر المنتقدين لها صراحة، علم المطلعون على بواطن الأمور أنه الرجل الذى يلجأون إليه إن كان فى حوزتهم أى وثائق دامغة يريدون الكشف عنها. وكلما أفاض فى النشر كلما ازداد ما يفشونه من أسرار. وجلبت عليه موهبته فى الحصول على المعلومات السرية حنق ليوبولد ورجاله المستمر. وفى الوقت الذى كان الملك يعرض فيه رؤيته المصقولة عن الكونجو فى معارض العالم والصوبات الزجاجية والمتاحف، بدأت صورة جد مختلفة عن الكونجو تشاهَد على صفحات جريدة "بريد غرب أفريقيا".

فمثلاً عندما أنكر المتحدثون باسم ليوبولد بغضب أن هناك اختطافاً للنسوة لإجبار أزواجهن على العمل فى جمع المطاط، نشر موريل نسخة من الاستمارة المطبوعة بالفرنسية التى يملأها كل وكيل من وكلاء شركة الهند الأنجلوبلجيكية للمطاط والاستكشاف وفيها يذكر قائمة تحوى "الوطنيون المحتجزون خلال شهر --- من سنة ١٩٠٣ ." وسطرت فى الصفحات خانات تُملأ عن كل رهينة: "الاسم"، "القرية"، "سبب الاعتقال"، "تاريخ بدء الاعتقال"، "تاريخ نهاية الاعتقال"، "ملاحظات". وبذلك تأكدت أسباب اعتقال الأشخاص "اعتقالاً شخصياً"، كما نشر أيضاً تعليمات صادرة من إدارة نفس الشركة لوكلائها تتعلق بـ "الحفاظ على الرهائن وتغذيتهم".

ولم يكن المنشقون من موظفى الدولة أو الشركة يتمكنون بسهولة من الكتابة إلى موريل مباشرة، نظراً لوجود مكتب للرقابة فى بوما يراقب بريدهم. ولكنهم كانوا إذا ما عادوا إلى أرض الوطن جلبوا معهم وثائق. ولعدة سنوات عمل ريموند دى جريز (Raymond De Grez)، وهو من قدامى ضباط القوة الشعبية وجُرح عدة مرات فى أثناء القتال، كعميل سرى لموريل وكان يزوده سراً بفيض من المعلومات السرية من مكتب بريد فى بروكسل. ويبدو أن شخصاً ما كان يعمل فى المقر البلجيكى لشركة كبيرة فى الكونجو- وهى الشركة التى كانت قد وظفت جوزيف كونراد كقبطان لسفينة بخارية - قد زود موريل بمجموعة من الخطابات من وكلاء الشركة فى الكونجو. وإذا ما حدث أن محارباً من قدامى المحاربين فى الكونجو عاد إلى وطنه وقد أصيب بخيبة الأمل، ثم أدلى بحديث صحفى سواء فى بلجيكا أو ألمانيا أو السويد أو إيطاليا، فإن مصادر موريل كانت ترسل له قصاصة من الصحيفة، وكان يعمل على التأكد من أن المعلومات الخطيرة قد وجدت طريقها إلى الصحف البريطانية. بل إنه سخر فى مرة من حكومة الكونجو بنشره قائمة مطولة لمذكرات سرية وخطابات ووثائق أخرى عرضها عليه شخص ما للبيع.

وشجعت حملته معارضى ليوبولد فى بلجيكا وبخاصة الاشتراكيين فى البرلمان. وعندما تكشفت معلومات ضارة فى مناقشات البرلمان البلجيكى سارع موريل بإعادة طبعها للجمهور الأكثر عدداً فى إنجلترا. ومن بين البنود الكاشفة التى نشرها، على سبيل المثال، كان أمراً سرياً موجهاً إلى موظفى دولة الكونجو فى ميادين القتال يحدد المكافآت التى يحصلون عليها مقابل الرجال الذين يُجنَّدون فى القوة الشعبية: "٩٠ فرنك لكل رجل قوى وموفور الصحة وصالح للخدمة العسكرية، وطول قامته يتجاوز متراً و٥٥ سنتيمتر، و٦٥ فرنك لكل شاب طوله لا يقل عن متر و٣٥ سنتيمتر، و١٥ فرنك لكل طفل ذكر، على ألا يقل طولهم عن متر و٢٠ سنتيمتر وأقوياء بدرجة تمكنهم من تحمل مشاق الطريق ... وستكون المكافأة مستحقة فقط عندما يتم تسليم الرجال إلى مراكز القيادة فى القطاعات المختلفة". وأضاف القائم بأعمال الحاكم العام للكونجو تحذيراً للموظفين المحليين أن هذا الأمر "لا يجب تحت أى ذريعة من الذرائع أن يُرفع

من السجلات. وعليكم أن تبلغوا مرءوسيكم شفهيا المبررات والتفسيرات اللازمة لذلك المنشور." وضم موريل بحبور هذا التحذير أيضًا إلى ما نشره.

ومن بين الوثائق التى أُشيرَ إليها فى مناقشات البرلمان البلجيكى اقتبس موريل من خطاب كان ضابط بالقوة الشعبية قد أرسله إلى قائده: "إنى أتوقع ثورة عامة. وأظن أنى قد حذرتك منها يا سيدى الميجور ... والدافع هو نفس الدافع دائمًا. فالوطنيون قد أُرهقوا من نقل الأحمال وجمع المطاط وتقديم المواشى والدواجن ... لقد قاتلت لثلاثة أشهر متصلة تخللتها عشرة أيام للراحة ... ولدى ١٥٢ سجينًا. وأنا أقاتل منذ عامين فى هذا البلد، ومعى دائمًا قوة من ثلاثين أو أربعين ألبينًا (Albinis) [جنود مسلحون ببنادق الألبينى التى تُعمر من مؤخرتها]. إلا أنى لا أستطيع القول إنى أخضعت الناس ... فهم يفضلون الموت ... فماذا أستطيع أن أفعل؟"

وجاءت معلومات حيوية أخرى من بعض الإرساليات البريطانية والأمريكية والسويدية. ولم تتمكن سلطات رقابة دولة الكونجو من الاطلاع على خطاباتهم؛ لأنهم كانوا يملكون سفنهم الخاصة وكذلك كان زملاؤهم يحملون بريدهم شخصيا إلى أوروبا. ولعدة سنوات كان المبشرون شهوداً لا حول لهم ولا قوة للجلد بالشيكوت وغارات القوة الشعبية والقرى المحروقة وغير ذلك من مظاهر عبودية المطاط التى كانت تُمارَس. وفجأةً ظهر شخص لا يكتفى فقط بالتلهف على نشر شهاداتهم بل أيضًا يضعها فى يد البرلمان البريطانى. وأمطر موريل المبشرين بوابل من طلباته للمزيد من المعلومات. واستجابوا بسرور. وبدءوا أيضًا فى إرسال ما تبين أنه أداة قوية فى حملة موريل: صور فوتوغرافية - للقرى المخربة والأيدى المقطوعة وأطفال فقدوا أيديهم وأقدامهم.

وزوده المبشرون ببعض من أبشع الروايات التى نشرها موريل. ووصف أمريكى كيف شاهد جنود دولة الكونجو وهم يقطعون يد شخص ما "بينما قلبه يدق بعنف بحيث اندفع الدم من الشرايين المقطوعة لمسافة أربعة أقدام كاملة". ووصف معمدانى بريطانى مسئول بحكومة الكونجو وهو يعاقب رجالاً سرقوا مطاطًا: "فربطهم فى الشمس إلى أعمدة ليوم وليلة ... وكانوا عراة ودون طعام أو ماء طوال اليوم، وكان عذابهم عظيمًا حتى تدلت ألسنتهم".

وأحيانًا كان المبشرون يرسلون إلى موريل أسماء الموتى التى كان ينشرها أيضًا على غرار قوائم القتلى فى الحروب. وبديهى أن تلك الأسماء لم تنشر قط فى أى مكان آخر:

١ - بوكانجو، زعيم عشيرة قتل بضربات من مؤخرة بندقية.

٢ - مانجوندوا، زعيم عشيرة قتل بضربات من مؤخرة بندقية.

٣ - إكونجا، زعيم عشيرة قتل بضربات من مؤخرة بندقية.

....

٢١ - إكومبا، .... رجل، رميًا بالرصاص.

٢٢ - مونجانجو، .... رجل، رميًا بالرصاص.

٢٣ - جيلى، .... امرأة، رميًا بالرصاص.

٢٤ - أكابا، .... صبى، رميًا بالرصاص.

وكشف موريل أيضًا شبكة الخداع، كبيرها وصغيرها، التى دأب على نسجها ليوبولد وحلفاؤه، ولم يفته إلا القليل. ومن بين ما كشفه أن الملك سعى بكل جهده لكى يكتسب صداقة السير هيو جلزين ريد (Sir Hugh Gilzean Reid)، وهو من المعمدانيين البريطانيين البارزين ومالك لصحيفة وعضو سابق فى البرلمان. فدعاه إلى القصر الملكى عدة مرات، ومنحه قلادة ليوبولد، وأنعم عليه بلقب فارس للتاج. وفى المقابل، ترأس جلزين ريد وفدًا من الجمعية التبشيرية المعمدانية إلى بروكسل سنة ١٩٠٣ . وهناك، وفى حفل غداء مع الملك وبعض كبار القوم البلجيكيين، قدمت الجمعية "قداس شكر" معبرين عن أملهم فى "أن يتمتع أهالى الكونجو إلى الأبد بمميزات الحكم المنصف والمستقيم." وأوضح موريل بسرعة كتابةً أن جلزين ريد عندما أعطى الأنباء لصحيفة مورنينج بوست (Morning Post) اللندنية أعاد صياغة الرسالة المعمدانية لتعبر للملك عن أملها فى "أن يدرك أهالى الكونجو باستمرار فوائد حكمكم المتنور".

* * *

وسرعان ما أثار هجوم موريل رد فعل من القصر الملكى. ففى إحدى الأمسيات فى لندن دعا السير ألفريد جونز، رئيس موريل السابق، دعا موريل إلى حفل عشاء. وكانت العلاقات بين الرجلين متوترة، على أحسن التقديرات، ولكن الابتسامات كانت وفيرة فى أثناء تناول الطعام، وكتب موريل: "كان النبيذ ممتازًا ووفيراً". وبعد العشاء، انسحب جونز والضيوف الآخرون تاركين موريل وحيداً مع مدير لإحدى شركات الملاحة فى أنتورب يدعى إيرتس (Aerts)، الذى أوضح بجلاء أنه ممثل عن الملك ليوبولد.

وبعد محاولة أخيرة لإقناع موريل بالنوايا الحسنة للملك وأن الإصلاح قريب، نحا الضيف منحى آخر (الكلمات المحذوفة محذوفة فى الأصل):

> ماذا يهمنى من أمر الوطنيين فى الكونجو؟ وما فائدة السعى وراء مثاليات غير واقعية؟ لقد كنت شابًا. وأعول عائلة - أليس كذلك؟ وكنت أخاطر مخاطرة كبيرة. وعندئذ، تقدم باقتراح ملتو ناعم بل شديد النعومة بأن مصالحى الدائمة يمكن أن تُخدم إذا ... "رشوة؟" لا ليس بهذه الفجاجة وهذا التصرف المحط من قدرى. ولكن دائمًا كانت ثمة وسائل لترتيب مثل تلك الأمور. وكل شىء يمكن تسويته مع احتفاظ كلا الجانبين بالشرف. كان لقاء فى غاية الإمتاع واستمر حتى ساعة متأخرة من الليل. "وإذن فما من شىء يمكن أن يهز تصميمك؟" "لا أظن". وافترقنا بابتسامات متبادلة. ولكن أظن أن رفيقى كان على شىء من الانزعاج. أما أنا فقد استمتعت باللقاء أشد الاستمتاع.

كانت واحدة من شهادات شهود العيان المهاجمة لنظام ليوبولد التى نشرها موريل تتألف من عدة مقالات كتبها أمريكى وكانت شهادة مدمرة وكتبها مطولة فى كتاب سنة ١٩٠٣ [انظر فى الفصل الثامن مثالاً استشهدنا به]. وفى آخر جولة عمل له فى الكونجو، كان إدجار كانسيوس (Edgar Canisius) اسميًا وكيلاً لجمعية أنفيرسوار دى كومرس أو كونجو (Societe Anversoise du Commerce au Congo)، وهى من أكبر

شركات امتياز المطاط، ولكنه فى الحقيقة كان واحداً من قواد قوات مكافحة حرب العصابات. وفى مستهل سنة ١٩٠٠، عندما كان فى الرابعة والثلاثين من عمره، وصل إلى موقعه بالقرب من الحدود الشمالية الغربية، وكانت الشركة تجمع المطاط منذ عدة سنوات، والكروم بدأت فى التناقص. وكتب يقول: "تحول جامعو المطاط من قبيلة البودجا إلى مجرد عبيد لدى الشركة، فقد صار جمع المطاط يستغرق كل وقتهم، وصار لزاماً على الضحايا أن تبحث لمسافات أبعد وأكبر عن الكروم العملاقة التى يُستخلص منها السائل. ولم يكن مراقبو العمل يعطونهم طعاماً، وكانت مكافأتهم الوحيدة هى بعض السلع أو الميتاكوس (mitakos) [قطع من أسلاك نحاسية] بكميات ضئيلة بدرجة مضحكة ... واشتكى الوطنيون بمرارة من ندرة كروم المطاط، وألحفوا فى التوسل كى يُسمح لهم بمزاولة عمل آخر غير جمع المطاط".

وقتل ثوار البودجا ثلاثين جنديا، وأُرسلت عدة حملات تأديبية لقمعهم. وقاد واحدة منها كانيسيوس ومعه ضابطان آخران، مصحوبين بقوة قوامها أربعون جنديا من السود وثلاثين حمالاً. وسار الطابور ودخل قرى هرب منها سكانها من البودجا وخلفوا وراءهم القرى والمزارع محروقة. "وانتقلت قوتنا من قرية إلى أخرى ... وأُرسلت جماعة من الرجال يحملون المشاعل وأحرقوا كل كوخ ... وفى تقدمنا تصاعد خط من الدخان فوق الغابة لعدة أميال، يعلن للوطنيين فى كل مكان أن فجر الحضارة قد أشرق."

وحمل الحمالون مؤن الجنود. "مشينا ... فى أراض قُطعت منها الأشجار وتمددت جذوع مئات الأشجار الضخمة على الأرض فى مسارنا. وكان علينا أن نتسلقها، وكأنما الممر مليء بتلال منازل النمل على مدى البصر. وعانى الحمالون بالذات معاناة شديدة، لأن الكثير منهم كانوا مغلولين سويا من رقابهم ... وكانوا يحملون صناديقنا مرفوعة على عصى، وعندما يسقط واحد منهم فعادة ما يجر معه كل زملائه المربوطين معه بنفس السلسلة. وكثير من هؤلاء البؤساء بلغ به الإرهاق من هذه الطريقة فى السير حتى صاروا لا يسيرون إلا تحت ضربات مؤخرة البنادق. وبعضهم تقرحت أكتافهم من العصى حتى أصبحوا يصرخون فعلاً من شدة الألم".

ومن موقع عسكرى فى أعماق داخلية البلاد انطلقت قوات كانيسيوس تبحث عن الثوار فى الأدغال، وعندما كانوا يمسكون بهم كانوا يشَغِّلونهم حتى الموت: "كان الجميع يُجبَرون على حمل أحمال ثقيلة، وكل حمل كان فى السابق احتاج رجلين لحمله... حتى ماتوا أخيراً من الجوع والجدرى".

ومع اشتداد القتال عمدت القوات إلى قتل أسراهم، فى حالة واحدة ثلاثون منهم سوياً. وبعد انتهاء الحملة "مشينا مشياً مؤلمًا لستة أسابيع وقتلنا ما يزيد على تسعمئة من الوطنيين، رجالاً ونساءً وأطفالاً". وكان الحافز والدافع لكل ذلك القتل هو احتمال "إضافة عشرين طنًا كاملة من المطاط إلى المحصول الشهرى".

* * *

وبحلول سنة ١٩٠٣، وبعد عدة سنوات من العمل المضنى، نجح موريل وحلفاؤه فى البرلمان والجمعيات الإنسانية فى وضع "مشكلة الكونجو" على أجندة الرأى العام البريطانى بصورة أوضح بكثير عما سبق. وفى مايو، وبعد مناقشات مستفيضة، وافق مجلس العموم بالإجماع على قرار يحث على أن "يُحكم وطنيو الكونجو حكماً إنسانياً". كما احتج القرار أيضًا على تجاهل ليوبولد تنفيذ وعوده حول التجارة الحرة. وأثبت موريل أنه وسيلة ضغط داهية. فخلف الأستار كان يغذى بالمعلومات المتحدثين الذين أيدوا القرار، وكرر ذلك فى أثناء مناقشات برلمانية عديدة لاحقة عن الكونجو.

واشتد قلق ليوبولد. فبريطانيا كانت الدولة العظمى آنذاك وأكبر قوة استعمارية فى أفريقيا. فإذا ما وجهت كل قوة نفوذها ضد دولة الكونجو فسوف يشكل ذلك خطورة على أرباحه. فهل فى استطاعة صحفى مثل موريل أن يفعل ذلك؟ استطاع موريل أن يطلق حملة مطبوعة من الانتقاد وأن يتسبب فى قرار برلمانى، ولكن حَمْل حكومة بريطانية غير متحمسة على أن تضع ضغوطًا على عاهل صديق كان بالتأكيد أمراً آخر. وكان ليوبولد وحاشيته مدركين الفرق بين الأمرين تمام الإدراك:

وكان رئيس تحرير صحيفة بلجيكية قد لاحظ ذات مرة ملاحظة لاذعة أن اللورد ساليسبيورى (Lord Salisbury) رئيس الوزراء البريطانى العتيد "ليس بالرجل الذى يأبه لمصير السود ولا الأرمن ولا البلغار".

نال حكم ليوبولد ما يستحقه بجدارة، ولكنه صمد فى موقعه. وصار هو وموريل فى مأزق فى اللحظة الراهنة. ولم يعلم أى منهما أن ذلك المأزق سرعان ما سيُحَل بواسطة رجل قد ركب متن سفينة مبحراً فى نهر الكونجو فى نفس اليوم الذى انتهت فيه مناقشات مجلس العموم.

الفصل الثالث عشر

اقتحام مطبخ اللصوص

عندما نجح حلفاء موريل فى البرلمان فى تمرير قرار الاحتجاج على ما يجرى فى الكونجو فى مايو ١٩٠٣، أبرقت وزارة الخارجية البريطانية إلى قنصل جلالة الملك فى الكونجو تأمره "أن يذهب إلى داخلية البلاد ويوافيها سريعًا بتقرير من هناك".

وكان القنصل الذى تلقى البرقية أيرلنديا يدعى روجر كيسمنت (Roger Casement)، ويعمل فى أفريقيا منذ عشرين سنة. وفى الحقيقة فإن أول مناسبة نلقى فيها نظرة عليه، فيما يتعلق بالكونجو، كانت فى صورة فوتوغرافية قبل ذلك الوقت بعقدين. وفيها نتبين أربعة شباب أصدقاء ذهبوا للعمل فى الإقليم فى أوائل أيام حكم نظام ليوبولد. وكانوا مرتدين السترات وأربطة العنق والياقات العالية المنشاة. وثلاثة منهم لهم وجوه بريطانية شديدة التحدر وقوية، وهى وجوه تراها آلاف المرات عندما يتجمع للتصوير جمع من طلبة الكليات الحربية أو فريق للرجبى. أما رابعهم فهو ذو لحية سوداء أنيقة وشعر أسود فاحم، وحواجب كثيفة وانحناءة ساخرة للرأس ونظرة حزينة تجعله مختلفًا عن الثلاثة الآخرين. وكتب ستيفن جوين (Stephen Gwynn)، الكاتب الأيرلندى الذى لم يتعرف على كيسمنت إلا فيما بعد: "من هيئته ووجهه يبدو لى واحدًا من أجمل المخلوقات التى رأيتها فى حياتى، ويبدو على ملامحه السحر والتميز والشهامة. كان فارسًا هائمًا على وجهه دون هدف".

وفى زمن يعود إلى سنة ١٨٨٣ قام روجر كيسمنت ذو التسع عشرة سنة بأول رحلة خارجية طويلة إلى الكونجو حيث عمل، بالصدفة، محاسبًا فى إحدى سفن شركة

إلدر دمبستر. وعاد فى العام التالى واستقر فى الإقليم حتى نهاية ثمانينيات القرن التاسع عشر. وأدار قاعدة للتموين لبعثة سانفورد الاستكشافية سيئة الحظ وعمل لحساب مساحى الأرض الذين وضعوا خرائط مسار السكة الحديدية حول الشلالات. وهو يدعى أنه كان أول رجل أبيض يعبر سباحةً نهر إنكيسى (Inkisi River) المكتظ بالتماسيح. وعندما عمل مديراً غير إكليريكى فى إرسالية معمدانية، جلب على نفسه عدم رضاء رقيق من رئيسه الذى ظن أنه لم يساوم بقوة عند شرائه للأطعمة. "هو طيب مع الوطنيين، بل شديد الطيبة وشديد الكرم ومستعد لأن يسلم بما يطلبونه. ولن يكوِّن ثروة قط من العمل تاجراً".

وعندما شق ستانلى طريقه فى الكونجو فى حملة إنقاذ أمين باشا صاحبه كيسمنت لمدة أسبوع. وكتب عنه المستكشف فى يومياته: "هو مثال جيد للرجل الإنجليزى البارع"، وفاته أن كيسمنت أيرلندى. وكان رأى كيسمنت فى ستانلى أصدق، لأنه على الرغم من أن المستكشف بقى بطلاً فى عينيه؛ فإن كيسمنت اكتشف فيه مسحة من السادية. فقد علم كيسمنت فيما بعد، باشمئزاز شديد وهو الشخص المحب للكلاب، أن ستانلى قطع ذيل كلبه وطبخه وأطعمه للكلب.

وشاهد كيسمنت ما هو أكثر من ذلك من فظائع رجال بيض آخرين فى أفريقيا. ومن الصعب القول بأن ذلك كان نقطة تحول أخلاقى بالنسبة له، كما كان الحال مع إ. د. موريل عندما توصل إلى اكتشافاته فى أنتورب وبروكسل. وقد يكون كيسمنت قد مر بلحظة مماثلة سنة ١٨٨٧، عندما أبحر فى نهر الكونجو على متن سفينة بخارية تحمل أيضاً ضابطاً من القوة الشعبية يدعى جيوم فان كركهوفن (Guillaume Van Kerckhoven)، الذى كان قائداً مغروراً واشتهر بأنه عدوانى الطباع وله ابتسامة فاسقة وشارب طرفاه مثبتان بالشمع، ووصل الأمر بإحدى حملاته أن الحاكم العام للكونجو وصفها بأنها "إعصار مر بالريف ولم يخلف وراءه إلا الخراب". واستمع كيسمنت وهو مشدوه إلى فان كركهوفن وهو يحكى بمرح بالغ كيف أنه كان يدفع لجنوده السود عصياً نحاسية طول الواحدة ٥ بوصات (٢,٥ بنس) مقابل كل رأس بشرية يجلبونها إليه فى أثناء أية حملة عسكرية كان يقوم بها. وقال إنها كانت لإحماء شجاعتهم فى مواجهة العدو.

وعندما وصل جوزيف كونراد إلى متادى سنة ١٨٩٠ كتب على عجل فى مذكراته: "تعارفت على مستر روجر كيسمنت، مما أعتبره سعادة كبيرة فى أى ظرف من الظروف ... يفكر جيداً ويجيد الحديث، متقد الذكاء وودود". ومتادى مدينة خشنة الطابع حارة ورطبة، وهى عبارة عن تجمع من المبانى المبنية من الصاج المموج تنتشر على سفح تل وتطل على نهر الكونجو، وتكتظ بالبحارة السكارى والبغايا الأفريقيات وشباب من الأوروبيين والأمريكيين المغامرين يتوقون إلى الإثراء السريع من العاج المزدهر. وأحس كل من كيسمنت وكونراد بالنفور من جو اندفاعة الذهب ذاك؛ فتشاركا فى غرفة لعشرة أيام بينما كان كونراد ينتظر بدء رحلته إلى داخلية البلاد، وزارا سويا بعض القرى القريبة.

وأجمع الجميع على أن كيسمنت متحدث مثير للإعجاب. وتذكر أحد زملائه: "إن سحره يكمن فى صوته فبه رنة جد موسيقية". وعلق آخر: "كيسمنت لا يتحدث إليك بل هو يخرخر إليك مثل خرخرة القطط". وسواء كان يتحدث أو يخرخر، فقد كان فى جعبة كيسمنت ذخيرة من القصص يبدو أنها صبغت بالكآبة تخيلات كونراد عن الاستعمار فى أفريقيا. وفى نهاية فترة الأشهر الستة التى قضاها كونراد فى الكونجو تقابل مع كيسمنت مرة أخرى. ثم تقابلا مرة ثالثة فى لندن بعد بضع سنوات فى حفل عشاء، وقال كونراد: "خرجنا من هناك إلى النادى الرياضى حيث تحادثنا حتى الثالثة صباحاً". وكتب الروائى إلى صديق: "إن بمقدوره أن يحدثك عن أمور! أمور كنت أحاول أن أتناساها، وأمور لم أعرفها قط". وقد تكون واحدة من تلك الأمور – وهى مصدر إلهام محتمل آخر لقصة كيرتس وسياج حديقته المؤلف من رءوس بشرية – قصة تتناول فان كيركهوفن، جامع الرءوس الأفريقية.

ففى سنة ١٨٩٢ التحق كيسمنت بالعمل فى إدارة المستعمرات البريطانية فيما يُعرف اليوم باسم نيجيريا. وكانت أعمال الظلم والجور قد بدأت تشغل انتباهه رغم أنه كان يعمل لدى أكبر قوة استعمارية وقتئذ. فبدأ بتسجيل الاحتجاجات الشعبية، فى خطاب غاضب كتبه سنة ١٨٩٤ إلى جمعية المحافظة على السكان الأصليين، ضد أعمال الشنق. وكان الضحايا السبع والعشرون من المجندين الأفارقة وتقيم زوجاتهم

فى الكاميرون وكانت مستعمرة ألمانية، وثار الجنود عندما جُلدت النساء. وكتب كيسمنت: "إنى واثق أنكم ستقومون بعمل ما لرفع أصوات الاحتجاج فى إنجلترا ضد سلوك الألمان الوحشى. ورغم أنهم كانوا جنودهم؛ فإننا جميعًا على سطح الأرض علينا مهمة الدفاع عن الضعفاء ضد الأقوياء، ومن حقنا أن نحتج على الأعمال الوحشية بأى شكل أو على أية صورة".

وسرعان ما نُقل كيسمنت إلى السلك القنصلى البريطانى، وبعد أن خدم فى عدة مواقع فى جنوب أفريقيا كُلف سنة ١٩٠٠ بإنشاء أول قنصلية بريطانية فى دولة الكونجو المستقلة. وعندما مر فى بروكسل فى طريق ذهابه لتقلد مهام منصبه الجديد دعاه الملك ليوبولد على الغداء، وكان الملك يقظًا لكل شخص فى منصب يتوسم فيه تأييد قضيته. ووجد القنصل المتواضع نفسه يتناول الطعام فى القصر الملكى مع الملك والملكة مارى - هنرييتا وابنتهما الأميرة كليمنتين والأمير فيكتور نابوليون من فرنسا(١).

ودعا ليوبولد كيسمنت أن يعاود الحضور فى اليوم التالى، وهو ما فعله، وأخذ يستمع إلى الملك وهو يثرثر لساعة ونصف عن إدخال الحضارة بالكونجو والنهوض به. وذكر كيسمنت أنه رغم أن ليوبولد اعترف أن بعضًا من موظفيه قد يكونوا مدانين بالإفراط والتجاوز؛ فإن الملك ادعى أيضًا أنه "من المستحيل أن يكون لديك دائمًا

---

(١) إن قائمة أسماء أولئك الجالسين إلى الغداء تعطى صورة عن الأحوال السائدة فى الحياة الأسرية لليوبولد. وكون الملكة جالسة هناك يعنى أنها كانت فى أغلب الظن ذاهبة إلى الأوبرا أو إلى حفل موسيقى فى بروكسل فى تلك الليلة، لأنها بخلاف ذلك كانت ساخطة على برود زوجها وعلاقاته النسائية العلنية، فكفت عن العيش معه. وكانت ترتدى ملابس حالكة السواد وأحيانًا تضع قبعة رجالية عالية، وتقضى معظم وقتها فى منتجع سبا البلجيكى الرائع، تداوى أحزانها بصحبة حشد من الحيوانات الغريبة شملت ببغاوات عدة وحيوان اللاما.

أما كليمنتين، أصغر البنات الثلاث، فكانت الوحيدة التى يتخاطب معها ليوبولد من بين بناته. وكان الأمير الأصلع فيكتور نابوليون ووريث العرش الإمبراطورى الفرنسى الذى زال واختفى، هو حبها الحقيقى، غير أنه لم ينل رضاء ليوبولد. فقد كان الملك فى حاجة إلى تأييد الحكومة الجمهورية الفرنسية لمغامراته الأفريقية، تلك الحكومة التى أطاحت بالأسرة البونابرتية. ورفض ليوبولد أن يمنح موافقته على الزواج. وأذعنت كليمنتين الخجولة وعملت وصيفةً فى القصر الملكى؛ ولم تتزوج من فيكتور نابوليون إلا بعد وفاة والدها.

أحسن الرجال فى أفريقيا، وفى الحق فإن المناخ الأفريقى يبدو أنه يتسبب فى تدهور الصفات والسلوكيات". وكما كان عهده دائمًا حرص الملك على التأكد من أنه إذا تكشفت معلومات ضارة فسيكون هو أول من يعلم بها. وكتب كيسمنت: "وبينما الملك يودعنى سألنى أن أكتب إليه بصورة شخصية فى أى وقت وأن أكتب بصراحة، إن كان لدى نصح أوجهه له بصورة غير رسمية". وبخلاف غالبية الزوار لا يبدو أن كيسمنت قد فُتن بسحر الملك. فقد شاهد الكثير فى الكونجو.

وظل كيسمنت مفتونًا بأفريقيا فى منصبه كقنصل، غير أنه كان فى فترة قلقة من حياته. فقد كان على أعتاب الأربعين والتصق بعمل جانبى منعزل لا يستغل فيه مواهبه. وكان السلك القنصلى بمثابة الابن الفقير من زوجة سابقة للسلك الدبلوماسى البريطانى. هذا عدا أن مسئولية العمل فى الكونجو تختلف اختلافًا شاسعًا عن العمل كقنصل بريطانى فى باريس أو برلين، وهى وظائف كانت تذهب فى الأغلب لشخص من أسرة لها اتصالات حسنة عن أن ينالها شخص من أسرة متوسطة من أيرلندا. وكان كيسمنت يحس أنه دائمًا فى قاع القائمة. وكان مجرى حياته اليومية عبارة عن معارك متصلة مع الأسقف التى تتسرب منها الأمطار والبعوض والدوسنتاريا والسأم من العمل بوظيفة مغمورة - "فى بعض الأحيان كنت أجد نفسى مضطرًا إلى مغادرة سريرى وأنا مريض كى أستمع إلى شكوى بحار مخمور".

وكان لكيسمنت إحباطات أخرى أيضًا. فسخطه على الأفعال الآثمة للحكم الاستعمارى لم يكن يجد متنفسًا للتعبير عنه فى عمله كقنصل. وكان له اهتمام غامض بالتاريخ الأيرلندى ولكنه لم يتمكن من أن يتابع ذلك فى الأدغال الاستوائية. وكانت له طموحاته ككاتب ولكن دون منفذ إلا فى التقارير المطولة الفارغة التى كان يكتبها والتى كان موظفو وزارة الخارجية يسرون لها؛ فقلة من القناصل الآخرين كانت ترسل رسائل رسمية من عشرين صفحة من موانئ غرب أفريقيا. وكتب كميات كبيرة من شعر متواضع ولكنه عجز عن نشر أى شىء منه.

واعتبر كثير من الرجال البيض فى الكونجو القنصل البريطانى الجديد شخصًا غريب الأطوار. فمثلاً عندما سافر لأول مرة من متادى إلى ليوبولدفيل لم يستقل كيسمنت

السكك الحديدية الجديدة، بل سار على قدميه أكثر من مئتى ميل - احتجاجًا على ارتفاع سعر تذاكر السكك الحديدية. وفى رحلات لاحقة استخدم القطارات، ولكنه، كما كتب موظف فى حكومة الكونجو إلى بروكسل وقد أربكه التصرف، "كان يركب الدرجة الثانية. وفى كل تحركاته يصطحب معه دائمًا كلبًا ضخمًا من فصيلة البولدوج له فك كبير".

وكان فى ذهنه أمور أخرى لم يستطع أن يقولها حتى لأصدق أصدقائه أو لأقاربه، رغم أن كثيرًا منهم كانوا يشكون فى الأمر، وهو أنه كان شاذًا جنسيًا. وكتب فى قصيدة كان من المستحيل أن تُنشر فى أثناء حياته:

أبحث عن الحب

حيث قال الرب لا بطريقة مروعة

....

وأنا أعلم أنى لا أستطيع أن أموت

تاركًا ذلك الحب الذى صنعه الرب لا أنا

عاش كيسمنت فى زمن لو اكتُشِف فيه ذلك الأمر لقُضِى عليه خزيًا وعارًا وربما أكثر من ذلك. وكان قد حدث سنة ١٨٩٥ أن أوسكار وايلد حُكِم عليه بالسجن سنتين مع الأشغال الشاقة "لارتكابه أفعالاً شائنة مع آخرين من الأشخاص الذكور". وفى ربيع سنة ١٩٠٣، وبينما كان كيسمنت عائدًا إلى الكونجو بعد قضاء إجازة فى أوروبا، هيمنت قصة أخرى على العناوين الرئيسة بطلها الميجور جنرال السير هكتور مكدونالد وهو واحد من أكبر الجنود البريطانيين حصولاً على الأوسمة فى زمانه. فقد تكشف شذوذه الجنسى وتقررت له محاكمة عسكرية فانتحر فى غرفة بأحد فنادق باريس.

وكتب كيسمنت فى يومياته بتاريخ ١٧ أبريل سنة ١٩٠٣: "الأنباء عن انتحار السير هكتور مكدونالد فى باريس. والأسباب التى ذُكِرت أسباب تافهة ومحزنة. وهى بلا شك أشد الحالات المشابهة تسببًا فى الأسى". وأضاف بعد يومين: "إنى جد حزين للنهاية

المفجعة لهكتور مكدونالد". وبعد أحد عشر يومًا، فى ميناء بنانا الكونجولى، ألحت على كيسمنت قصة مكدونالد فى ليلة جافاه فيها النوم: "حجرة مفزعة فى فندق. ذباب الرمل. لم أغلق عينىَّ. موت هكتور مكدونالد أمر محزن".

ومما لا شك فيه أن كيسمنت كان يدرك أنه لو حدث أنه اكتسب أعداءً أقوياء فسوف يكون معرضًا للابتزاز. غير أنه بمسحة من تدمير الذات اللاشعورى ثابر على كتابة مذكرات مفصلة عن لقاءاته الغرامية، وكانت غالبيتها نظير نقود. وفى نفس تلك الرحلة من إنجلترا إلى الكونجو سخر من القدر بأن سجل كل لقاءاته الجنسية طوال الرحلة. جزر ماديرا: "أجوستينو قبلات متعددة. ٤ دولار". لاس بالما: "لا عروض". على سطح السفينة سريعًا. نحو ١٨". بوما: "طويل القامة. كم يكلفنى من النقود؟" ولو كانت المذكرات عثر عليها أحد من يضمرون له الشر لقضى عليه. وحتى تلك اللحظة كانت المذكرات قنبلة موقوتة، ولها فتيل غير معلوم طوله.

وفى مايو سنة ١٩٠٣ وهو الشهر التالى لتلك المداخلات فى مذكراته عن انتحار مكدونالد حدث لكيسمنت ما سبب له سرورًا؛ كما أنه كان شيئًا يبشر بترقية كبيرة فى عمله. فلفترة عامين داوم كيسمنت على إرسال التقارير إلى وزارة الخارجية عن الفظائع التى تُرتكب فى كونجو ليوبولد. والآن وقد وافق مجلس العموم البريطانى على قرار بالإجماع بالاحتجاج على ما يجرى فى الكونجو، تعين على الحكومة البريطانية أن تقوم بعمل استعراضى استجابة لذلك القرار.

وكان كيسمنت فى السنة السابقة قد أبرق إلى لندن مقترحًا أن يقوم برحلة إلى مناطق إنتاج المطاط فى داخلية البلاد لتقصى الحقائق. وجاءه الإذن بذلك، ولكن قضاءه الإجازة فى إنجلترا وأيرلندا تسبب فى تأخير تلك الرحلة. وبعد المناقشات البرلمانية عادت الفكرة تتصدر أجندته، وبمجرد عودته إلى الكونجو شرع كيسمنت فى السفر.

وكان يعلم أن الرحلة ستكون شاقة، وفى خطاب كتبه إلى صديق له لاحقًا استعار كيسمنت مثلا أفريقيا يقول: "إن المرء لا يخوض فى الشوك إلا إذا كانت تطارده أفعى أو يطارد أفعى". وأضاف: "إنى أطارد أفعى وأتمنى من الرب أن أصيبها".

* * *

ولكى يقوم كيسمنت بتحقيقاته كان بمقدوره أن يركب القطار الجديد متجهًا إلى بحيرة ستانلى ويمضى بضع أسابيع يتجول فى منطقة على مسافة قريبة من المنزل المبنى من الطوب الأحمر الذى أقام فيه هناك. بيد أنه لم يفعل ذلك. وبدلاً من ذلك أمضى ما يزيد على ثلاثة أشهر ونصف الشهر فى داخلية البلاد. ولكى لا يكون معتمداً على السلطات فى تنقلاته - وهى أمر يسيطرون به على كثير من الزوار - استأجر قاربًا بخاريًا حديديًا وضيقًا من بعض المبشرين الأمريكيين وتوغل صُعُداً فى نهر الكونجو. وقضى سبعة عشر يومًا فى بحيرة تومبا حيث كانت الدولة تمارس أعمال الرقيق فى جمع المطاط مباشرة دون وسطاء، وزار أقاليم الشركات ذات الامتيازات، ودخل بقاربه فى أنهار جانبية وسار على قدميه عندما لم تسمح الأنهار بالملاحة، وأحصى بالضبط أعداد الأشخاص المعتقلين كرهائن فى قرية لم تف بحصتها من المطاط، وجدف فى زورق كانو عبر نهر وسار عدة أميال فى أدغال مغمورة بالفيضان لكى يقابل أحد الضحايا ويتفحص إصاباته بنفسه.

وأحيانًا كان كيسمنت يقضى ليلته فى موقع إرسالية، وفى أحيان أخرى كان يعسكر على ضفة نهر أو فى جزيرة. "فرس النهر فى اتجاه مجرى النهر. رأيت ثلاث بجعات وهى تأكل بالقرب منا. كذلك شاهدت طائر أبى قردان المصرى الجميل بجسم أسود وأجنحة بيضاء، منظره رائع وهو طائر فوقنا". واصطحب معه، كما كانت عادته، كلبه البولدوج المحبوب جون، وأحضر معه كطباخ ومساعد شخصًا لم يعرفنا عليه ولا نتبينه إلا فى مذكراته حيث يدعوه هيرى بيل. "مسكين هيرى بيل العجوز. حياة غريبة". ويبدو أن قائمة طعام الطباخ هيرى بيل كانت تقتصر على أطباق ثلاثة: دجاج وكسترد وشىء آخر يعرف باسم السكر المغلى. وكتب كيسمنت: "دجاج، دجاج، كسترد، كسترد ... كل يوم ... ياإلهى". وأحيانًا كان يتحول إلى السخرية: "تناولنا السكر المغلى مرة أخرى من قبيل التغيير. وكذلك الكسترد". أو "سكر مغلى وكسترد مرتين يوميا لمدة شهر".

وأرسل كيسمنت سيلاً لا ينقطع من البرقيات إلى وزارة الخارجية. وذكر بارتياح أنهم "سوف يلعنونى فى وزارة الخارجية". ولا ريب فى أن آخرين لعنوه بدورهم.

فقد أمطر موظفى دولة الكونجو بسيل جارف من الخطابات يشجب فيها فظائع بعينها، بل ويشجب فيها الطريقة التى تدار بها الدولة ذاتها، بصورة لا تمت إلى الدبلوماسية بصلة. "هذا النظام يا سيدى الحاكم العام، هو نظام خاطئ كليةً وميئوس منه ... فبدلاً من رفع مستوى السكان الوطنيين الخاضعين له والذين يعانون منه فقد يحدث، إن استمر، أن يؤدى إلى القضاء عليهم قضاء نهائيا ويجلب عليكم إدانة عالمية من العالم المتحضر". وليس بمستغرب أن الكلمات قد وصلت إلى أسماع ليوبولد الذى قلق من أن نظام حكمه لا يعامَل برفق فى تقرير القنصل البريطانى. ووصلت شائعات مماثلة إلى إ. د. موريل، الذى ترقب بتلهف عودة كيسمنت. وتهلل كيسمنت وهو يخبر وزير الخارجية البريطانى، بطريقة لا تتمشى مع التقاليد القنصلية، بأنه "قد اقتحم مطبخ اللصوص".

كان رجلاً قد أصابه مس من الجنون. وكان لغضبه مما رآه تأثير مثير على كثير من الأوروبيين الذين قابلهم؛ وبدا الأمر وكأنما أعطاهم سخطه الواضح الإذن بتحرير آرائهم المكبوتة من إسارها. واستوحى اثنان من المبشرين كان كيسمنت قد زارهما المثال الذى أعطاه فقاما فى الحال برحلة لتقصى الحقائق، وأخذ أحدهما يرسل خطابات انتقادية إلى الحاكم العام. وبينما كان كيسمنت مبحراً تجاه مصب النهر تقابل مع سفينة المبشر البريطانى القديم جورج جرنفل (George Grenfell) صاعدة فى النهر، وتوقف الرجلان وتحادثا. وبعد أن استمع إلى كيسمنت تقدم جرنفل فوراً باستقالته من لجنة ليوبولد الوهمية لحماية الوطنيين. (وكانت بالمناسبة حركة لا طائل منها: فالملك كان قد أنهى التفويض المخول للجنة قبل ذلك ببضعة شهور دون أن يخطر أياًّ من أعضائها). أما القنصل الإيطالى فى الكونجو، وقد أزعجه ما أخبره به كيسمنت، فتخلى عن خطته لقضاء إجازة فى أوروبا وقام برحلته الخاصة لتقصى الحقائق تأكد له فيها صحة ما توصل إليه كيسمنت.

وكانت مداخلات كيسمنت اليومية فى مذكراته أكثر إثارة للمشاعر من تقاريره الرسمية التى كان ينتقى كلماتها بعناية، وصفحاتها الموجزة تنبض بفزعه.

٥ يونيو: الريف صحراء، لم يبق به وطنيون.

٢٥ يوليو: تجولت فى القرى ورأيت أقرب واحدة - السكان تناقصوا بصورة مخيفة - فلم يتبق إلا ٩٣ شخصًا من أصل مئات كثيرة.

٢٦ يوليو: أناس بؤساء وضعفاء ... - من التراب إلى التراب ومن الرماد إلى الرماد - أين إذن القلوب الرحيمة، والإحساس بالشفقة ؟ كل ذلك اختفى.

٦ أغسطس: حصلت على معلومات مستفيضة من الوطنيين ... وهم يجلَدون بكل قسوة لمجرد التأخر فى تسليم سلالهم [المحملة بالمطاط]... فى شدة الإرهاق.

١٣ أغسطس: أتى أ. ليخبرنى أن ٥ أشخاص من ناحية بيكورو مقطوعى الأيدى قد وصلوا إلى ميانجا بهدف أن يجعلونى أشاهدها.

٢٢ أغسطس: قرية بولونجو ميتة تمامًا. أتذكرها جيدًا فى نوفمبر ١٨٨٧، كانت مكتظة بالسكان؛ والآن بها ١٤ بالغًا فقط. هؤلاء البؤساء يشتكون بمرارة من ضريبة المطاط ... ٦:٣٠ مررت بالجانب المهجور من بوكوتا ... يقول موزيدى إن السكان قد أُخذوا بالقوة إلى ممبوكو. يالبؤسهم!

٢٩ أغسطس: بونجاندانجا ... شاهدت "سوق" المطاط، لا شىء سوى البنادق - نحو ٢٠ رجلاً مسلحًا ... كل السكان ٢٤٢ رجلاً يحملون المطاط وهم تحت الحراسة مثل المساجين. وأن تسمى ذلك "تجارة" هو منتهى الكذب.

٣٠ أغسطس: ١٦ من الرجال والنساء والأطفال مقيدون جميعًا من قرية مبوى بالقرب من المدينة. أمر شائن. وُضع الرجال فى السجن، وأُطلق سراح الأطفال بعد تدخلى. أمر شائن. أمر شائن. نظام مخزٍ.

٣١ أغسطس: فى المساء أقيم حفل راقص احتفاء بى، حضره كل الزعماء المحليين وزوجاتهم إلخ، (بناء على أوامر ل.) هؤلاء المساكين. إنى آسف لذلك. كان ذلك أسوأ استمتاع قسرى شاهدته.

٢ سبتمبر: شاهدت ١٦ امرأة يمسك بهن حراس بيترز ويقودونهن إلى السجن.

٩ سبتمبر: مررت بقرية بولونجو مرة أخرى. ركب السكان زوارقهم ليسألونني العون.

كان كيسمنت يعيش بعد حركة مكافحة العبودية بزمن طويل وقبل ظهور منظمات مثل منظمة العفو الدولية بوقت طويل، فكان يكتب يومياته بأسلوب الإبطاليين (Abolitionists) المؤيدين لمبدأ إبطال الرق "أمر شائن، أمر شائن، نظام مخز". ولكن التقارير الرسمية التي كان يكتبها بعد ذلك كانت بأسلوب تبنته فيما بعد منظمة العفو الدولية وغيرها: أسلوب رسمي ورزين، يقوِّم مصداقية الشهود المتعددين، وحافل بالاستشهاد بالقوانين والإحصائيات، ومذيل بالملاحق والشهادات المكتوبة الموثقة.

وفي أواخر سنة ١٩٠٣ أبحر كيسمنت عائداً إلى أوروبا كي يجهز تقريره. وأمضى بضعة أسابيع في لندن يملي ويصحح، وقام بالمراجعة الأخيرة وهو مستقل قطاراً في طريق عودته من زيارة قام بها لجوزيف كونراد وأسرته في منزلهم الريفي. وكانت المعلومات التي تضمنها تقرير كيسمنت معروفة بصورة عامة لأناس من أمثال إ. د. موريل ومجموعة أنصاره الصغيرة، ولكنها كانت المرة الأولى التي تُكتب تفصيلاً بشهادة قنصل حكومة صاحب الجلالة البريطانية. وكان التقرير جديراً بالقبول لصدوره من كيسمنت الذي كان له تاريخ قديم في أفريقيا وأتى بمقارنات عديدة بين الكونجو كما عرفه يوماً ما ونفس الإقليم بعد أن وقع في براثن إرهاب المطاط.

ومرة تلو المرة يصف كيسمنت الأيدي المقطوعة من الجثث. وأحياناً لم تكن الأيدي [هي التي تقطع]. وهو يستشهد بشاهد عيان:

"أمر الرجال البيض جنودهم: 'لا تقتلوا إلا النساء، ولا تقتلوا الرجال'. وعندما قتلنا الجنود (وهنا توقف ب. ب. وهو الشخص الذي كان يجيب على أسئلتنا عن الكلام وتردد، ثم أشار إلى الأجزاء الخاصة لكلبي البولدوج الذي كان نائماً تحت أقدامي)

ثم قطعوا تلك الأجزاء وأخذوهم إلى الرجل الأبيض الذى قال: 'إن من قتلتموهم كانوا حقا من الرجال'".

وعلى الرغم من اللهجة المتحفظة والتدعيم الدقيق بالوثائق؛ فإن أوصاف الأيدى المقطوعة والأعضاء التناسلية المبتورة كان أكثر تصويراً وأقوى مما توقعته الحكومة البريطانية. وبدأت وزارة الخارجية البريطانية المرتبكة أصلاً، تتلقى رسائل عاجلة من السير كونستانتين فيبس (Sir Constantine Phipps) السفير البريطانى فى بروكسل والمتقد تحمساً لليوبولد، تلح فى إرجاء نشر التقرير. ولم يستطع فيبس، وكان رجلاً معتداً بنفسه ومحدود الذكاء، أن يصدق: "أن البلجيكيين، وهم شعب متحضر عشت بين ظهرانيهم، يمكن، حتى تحت تأثير المناخ الاستوائى، أن يرتكبوا مثل تلك الأعمال الوحشية". وأوضح لوزير الخارجية أن السبب الوحيد لاستخدام الشركات 'لحراس' كان لحماية جامعى المطاط فى أثناء عملهم. وأبرق فيبس قائلاً: "أرجو أن تعملوا على منع إصدار التقرير الذى كتبه كيسمنت حتى يوم ١٠ الجارى وهو اليوم الذى سأقابل فيه ملك البلجيكيين مقابلة لا سبيل إلى تجنبها. فالنشر لا محالة سيجعلنى فى موقف حرج فى البلاط".

واشتدت الضغوط من دوائر أخرى. فزار السير ألفريد جونز رئيس إلدر دمبستر، تحت إلحاح ملكٍ قلقٍ، وزارة الخارجية مرتين لمحاولة التخفيف من حدة التقرير، أو على الأقل للحصول على نسخة للملك قبل النشر.

وكان كيسمنت قد اشتد انزعاجه مما شاهده فى الكونجو بحيث إن وزارة الخارجية فقدت السيطرة عليه، وأدلى بالعديد من التصريحات الصحفية للصحافة اللندنية. وزاد نشرها من صعوبة فرض رقابة على التقرير أو تأجيل نشره، رغم أن مسئولى وزارة الخارجية خففوا من حدته بإزالة الأسماء منه. وعندما نُشر التقرير أخيراً فى أوائل سنة ١٩٠٤ وجد القراء شهادات شهود كما يلى: "أنا ن. ن. والاثنان اللذان بجوارى هما و. و. وب. ب". أو: "الرجل الأبيض الذى قال ذلك هو كبير الرجال البيض فى إ. إ. ... واسمه كان أ. ب". وأعطى ذلك للتقرير مسحة غريبة من جسد بلا روح،

وكأنما الأعمال المروعة التى اقتُرِفت لم يقترفها أشخاص حقيقيون. كما أنه جعل من المستحيل على كيسمنت أن يدافع عن نفسه بأن يشير إلى أشخاص وأماكن بعينهم عندما أصدر موظفو ليوبولد رداً طويلاً. وشاركت الصحف البلجيكية المرتبطة بنفوذ رجال الأعمال فى الكونجو فى الهجوم، وقالت واحدة منها هى "لا تريبيون كونجوليز" (La Tribune Congolaise) إن الأشخاص الذين شاهدهم كيسمنت مقطوعى الأيدى "كانوا أناساً سيئى الحظ أصيبوا بسرطان فى أيديهم مما استوجب بترها بعملية جراحية بسيطة".

واشتد غضب كيسمنت كما خابت آماله. وبوصفه متقلب المزاج (فقد أراد هو نفسه إخفاء أسماء شهوده حفاظاً عليهم، ثم غير رأيه) وسهل الاستثارة، فقد أرسل خطاب احتجاج من ثمانى عشرة صفحة إلى وزارة الخارجية وهدد بالاستقالة. وكتب فى يومياته إن رؤساءه كانوا "عصابة من البلهاء"، وأحدهم بصفة خاصة كان "يهذى بخسة ودناءة". ووصفهم فى خطاب بأنهم "مجموعة بائسة من السذج عديمى الكفاءة".

ولكن حدث فى أثناء ذلك أن كيسمنت عثر أخيراً على شخص يستطيع أن يشاركه مشاعره. وكان قبل ذلك فى أثناء وجوده فى الكونجو يطالع بشراهة كتابات موريل، وكان الرجلان متلهفين على أن يلتقيا. وكتب كيسمنت فى يومياته بعد أن تم اللقاء المرتقب منذ زمن "إن الرجل صادق وأمين مثل أشعة الشمس. تناولنا العشاء سويا فى مطعم وتحادثنا حتى الثانية صباحاً. ونام موريل فى المكتب". وكان كيسمنت مقيماً فى بيت صديق له فى ميدان تشستر، وانصرف موريل فى اليوم التالى بعد الإفطار.

ومن اليسير تخيل الرجلين منهمكين فى الحديث فى تلك الليلة: كيسمنت بلحيته السوداء وهو يغلى من الغضب مما شاهده، وموريل بشاربه الكث، وهو أصغر منه بعقد، وأيضاً ضخم الجثة ولكنه ربعة، وقد تملكه غضب جاد للدليل الذى عثر عليه فى أوروبا. وبمعنى آخر كان كل منهما قد شاهد نصف ما تكونت منه "دولة ليوبولد الحرة". وتكونت لديهما معاً الصورة الكاملة التى يمكنهما الحديث عنها. وطوال ما بقى من حياته كان موريل يذكر ذلك اللقاء:

رأيت أمامى رجلاً فى مثل قامتى، رشيقا وقويا، وصدره منتفخ ورأسه مرفوعة عاليًا - مما يشى برجل عاش فى أماكن واسعة مفتوحة. شعر أسود ولحية تغطى وجنتيه تتخللها حفر بسبب الشمس الاستوائية. معالم وجهه واضحة بقوة. عينان زرقاوان داكنتان نفاذتان وغائرتان فى محاجرهما. وجه مستطيل هزيل داكن البشرة يصلح لرسومات فان دايك، يتفجر قوةً وإن كان دمثًا. وجه أنيق بصورة استثنائية ولافت للنظر. ومنذ لحظة تلامس أيدينا والتقاء نظراتنا، نشأت بيننا ثقة متبادلة وتبخر منى الشعور بالعزلة. كان رجلاً حقًا. رجل يمكنه إقناع أولئك الجالسين فى مراكز السلطة ببشاعة الجرائم التى تُرتكب فى حق جنس لا حول له ولا قوة ... إنى أراه كثيرًا فى مخيلتى مثلما رأيته فى ذلك اللقاء الذى لا يُنسى، وهو منحنى فوق المدفأة فى الغرفة خافتة الإضاءة ... ويكشف بصوت موسيقى خفيض يكاد يكون صوتًا رتيبًا، وبلغة بها رنة من الرفعة والرثاء، عن قصة مؤامرة خسيسة ... وأحيانًا كان يهب واقفًا ويذرع الحجرة بخطوات ثابتة لا صوت لها، ثم يعود لجلسته بجوار المدفأة، بينما ألسنة اللهب تعطى مظهره الجانبى مسحة من الفخامة.

وفى معظم الوقت كنت مستمعًا صامتًا، متشبثًا بذراع الكرسى الذى أجلس عليه ... وأنا أؤمن بيقين أنى رأيت هؤلاء النسوة المحتجزات ومتشبثات بأطفالهن وهن يهربن فى الأدغال وقد تملكهن الرعب: ورأيت الدماء تسيل من تلك الأجساد السوداء المرتجفة بينما تهوى عليها السياط المصنوعة من جلود فرس النهر مرة تلو المرة، وشاهدت الجنود الهمج تجرى هنا وهناك بين القرى المحترقة، وأكوام الأيدى المقطعة ...

وتلا علىَّ كيسمنت مقتطفات من تقريره، الذى كان لا يزال يكتبه وقتذاك، والذى كان فحواه يكاد يتطابق مع ما سبق لى أن كتبته مرارًا. وأخبرنى أنه قد أصابته الدهشة لما وجد أنى، على مبعدة خمسة آلاف ميل، قد توصلت إلى استنتاج يطابق ما وصل إليه هو من كل ناحية ... وانزاح عنى هم ثقيل.

وافترقنا بعد منتصف الليل بوقت طويل. وبقيت أوراق من تقريره الكبير مبعثرة فوق المنضدة والكراسى وعلى الأرض. ونمت بملابسى فوق الأريكة ومن حولى قصاصات ذلك التقرير ... تلك القصاصات التى مزقت الأستار من على أضخم خداع وأسوأ شرور عرفها جيلى، بينما نام مؤلفه فى غرفة النوم بالطابق الأعلى.

وبعد ذلك ببضعة أسابيع زار كيسمنت موريل فى منزله فى هاواردن، وهى قرية ويلزية صغيرة بالقرب من الحدود مع إنجلترا؛ ودون فى يومياته: "تحادثنا طول الليل تقريباً، زوجته سيدة لطيفة". وكان يحاول إقناع موريل بإنشاء مؤسسة تُكَرَّس للقيام بحملة تدعو إلى الإنصاف فى الكونجو، ولكن موريل كان ممانعًا فى أول الأمر. فجمعية حماية السكان الوطنيين كانت لا تثق فى احتمالات نشأة مجموعة جديدة تتعدى على مجالها وقد تسلب منها مصادر تمويلها. غير أن مارى زوجة موريل وقفت بجانب كيسمنت، وقد يكون بسبب إلحاحها أن سافر موريل إلى أيرلندا كى يستأنف الحديث مع كيسمنت. وكتب: "وجد اقتراح كيسمنت فى زوجتى نصيراً متحمساً، وعبرت البحر الأيرلندى ... كى أقابله ... وبصورة عامة كان ذلك تحت تأثيرها ... وفوق ذلك التراب الأيرلندى الذى روته دموع بشرية كثيرة رسمنا أنا وكيسمنت خططًا أكبر ... وتناقشنا فى السبل والوسائل وتوصلنا إلى الخطوط العريضة للحملة".

ودار الحديث حول مائدة العشاء فى فندق 'سليف دونارد' فى مدينة نيوكاسل، حيث اقتنع موريل بأن "كارثة الكونجو هى كارثة من نوع استثنائى خاص وتتطلب وسائل استثنائية خاصة للهجوم ... فإن أمكن حقا إيقاظ الشعب البريطانى فقد يستيقظ العالم... وقد لعبت بريطانيا مثل ذلك الدور من قبل [فى الحملة ضد الرق]... فهل نتمكن من جعل قلبها الكبير يخفق؟"

ورغم أنه كان فى مرحلة ما بين وظيفتين؛ فإنه كان لا يزال عضواً بالسلك القنصلى، ولهذا كان على موريل أن يقوم بإدارة المؤسسة الجديدة. "ولكن كيف يمكن التغلب على التفاصيل المعتادة؟ وشرحت لكيسمنت أنى لا أملك نقوداً... ولا كان هو ...

ودون أن يتردد لحظة كتب شيكًا بمبلغ مئة جنيه. وكان ذلك المبلغ بالنسبة لكيسمنت أكثر من دخل شهر.

وبعد فترة وجيزة كتب كيسمنت لموريل: "سوف تتزايد أعدادنا يومًا بعد يوم حتى تصدر من طول وعرض إنجلترا صيحة 'لا' ساحقة!"

وبعد مرور بضعة أسابيع من عشائهما فى أيرلندا أنشأ موريل 'اتحاد إصلاح الكونجو'. واشترى بعض الأدوات الأولية بما فيها آلة كاتبة مستخدمًا تبرع كيسمنت. وتمكن من الحصول على التأييد العلنى لحشد مؤثر من الإيرلات والدوقات ورجال الأعمال ورجال الكنيسة وأعضاء البرلمان، وتراث معركة محاربة الرق ممثلاً فى الحفيد الأكبر للإبطالى البريطانى الشهير وليم ويلبرفورس (William Wilberforce). واجتذب 'اتحاد إصلاح الكونجو' تأييد ما يزيد على ألف شخص فى اجتماع عُقد بقاعة الأوبرا بمدينة ليفربول فى ٢٣ مارس ١٩٠٤ .

ورغم أن كلاً من كيسمنت وموريل كانا يتسمان بسرعة الغضب؛ فإن الصداقة نشأت بينهما فى الحال وكانت صداقة دائمة. وكتب موريل إلى صديق له: "أعتقد أن كيسمنت أقرب لأن يكون قديسًا". وصار الآن كل منهما الحليف المثالى للآخر. وتعمقت الصداقة بينهما بمرور السنين، وفى الخطابات العديدة التى تبادلاها أصبح كيسمنت "عزيزى النمر" وموريل "عزيزى البولدوج" وكان ليوبولد "ملك الوحوش".

وعلى الرغم من أن كيسمنت لم يستطع أن يكون أكثر من الشريك الصامت فى حملة الإصلاح؛ فإنه داوم على تزويد البولدوج بالنصائح الحماسية عن التخطيط السياسى وعن الأشخاص الذين يحاول إقناعهم، بل وعن الثياب التى يرتديها. وساعده فى جمع الأموال للحملة دون علم وزارة الخارجية. ومن جانبه شجع موريل كيسمنت على أن يعود إلى الكونجو لإجراء المزيد من التحقيقات. وأجابه القنصل بأن المسئولين قد "يشنقوننى كما فعلوا مع ستوكس – وقد يكون شنقى هو أنجع وسيلة للقضاء على وكر الشياطين". ولم تكن تلك آخر مرة نسمع فيها ملاحظة من كيسمنت عن رغبته فى الاستشهاد.

وفيما بعد قارن معجبوهما بين ذلك الاجتماع بين النمر والبولدوج للتخطيط للهجوم على ملك الوحوش وبين المحادثة الشهيرة تحت ظلال شجرة بين وليم ويلبرفورس ووليم بيت الأصغر قبل ذلك بما يربو على مئة سنة، وكانت خطوة لبدء الحركة البريطانية ضد الرق. غير أن موريل وكيسمنت، مثل حال الإبطاليين البريطانيين، كانوا في مأمن في إنجلترا؛ لأنهم بكل نواياهم الطيبة لم يكونوا معرضين لضربات سياط الشيكوت أو ثقل الأصفاد. كانوا رجالاً بيضًا يجاهدون في سبيل منع رجال بيض آخرين من معاملة الأفارقة بوحشية. فغالبية الأفارقة الذين حاربوا تلك المعركة ماتوا ولم تُسجل أسماؤهم. وبمعنى آخر نحن نحيي موريل وكيسمنت في موقفهم.

إلا أن الرجلين لم يكونا مجرد رجلين يمارسان فعل الخير من مقاعدهما الوثيرة. بل كانا يملكان عقيدة راسخة - وانتهى الأمر بكليهما بدفع ثمن باهظ. ويوم اجتمعا في ديسمبر ١٩٠٣ وتبادلا مشاعرهما حول ما يحدث في الكونجو، لم يكن موريل وكيسمنت يعلمان أنه سيحدث بعد أكثر من عشر سنوات أن يتشاركا في شيء آخر. فكل منهما سوف يساق مكبلاً إلى سجن بنتونفيل في لندن. وأحدهما لن يغادره مرة أخرى.

الفصل الرابع عشر

تسليط الأضواء المبهرة على أفعاله

تسببت الحملة التى نسقها إ. د. موريل من خلال 'اتحاد إصلاح الكونجو' فى حدوث ضغوط متنامية دون هوادة على الحكومات البلجيكية والبريطانية والأمريكية. ويكاد ألا يكون قد حدث من قبل أن رجلاً واحداً لا يمتلك ثروة ولا لقبًا ولا منصبًا رسميًا، قد تسبب فى مشاكل بهذا الحجم لحكومات عدة دول كبرى. وكان موريل يدرك أن المسئولين من أمثال السير إدوارد جراى وزير الخارجية سوف يتصرفون فقط فى حالة "أن يُجبروا على ذلك، فإن توقفت الضغوط فلن يفعلوا شيئًا". وكرس موريل أكثر من عقد من عمره لتلك الضغوط.

وإضافة لاتحاد إصلاح الكونجو ثابر موريل على تخصيص جزء من يوم عمله، الذى كان يمتد فى بعض الأحيان إلى ست عشرة أو ثمانى عشرة ساعة، لتحرير صحيفة بريد غرب أفريقيا. وكتب إلى زميل له من النشطاء: "يبدو أن الناس لا يدركون تمامًا أنى – بجانب كل شىء آخر – أصدر صحيفة أسبوعية، إضافة إلى النشرة الشهرية لاتحاد إصلاح الكونجو وهى ذات حجم كبير ومن الممكن أن تُبقى شخصا عاديا منشغلا تمام الانشغال طوال الشهر. والسبب الوحيد فى أنى قادر على إنجاز كل ذلك هو أنى أعمل بسرعة استثنائية".

وسبب آخر لتمكن موريل من إنجاز كل ذلك هو أن زوجته قد كرست نفسها لأعماله المنزلية. وفى الحق كان موريل واحداً من القلائل فى هذه القصة الذى ينعم بحياة زوجية سعيدة. فمارى ريتشاردسون موريل قد ربت أولادهما الخمسة وأيدت

زوجها بكل وسيلة. وكانت معجبة بكيسمنت بوجه خاص ووافقته فى أن زوجها يجب عليه أن ينشئ منظمة تركز جهدها بالكامل على الكونجو. ومثلما حدث مع كثير من الأزواج أيامها فإننا لا ندرى كم من منجزات موريل يُنسب فيها الفضل إليها. وكتب إليه جون هولت نصيره المخلص والمؤتَمَن على أسراره: "إنى أراها بوصفها جزءاً منك، والاثنان يشكلان موريل المهتم بإصلاح الكونجو".

ولم يكن موريل بلا هفوات. فكان عنيداً فى بعض الأحيان، وهو نادراً ما كان يعترف بأية أخطاء، وفى صحيفته كثيراً ما نشر صورة لنفسه، أو تقريظًا متحمسًا لكتبه، أو تعليقات تقدم له الثناء لأعماله الطيبة، أو مقابلات صحفية مع نفسه نُشرت فى صحف أخرى، ومقالة افتتاحية "تتمنى لمستر موريل رحلة موفقة" عندما سافر إلى الخارج ليدعو للإصلاح فى الكونجو. وأحيانًا كان يتشاجر مع زملاء أحس أنهم يجتذبون أضواءً أكثر مما يجب - وإن كان ذلك لم يحدث إلا فيما ندر مع كيسمنت الذى كان يوقره ويحترمه. ومثل كثير من الأشخاص غزيرى الإنتاج، كان يمر بنوبات من الاكتئاب والرثاء للذات. وكتب سنة ١٩٠٦ إلى مارك توين: "إن حياتى المنزلية قد تقلصت إلى أبعاد شديدة الضآلة ... وأنا شخصياً قد وصلت لآخر مجال إمكانياتى"، وأعلن لتوين أنه على الرغم من ذلك فسوف يعود إلى عمله فى شئون الكونجو لأن "أولئك البؤساء هناك ليس لهم سوانا فى نهاية الأمر، ومن حقهم أن يعيشوا".

كما كانت لآرائه السياسية أوجه قصورها، بعضها كان يشترك فيها مع أغلبية الأوروبيين فى عصره مثل إيمانه بسحر التجارة الحرة وثقته فى أن الرجل الأسود لديه قوى جنسية أشد من الرجل الأبيض وأن ذلك قد يسبب خطورة للنساء البيض. هذا عدا خواص أخرى متأصلة فى هوسه أحادى الاتجاه المركز على أن يضع حداً لفظائع الملك ليوبولد فى الكونجو. والصورة التى يصورها موريل فى كتاباته عن الأفارقة فى الكونجو قبل وصول البيض تشابه ما كتبه روسو (Rousseau) عن الهمجى النبيل المثالى: ففى وصفه للمجتمعات الأفريقية التقليدية يركز موريل على كل ما كان مسالمًا ولطيفًا ويتجاهل المظاهر الوحشية التى أحيانًا ما تشمل، على سبيل المثال، بتر أيدى القتلى من الأعداء، قبل أن تجعل منها القوة الشعبية ممارسات يومية بزمن طويل.

وأهم من ذلك أن موريل قد اشتد حنقه على شرور ليوبولد حتى إنه تجاهل استخدام وطنه هو لعمالة السخرة - بوفرة وإن كانت أقل قتلاً - فى مستعمراتها الأفريقية، وبخاصة فى الشرق والجنوب. فقد كان مقتنعًا بأنه ليس هناك من خطأ متأصل فى الاستعمار طالما كانت إدارته تتوخى العدل والإنصاف. وكان مؤمنًا بأن تلك هى حال المستعمرات البريطانية فى غرب أفريقيا، حيث لا يوجد بالتأكيد إرهاب المطاط ولا الاستيلاء القسرى على ما يسمى الأراضى الخالية. بل إنه فى المراحل المتأخرة من حملته الكونجولية وجد الوقت لزيارة نيجيريا وكتب كتابًا يؤيد بصورة عامة الحكم البريطانى هناك.

غير أنه مهما كانت أخطاؤه فإن موريل فيما يتعلق بحملته ضد المظالم فى الكونجو كان لديه إحساس صلب بالصواب والخطأ لا يتزحزح وتنتقل عدواه للآخرين. كان خطيبًا رائعًا وكثيرًا ما خاطب جموعًا من عدة آلاف دون أن يقرأ من أوراق. وفى الفترة ما بين ١٩٠٧ و١٩٠٩ وحدها تحدث فى نحو خمسين اجتماعًا عامًا فى أنحاء بريطانيا العظمى. وكتب: "فى بعض الأحيان ... عندما كانت تهزنى بصفة خاصة قصة أشد سوءًا من الباقين، وعندما كنت أجد أنه من الأوفق أن أتوقف قليلاً عند ممارسات أعوان ليوبولد ... [كنت أشعر] بالانتعاش عندما أنجح فى توصيل معلومة جيدة، أو عندما أجد أن شيئًا من الصعب وصفه يمسك بى وأنا على المنصة، كنت أحس وكأنما كل هذا الحشد الكبير فى راحة يدى".

واعتبر موريل أن حملته تدخل ضمن التقاليد العريقة للحملات الإنسانية البريطانية مثل الغضب المبرر أخلاقيًا ضد مذابح الأتراك للبلغار سنة ١٨٧٦ وضد الأرمن فى تسعينيات القرن التاسع عشر. وفوق كل ذلك، رأى فى نفسه الوريث الأخلاقى لحركة مكافحة الرق. وقد استهل كتابه اللاذع "المطاط الأحمر: قصة تجارة العبيد المتعلقة بالمطاط والتى ترعرعت فى الكونجو فى سنة ١٩٠٦" باقتباس من شعر الداعية الأمريكى الكبير لإبطال الرق وليم لويد جاريسون (William Lloyd Garrison):

إن مقاييس العتق قد تجلت ... ولن أراوغ

ولن أتذرع بالحجج

ولن أتراجع بوصة واحدة

وسوف يُسمع صوتى

وستشهد الأجيال القادمة أنى كنت على حق

وكانت تعاليم الراديكالية البريطانية التى أتى منها موريل متأصلة فى كنائس المنشقين - بمعنى البروتستنت لا كنيسة إنجلترا - ومن طائفة الكلابهام (Clapham Sect) وهم المجموعة الإنجيلية المحبة للخير التى كان ينتمى إليها وليم ويلبرفورس (William Wilberforce) زعيم حركة مكافحة الرق. وفى أوائل القرن التاسع عشر ركز هؤلاء المحبون للخير حماسهم فى تحسين أحوال الفئات المضطهدة: المساجين وعمال المصانع وتشغيل الأطفال والمجانين. غير أن سياساتهم لم تكن هدم كل شىء من القاع إلى القمة وهى السياسة التى اتبعها الماركسيون واتحادات نقابات العمال فيما بعد؛ وإنما كانت إصلاحاً من القمة إلى القاع بصورة يمكن تحملها. وكان من بين أهدافهم إلغاء الحكم بالإعدام والعقاب الجسدى والقسوة ضد الحيوانات. وعندما وجهوا أنظارهم عبر البحار كانت أهدافهم إلغاء الرق وإرسال المبشرين لرفع شأن "الوطنيين" فى الأنحاء النائية من العالم. (وفى الحق كانت الكنائس المنشقة، وبخاصة المعمدانية منها، هى التى أرسلت المبشرين البريطانيين إلى الكونجو).

ومما هو جدير بالذكر أن أسلاف موريل من السياسيين ذوى النزعات الإنسانية، وعلى عكس معاصريه من الاشتراكيين، كانوا يؤمنون إيمانًا راسخًا بأن إصلاح أحوال جموع المضطهدين فى كل مكان كان مفيداً للتجارة. فالمعاملة الجيدة لرعايا المستعمرات، كما أعلنت لجنة برلمانية مختارة فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، سوف "تعزز مصالح بريطانيا العظمى المدنية والتجارية. فالهمج جيران خطرون وزبائن لا تُرتجى منهم أرباح، وإذا ما استمروا على حالهم متجنسين منحطين فى مستعمراتنا فسوف يصبحون عبئًا على الدولة".

ولم يحدث مطلقًا أن هؤلاء الإنسانيين اعتبروا أنفسهم فى صراع مع المشروع الاستعمارى - طالما بقى استعمارًا بريطانيًا. وكما لخصها جيمس موريس فى تأريخه للإمبراطورية البريطانية: "من الناحية الأخلاقية يضع إعتاق العبيد البريطانيين فى مرتبة خاصة ... فما دام قد أمكن تحقيق الكثير بواسطة التهييج والإثارة داخل الوطن، فإن النفوذ الأخلاقى لإنجلترا لو انتشر فى أنحاء العالم فلن يقف فى طريقه شىء - التعامل مع شرور الرق والجهل والوثنية فى مواطنها، وتعليم الشعوب البسيطة فوائد البخار والتجارة الحرة والدين الموحى به، وننشئ إمبراطورية عالمية ليس بالمعنى النابليونى السيئ وإنما إمبراطورية أخلاقية بنية نبيلة. فهكذا تطورت الإمبريالية المعمدانية".

تلك كانت التعاليم التى وجدها موريل متفقة معه، كما كانت تناسب تمامًا مواهبه التنظيمية. وكانت لديه موهبة إقناع الأغنياء والأقوياء والمشاهير بأنهم يحسنون إلى أنفسهم بتأييدهم حملته لإصلاح الكونجو. ودأبت النشرة الشهرية لاتحاد إصلاح الكونجو على شغل صفحتها الأولى بالكامل بصورة فوتوغرافية لمؤيد بارز - إيرل أو عمدة أو عضو بالبرلمان، أو حاكم مستعمرة سابق ذى شارب كث. وبعد تأسيس الاتحاد فى ليفربول تفتق ذهن موريل عن فكرة عقد أول اجتماع للجنة المؤسِّسة فى حجرة فى مجلس العموم دبرها لهم عضو فى المجلس متعاطف معهم. ولم تكن الغالبية الساحقة من الجلسات الرئيسية التى كان الاتحاد يعقدها تخلو من أسقف واحد على الأقل على المنصة الرئيسية. ووجد موريل أنه بحصوله على التأييد الظاهرى للكنيسة والدولة؛ فإنه من الصعب على أى شخصية بريطانية ذات نفوذ أن ترفض رجاءه لوضع أسمائهم فى قائمة المؤيدين لإصلاح الكونجو.

وفى الحقيقة كانت عيوب موريل السياسية هى السبب فى نجاحه الساحق فى الأمور التنظيمية. فلو كان يؤمن، كما قد نخلُص اليوم، بأن اغتصاب ليوبولد للكونجو كان نتيجة منطقية لفكرة الاستعمار ذاتها، وأنه كان من منطلق أنه لا غبار فى أن يُحكَم وطن بواسطة أناس ليسوا من أبناء ذلك الوطن، لانتهى موريل بوصفه شيئًا هامشيًا. ولم يكن ليعيره التفاتًا أى شخص فى بريطانيا. ولكنه لم يكن يؤمن بذلك؛ بل آمن إيمانًا تامًا إن نظام حكم ليوبولد شكَّل نوعًا متفردًا من الشر. وعلى هذا فالناس

فى الدوائر الحاكمة فى إنجلترا كان بإمكانهم تأييد حملته دون أن يشعروا بأن فى ذلك تهديدًا لمصالحهم.

غير أن موريل كان يقف فى أقصى مدى لتعاليم الإنسانيين. وكانت آراؤه هدامة بصورة ضمنية أكثر مما سمح هو أن يُعرف عنه. فقد رأى فى الأعمال الوحشية فى الكونجو لا مجرد هنات محددة يمكن التخلص منها بإصدار القوانين ضدها، مثل تشغيل الأطفال أو حكم الإعدام، ولكنه رآها جزءًا من "نظام" - كما أسماه - معقد وعميق الجذور لأعمال السخرة والاستيلاء الأوروبى الضخم على الأراضى الأفريقية. وزاوية النظر تلك هى أقرب ما تكون إلى الماركسية منها إلى نظرة الإنسانيين الهادفة إلى إصلاح أحوال جموع المضطهدين، رغم أنه من المحتمل أن موريل لم يقرأ حرفًا لكارل ماركس طوال حياته. ولم يتمكن من حل التناقض بين هاتين النظرتين إلى العالم، وجزء كبير من المأساة التى حلت به فى أخريات حياته يعود السبب فيه إلى التوتر الدائم بينهما.

* * *

وكتب المؤرخ البريطانى أ. ج. ب. تيلور (A.J.P Taylor) يقول: "لم يكن هناك من يبارى موريل كمنظم وزعيم لحركة معارضة، فقد كان يعلم أين يبحث بالضبط عن المتعاطفين الأغنياء؛ وكان يأخذ منهم الأموال دون أن يؤثر ذلك فى السمة الديمقراطية لحركته. وتقبل المليونيرات وعمال المصانع على حد سواء زعامته". ومن بين المليونيرات كان هناك من ينتمى لطائفة الكويكرز مثل وليم كادبورى (William Cadbury) صانع الشيكولاته الثرى الذى كان يعيش عيشة متواضعة بسيطة. وكانت تبرعات هؤلاء هى التى أبقت صحيفته بريد غرب أفريقيا على قيد الحياة، وكان موريل يتقاضى مرتبه من الصحيفة لا من اتحاد إصلاح الكونجو. ومن المفارقات أن السير ألفريد جونز رئيس خطوط إلدر دمبستر الملاحية ساهم بمبلغ صغير فى الصحيفة، ولا ريب فى أن ذلك كان بهدف تخفيف حدة لهجة موظفه السابق. غير أن آماله ذهبت هباءً؛ فقد استمر

موريل يهاجم جونز بلا رحمة، كاشفًا النقاب عن أفعاله بوصفه الحليف البريطانى الرئيسى لليوبولد. وعندما وجد جونز أنه بلا تأثير توقف عن نشر إعلاناته فى الصحيفة.

وكان موريل يعلم جيداً كيف يضع دعوته فى القالب المناسب أمام المستمعين. فكان يذكِّر رجال الأعمال البريطانيين بأن نظام ليوبولد الاحتكارى، الذى قلدته فيه فرنسا، قد أغلق الجانب الأكبر من تجارة الكونجو. وأمام رجال الكنيسة كان يتحدث عن مسئولية المسيحية ويستشهد بتقارير المبشرين المروعة. وكان عامة الشعب البريطانى وممثلوهم فى البرلمان يستهويهم الاعتقاد السائد، رغم عدم الحديث عنه، بأن على بريطانيا مسئولية خاصة فى جعل أصول اللياقة والاحتشام تعم الكون.

ومن الأمور المذهلة فيما يتعلق بحملة الكونجو أن موريل، فيما عدا حملاته للخطابة فى الاجتماعات العامة، قد أدار الحملة بصورة عامة من مكتبه. بل إنه خلال النصف الأول من عمر اتحاد إصلاح الكونجو الذى دام تسع سنوات، لم يكن يقيم فى لندن. فقد كان المقر الرئيس للاتحاد فى ليفربول حتى ديسمبر سنة ١٩٠٨؛ ومن هناك ومن منزله فى بلدة هاواردن القريبة، داوم على مراسلات غزيرة. وفى الستة أشهر الأولى من سنة ١٩٠٦، على سبيل المثال، كتب ٣٧٠٠ خطاب. والأهم من ذلك أن إنتاجه الهائل من الكتب والنشرات والمقالات الصحفية عن الكونجو حفزت الناس على أن يكتبوا له. وكان يتأكد من الأنباء بمراجعتها بدقة، ويدرس الصحف والوثائق البلجيكية، ويتراسل مع مسئولى الحكومات والصحفيين والتجار فى أوروبا وأفريقيا. وبحلول سنة ١٩٠٨، قدر أنه قد تجمع لديه ما يقرب من عشرين ألف خطاب يتعلق بالكونجو شكلت جوهر الكثير من أعماله المنشورة.

وعلى الرغم من عدم اهتمامه بالشئون الدينية؛ فإن أسلوبه كان أسلوب مبشر معمدانى. وكان يؤمن بأن ليوبولد وأنصاره، مثل "صحف بروكسل وأنتورب الخسيسة المالئة لحكومة الكونجو" هى تجسيد للشيطان؛ وأن إدارة الكونجو هى "نظام فاسد وشرير ينزل الضر بالسكان الوطنيين بأفعاله الرديئة". وكان موريل يتحدث بكفاءة

مؤثرة بما يتناسب مع المزاج العام وقتئذ، فقد كان مقتنعًا به: وهو التفاؤل، والثقة بلا حدود فى مجتمع لم يشهد بعدُ أو يتخيل الحروب العالمية، والإيمان بأن الجنس البشرى لديه المقدرة على أن يمحو بسرعة كل العوائق التى تقف فى طريق التقدم. وأعلن فى كتابه 'حكم الملك ليوبولد فى أفريقيا' "حطم أسلافنا تجارة العبيد عبر البحار، وسوف نجتث تجارة العبيد الحديثة فى داخلية البلاد على أرض الكونجو".

وكان تواقًا لأن تسمو حركة إصلاح الكونجو فوق السياسات الحزبية والخلافات الدينية. وكان دائمًا يستضيف على منصة الخطابة فى اجتماعاته الرئيسة أعضاء فى مجلس العموم من الأحزاب الرئيسية الثلاثة ورجال دين يتبعون كلا من كنيسة إنجلترا والكنائس المنشقة وتشكيلة متنوعة من النبلاء وعمد المدن ورؤساء البلديات وغيرهم من الشخصيات البارزة. وكانت لديه موهبة فذة فى إخراج حدث وإيصاله إلى الذروة: فكثيرًا ما كان يسبق اجتماعا إقليميا للاحتجاج على ما يجرى فى الكونجو باجتماع بعد الظهيرة مع العمدة المحلى وكبار القوم المحليين فى قاعة المدينة. وفى المساء يعقد الاجتماع العام الذى يحضره العمدة. وقبل أن تنتهى سنة ١٩٠٥ كان ما يربو على ستين اجتماعًا عامًا قد تبنت قرارات تشجب حكم ليوبولد بوصفه إحياء لتجارة الرق الأفريقية وتناشد "حكومة صاحب الجلالة أن تدعو إلى اجتماع للقوى المسيحية ... كى تدبر وسيلة لحكم أقاليم الكونجو حكمًا عادلاً وتنفذ ذلك بالقوة". وفى ليفربول اكتظت قاعة اجتماعات تسع ثلاثة آلاف شخص وضاقت بهم حتى امتلأت قاعتان مجاورتان. وتصاعدت صيحات "يا للعار! يا للعار!" فى اجتماعات مشابهة فى كافة أنحاء إنجلترا وإسكتلندا.

وبوصفه متمرسًا فى كل وسائل الإعلام وقتها، كان موريل مؤثرًا بصفة خاصة فى التصوير الفوتوغرافى. فكان عرضٌ للشرائح الملونة على الفانوس السحرى يشكل جزءًا جوهريًا من الغالبية الساحقة من اجتماعات احتجاجات الكونجو، يعرض فيه نحو ستين صورة فوتوغرافية معبرة عن الحياة تحت حكم ليوبولد، منها نصف دستة تصور أفارقة مشوهين بقطع أيديهم. وكانت الصور، التى شاهدتها الملايين فى الاجتماعات وفى الصحف، دليلاً دامغًا لا تستطيع أية دعاية جوفاء أن تدحضه.

وعرضت الشرائح أيضًا خرائط ورسومًا بيانية تبين حجم أرباح ليوبولد من الكونجو، بل إنها عرضت أيضًا قصائد شعرية أظهرت بالانفعال ما عجز الفن عن إظهاره:

ليس بالحماسة ولا بالإيمان أُوحى إلى ليوبولد هذا
ولا أية أفكار جنونية عن أصل نصف كريم
وعيون باردة أطلق من أسارها كلاب الصيد تنهب وتقتل
حتى تصير خزائنه متخمة بالذهب
حنطه يا زمن، ولا تنسيه يا أرض
وانفخوا باسمه فى الأبواق، وسلطوا الأضواء المبهرة على أفعاله

ولكى تُسَلَّط الأضواء على أفعال ليوبولد احتاج موريل أن يستنفر زملاءه من الصحفيين. وكان على معرفة برؤساء تحرير أغلب المجلات والصحف البريطانية الرئيسة، وكتب بصفة منتظمة للكثير منهم، بما فى ذلك جريدة التايمز أكثرهم هيبة. وعندما كان رئيس تحرير يحتاج لأن يرسل مراسلاً إلى بلجيكا كان فى جعبة موريل دائمًا اسم يقترحه. وادعى بسرور أنه دبر 'سقوط' مراسل التايمز فى بروكسل الذى كان يشك فى أنه على صداقة أكثر مما يجب مع ليوبولد. وكان يغذى بالمعلومات الصحف المتعاطفة فى بروكسل، ومن خلال اتصالاته مع الخدمات التلغرافية لاتحاد الصحافة تمكن من توزيع المعلومات على مستوى العالم. وعندما أرسلت مجلة كورير المراسل الأمريكى الشهير ريتشارد هاردينج ديفيس (Richard Harding Davis) إلى أفريقيا، ذهب إلى هناك مزوداً بآخر ما توصل إليه موريل من معلومات، ووضح صدى ذلك فى ما كتب من تقارير.

ومع تعزيز قوى من تقرير كيسمنت، تصاعدت الحملة الدولية التى قام بها موريل ووصلت أنباؤها إلى الصحف فى أنحاء العالم كافة. واحتفظ بعناية، لسنوات عشر بدءاً

من ١٩٠٢، بملفات تحوى ٤١٩٤ مقتطفًا تتعلق بالحملة لإصلاح الكونجو. ولم يكن تركيزه مقتصراً على الصحافة وحدها: فمؤلف رواية مغامرات للصبية صدرت بعنوان 'سامبا، قصة عبيد المطاط فى الكونجو'، كتب فى مقدمته يشكر المسئولين عن اتحاد إصلاح الكونجو "لتفضلهم بقراءة المخطوط ومراجعة التجارب الطباعية لهذا الكتاب، ولاقتراحاتهم العديدة وملاحظاتهم البناءة".

وكان موريل يصف نفسه بأنه "ممسوس بالكونجو". ويبين ذلك خطاب له أرسله سنة ١٩٠٦ إلى وليم كادبيورى الخباز الكويكرى:

كتاب. صدر هذا الأسبوع ... [كان ذلك هو كتاب المطاط الأحمر].

جلاسجو. دعا عمدة المدينة إلى اجتماع للمجلس. يحتمل أن أضطر إلى الذهاب. أفكر فى تشكيل اتحاد محلى لإصلاح الكونجو ... هل هناك أصدقاء بارزون فى جلاسجو تستطيع أن ترسل لهم خطاباً؟

فرنسا. سيتم تأسيس اتحاد فرنسى لإصلاح الكونجو هذا الشهر ...

المد يرتفع. طلبات المنشورات تنهال فى أجولة بالمعنى الحرفى للكلمة ... ١٢-٢٠ خطابا يوميا طلبًا للمنشورات والمعلومات إلخ.

وعلى غرار الإبطاليين من قبله، كان موريل يعلم أن كل منظمة قومية لا بد لها من فروع إقليمية، ولهذا كان لاتحاد إصلاح الكونجو 'مجموعات مساعدة' فى أنحاء إنجلترا وإسكتلندا كافة. وأقنعت تلك المجموعات أعضاءها بإرسال تبرعات، وأن تكتب لممثليها فى البرلمان، وأن ترسل فيضًا لا ينتهى من الخطابات للصحف المحلية. وكان هناك فرع خاص بالسيدات وله ممثلتان عنه فى مجلس إدارة اتحاد إصلاح الكونجو. وبواسطة مثل تلك الوسائل مارس موريل ضغطًا ثابتًا على الحكومة البريطانية. ولم تساوره الشكوك لا هو ولا مؤيديه أنه إن تحركت بريطانيا وحدها فسوف تجبر ليوبولد على إصلاح وسائله أو تسحب الكونجو كليةً من قبضته.

وكان موريل يدرك أن أكثر المتحدثين تأثيراً هم من لديهم معلومات مستقاة من مصادرها الأولى. وهكذا ومنذ سنة ١٩٠٦ بدأ القس جون هاريس وزوجته أليس سيلى هاريس العمل متفرغين مع الاتحاد، وهما من المبشرين المعمدانيين العائدين – وزوجته هى التى التقطت الغالبية الساحقة من الصور الفوتوغرافية التى كان موريل يستخدمها. وكان حماسهما مساويًا لحماس موريل. وفى العامين الأولين من عملهما مع الاتحاد تحدث واحد منهما أو كلاهما فى الاجتماعات العامة ستمئة مرة. وانفعلت امرأة كانت من بين الحضور فى اجتماع حاشد فى ويلز لدرجة أنها أعطت أليس هاريس مجوهراتها لصالح الحركة. وعرض الزوجان هاريس سوط الشيكوت والأصفاد، وفى كافة أرجاء إنجلترا كانا يقودان تجمعات كنسية تترنم بترانيم كنسية خاصة فى 'آحاد الكونجو'. وتحدثا لجموع مصدومة عن تجاربهما الشخصية مثل تلك التى وضعها جون هاريس فيما بعد بين دفتى كتاب:

> تجمع فى صف واحد ... أربعون مهزولاً من أبناء قرية أفريقية، وكل منهم يحمل سلته الصغيرة المليئة بالمطاط. وتم وزن المطاط وقبوله، ولكن ... أربعة سلال كانت تنقص عن الكمية المقررة. وكان العقاب سريعا ووحشيًا ؛ فبسرعة أمسك أربعة من 'الجلادين' الأقوياء بأول المخالفين وطرحوه أرضًا وأوثقوا يديه وأقدامه ثم تقدم شخص خامس يحمل سوطًا طويلاً من جلد فرس النهر المجدول. وانهال السوط دون هوادة وأحدثت حوافه الحادة المتجعدة جراحًا عميقة فى الجسد ؛ على الظهر والكتفين والأرداف وانفجرت الدماء من أماكن عديدة. وعبثًا حاولت الضحية أن تتلوى فى قبضات الجلادين، فكان السوط يمزق أجزاءً أخرى من الجسد المرتعش – وفى حالة واحد من الضحايا الأربع نزل السوط على أكثر أجزاء الجسم حساسية. وتركت 'مئة جلدة لكل منهم' أربعة أجساد خامدة تغطيها الدماء وترتجف على الرمال الساخنة لمحطة جمع المطاط.

وفى أعقاب ذلك الحادث المفزع مباشرة حدث أمر آخر. كنا قد انتهينا لتونا من الإفطار حين اندفع أب أفريقى على سلم شرفة منزلنا المصنوع من الطوب النيئ وألقى على الأرض يد وقدم ابنته الصغيرة، التى لم يكن عمرها يزيد على خمس سنوات.

* * *

وبينما حملة التشهير التى أشعلها موريل ماضية على قدم وساق فى أوروبا، انطلقت الرسائل المسعورة من بلجيكا إلى بوما عاصمة الكونجو ومنها إلى المواقع المتقدمة النائية. وعينت الدولة وكيلاً للنائب العام بالقرب من محطة البعثة البريطانية حيث كان يعمل الزوجان هاريس. وكتب إليه الحاكم العام:

إن السبب الرئيس فى وضعك فى بارينجا هو أن تزود الحكومة بمعلومات عن كل ما يحدث فى منطقة بارينجا يكون متعلقًا بسخط المبشرين ... وقد يكون من الضرورى أن يكون لديك عدة رجال سود يعملون لحسابك ويجمعون المعلومات المفيدة من قرى المنطقة، وبخاصة عندما يبدأ المبشرون فى التجول.

إنى أفوضك بتعيين خمسة عمال لهذا الغرض، وقد أعطيت تعليماتى للمفوض العام للإقليم الاستوائى كى يزودك بالتمويل اللازم. وتستخدم ذلك التمويل كما يترائى لك، سواء لاستئجار عمال سود ... أو لمنح هدايا لوطنيين معينين يعيشون فى القرى ويستطيعون تزويدك بالمعلومات ...

وغنى عن البيان أن ذلك يجب أن يتم بأقصى درجات السرية.

وفى الشهور التالية كتب وكيل النائب العام فى بوما إلى نائبه فى بارينجا يستقصى منه عن الخطط المزمع طرحها فى الاجتماع القادم للمبشرين البروتستنت. وبعدها ببضعة أسابيع، أتبع ذلك بإرسال أعداد سبعة أشهر من 'بريد غرب أفريقيا' التى يصدرها موريل مع وعد بإرسال المزيد من الأعداد بمجرد وصولها إلى العاصمة:

ألفت نظرك بصفة خاصة إلى أنه من المهم للحكومة التنبه إلى عدم دقة اتهامات المبشرين، لكى نكشف الإيمان الردىء الذى أوحى إليهم بذلك الهجوم على الحكومة. ومن المهم أن تصبح كل واحدة من تلك المسائل ... محل فحصك الدقيق، وأن تكون موضوعة فى تقرير ترسله لى عن تلك الأخطاء ...

وبينما الهجوم على ليوبولد يتصاعد، زاد النظام باستمرار من رقابته لأنصار موريل فى الكونجو. ولم يكن هناك من هو أكثر تعرضاً للخطورة من هزكيا أندرو شانو (Hezekiah Andrew Shanu).

كانت بريطانيا قد أنشأت مستعمراتها فى أفريقيا قبل ليوبولد بزمن طويل، وعندما نشأت دولة الكونجو اتجهت أنظارها فى أيامها الأولى إلى تلك الأقاليم لمدها بالعمالة المدربة والجنود وغير ذلك من الموظفين. وكان شانو قد وُلد وتعلم فيما يعرف اليوم باسم نيجيريا وصار مدرساً. وفى سنة ١٨٨٤، بدأ يعمل موظفاً فى نظام ليوبولد، وكان من بين مهامه تجنيد الجنود من وطنه للقوة الشعبية. وعندما أصبح كاتباً ومترجماً بين الإنجليزية والفرنسية فى مكتب الحاكم العام فى بوما أحضر زوجته وأخاها وبعض أفراد أسرته من لاجوس ليعيشوا فى الكونجو. وفى سنة ١٨٩٣ استقال من الحكومة واشتغل بالعمل الخاص لحساب نفسه. وفى العام التالى سافر إلى بلجيكا حيث ابتاع بيانو ولنشاً بخارياً وأدخل ابنه المدرسة. وفى كل الدول ذات المستعمرات يعير الناس آذاناً صاغية للرعايا المتنين، فاستُقبل شانو بحماسة كبيرة عندما ألقى محاضرة عن الكونجو شكر فيها البلجيكيين لأعمالهم العظيمة. وذكرت صحيفة باستحسان أن شانو "يعبر عن نفسه بالفرنسية بمنتهى الصحة"، وحيته صحيفة أخرى بوصفه "مثالاً حياً لكمال الجنس الزنجى". وكان شانو رجلاً مهيباً يرتدى ياقة بيضاء منشاة فى المناسبات العامة ويضع شريط ميدالية دولة الكونجو على سترته.

وبعد زيارات لإنجلترا وفرنسا وألمانيا عاد شانو إلى الكونجو وأصبح رجل أعمال ناجح. وفى بوما افتتح متجراً مليئاً بالسلع يبيع فيه الطعام المعلب وغيره من السلع من

أوروبا، وإضافة لذلك أدار متجراً لخياطة الملابس ومغسلة، وبضع منازل سكنية فى بوما ومتادى وهى المدينة التى ينتهى عندها الخط الحديدى. وكان يستمتع بالتصوير الفوتوغرافى، ونشر بعضاً من الصور التى التقطها فى مجلة تصدر فى بروكسل وهى "لو كونجو إلستريه" (Le Congo Illustre). وعندما أجر منزلاً كان يملكه لنائب قنصل بريطانى، كان من أوائل من ذهبوا إلى الكونجو، ترك أثراً عميقاً فى نفس الرجل حتى أنه رشح شانو لوزارة الخارجية البريطانية كى يحل محله عند قيامه بإجازة. كما كان شانو يتمتع أيضاً باحترام مستخدميه السابقين. ففى أثناء تمرد للقوة الشعبية فى بوما سنة ١٩٠٠ تقبل مسئولو الدولة بامتنان كبير مساعدته فى منع التمرد من الانتشار إلى الأفارقة الغرب - أفريقيين العاملين فى المدينة. بل إنه عرض أن يحمل السلاح ضد المتمردين. وكتب أحد كبار موظفى حكومة الكونجو: "إن مسيو شانو، فى تلك اللحظات العصيبة، قد أثبت ولاءه الصادق للدولة".

وحتى تلك اللحظة كان شانو قد ألقى بكل ثقله مع حكام الكونجو. لكن أمراً - لا نعلمه - جعله يغير من موقفه، وينتقل إلى معسكر أعداء ليوبولد. وكانت تلك خطوة محفوفة بالمخاطر بالنسبة لرجل أسود يعيش فى عاصمة الكونجو. وظهرت علامة على تغير سلوكه عندما زود، كما يبدو واضحاً، روجر كيسمنت بمعلومات عن إساءة معاملة العمال الغرب - أفريقيين فى الكونجو. وفى المقابل يبدو أن كيسمنت أخبر شانو عن الحملة التى كان موريل يقودها فى أوروبا. وبينما كان كيسمنت فى داخلية البلاد يجرى تحقيقاته سنة ١٩٠٣ أرسل شانو شيكاً إلى موريل وطلب منه نسخاً من كتاباته. ورد موريل فى الحال، وقد أثلج صدره أن يكون له حليف أفريقى فى عقر دار عاصمة العدو، وأرسل إلى شانو اشتراكاً فى مجلته وكتاباً وبعض النشرات. وكتب له يقول: "إنى لا أعرف آراءك عن مسألة الكونجو، ولكنها إن اتفقت مع آرائى فسأكون فى غاية السعادة لو زودتنى ببعض المعلومات من وقت لآخر". وبعد بضعة أسابيع كتب موريل له مرة أخرى مقترحاً أن يرسل خطاباته إلى عنوان والد زوجة موريل فى ديفون حتى لا يلفت أنظار رقيب البريد فى بوما. ولم يمض وقت طويل حتى وجد شانو بعض المعلومات المفيدة التى تستحق أن يرسلها.

وبعد أن بدأت الاحتجاجات فى أوروبا ضد حكم ليوبولد، عمدت دولة الكونجو إلى القيام بمحاكمات بصفة دورية، مصحوبة بصخب إعلامى كبير، لصغار الموظفين البيض بتهمة ارتكاب أعمال وحشية ضد الأفارقة. وبين حين وآخر يحكم على المدانين بالسجن، رغم أن غالبيتهم كان يُطلق سراحهم بعد قضاء جانب ضئيل من المدة المحكوم عليه بها. غير أن المحاكمات قد تشكل خطورة على الحكومات القمعية؛ فقد تتكشف فى أثنائها للجمهور معلومات ضارة. وعلى غرار ما يحدث لكباش الفداء من الصغار فى أنظمة الحكم الاستبدادية فى كافة أنحاء العالم، فإن المتهمين بالمذابح الوحشية فى الكونجو كانوا يدافعون عادة بأنهم إنما كانوا ينفذون الأوامر - وكثيراً ما تمكنوا من استدعاء شهود أو إبراز وثائق تؤيد مقولتهم. ولهذا أبقت الدولة سجلات تلك المحاكمات سرية، ولسنوات عديدة لم يتسرب منها شىء. ولما كان موريل يدرك أن الأدلة فى تلك المحاكمات ستكون وقوداً لحملة إصلاح الكونجو، فقد سأل شانو أن يتكشف الأمر قدر استطاعته.

ووصلت حالة كاشفة بوجه خاص إلى ذروتها فى أوائل سنة ١٩٠٤، وكان المتهم الرئيسى، وهو وكيل لإحدى شركات المطاط يدعى شارل كودرون (Charles Caudron) وكان شغوفًا بإطلاق النار، قد اتُهِم بعدة جرائم شملت قتل ١٢٢ أفريقيا على الأقل. وقُدِّم للمحاكمة حتى تستطيع الدولة أن تدعى أنها تدافع عن حقوق الإنسان، ولكن كانت هناك دوافع أخرى أيضًا. فقد أغضب كودرون قائد القوة الشعبية فى منطقته الذى كان يؤمن بأنه المسئول الوحيد عن العمليات العسكرية هناك. كما أنه أطلق العنان للإرهاب والرعب حتى أوقع الفوضى فى إنتاج المطاط فى منطقة وفيرة الأرباح.

وكشفت المحاكمة الكثير عن أوامر الحكومة الخاصة بالتغاضى عن أخذ الرهائن. وإضافة لذلك، فإن محكمة الاستئناف خففت الحكم على كودرون بسبب "الظروف المخففة". وتذرعت المحكمة بالنغمة المعتادة عن كسل الوطنيين وأشارت إلى "الصعوبات الجمة التى وجد [كودرون] نفسه فيها، لإنجاز مهمته وسط سكان يقاومون أية أفكار عن العمل، ولا يحترمون إلا قانون القوة، ولا يرضخون لأية وسائل للإقناع إلا الإرهاب".

وأمكن لشانو الحصول على بعض وثائق المحكمة وأرسلها سرا إلى موريل الذى نشرها فى الحال، مقرراً أن تلك كانت "أعنف ضربة تلقتها دولة الكونجو". وكان فى ذلك القول مبالغة، ولكن الوثيقة كانت فعلاً شديدة الضرر. ومما زاد فى الإحراج أنها أتت من أفواه مسئولى دولة الكونجو أنفسهم. والتقطتها أعين وزارة الخارجية البريطانية ونشرتها فى تقرير رسمى.

غير أن مساهمة شانو التالية فى الحملة المضادة للكونجو انتهت نهاية مأساوية. فقد عمل كحلقة اتصال بين موريل وموظف من موظفى دولة الكونجو وهو رئيس شرطة بوما الذى ادعى أن لديه معلومات يعطيها أو يبيعها للإصلاحيين. ولكن الرجل انقلب خائنًا فهاجم موريل فى الصحف البلجيكية وكشف عن شانو بوصفه شريك موريل. وتخوف موريل على حياة شانو، الذى كان يعتبره "رجلاً ذا سمعة لا تشوبها شائبة، وحث القنصل البريطانى فى بوما أن يفعل ما فى استطاعته لحمايته. وأرسل إلى شانو يعرض عليه المساعدة ويسأله بتلهف عن الأنباء. وعندما وصلته لم تكن حسنة. فلأن شانو كان رعية بريطانية لم ترغب سلطات الكونجو فى أن تخاطر بأزمة دولية بالقبض عليه. وعوضًا عن ذلك شرعوا فى إزعاجه دون هوادة حتى إنهم ألغوا الميدالية التى كوفئ بها لأعماله للدولة. ثم أمروا كل موظفى الدولة بعدم التعامل مع متاجره. وبذلك ضمنوا إفلاسه. وفى يوليو ١٩٠٥ انتحر هزكياه أندرو شانو.

* * *

وعند انقلاب القرن كان فندق "قصر الإليزيه" بالقرب من قوس النصر من بين أحلى فنادق باريس، وذات يوم لاحظ أحد نزلاء الفندق شابة مقيمة أيضًا فى الفندق كان اسمها، مثل أمور كثيرة فى حياتها، مثار تساؤلات: كان اسمها كارولين، وربما بلانش، ديلاكروا أو لاكروا. وعلى الرغم من أنها كانت فى سن المراهقة؛ فإن كارولين كانت عشيقة أنطوان – إمانويل ديريو (Antoine-Emmanuel Durrieux)، وهو ضابط سابق فى الجيش الفرنسى. وحاول أن يقيم أودهما بالمراهنة فى سباق الخيل.

ولما خاب حظه فى ذلك عمل ديريو قوادًا لكارولين. وكان سكنهما فى فندق قصر الإليزيه قاعدة مفيدة لأعمالهما، ولكنهما كثيرًا ما عجزا عن دفع فواتير الإقامة. وظهر حل غير متوقع لمشاكلهما عندما اقتربت امرأة من كارولين فى الفندق وخاطبتها: "يا سيدتى، إنى مرسلة إليك من قبل سيد شاهدك. وهو شخصية بارزة ولكن مركزه الرفيع يجبرنى على إخفاء اسمه".

وتم تدبير مقابلة فى اليوم التالى. ووفقًا لمذكرات كارولين التى لا يمكن الاعتماد عليها تمامًا، فإن ديريو توجه إلى سباق الخيل معتمرًا قبعة عالية وقفازًا لؤلؤى اللون ونظارته المعظمة تتدلى من رقبته وهو لا يدرى شيئًا. (وأغلب الظن أنه كان على دراية تامة بالأمر وتم شراؤه مقدمًا). واتجهت كارولين إلى غرفة منعزلة فى مبنى بشارع لورد بايرون القريب. ووصلت الشخصية البارزة ومعها اثنان من المرافقين جلسا على جانبى كارولين وشرعا فى إلقاء أسئلة عليها. "ولم تكن محادثة بالمعنى المفهوم؛ وإنما كانت سلسلة من أسئلة مبتذلة تولاها المرافقان واحد تلو الآخر ... وجعلتنى تلك الأسئلة أدير رأسى أولاً إلى اليمين ثم إلى اليسار. وأجبت عليها دون تفكير، وكان هدفهما الوحيد، كما علمت فيما بعد، أن يظهرا جانبى وجهى للشخصية الصامتة". وبعد أن تفحص مليًا غنيمته الجديدة ابتسمت الشخصية البارزة من خلف لحيتها وأعلنت عن رضائها. ودعا كارولين أن تسافر معه إلى النمسا، وفى اليوم التالى وصلها مبلغ كبير من المال، وبضعة صناديق ثياب خالية كى تملأها كارولين بثياب جديدة من اختيارها. ووجد المعجب بها طريقه إلى قلبها، فقد كانت لا تعشق شيئًا فى الدنيا أكثر من شراء الملابس. وكانت كارولين فى السادسة عشرة والملك ليوبولد الثانى فى الخامسة والستين.

وكما هو حادث اليوم، لا يبقى شىء ملكى سرا. فتناقل رجال البلاط الإشاعات وتهامس الخدم وسرعان ما امتلأت صحف أوروبا بأنباء الغرام المخزى. ورغم أن ليوبولد عُرف عنه منذ زمن ولعه بالشابات الصغيرات؛ فإن كونه يفقد وعيه كليةً على بغى فى السادسة عشرة، كان أمرًا مختلفًا. فقد كانت عشيقته الجديدة صغيرة بحيث يمكن أن

تكون حفيدته. وكانت العلاقة بين حياة ليوبولد العائلية المشوشة ورغباته الجنسية وقصة الكونجو أوثق بكثير من أن تكون علاقة عابرة. ومن المثير للسخرية أنها أفقدته شعبية في بلجيكا[1] أكثر بكثير مما فعلته الأعمال الوحشية التي ارتكبها في أفريقيا. وأدى ذلك بدوره إلى أن أقلية من شعبه كانت على استعداد لأن تقف بجواره عندما أصبح هدفًا لحركة احتجاج عالمية.

كما أن نقائص الملك الشخصية جعلت منه أيضًا هدفًا مغريًا للصحافة العالمية التي كان موريل يستثيرها. وصنعت منه لحيته الكثة، التي تحولت الآن إلى اللون الأبيض، حلمًا من أحلام رسامي الكاريكاتير. وكانت بنيته الضخمة المتسربلة بعباءة تملأ صفحات الصحف الأوروبية: فيقطر الدم من لحيته، وتقبض يداه على رءوس متغضنة من الكونجو، وتلتهم عيناه بشبق راقصات فرق الباليه. وهو يتناول العشاء فوق رءوس أفريقية مقطوعة مزدانة بالحراب. ويشكو نيقولا الثاني قيصر روسيا من أن سوطه عديم الكفاءة، فينصحه ابن العمة ليوبولد مرتديًا جلد نمر، باستخدام الشيكوت. وتتضرع بنات ليوبولد المنبوذات إلى أبيهن طلبًا للملابس التي تستغني عنها كارولين. ويتشارك ليوبولد في الضحك مع سلطان تركيا وفي زجاجة نبيذ وهما يقارنان مذابح الكونجوليين بمذابح الأرمن.

وماتت ماري - هنرييت زوجة الملك عاشقة الخيول والموسيقى التي طال عذابها بعد أن قضت سنوات طوال متعايشة مع حبه الجديد. ومنذ تلك اللحظة، صار تدله الملك في حب كارولين أمرًا مفضوحًا. فوضعها في دار فخمة وهي فيلا فاندربورجت عبر الطريق من المجمع الملكي في ليكن، وأنشأ جسرًا للمشاة فوق الشارع كي يتمكن من التسلل لزيارتها كلما عنَّ له.

وكان يغار عليها بضراوة، ومن الواضح أنه كانت لديه أسبابه: فقد ضبطها ذات مرة في فيلا في بروكسل مع ديريو الضابط السابق الذي كان يظن أنه انتزعها منه.

(١) كما أنها لم تكسبه الأصدقاء في أي مكان آخر: فبعد أن انتهى من زيارة رسمية لألمانيا، أرسلت أوجستا زوجة فيلهلم الثاني المتزمتة قسيسها الخاص لكي يطهر غرف القصر التي كان ليوبولد يقيم فيها.

ويبدو أن ديريو، الذى حاولت كارولين أن توهمه أنه أخوها، قد ظهر فى مناسبات أخرى أيضًا. وأخبرت إحدى الصحف قراءها أن كارولين وديريو لديهم أجراس كهربائية سرية مثبتة فى مقار إقامتهما بحيث يتمكن الخدم من إنذارهما إذا أقبل ليوبولد.

وبعد انتقالها إلى بروكسل داومت كارولين على زيارة باريس زيارات متكررة لتزور صانع ملابسها وصانع قبعاتها. (وتباهت فى مرة أنها فى تلك الفترة اشترت ملابس بثلاثة ملايين فرنك من متجر واحد هو كالو). وعندما شكت إلى ليوبولد لأن قطار المساء السريع للعودة إلى بروكسل يغادر باريس فى موعد مبكر وبذلك لا يترك لها إلا فسحة ضئيلة من الوقت للتسوق، وخوفًا من أن تقضى كارولين ليلتها فى باريس وتغيب عن ناظريه سواد الليل، فقد تحادث مع رئيس السكك الحديدية. ومنذ تلك اللحظة تأخر موعد قيام القطار لمدة ساعة.

وتعلمت كارولين سريعًا أن تستغل الصفات التى يتسم بها ليوبولد مثل خوفه الوسواسى من المرض. "فى يوم كنت أحتاج لبضع ساعات أخلو فيها لنفسى فحصلت عليها بالعطاس. ومرات عديدة نجحت فى إبعاد نساء يخططن لإقامة علاقة غرامية مع العاهل بإخباره أنهن مصابات بنوبات برد!"

وكان ليوبولد يصطحب كارولين معه إلى أى مكان يذهب إليه. وكان من المفترض أن تسافر تحت اسم مستعار، غير أن الحشد المتزايد من الخدم جعل ذلك أمرًا صعبًا. وصُدم الجميع عندما سافرت مع الملك إلى لندن كى يحضر جنازة ابنة عمه الملكة فيكتوريا سنة ١٩٠١ . ولم يتخل الملك تمامًا عن اهتمامه بنساء صغيرات أخريات – وفى بروكسل وباريس وأماكن أخرى كان يرسل وصيفه أو أى وسيط آخر بصورة دورية للبحث عن فتيات تتفق مقاييسهن الجسدية مع مواصفاته – ولكن كارولين كانت فى مقام مختلف. وكان الاثنان يجاهران بفارق السن بينهم بدلاً من إخفائه: فكانت تدعوه المسن جدًا وهو يدعوها الباهرة الجمال. وإذا ما كان شخص مثل ليوبولد قادرًا على الحب؛ فإن تلك البغى المراهقة أثبتت أنها حب حياته.

ولم تكن علاقته بكارولين هى السبب الوحيد فى فقدانه شعبيته عند البلجيكيين. فقد بدأ يتكشف لشعبه أن بلدهم لا يحصل إلا على النزر اليسير من الأرباح المالية من الكونجو: فجانب كبير من الأرباح يذهب مباشرة إلى ملابس كارولين وقصورها، وجزء أكبر من ذلك بكثير يضيع فى مشاريع الملك البنائية. ولما كان ليوبولد غير ذواقة للأعمال الجيدة ولا الأدب أو المسرح - وكانت كراهيته للموسيقى معروفة - فقد كان ينفق جل أمواله فى بناء المباني، وكلما كان المبنى أكبر كلما كان أحسن.

ولسنوات عديدة كان الملك يدعى الفقر، غير أنه لم يستطع أن يستمر طويلاً فى ذلك الادعاء بينما أقواس نصره ومتاحفه ونصبه التذكارية تنتشر فى كل مكان فى البلاد. واشتد حنق البلجيكيين عندما صار واضحًا أن ملكهم ينفق غالبية الثروة التى عثر عليها مؤخرًا فى خارج البلاد. وسرعان ما أصبح واحدًا من كبار ملاك الأراضى فى الريفييرا الفرنسية، حيث بنى رصيفًا ليخته ألبرتا وحمولته ألف وخمسمئة طن، وكلف معماريين من نيس ليصمموا ويبنوا سلسلة من القصور الفاخرة. وكانت ممتلكاته تشمل غالبية الأراضى فى نهاية رأس فيرا (Cap Ferrat)، التى كانت وما تزال حتى الآن، من بين أغلى مناطق العقارات المطلة على البحر فى العالم.

وأغدق ليوبولد على عشيقته الشابة القلاع والقصور. وعندما حملت تقاسم هو والحكومة الفرنسية تكاليف إنشاء طريق جديد بالقرب من فيلتها فى رأس فيرا، حتى يكون الطريق أكثر نعومة لعربتها. وعندما وُلد ابنها، مُنح لقب دوق تيرفورين (Duke of Tervuren) وصارت هى البارونة فوجان (Baroness de Vaughan). واصطحبها الملك على متن يخته فى رحلة حول البحر الأبيض المتوسط، واشمأز منها الرأى العام البلجيكى، ومرة قذفوا عربتها بالحجارة فى شوارع بروكسل. ووقر فى أذهان الأوروبيين أن كلا من حياة الملك العامة وحياته الخاصة قد أصبحا الآن متداخلتين. وعندما ولدت كارولين ابنها الثانى، وُلد بيد مشوهة تشوها خلقيا. وصدرت مجلة بنش (Punch) الإنجليزية وبها رسم كاريكاتيرى لليوبولد وهو يحمل ابنه الوليد وهو محاط بجثث الكونجوليين من ذوى الأيدى المقطوعة. وكان التعليق على الرسم: انتقام من السماء.

كيف كان شعور ليوبولد وهو يرى نفسه هدفًا لكل ذلك الحنق؟ من الواضح أن ذلك كان يسخطه؛ فقد كتب مرة لأحد معاونيه: "لن أترك نفسى تتلوث بالدماء ولا بالطين". لكن نبرة صوته كانت دائمًا تشى بالضيق والرثاء للنفس لا بالخزى والشعور بالذنب. ومرة، عندما شاهد رسما كاريكاتيريا لنفسه فى صحيفة ألمانية وهو يقطع الأيدى بسيفه فقال، حسب رواية واحد من مساعديه العسكريين، "أقطع الأيدى – هذا تصرف أحمق! إنى أقطع كل شىء آخر ما عدا الأيدى. فهى الشىء الذى أحتاجه فى الكونجو!" ولا عجب أن الملك قدم بمزاح رئيس الوزراء أوجست بيرنيرت (Auguste Beernaert) فى اجتماع بوصفه "أعظم ساخر متشائم فى المملكة"، ورد بيرنيت بوجه جامد خال من التعبير أنه لا يجسر على أن يسبق جلالته فى أى شىء.

الفصل الخامس عشر

فاتورة الحساب

فى أثناء ما كان إ. د. موريل وروجر كيسمنت وحلفاؤهما يلفتون أنظار أوروبا بتقاريرهم عن المحرقة الدائرة فى أواسط أفريقيا، كانت الصحف والمجلات تنشر صوراً للقرى المحروقة والأجساد المشوهة، وتحدث شهود عيان من المبشرين عن إفراغ مناطق بأكملها من سكانها. والنظر إلى ذلك السجل المكتوب والمرئى يدفعنا فى التو إلى سؤال حاسم: ماذا كانت حصيلة الموت فى كونجو ليوبولد؟ وهذه هى لحظة جيدة لنتوقف مؤقتاً عن سرد قصتنا للبحث عن إجابة لهذا السؤال.

والسؤال ليس بهذه البساطة. وبادئ ذى بدء فالتاريخ فى حالتنا هذه لا يملك خطوطاً واضحة حول الموضوع مثلما يملك، مثلاً، عندما نتساءل عن عدد اليهود الذين قتلهم النازى فيما بين سنتى ١٩٣٣ و١٩٤٥ . فدولة الكونجو المستقلة المملوكة ملكية شخصية للملك ليوبولد الثانى عاشت لمدة ثلاث وعشرين سنة بدأت سنة ١٨٨٥، ولكن كونجوليين كثيرين كانوا بالفعل يموتون ميتات غير طبيعية منذ بداية تلك الفترة، كما أن هناك عناصر مهمة فى نظام الاستغلال الذى وُضع فى عهد الملك استمر معمولاً بها لسنوات عديدة بعد النهاية الرسمية لتلك الدولة. فقد بدأ ازدهار المطاط، وهو السبب فى أسوأ إراقة للدماء فى الكونجو، تحت حكم ليوبولد فى منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر، غير أنه استمر لسنوات عديدة بعد نهاية حكم الرجل الواحد.

ويضاف إلى ذلك أنه على الرغم من أن القتل فى الكونجو كان على مستوى الإبادة العرقية فى مداه؛ فإنه لم يكن إبادة عرقية بالمعنى الحرفى للكلمة. فلم تكن دولة الكونجو

تتعمد استئصال شأفة مجموعة عرقية بعينها من على ظهر الأرض. فبدلاً من ذلك كان رجال ليوبولد يبحثون عن العمالة، مثلهم فى ذلك مثل تجار الرقيق الذين كانوا لقرون خلت من قبلهم يغيرون على أفريقيا. فإذا كان قد حدث أنه فى أثناء عثورهم على تلك العمالة واستخدامهم لها أن ملايين البشر ماتت فإن ذلك كان فى نظرهم أمراً عارضاً. ولم يحتفظ إلا قلة من الموظفين بإحصائيات عن الأرواح الأفريقية، وهو أمر كانوا يعتبرونه أمراً تافهاً. ولهذا فإن تقدير أعداد الضحايا اليوم يحتاج إلى جهد بوليسى وتاريخى ضخم.

وفى خسارة بشرية بهذا الحجم فإن الحصيلة عادة ما تكون مركبة من أرقام مستقاة من واحد أو أكثر من مصادر وثيقة الصلة بعضها ببعض: (١) القتل، (٢) المجاعة والإرهاق والتعرض للعوامل الجوية، (٣) الأمراض، (٤) انهيار أعداد المواليد الجدد. وفى أسوأ فترة فى الكونجو، وهى فترة ازدهار المطاط الطويلة، جاءت الأرقام غزيرة من المصادر الأربعة كلها:

١ - القتل: على الرغم من أن القتل الصريح لم يكن السبب الرئيسى للموت فى كونجو ليوبولد؛ فإنه كان أكثر سبب مدعم بوضوح بالوثائق. فعندما كانت قرية أو منطقة تعجز عن الوفاء بحصتها من المطاط أو تقاوم النظام، كان جنود القوة الشعبية أو حراس شركات المطاط كثيراً ما يعمدون إلى قتل كل من يجدونه. ومن البديهى أنه فى المرات التى كان شاهد عيان يعثر مصادفة على كومة من الهياكل العظمية أو الأيدى المقطوعة ويبقى تقرير بالواقعة محفوظاً، لم يكن ذلك يشكل إلا نسبة ضئيلة من المذابح التى حدثت، بضع شرارات من حريق هائل. غير أن بعضاً من تلك الشرارات تتوهج بوضوح:

- فى عام ١٨٩٦ نشرت صحيفة ألمانية هى 'كولنيش زيتونج' (Kolnische Zeitung)، على مسئولية "بلجيكى رفيع المقام، أنباء تقول بأن ١٣٠٨ أيدٍ مبتورةٍ قد سلُمت فى يوم واحد إلى ليون فيفيه (Leon Fievez) مفوض المنطقة الذى اشتهر بسمعته السيئة. وأعادت الصحيفة نشر الخبر مرتين دون أن تبادر حكومة

الكونجو إلى نفيه. وذكرت تقارير إضافية عن أحداث ذلك اليوم مصدرها مبشرون بروتستنت وكاثوليك أرقامًا أعلى للأيدى المبتورة. وفى وقت لاحق، اعترف فيفيه بحدوث ممارسات قطع أيادى الجثث؛ ولكنه أنكر بشدة أنه أمر بقطع أيدى أناس أحياء.

- فى سنة ١٨٩٩، تباهى ضابط من ضباط الدولة هو سيمون روى (Simon Roi) بفرق القتل التى كانت تحت إمرته، دون أن يدرك أن من بين الأشخاص الذين كان يتحادث معهم مبشر أمريكى. وسجل ذلك المبشر وهو إلزوورث فاريس (Ellsworth Faris) تلك المحادثة فى يومياته: "فى كل مرة كان العريف يذهب فيها لجمع المطاط كان يتسلم خراطيش [للبنادق]. وكان يتحتم عليه أن يعيد تسليم الخراطيش التى لم يستعملها، أما تلك التى استخدمها فكان عليه أن يحضر يدًا يمنى مقابل كل خرطوش استخدمه! ... أما إلى أى مدى كان ذلك يُنفذ فقد أخبرنى [روى] بأنهم، أى الدولة، استخدموا فى منطقة نهر مومبويو ستة آلاف خرطوش فى ستة أشهر، وهذا يعنى أن ستة آلاف شخص قتلوا أو شُوهوا. بل ذلك يعنى أكثر من ستة آلاف، لأن الأهالى أخبرونى مرارًا بأن الجنود كانوا يقتلون الأطفال بمؤخرات بنادقهم.
- قتلت الحملات التأديبية لإخماد ثورة قبيلة البودجا [انظر الفصل الحادى عشر] ما يزيد فى مجمله على ١٣٠٠ ثائر من أفراد القبيلة. وصدرت تقارير بهذا المعنى فى صحف بلجيكية مختلفة سنة ١٩٠٠، منها صحيفة كانت تنفق عليها دولة الكونجو. وقامت عشرات الثورات ضد جمع المطاط فى كل أرجاء الإقليم فى خلال العقد التالى. وتقدير حصيلة الموت الناتج عن إخمادها جميعًا هو أمر مستحيل، ولكن أحيانًا يظهر إحصاء شارد يحمل استنتاجات مروعة، إذا تذكرنا أن الجنود كانوا يعاقَبون عقابًا صارمًا إن "أضاعوا" الطلقات على أهداف غير بشرية. ومن بين مجموعة كبيرة من الوثائق الكاشفة من شركة أ.ب.ى.ر. ذات امتياز جمع المطاط والتى وصلت إلى يد موريل هناك سجل يبين أنه خلال عام ١٩٠٣، تلقى واحد من بين الخمسة والثلاثين موقعًا فى المنطقة التابعة للشركة ١٥٩ قطعة سلاح و٤٠٣٥٥ دفعة ذخيرة.

وتتواصل قائمة المذابح المحددة المسجلة. وأصبح الإقليم يموج بالجثث، أحياناً بصورة حرفية. وعند مصب أحد الأنهار فى بحيرة تومبا كتب مبشر سويدى هو إ. ف. سيوبلوم (E. V Sjoblom): "رأيت ... جثثًا طافية على البحيرة وأيديها اليمنى مبتورة، وعندما عدت أخبرنى الضابط عن سبب قتلهم. كان ذلك من أجل المطاط ... ولما عبرت النهر شاهدت بعض الجثث الميتة متعلقة ببعض الأغصان فى المياه. وعندما أشحت بوجهى كى لا أرى المشهد الرهيب قال عريف من الوطنيين كان يرافقنا، 'آه هذا لا شىء، فمنذ بضعة أيام عدت من قتال وأحضرت للرجل الأبيض ١٦٠ يداً وألقوا بها فى النهر'".

ولم ينفرد المبشرون والزوار بتسجيل المذابح الجماعية. بل إن كثيراً من ضباط القوة الشعبية احتفظوا بسجلات عن الموت والتدمير الذى خلفوه وراءهم تثير الدهشة لصراحتها.

- فى قرية بيكورو على بحيرة تومبا، قد يكون ضابط سويدى من القوة الشعبية هو الملازم كنوت سفنسن (Knut Svensson) هو السبب فيما شاهده ابن بلده سيوبلوم من الجثث المشوهة. فقد ذكر سفنسن فى يومياته حصيلة موت ٥٢٧ شخصا فى أربعة أشهر ونصف شهر، فى أعقاب فرض نظام المطاط فى ١٨٩٤-١٨٩٥ . (ووفقًا للأساطير الشفهية فى الإقليم اليوم، كان سفنسن يجمع سكان قرية متمردة، بحجة التوقيع على معاهدة أو لتجنيد حمالين، ثم يفتح عليهم النار ببساطة).
- وتسبب يوميات ضابط آخر هو شارل لومير (Charles Lemaire) الرعدة بسبب ما تتسم به من لا مبالاة: "٢٨ مارس ١٨٩١: ... تم إحراق قرية بوكانجا ... ٤ أبريل ١٨٩١: تَوَقُّفُ فى بوليبو ... ولما لم يقابلونا إلا بالرماح والبنادق فقد أُحرقت القرية وقُتل أحد الوطنيين ... ١٢ أبريل ١٨٩١: هجوم على قرى إيكنجو ... قُتل إكل (Ekele) الرئيس الأكبر لقبيلة إتشيمانجيندو ... وألقى فى النهر ... ١٤ يونيو ١٨٩١: حملة ضد قبيلة لوليفا التى رفضت الحضور إلى المحطة. الطقس فى غاية السوء؛ تم الهجوم تحت أمطار عاتية. مجموعة كبيرة من القرى؛ لم نتمكن من تدميرها كلها. قُتل نحو ١٥ من السود ... ١٤ يونيو ١٨٩١:

فى الخامسة صباحًا أرسلت متشودى الزنزبارى ومعه نحو ٤٠ رجلاً ليحرقوا [قرية] نكول ... العملية كانت ناجحة وتم إحراق كل شىء ... ٤ سبتمبر ١٨٩١: فى الرابعة صباحًا الاستعداد للهجوم على [قرية] إبيكو ... تم إحراق القرية بكاملها وقُطعت أشجار الموز ... ١٣ يوليو ١٨٩٢: هاجمنا قرى قبيلة بومبوبو يوم ٧ يوليو بواسطة الملازم ساراسين (Sarrazijn)؛ قُتل ٢٠ من الوطنيين، وتم أسر ١٣ من النساء والأطفال.

- ومن يوميات لويس لوكليرك (Louis Leclercq)، وهو ضابط آخر من القوة الشعبية: "٢١ يونيو ١٨٩٥ ... وصلنا إلى [قرية] يامبيسى فى العاشرة والثلث صباحًا. القرية مهجورة ... أرسلت عدة مجموعات من الجنود لتمشيط المنطقة؛ وعادوا بعد بضع ساعات ومعهم ١١ رأسًا و٩ أسرى. أرسلت زورق كانو للصيد فى المساء وأحضر أيضًا عدة رءوس. ٢٢ يونيو ١٨٩٥: أحضروا لنا ثلاثة أسرى فى الصباح، وثلاثة آخرين قرب المساء، وثلاثة رءوس. وهرع رجل من قبيلة بومانيه وهو يعدو فى الغابة يصيح بحثًا عن زوجته وطفله المفقودين واقترب كثيرًا من المعسكر فتلقى رصاصة من واحد من الحراس، وأحضروا رأسه. لم أشهد من قبل مثل ذلك التعبير عن اليأس والخوف ... أحرقنا القرية".

وتمضى يوميات لومير ولوكليرك – وغيرهم – فى هذا السياق يومًا وراء يوم وأسبوعًا بعد أسبوع.

وكانت المقاومة من أى نوع أو حتى محاولة الهرب أمرًا قاتلاً. وأعاد إ. د. موريل نشر رسالة كان مفوض الإقليم جول جاك (Jules Jacques)[1] قد أرسلها إلى واحد من مرءوسيه بعد اكتشاف أن بعض القرويين قد قطعوا كرمات المطاط كى يستخرجوه منها، بدلاً من مجرد بزل السائل من الكروم كما هو مفترض أن يفعلوا: "السيد رئيس المحطة. من المؤكد أن هؤلاء الناس [قبيلة إنونجو] هم مجموعة من الأشرار. فقد قطعوا

(١) فيما بعد نال جاك المجد فى الحرب العالمية الأولى، واليوم هناك تمثال له فى الميدان الرئيس لبلدة ديكسمويد فى بلجيكا.

كروم المطاط ... ولا بد من أن نقاتلهم حتى نحصل على خضوعهم المطلق، أو إبادتهم إبادة كاملة ... أخبر الوطنيين بأنهم إن قطعوا كرمة واحدة أخرى فسوف أبيدهم إلى آخر رجل".

ولم يكن كونراد يختلق كثيراً من مخيلته عندما كتب مستر كيرتس السطر الشائن: "أبيدوا كل الهمج!"

٢ - المجاعة والإرهاق والتعرض للعوامل الجوية. ولما انتشرت أنباء الإرهاب هرب مئات الألوف من قراهم. ومن باب الانتقام منهم استولى الجنود على ماشيتهم وأحرقوا أكواخهم ومحاصيلهم، وتركوهم دون طعام. وكان ذلك النمط من الأفعال يحدث حتى من قبل فترة ازدهار المطاط، عندما كان جنود ليوبولد يبحثون عن العاج فى المقام الأول وعن حمالين وطعام لأنفسهم. ووصف ملازم سويدى إغارة من تلك الإغارات سنة ١٨٨٥ فى منطقة شلالات نهر الكونجو السفلية: "فى أثناء اقترابنا حدث اضطراب عظيم فى القرية. فقد فوجئ بنا القرويون تماماً. واستطعنا أن نشاهدهم وقد جمعوا ما يستطيعون جمعه من متعلقاتهم وفروا إلى أعماق الغابة ... وقبل أن أغادر المكان أمرت بالاستيلاء على أعداد كبيرة من الماعز والدجاج والبط الموجودة هناك ... ثم غادرنا القرية واتجهنا إلى مكان أفضل كى ننعم بالراحة فى فترة الظهيرة".

وفى بعض الأحيان، وفى أثناء فرارهم من تلك الحملات، كان القرويون يتركون خلفهم الأطفال الصغار خوفاً من أن يكشف بكاؤهم عن أماكن اختبائهم. ونتيجة لذلك مات كثير من الأطفال جوعاً. وهناك نسبة صغيرة من السكان كانوا محظوظين لكونهم يعيشون بالقرب من حدود الكونجو، فتمكن الآلاف من الهرب من البلد. فهرب نحو ثلاثين ألفاً إلى مناطق فرنسية بحلول سنة ١٩٠٠، كما قدر عددهم الحاكم الفرنسى للمستعمرة. وفر آخرون إلى مناطق بريطانية، رغم أن عدداً منهم غرقوا فى نهر لوابولا، الذى يشكل جزءاً من الحدود مع روديسيا الشمالية المملوكة للبريطانيين. غير أنه بالنسبة لغالبية السكان لم يكن هناك مكان يفرون إليه إلا أعماق الأدغال المطيرة أو إلى المستنقعات حيث لا مأوى والطعام قليل. وشاهد المغامر الأمريكى إدجار كانيسيوس

لاجئين فروا من غارات الأراضى المحروقة "يعيشون مثل الحيوانات فى الغابة يتعيشون على جذور النباتات ويأكلون النمل وغيره من الحشرات". وكتب مبشر مشيخى من زملاء وليم شبارد سنة ١٨٩٩: "يفر كل سكان القرية إلى الغابة بمجرد سماعهم بقدوم ضباط الدولة. والليلة وفى منتصف الموسم المطير أنا متأكد أن هناك ٤٠٠٠٠ شخص فى دائرة قطرها ٧٥ ميلاً حول ليبو، وهذا تقدير متواضع، من الرجال والنساء والأطفال والمرضى نائمون فى الغابات دون غطاء يحميهم".

ونحو نفس تلك الفترة، قطع مستكشف بريطانى شاب يدعى إيوارت س. جروجان (Ewart S. Grogan) أفريقيا سيراً على الأقدام وصدم لما رآه وهو يعبر "مناطق مدمرة أفرغت من سكانها" مساحتها ٣٠٠٠ ميل مربع فى أقصى الشمال الشرقى للكونجو. جميع القرى أُحرقت إلى الأرض، وبينما كنت أفر من البلد شاهدت هياكل عظمية فى كل مكان، فى أوضاع تشى بحكايات مرعبة!"

كما أن المجاعة أصابت أيضًا القرويين الذين لم يفروا إلى الأدغال، لأنهم إن كانوا بالقرب من إحدى محطات المطاط كانوا يُجبرون على التنازل عن كثير من الموز والمنيهوت والأسماك لإطعام الجنود. ولم يكن يسكن بقرية بومبا الواقعة فى نطاق امتيازات شركة أ.ب.إ.ر. إلا مئة أسرة، ولكنها كان مطلوبًا منها أن تقدم شهريًا خمسة عشر كيلوجرامًا من اليام [نوع من البطاطس] أو خضروات مشابهة إضافة إلى خمسة خنازير أو خمس عشرة دجاجة. وعلاوة على ذلك كان على مثل تلك القرى أن تحضر كل الطعام بينما يكون الرجال القادرون منتشرين فى الغابات يبحثون بشكل يائس عن المطاط. وبسبب غياب الرجال اللازمين لتجهيز قطع أرض جديدة للزراعة، وهو أمر ضرورى فى التربة الضعيفة للغابة المطيرة، كانت النساء تضطر إلى إعادة زراعة الحقول المستهلكة. فتدنت المحاصيل، واليوم يتذكر أهالى منطقة شركة أ.ب.إ.ر. القديمة تلك الفترة ويطلقون عليها 'لونكالى' أى زمن المجاعة.

وماتت الآلاف المؤلفة من البشر والنساء والأطفال والمسنين وهم رهائن. فقد كان الجنود يحبسونهم فى مجمعات سكنية طينية، وكثيراً ما كانوا مغلولين بالسلاسل،

ويطعمونهم أقل الطعام أو لا طعام إلى أن يحضر رجال القرية الكمية المطلوبة من المطاط - وهو أمر قد يستغرق أسابيع. وفى واحد من تلك المعتقلات سنة ١٨٩٩ كان السجناء يموتون بمعدل ثلاثة إلى عشرة يوميا.

٣ - المرض. ومثلما حدث فى موت السواد الأعظم من الهنود الأمريكيين حصدت الأمراض من الكونجوليين أكثر ممن قتلهم الرصاص. وجلب الأوروبيون وتجار الرقيق من العرب الأفريقيين إلى داخلية الكونجو أمراضاً كثيراً لم تعرفها المنطقة من قبل. ولم يتسع الوقت للأهالى المحليين كى يبنوا مناعة جسدية - مثلما كانت لهم تجاه الملاريا على سبيل المثال. وانتشرت بسرعة كلاً من الأمراض الجديدة والقديمة، لأن أعداداً كبيرة من الكونجوليين أُجبروا على السفر لمسافات بعيدة: للعمل كحمالين أو فى أطقم السفن البخارية (كانت السفينة الكبيرة تحتاج من عشرين إلى ستين حطاباً لقطع الأشجار) أو للعمل بالإكراه كجنود فى القوة الشعبية. وكان الجدرى وداء النوم هما أكثر الأمراض قتلاً وقتلت الأمراض المعدية فى الرئة والأمعاء أعداداً كبيرة وإن بصورة أقل إثارة.

وكان الجدرى متوطناً فى أجزاء من المناطق الساحلية لأفريقيا منذ قرون، ولكن حركة السكان الكبيرة فى عصر الاستعمار نشرت المرض إلى داخلية البلاد، مخلفة أعداداً كبيرة من الموتى فى القرية تلو القرية. ومات ملك الكويا- وهو الذى خلف ذلك الذى رحب بوليم شبارد- من المرض. وأوحى الجدرى بنمط جديد من الإرهاب. فقد أطلق عليه الأفارقة 'المرض القادم من أعلى' أو 'مرض السماء'، لأن ذلك المرض المرعب لم يُعرف له مصدر مألوف. واكتشف رحالة فى الكونجو مدينة مهجورة وشاهد بها حية عاصرة من نوع البوا يبلغ طولها خمسة عشر قدماً [خمسة أمتار] تتغذى على جثث ضحايا الجدرى، وفى قرية أخرى وجد النسور قد أُتخمت من الأكل لدرجة أنها عجزت عن الطيران.

وانتشر أيضاً داء النوم بصورة قاتلة فى مجارى الأنهار. ويقدر عدد من ماتوا من الكونجولين سنة ١٩٠١ وحدها بنصف مليون شخص. وينتج المرض من طفيل ينتقل بلدغات ذباب تسى تسى، وهى ذبابة فى حجم ذبابة الخيل، ولها أزيز مميز عالى النبرة.

وبمجرد انتقاله إلى البشر يصبح داء النوم مرضاً سريع العدوى. وهو قد يسبب حمى وتورماً فى الغدد اللمفاوية ورغبة ملحة غريبة فى تناول اللحوم، وحساسية للبرد. وأخيراً يصاب المريض بالسبات العميق الذى منح المرض اسمه.

ولما واجه المدافعون عن ليوبولد الأدلة الدامغة التى لا يمكن إنكارها عن موت أعداد هائلة من السكان، عمدوا، آنذاك وإلى اليوم، إلى إلقاء اللوم على داء النوم. ومما لا شك فيه أن داء النوم وغيره من الأمراض كان من الممكن أن يحصد أرواحاً كثيرة حتى لو كان الكونجو قد دخل القرن العشرين تحت نظام حكم مغاير لنظام ليوبولد. غير أن القصة أشد تعقيداً، لأن المرض نادراً ما يفعل فعله منفرداً. فالأوبئة عادة ما تحصد أرواحاً أكثر بكثير وبصورة أسرع فى وجود سوء التغذية والإصابات: فالنازى والسوفييت لم يكونوا يحتاجون للغازات السامة أو فرق إطلاق النار كى يقضوا على كثير ممن ماتوا فى معسكراتهم. واليوم، وبفضل قرننا المتسم بالمجاعات والأسلاك الشائكة، فإن أخصائيي علم الأوبئة يفهمون جيداً الآليات التى يحدث بها ذلك. وحتى فى الكونجو لا يحتاج المرء لأن يكون طبيباً ليدرك أن أولئك المتوفين بسبب الأمراض لم يموتوا بسبب المرض وحده. فقد كتب شارل جريبان دى سان – جرمان (Charles Greban de Saint-Germain) سنة ١٩٠٥، وهو قاض عند مساقط ستانلى: "تفتك الأمراض بقوة بالسكان المرهقين، وفى رأيى أننا يجب أن نعزو إلى ذلك السبب الانتشار المطرد لداء النوم فى تلك المنطقة؛ وبالإضافة إلى حمل الأثقال وغياب المؤن الغذائية، فإن ذلك المرض سوف يقضى بسرعة على ذلك البلد. ولم أر فى الكونجو مشهداً محزناً كالمشهد على طول الطريق من كاسونجو إلى كابامبار. فغالبية القرى ليس بها إلا أعداد قليلة من السكان، والكثير من الأكواخ صارت أطلالاً، والرجال والنساء والأطفال أصبحوا نحافاً وضعافاً ودون حياة، وفى شدة المرض، وقد سقطوا فاقدى النشاط، وأهم شىء أنهم بلا طعام".

٤ – انهيار أعداد المواليد الجدد. إذا ما علمنا أن الرجال كانوا يُرسَلون إلى الغابة بحثاً عن المطاط لأسابيع فى كل مرة وسنة بعد سنة، وأن النساء كن تحت الاعتقال كرهائن وفى حالة مجاعة، فإنه لا عجب أن كان عدد المواليد الجدد يتناقص.

وقد لاحظ ذلك مبشر كاثوليكى عمل لسنوات عديدة فى منطقة بحيرة ماى ندومبى، وهى منطقة رئيسية للمطاط. فعندما وصل إلى المنطقة سنة ١٩١٠، دُهش للانعدام شبه التام للأطفال ما بين سن السابعة والرابعة عشرة، رغم وجود الكثير من مراحل سنية أخرى. وتلك كانت السمة التى اتسمت بها الفترة من ١٨٩٦ إلى ١٩٠٣ - وهى نفس الفترة التى وصلت فيها حملة المطاط إلى ذروتها فى المنطقة. وفى منطقة متاخمة شهد روجر كيسمنت أوضاعًا مماثلة فى أثناء رحلته لتقصى الحقائق. وقدر أن عدد السكان قد تناقص بنسبة ٦٠ فى المئة وكتب "بدأت فلول السكان الآن فقط تعود، فى أحوال كثيرة، إلى قراها المدمرة أو المهجورة ... وساعد انخفاض نسبة المواليد الجدد على تقليص أعداد السكان ... والنساء يرفضن أن يحملن، ويعملن على تجنب الأمومة. ويعطون مبررًا لذلك بأنه إذا حدثت 'الحرب' فإن امرأة تحمل جنينًا فى بطنها أو رضيعًا على كتفيها لن تستطيع أن تفر من الجنود". وبذلك نتج جانب من تناقص سكان الكونجو عندما توقفت العائلات ببساطة عن إنجاب الأطفال عندما روعتها ومزقتها إربًا حملة المطاط.

* * *

ولم يحدث أن أُجرى إحصاء لأعداد السكان فى الكونجو إلا بعد انقضاء إرهاب المطاط بزمن طويل. غير أن دانييل فانجرونويج (Daniel Vangroenweghe)، وهو عالم أنثروبولوجيا بلجيكى عمل فى منطقة سابقة للمطاط فى سبعينيات القرن العشرين، وجد أدلة ديموجرافية تثبت أن أعدادًا كبيرة من الرجال قد ماتوا من شدة إرهاق العمل عبيدًا للمطاط أو قُتلوا فى حملات تأديبية - واكتشف تلك الأدلة فى سجلات نظام الحكم. وليس هناك من تفسير آخر للنمط الغريب المشترك بين قرية وأخرى والذى اتضح من عد الرءوس الذى أُجرى فى المستعمرة قبل زمن طويل من أول إحصاء لسكان الإقليم. ويُظهِر ذلك العد المحلى للرءوس أن أعداد النساء تفوق أعداد الرجال على طول الخط.

وعلى سبيل المثال فى سنة ١٩٠٧ كان فى إنونجو ٣٠٩ من الأطفال و٤٠٢ امرأة بالغة، مع وجود ٢٧٥ رجلاً بالغًا فقط. (كانت تلك هى نفس المدينة التى كان مفوض الإقليم،

قبل ذلك بعشر سنوات، قد أمر بالإخضاع التام ... أو ... الإبادة التامة". وفى سنة ١٩٠٨ فى إيبوكو القريبة كان بها ٣٢٢ طفلاً و٥٤٣ امرأة بالغة، و٢٦٢ رجلاً بالغًا فقط. وتظهر الإحصائيات من قرى أخرى عديدة نفس النمط. ويشبه تمحيص مثل تلك الأرقام اليوم فحص بقايا محرقة معسكر أوشفيتز. فهى لا تخبرك بالحصيلة الدقيقة للموت وإنما تفوح منها رائحة القتل الجماعى.

وفى أثناء حكم ليوبولد، كم كانت نسبة تقلص أعداد السكان التى يمكن أن نعزوها إلى كل سبب من تلك الأسباب الأربعة؟ والوضع يشابه ما يحدث عندما يحصى المؤرخون أعداد السكان التى هلكت فى الموت الأسود (Black Death)، وهو وباء الطاعون، فى القرن الرابع عشر فى أوروبا، فإنهم يثقون فى النسب المئوية أكثر مما يطمئنون إلى الأعداد المطلقة. فلم تكن لديهم بيانات مستمدة من تعداد سكانى. ومن اللافت للنظر أن بعض التقديرات عن تناقص السكان فى الكونجو والتى قام بها أولئك الذين عايشوها مباشرة تتفق مع بعض التقديرات التى أجريت باستخدام وسائل اليوم العلمية.

وفى سنة ١٩١٩ قدرت لجنة حكومية بلجيكية رسمية أنه منذ وقت أن شرع ستانلى فى إرساء قواعد دولة ليوبولد، تناقص عدد السكان "بمقدار النصف". وفى سنة ١٩٢٠ توصل الميجور شارل س. ليبرخت (Major Charles C. Liebrechts)، وكان من كبار موظفى دولة الكونجو فى معظم فترة حياتها، إلى نفس التقدير. ويأتى أكثر تقدير موثوق به اليوم من يان فانسينا (Jan Vansina) وهو أستاذ متقاعد للتاريخ والأنثروبولوجيا فى جامعة ويسكونسين الأمريكية ولعله أعظم خبير على قيد الحياة بأعراق سكان حوض نهر الكونجو. وهو يؤسس حساباته على "عدد لا يُحصى من المصادر المحلية من مناطق مختلفة: قساوسة لاحظوا تناقص رعيتهم، والأساطير الشفاهية، والأنساب، وكثير غيرها". وتقديراته مماثلة: فما بين سنتى ١٨٨٠ و١٩٢٠ تناقص عدد سكان الكونجو "بمقدار النصف على الأقل".

ولكن نصف ماذا؟ إن أول محاولة لتعداد شامل لسكان الإقليم لم تحدث إلا فى عشرينيات القرن العشرين. وقدر عدد السكان سنة ١٩٢٤ بعشرة ملايين، وهو رقم

أثبتته التعدادات فيما بعد. وذلك يعنى، وفقًا لتلك التقديرات، أنه فى أثناء فترة حكم ليوبولد وما تلاها مباشرة تناقص عدد السكان بما يقرب من عشرة ملايين شخص.

* * *

قرى محروقة، رهائن يموتون جوعًا، لاجئون مذعورون يموتون فى المستنقعات، أوامر "بالإبادة" - بغباء شديد، شروط مالية متعسفة، أليست تلك وسائل عقيمة لتنفيذ الأعمال؟ وقد تؤدى المذابح لأعداد كبيرة من السكان إلى إشاعة الخوف فى نفوس من يبقى على قيد الحياة، ولكن ألا يدمر ذلك قوة العمالة؟ وفى الحق إنها تفعل ذلك. وكانت السلطات البلجيكية قد أمرت بعمل تعداد للسكان سنة ١٩٢٤ لأن قلقها اشتد لنقص العمالة المتاحة. وفى تلك السنة أعلنت اللجنة الدائمة للمؤتمر القومى للمستعمرات فى بلجيكا باضطراب شديد: "فى يوم من الأيام سوف نواجه خطر أن نجد أن سكاننا الوطنيين تنهار أعدادهم ويختفون. ولهذا فسنجد أنفسنا نواجه نوعًا من الصحراء".

وإذن لماذا استمر القتل كل تلك الفترة ؟ وتتبدى نفس عدم العقلانية فى أعماق كثير من أحداث القتل الجماعى. ففى الاتحاد السوفييتى، على سبيل المثال، ساعد قتل أو سجن الخصوم السياسيين الحزب الشيوعى أولاً ثم جوزيف ستالين على الحصول على سيطرة مطلقة. غير أنه بعد أن اختفى كل الخصوم السياسيين أُعدم سبعة ملايين شخص آخرين، ومات ملايين غيرهم فى معسكرات الجولاج (gulag) النائية. وقُبض على أعداد هائلة من المهندسين فتوقفت المصانع عن العمل، وماتت أعداد كبيرة من رجال السكك الحديدية حتى توقفت بعض القطارات عن السير، وأُعدم عدد كبير من الكولونيلات والجنرالات حتى كاد الغزو الألمانى سنة ١٩٤١ أن يسحق الجيش الأحمر ويقضى عليه.

وفى الكونجو، مثلما كان الحال فى روسيا، كان للقتل الجماعى قوة دافعة خاصة به. فالسلطة لها إغراؤها، وما من سلطة تفوق القدرة على إزهاق الأرواح. وبمجرد أن تدور العجلة يصبح من العسير إيقاف القتل الجماعى؛ فهى تتحول إلى نوع من الرياضة مثل الصيد.

وتموج حوليات الكونجو بأقاصيص مثل قصة رينيه دى برمنتييه (Rene de Permentier)، وهو ضابط فى الإقليم الاستوائى فى أخريات تسعينيات القرن التاسع عشر. وأطلق الأفارقة عليه كنية 'باجونو' (Bajunu) (من كلمتى bas genoux بمعنى 'على ركبتيك')، لأنه كان دائمًا يجبر الناس على الجثو فى حضرته. وأمر بقطع جميع الآجام والأشجار حول منزله فى بوكاتولا حتى يتمكن من استخدام المارة أهدافًا للتدرب على الرماية. وكان إذا وجد ورقة ملقاة على الأرض فى فناء كانت النسوة المسجونات قد قمن بتنظيفه كان يأمر بقطع رءوس عشرة منهن. وإن وجد ممرًا فى الغابة غير معتنى به عناية جيدة كان يأمر بقتل طفل فى أقرب قرية.

وحدث ذات مرة أن ضابطين من القوة الشعبية، هما كلمنت براسور (Clement Brasseur) وليون سركل (Leon Cerckel) أمرا بتعليق رجل من رجليه فى نخلة بينما أُشعلت النيران تحتها فتم شواؤه حتى الموت. ووجد مبشران محطة كان السجناء يُقتلون فيها بسكب صمغ الراتنج فوق رءوسهم ثم إضرام النار فيهم. والقائمة أطول من ذلك بكثير.

وقد سجل ميكل هير (Michael Herr)، أكثر مراسلى الحرب الفيتنامية إثارة للإعجاب، نفس نوبات الجنون بصوت جندى أمريكى قابله: "كنا ننزع السياجات ونحرق مشروباتهم وننسف كل الآبار ونقتل كل دجاجة وخنزير وبقرة فى كل القرية الملعونة. وأنا أعنى أننا إذا كنا لا نستطيع أن نقتل كل السكان فماذا نفعل هنا؟" وعندما أراد أمريكى آخر أن يصور شهوة القتل فى تلك الحرب على شاشة السينما فأين بحث لكى يحصل على عقدة رواية 'رؤية نبوئية الآن؟' (Apocalypse Now?)؟ استدار إلى جوزيف كونراد الذى شاهد كل ذلك قبلها بقرن من الزمان فى الكونجو.

الفصل السادس عشر

"الصحفيون لن يعطوك إيصالاً"

بينما كانت حملة إصلاح الكونجو تصل إلى أقصى مدى لها، اختفى من على مسرح الأحداث أكثر رجل فى إنجلترا ارتبط اسمه بالإقليم بصورة لا تمحى. فبعد أن انتُخِب عضواً فى البرلمان، وجد السير هنرى مورتون ستانلى العمل هناك مملاً. ولم تكن مناقشات مجلس العموم المنمقة بديلاً عن القصص المثيرة التى كان يعشق تلاوتها فى قاعات المحاضرات. كما كان ستانلى يفتقد إلى شيء آخر مفيد فى البرلمان وهو حس الدعابة والفكاهة. فسرعان ما تقدم باستقالته.

وظهر تأثير السنين التى قضاها يكافح الملاريا والدوسنتاريا. وأصبح ذلك الرجل، وهو فى أوائل الستينيات من عمره الضئيل الحجم بطريقة مذهلة وذو الشعر الأبيض القصير والشارب والوجه المتورد الذى لوحته الشمس، يمشى بطريقة أكثر بطئاً. وكان يتابع بحماس أنباء حرب البوير التى اشتعلت ضد الثوار الذين تجاسروا على تحدى الحكم البريطانى. وأخذ يعمل بصورة متقطعة على كتابة سيرته الذاتية وقد ملأه الإحساس بالرثاء للذات وهو يطلق على نفسه "رجل وهب حياته فى سبيل وطنه وفى سبيل أفريقيا". ورغم أنه كان طوال حياته غزير الكتابة؛ فإنه ترك ذلك الكتاب غير مكتمل، ربما خوفاً من أن يمسك أحد بتلابيبه فى شبكة القصص المتناقضة التى حاكها حول طفولته وشبابه. وكان هو وزوجته دوروثى وابنهما بالتبنى يقسمان وقتهما بين منزل فى لندن ومنزل ريفى منيف على طراز تيودور المعمارى فى مقاطعة سرى. وأطلقا أسماء

أماكن شهرته على مواضع فى ضيعتهما: بحيرة أسمياها بحيرة ستانلى، ونهر الكونجو على جدول، وأكمة أسمياها غابة إيتورى.

وأشيع أن ستانلى لم يكن سعيداً بما تكشف فى الكونجو من فظائع، ولكن التصريحات العامة القليلة التى صرح بها كانت كلها للدفاع عن ليوبولد. وازدادت صحته سوءاً وقد يكون ذلك بسبب كوكبة من الأطباء كانت تحوم حوله وتتلهف على إعطائه آخر صيحة من العقاقير: حقن الإستركنين، والأمونيا والإتير والنبضات الكهربائية. وفى ١٠ مايو سنة ١٩٠٤ سمع ستانلى دقات بيج بن فى أثناء الليل وتمتم "ما أغرب ذلك! قد أزف الوقت إذن! غريب!" وكانت تلك آخر كلمات تفوه بها.

كان ستانلى واحداً من أكثر الإنجليز المحتفَى بهم آنذاك، وفى أثناء حياته كان تباهيه بالولاء لليوبولد يساوى أكثر بكثير من أية دعاية كان يمكن للملك أن يبتاعها. غير أنه بوفاة ستانلى ونشر تقرير كيسمنت وهجوم موريل المتصاعد، كان ليوبولد يحتاج إلى دفاعات جديدة. وبدت مظاهرها فى مكان غير متوقع.

وصل السفر بالقطارات الفاخرة مرتبة عالية فى العقد الأول من القرن العشرين. وارتبطت المدن عبر أوروبا بعضها ببعض بعربات النوم المريحة التابعة لشركة واجون لى (Compagnie Internationale de Wagons-Lits). وبالنسبة لعلية القوم كان ركوب القطار السريع الليلى يعنى سحباً من البخار ذات حفيف على رصيف المحطة، وحمالاً يحمل الحقائب، وموظفاً فى عربة النوم يُنزل السرير. وبحلول منتصف العقد كان بمقدور هؤلاء المسافرين من أهل الصفوة أن يتوقعوا إضافة صغيرة لتلك الطقوس. فعلى المنضدة فى مقصورة النوم كان هناك عدد من مجلة شهرية بها ثلاثة أعمدة متوازية بالإنجليزية والفرنسية والألمانية تسمى "حقيقة ما يحدث فى الكونجو" (The Truth about the Congo). وكان توزيعها المجانى على تلك النخبة من أثرياء الأوروبيين حلماً من أحلام رجال العلاقات العامة. فقد كان أحد كبار حملة أسهم شركة واجون لى هو الملك ليوبولد الثانى. وهكذا بدأ الملك هجومه المضاد.

وبتأثير من موريل أصبح الهجوم على ليوبولد يأتى من كل مكان. ففى خلال العقد تأسست فروع لحركة إصلاح الكونجو فى ألمانيا وفرنسا والنرويج وسويسرا وأقطار أخرى. ووقع ثمانية من أعضاء البرلمان السويدى على بيان يؤيد حركة إصلاح الكونجو. وكان من بين أنصار موريل الأمير بوريس شتفرتينسكى (Prince Boris Czetwertynski)، وهو من عائلة بولندية كريمة المحتد، والروائى الشهير أناتول فرانس (Anatole France)، والكاتب النرويجى بيورنستين بيورنسون (Bjornstjerne Bjornson) الحائز على جائزة نوبل. وفى سويسرا، وكما كتب أحد الحاضرين، شُحبت وجوه الرجال واغرورقت أعين النساء بالدموع عندما عرضت أليس هاريس صورها عن الأطفال المشوهين فى اجتماع احتجاجى على ما يجرى فى الكونجو. وهاجم أحد المتحدثين حكومة الكونجو فى اجتماع عام حاشد فى أستراليا؛ وأُعطيت سلسلة من المحاضرات فى نيوزيلندا. وفى إيطاليا اشتد واحد من معارضى ليوبولد فى القول لدرجة أن قنصل دولة الكونجو فى جنوه تحداه فى مبارزة. (جرح كلا الرجلين، القنصل فى أنفه وخصمه فى ذراعه). وبدا للملك أن موريل ومؤيديه كأنما هم مؤامرة دولية. ولهذا فقد دافع عن نفسه دوليًا.

وكان معنى أن بلجيكا لم تكن دولة عظمى أن ليوبولد كان يعتمد على المكر، وفوق كل شىء على مهارته فى التلاعب بالصحافة. وفى أثناء شنه لحملته المضادة أثبت الملك أنه لا يقل براعة عن عدوه الرئيس موريل فى التأثير على الإعلام. فأوفد معاونًا من معاونيه فى مهمة سرية إلى المستعمرات البريطانية فى أفريقيا كى يبحث عن فظائع تعادل تلك التى وجدها كيسمنت فى الكونجو. وعمل على نشر مقالات متكررة فى "حقيقة ما يحدث فى الكونجو" تحت عنوان "الأفيون فى الهند البريطانية" وأنباء سيئة من كافة أنحاء الإمبراطورية البريطانية: أحداث الجَلْد فى جنوب أفريقيا، وقتل الأفراد فى نيجيريا، وإساءة المعاملة فى سييرا ليون وأستراليا. ثم أخرج ليوبولد ما فى جعبته من شرور فهدد صديقه السير ألفريد جونز بأن يلغى له عقده ذا الربح الوفير بنقل بضائع الكونجو إذا لم يعمل جونز على إخماد الانتقادات البريطانية.

وفى الحال انبرى جونز إلى العمل. فدفع لاثنين من الرحالة تكاليف رحلة طويلة الأمد إلى الكونجو. كان واحد منهم هو صديقه الفيكونت وليم مونتمورس (Viscount William Mountmorres)، وهو شاب كان جونز صاحب فضل غير مباشر عليه فى حصوله على وظيفته. واستجاب مونتمورس بطبع كتاب مؤيد عن الكونجو سنة ١٩٠٦: "إنه لمن المذهل أن نشهد الحماسة النابعة من القلب التى بها ... يكرس المسئولون أنفسهم لعملهم". وفى حين اعترف مونتمورس ببعض التجاوزات وجد أن أغلب الكونجو "يُحكم جيداً وبطريقة إنسانية". ويذكرنا كتاب مونتمورس بالزيارة المرحة الشهيرة التى قام بها بياتريس وسيدنى وب (Beatrice and Sidney Webb) إلى الاتحاد السوفييتى فى أول عهده. ومثلما فعل آل وب، افترض مونتمورس أن أية قوانين ولوائح مكتوبة تُتبع بحذافيرها. وشدد على أن الشيكوت لا يمكن استخدامها إلا بعد تحقيق رسمى للمتهم فيه حق استدعاء شهود، ولا تُستخدم إلا على الأرداف. كما أنها "لا تُستخدم إلا لما لا يزيد على عشرين جلدة إلا فى حالات السطو المتكرر، فتصل إلى خمسين جلدة بحد أقصى، غير أنه فى تلك الحالة يتوزع العقاب على بضعة أيام، ولا يُجلد المذنب أكثر من عشرين جلدة فى اليوم الواحد". (ومن الناحية العملية، كان ذلك يُتبع بطريقة صارمة تماثل اتباع القانون السوفييتى المبكر بجعل عقوبة الإعدام مخالفة للقانون).

وكان المسافر الآخر الذى تولى جونز نفقات رحلته هى مارى فرنش شلدون (Mary French Sheldon)، وهى ناشرة كتب لندنية وكاتبة فى أدب الرحلات. وبعد وصولها إلى الكونجو على بواخر الدولة والشركات المتحالفة معها (وهو الشىء الذى تجنب كيسمنت بعناية أن يفعله)، لم يدخر المسئولون جهداً فى سبيل إطلاعها على مفاتن الإقليم. وفى كل مكان كانت تذهب إليه كانت الرهائن يُطلق سراحها فلا ترى أحداً فى السجن. وحسبما جاء فى أقوال واحد من المبشرين، حدث فى بانجالا على نهر الكونجو أن موظف الدولة وصل به الحال أنه "قام بهدم السجن القديم وسواه بالأرض، وجعل كل شىء حسنًا لأنها كانت قادمة للزيارة". ولم تنح الأمور منحى خاطئًا إلا مرة واحدة عندما تلقى رئيس محلى لمحطة من المحطات تعليماته محرفة فخلط بين مسز شلدون وشخصية مهمة أخرى أُمر بالاستعداد لاستقبالها من كلية طب

المناطق الحارة بليفربول، فجمع لها فى ساحة خالية أكثر الأشخاص عجزًا وأشد حالات مرضية استطاع جمعها. ولكن لم يحدث شيء؛ فقد وقعت مسز شلدون فى غرام واحد من قباطنة السفن البخارية وأمضت وقتًا طيبًا. ومنحها ليوبولد شرف الالتقاء به وهى فى طريق عودتها إلى الوطن، وساعدها جونز فى وضع مقالها المتحمس فى الصحف. فكتبت فى جريدة التايمز "شاهدت فظائع فى شوارع لندن أكثر مما شاهدت فى الكونجو". وبعد عودتها ألقت محاضرة وعرضًا للشرائح الزجاجية لخمسمئة شخص فى فندق سافوى بلندن، ودفع ليوبولد فاتورة الفندق. ثم وضعها الملك فى قائمة المدفوع لهم بواقع خمسمئة فرنك فى الشهر (نحو ٧٥٠٠ دولار اليوم) لكى تؤثر على أعضاء البرلمان وتستميلهم.

وبينما كان ليوبولد يشن هجماته المضادة على نقاده البريطانيين فى العلن، حاول فى نفس الوقت أن يستميلهم، ودائمًا مستخدمًا وسيطًا لتغطية ما يفعل. واتصل محامٍ باريسى بأحد أعضاء مجلس إدارة اتحاد إصلاح الكونجو، وأخبره بأنه إذا ما وضع الاتحاد مسودة لخطة للإصلاح واقترح لها ميزانية؛ فإنه يستطيع أن يضمن أن جلالته على استعداد لأن يقرأها باهتمام كبير. ورفض موريل هذا بوصفه "صفيقًا فوق العادة". وتقدم السير هيو جلزين ريد (Sir Hugh Gilzean Reid) الصديق المعمدانى للملك باقتراح مماثل لجمعية حماية السكان الوطنيين، التى رفضته أيضًا.

واستطاع الملك أن ينتقم انتقامًا بارعًا من واحد من خصومه وهو بيير ميل (Pierre Mille) الصحفى الفرنسى ذو النفوذ ونصير موريل والذى طالما هاجم الملك بضراوة بصورة متكررة فى الصحف. فذات يوم جاء أحد رجال الحاشية بنبأ أن ميل يزور بروكسل سرا وبصحبته امرأة غير زوجته. وعلم الملك مقر إقامتهما وأرسل لهما دعوة لزيارة الصوبات الزجاجية فى قصر ليكن. وقبل ميل وصديقته الدعوة، وبان عليهما السرور لدرجة أن ليوبولد ظن أنه انتصر على خصم رئيسى لدود. غير أن ميل سرعان ما استأنف هجومه. فطلب ليوبولد من السفارة البلجيكية فى باريس أن تعثر له على عنوان منزل ميل. وأرسل إليه باقة كبيرة من الورود ورسالة تحمل الشعار الملكى جاء فيها: "إلى مسيو ومدام بيير ميل، ذكرى زيارتهما إلى ليكن".

وكانت حملة ليوبولد الإعلامية مدعمة بطاقم كفؤ من الموظفين. وفى سبتمبر ١٩٠٤ جمع مجموعة من كبار مستشاريه ووضعوا خطة لإنشاء مكتب صحفى. يكون مقره بعيداً عن أعين الرأى العام ومتوارياً خلف واجهات عدة مؤسسات تبدو عليها البراءة: لجنة حماية مصالح أفريقيا المتمركزة فى ألمانيا، ومكتب التشريعات المقارنة فى بروكسل، واتحاد الدفاع عن مصالح البلجيكيين فى الخارج، الذى كان يعمل فى عدة أقطار.

وفى خلال عام أو عامين خرجت من المطابع كتب جديدة مؤيدة لليوبولد. وقدم المكتب الصحفى العون المالى خلسة إلى عدة صحف بلجيكية وإلى مجلة نُشرت فى إدنبره تسمى أفريقيا الجديدة – حقائق عن دولة الكونجو الحرة (New Africa - The Truth on the Congo Free State). وتمثُّلاً بموريل أمر ليوبولد بطبع ما يزيد على عشرين نشرة. وكتب خبيره البريطانى فى الدعاية ديمتريوس س. بولجر (Demetrius C. Boulger)، (الذى كان يتلقى ١٢٥٠ فرنك شهريا إضافة إلى المكافآت)، كتب واحدة من تلك النشرات أطلق عليها اسم "دولة الكونجو ليست دولة عبيد"[1] وهو اسم ربما كان دفاعياً أكثر مما يجب. وأخرى بعنوان "تناقض تام فى الكونجو، توضيح للأساليب المثيرة للجدل لمستر موريل السكرتير الفخرى لاتحاد إصلاح الكونجو" (A Complete Congo Controversy, illustrating the controversial methods of Mr. Morel, Hon. Sec. Congo Reform Association)، بتوقيع من يدعى ليوتنانت كولونيل جيمس هاريسون (Lieutenant Colonel James Harrison) والمعلن عنه بوصفه "ريفى نبيل ذو عقلية تامة الاستقلال، ورياضى ورحالة ومعروف فى الأوساط الاجتماعية والسياسية فى لندن". وكانت كل مؤهلات هاريسون كخبير فى شئون الكونجو هى أنه قام برحلة صيد هناك، ووجد فى أثنائها أن "الوطنيين مبتهجون والرضا يملأ قلوبهم".

غير أن العمل الرئيس للمكتب الصحفى كان يتم فى الخفاء. فكان عملاؤه يعطون النقود السائلة سراً إلى المحررين والمراسلين فى كافة أنحاء أوروبا، وبحلول سنة ١٩٠٧

---

(١) ومن بين ما استخدمته لتبرير وسائل ليوبولد، مع أشياء أخرى، تعبير السكان الوطنيين الكسالى: "إن وضع خطة لحمل الجنس الأسود على العمل دون ضغط أو إكراه بأية صورة من الصور هو أمر يخرج عن نطاق الفكر الإبداعى البشرى".

كان مراسلا كلا من التايمز اللندنية وكولنيش زيتونج (Kolnische Zeitung) الألمانية في بروكسل من بين من يتلقون نقوداً. وحصل اثنان من محرري صحيفة رئيسية كبيرة في فيينا على ما يربو على ٧٠ ألف دولار بأسعار اليوم. وفي إيطاليا كان إليا، القنصل المبارز، يعطي دفعات مالية إلى صحيفتين، وينشر مقالات مؤيدة في صحف أخرى، ويهب نقوداً لأناس كي يكتبوا نشرات مؤيدة لليوبولد ويؤلفوا كتاباً، ويرشوا عضواً واحداً على الأقل في البرلمان. ورفضت صحيفة 'كورير دللا سيرا' (Corriere della Sera) رشوة كبيرة وبدأت تحقيقاً صحفياً بدلا منها.

وركز المكتب جانباً كبيراً من نشاطه في ألمانيا، وقد صارت الآن قوة عظمى في أفريقيا. وكان ذلك البلد يشكل مشكلة خاصة لأن القيصر فيلهلم الثاني كان يحتقر ليوبولد، وفي وقت ما أطلق عليه "إبليس وشيطان الجشع في شخص واحد". فقام المكتب الصحفي بتنظيم الحملة المعتادة من المحاضرات والنشرات المؤيدة لليوبولد في ألمانيا، ولكن ذلك لم يكن سوى البداية. وعمل لودفيج فون شتوب (Ludwig von Steub)، وهو مصرفي خدم كقنصل فخري لبلجيكا في ميونيخ، عمل حامل حقيبة ألماني لحساب ليوبولد. وفي برلين هاجمته بعنف صحيفة 'ناسيونال زيتونج' (National Zeitung) سنة ١٩٠٣ متحدثة عن "رجل الأعمال الذي لا خلاق له والذي يعيش في القصر في بروكسل"، ولكن فون شتوب، وكان يعلم أن الصحيفة في ضائقة مالية، تصرف وفقاً لذلك. وبحلول سنة ١٩٠٥ انتقلت الصحيفة إلى داخل أسوار المدافعين: "مما لا شك فيه أنه من العسير على أي ألماني أن يصل إلى رأي واضح في أمور تتشابك فيها مصالح كثيرة، وبخاصة مصالح تجار المطاط البريطانيين". وفيما بعد في نفس العام خصصت الصحيفة صفحة كاملة لوصف براق لدولة الكونجو المزدهرة، التي تفتري عليها بصورة شائنة عصبة من التجار الأجانب والمبشرين الذين ينشرون "حكايات العجائز" و"الأساطير الكريهة للباعة المتجولين". وبحلول سنة ١٩٠٦ صارت تنشر المراسيم التي يصدرها ليوبولد. وفي سنة ١٩٠٧ قلد الملك رئيس التحرير وساماً.

ولاحظ القراء تحولات غامضة مشابهة في صحف ألمانية أخرى. فعلى سبيل المثال بدأت صحيفة 'مونشنر ألجمين زيتونج' (Munchener Allgemeine Zeitung)،

التى كانت تعارض حكم ليوبولد معارضة شرسة، بدأت فى نشر أنباء من الكونجو مؤيدة لليوبولد نقلاً عن "مصدر موثوق فيه" أو "مصدر كونجولى" أو "مصدر عليم ببواطن الأمور". ولم يكن مراسل الصحيفة فى بروكسل ممن يقبضون النقود، فأرسل تقارير نقدية إلى صحيفته منها جزء نُشر دون أن يقرأه رئيس التحرير فيما يبدو. وفى الأسبوع التالى مباشرة استهل رئيس التحرير كلمته "خلافًا لما نشرناه فى عدد سابق، أرسل لنا مصدر آخر، هو بلا شك أكثر إلمامًا بالأوضاع فى الكونجو، التعقيب التالى ..".

وعادة ما يكون من الصعب تتبع الرشوة واقتفاء أثرها، غير أننا نعلم شيئًا عن رشاوى ليوبولد فى ألمانيا بسبب تسلسل أحداث مسل. فقد أضرت الفضائح بفعالية المكتب الصحفى، وفى سنة ١٩٠٨ صدرت الأوامر بإغلاق عمليات الرشاوى فى ألمانيا. غير أن فون شتوب المسكين فى ميونيخ لم يفهم الرسالة أو لم يستطع منع نفسه من الإتيان بهذا العمل المثير. فاستمر يدفع رشاويه – ثم أصابه الارتباك عندما لم تُرد إليه النفقات التى دفعها. وسرعان ما أمطر المسئولين فى بروكسل بالالتماسات وخطابات الشكاوى، التى نجت من التدمير بطريقة ما واكتُشفت فى الأرشيفات بعدها بخمسين سنة. وفيها يصف فون شتوب عمله بمزيد من التفصيلات، ويشرحه لمسئولين أعلى مرتبةً. فكتب إلى وزير الخارجية البلجيكى: "وحسب آراء كل خبراء المستعمرات فإن النوايا الطيبة التى تبديها الحكومة الألمانية [تجاه الكونجو] إنما يرجع الفضل فيها إلى مجهوداتى. فإذا ما تركنا الراية فى لحظة مهمة كتلك وأن نترك الميدان خاليًا للعدو هو جريمة فى رأيى ... وفى ١ يناير و١ أبريل قمت بدفع المبالغ المعتادة، وآمل أن أسترد ما أنفقته على أقل تقدير". وفيما بعد يصف بلهجة أكثر إلحاحًا عن ذى قبل "مدفوعاته لهيئات صحفية" ويشرح لِمَ لم يقدم أوراقًا لإثبات ما يدعيه: "عندما كلفنى السيد ليبرخت (Liebrechts) [السكرتير العام للشئون الداخلية بدولة الكونجو] بتلك المهمة قال لى 'الصحفيون والكتاب لن يعطوك إيصالات، ولذلك فلا تسألهم عنها'".

* * *

وعلى الرغم من جهود الملك لكبح جماح الانتقادات المتدفقة؛ فإنها انتشرت سريعاً. وبمجرد أن استتب الأمر لحركة إصلاح الكونجو فى إنجلترا وضع إ. د. موريل الولايات المتحدة نصب أعينه. وكان موريل يخبر كل أمريكى يستمع إليه أن تلك الأمة عليها مسئوليات خاصة فى إنهاء حكم ليوبولد الدموى، لأنها كانت أول دولة اعترفت بالكونجو.

وفى سبتمبر ١٩٠٤، وبدعوة من مجموعة من المبشرين الأمريكيين كانوا يوالون شجبهم لحكم الملك، عبر موريل المحيط الأطلنطى. وبعد فترة وجيزة من ترجله من السفينة فى نيويورك استقبله الرئيس تيودور روزفلت فى البيت الأبيض. وبعد ذلك تحدث فى اجتماع لحقوق الإنسان فى بوسطون وحث حلفاءه على تأسيس اتحاد إصلاح للكونجو خاص بأمريكا. وكان الدكتور ج. ستانلى هول (Dr. G. Stanley Hall) رئيس جامعة كلارك هو أول من ترأسه، وهو الذى يُذكر اليوم أساساً بسبب أنه دعا سيجموند فرويد فيما بعد إلى الولايات المتحدة. وسرعان ما شملت قائمة نواب رؤساء الاتحاد بضع رجال من رجالات الكنيسة، ودافيد ستار جوردان (David Starr Jordan) رئيس جامعة ستانفورد، وبوكر ت. واشنطن (Booker T. Washington)، ومارك توين (Mark Twain). واصطحب بوكر وفداً من المعمدانيين السود إلى البيت الأبيض كى يحث الرئيس روزفلت أن يضغط على ليوبولد، وتحدث مع أعضاء فى لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس، وبتشجيع من موريل تشارك مع توين فى التحدث عن الكونجو فى اجتماعات عامة فى مدن متعددة. وكتب إلى ليوبولد واحد من أعوانه يقول: "إن الدكتور واشنطن ليس عدواً يسهل التغلب عليه. وحاول ليوبولد دون نجاح أن يُخرِج واشنطن من القضية وذلك بأن عرض عليه رحلة إلى الكونجو مدفوعة التكاليف بالكامل، وعندما لم يفلح ذلك، دعاه فى رحلة إلى بلجيكا.

وسافر توين ثلاث مرات إلى العاصمة كى يمارس الضغوط بعد أن تقابل مع موريل فى نيويورك وانبهر به انبهاراً عميقاً. وكتب واشنطن عن توين: "أظن أنى لم أعرف عنه أنه يمكن أن يهتز حماسةً فى أى أمر كما حدث تجاه المعاملة السيئة للوطنيين فى دولة الكونجو الحرة ... فقد رأيته عدة مرات فيما يتعلق بجهوده لإحداث

إصلاحات فى دولة الكونجو الحرة، ولم يبد عليه أنه تعب من الحديث فى هذا الموضوع".
وتناول توين الغداء مع روزفلت - وهى أنباء سارع موريل بنقلها بتلهف إلى وزارة الخارجية البريطانية - وتقابل مع وزير الخارجية، وكتب إلى موريل أن قضية إصلاح الكونجو فى الولايات المتحدة "هو مشروع هائل ... يحتاج مؤسسة تماثل مؤسسة الصلب الأمريكية (U.S. Steel)". وفى سنة ١٩٠٥ كتب نشرة بعنوان 'الملك ليوبولد يناجى نفسه' (King Leopold's Soliloquy) وهى حديث تخيلى لليوبولد، طُبع عدة مرات وتكدست منه عائدات تبرع بها المؤلف لاتحاد إصلاح الكونجو. وغالبية الحديث يدور حول حملة ليوبولد الإعلامية. ويقول ملك توين الصاخب: "فى تلك السنوات العشرين أنفقت الملايين كى أبقى الصحافة فى نصفى الكرة الأرضية صامتة، ورغم ذلك لا تزال الأنباء تتسرب". ويصب ملك توين جام غضبه على كوداك غير المنيعة على الرشوة ... "وهى الشاهد الوحيد الذى قابلته فى خبرتى الطويلة الذى لم أتمكن من رشوته". وفى النشرة التى أصدرها توين يهاجم ليوبولد وليم شبارد بالاسم ويشجب "التجسس التبشيرى الفضولى لذلك الرجل الأسود". ورغم أنها مزوقة أكثر من اللازم وبعيدة كل البعد عن أفضل إبداعات توين؛ فإن 'الملك ليوبولد يناجى نفسه' استثارت آلة الدعاية الملكية التى سارعت بإصدار نشرة من خمس وأربعين صفحة غفل من التوقيع بعنوان 'الرد على مارك توين' (An Answer to Mark Twain).

ومثلما كان يفعل فى إنجلترا، كان موريل يصوغ رسائله وفقًا للمؤسسات الأمريكية المختلفة. وكانت غالبية حلفائه من التقدميين المثقفين مثل مارك توين، ولكنه كان مستعداً لأن يصادق الشيطان فى سبيل قضيته. واستغل استغلالاً ماكراً السناتور جون تايلر مورجان، الجنرال الجنوبى السابق الذى أسهم فى تدبير اعتراف الولايات المتحدة بكونجو ليوبولد قبل ذلك بعشرين سنة. وكان مورجان لا يزال ينادى بصخب شديد بإعادة السود إلى أفريقيا حتى يجعل الجنوب ناصع البياض، وأراد أن تتوقف فوراً كل مفاسد الكونجو دون إبطاء. وإلا فكيف يمكن إقناع الأمريكيين السود بالانتقال إلى هناك؟ وأخبر موريل أنه يأمل فى 'زرع' عشرة ملايين منهم فى الكونجو. وبإيعاز من موريل أبقى مورجان مسألة فظائع الكونجو متقدة فى الكونجرس.

وتحدث المبشران المعمديان البريطانيان القدامى جون وأليس هاريس، اللذان تبعا موريل إلى الولايات المتحدة، فى ما يزيد على مئتى اجتماع عام فى تسع وأربعين مدينة. وفى اجتماع فى شيكاجو حاولت سيدة عجوز كانت قد وُلدت عبدة أن تهب مدخرات حياتها فى سبيل قضية إصلاح الكونجو؛ ولم يقبل الإصلاحيون منها إلا دولارًا واحدًا. وتوالت الجولات الخطابية بواسطة نشطاء آخرين. وأرسل جون هاريس رسالة حماسية إلى موريل من واشنطن، "البرقيات والالتماسات تتدفق هنا بالآلاف ... الرئيس ... بشىء قليل من الضغط سوف يتخذ موقفًا".

وفيما بعد استرجع وزير الخارجية إليهو روت (Elihu Root) ذكرياته بشىء من السخط بعد أن وجد نفسه يتلقى كل الضغوط، "إن نفس الأشخاص المتحمسين ضد التحالفات المربكة يصرون بتعصب بالغ على أن نفعل مئة شىء فى السنة على أسس إنسانية ... واشتد حماس الكنيسة البروتستنتية وعديد من النسوة الطيبات لحملنا على إيقاف فظائع الكونجو ... وانهمرت أفواج الناس على وزارة الخارجية تطالب بفعل شىء ما". وشملت التوقيعات على عرائض الالتماسات حاكم ولاية ماساتشوستس وكل عضو فى مجلس شيوخ الاتحاد، ومجموعة من أساتذة جامعة ييل وإدارييها، ورؤساء جامعات، وعمداء كليات لاهوت، وأساقفة، ورؤساء تحرير صحف. واتخذ مؤتمر الاتحاد النسائى المسيحى قرارًا بشأن الكونجو.

ورغم أن موريل كان له أنصار من ذوى الصوت العالى فى كل أنحاء أوروبا؛ فإن قضية إصلاح الكونجو صارت حملة متكاملة الأركان فى الولايات المتحدة فقط مثلما كانت فى إنجلترا. واشتد رعب ليوبولد لما وجد أن الحركة المضادة له تنتشر فى قارة جديدة فبادر إلى العمل. فعندما تحدث موريل فى بوسطون سنة ١٩٠٤ انبرى له ما لا يقل عن ستة من المتحدثين باسم الملك يطالبون بوقت مماثل للكلام. وعندما وصل السناتور الواسع النفوذ هنرى كابوت لودج من ماساتشوستس إلى باريس فى زيارة فى العام التالى أرسل إليه الملك فى التو مبعوثًا كى يدعوه إلى الغداء فى بروكسل. وكتب لودج إلى الرئيس روزفلت: "لقد حدد ستة أيام مختلفة كاختيارات وبهذا لم يكن هناك مفر". وتأثر لودج بليوبولد، ووصفه بأنه "رجل أعمال داهية ونشيط وقادر –

وهو مزيج من جيم هيل وهاريمان [من أباطرة السكك الحديدية الأمريكية]، وخليط من مدير أعمال رائع ومتعهد حفلات ومضارب فى البورصة. وهو يعرف كل الناس ولديه معلومات عن كل الناس".

واستغلالاً لما يعرفه 'عن كل الناس' استهدف ليوبولد عضواً أقوى فى الكونجرس وهو السناتور نلسون و. ألدريتش (Nelson W Aldrich) من رود أيلاند. وكان ألدريتش هو ذروة صانعى السلطان فى واشنطن، وكان مليونيراً كبيراً ويشارك ج. بيربونت مورجان (J. Pierpont Morgan) فى لعب الورق وحمو جون د. روكفلر الصغير (John D. Rockefeller Jr.)، كما كان رئيس اللجنة المالية فى الكونجرس. وفى مرة قال عنه الرئيس روزفلت للصحفى لينكولن ستفنز: "أنا مجرد رئيس، أما هو فقد شاهد العديد من الرؤساء".

وغازل ليوبولد ألدريتش وغيره من الأمريكيين من ذوى النفوذ بأن وعدهم بنصيب من الغنيمة. ومنح امتيازات ضخمة فى الكونجو إلى ألدريتش ومؤسسة جوجنهايم وبرنارد باروخ وجون روكفلر الصغير وللرأسمالى توماس ريان وهو صديق مقرب لروت وزير الخارجية وزبون قانونى سابق لمكتبه [للمحاماة]. ويوضح بجلاء خطاب نُصْحٍ أرسله إلى الملك واحد من وكلائه الأمريكيين التخطيط الذى كان ليوبولد يتبعه: "افتح ممراً من الأراضى عبر الكونجو من الشرق إلى الغرب أمام رءوس الأموال الأمريكية. اخنق أصحاب الامتياز الحاليين إن لزم الأمر وأجبرهم على أن يشركوا الأمريكيين فى امتيازاتهم. وبهذه الوسيلة سوف تخلق اهتماماً أمريكياً ثابتاً بالكونجو وسيؤدى ذلك إلى أن يصير نباح المهيجين الإنجليز والاشتراكيين البلجيكيين أمراً لا طائل منه". كما منح ليوبولد المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى ما يربو على ثلاثة آلاف قطعة أثرية من الكونجو، وهو يعلم أن ج. ب. مورجان عضو فى مجلس إدارته.

وأتت هبات ليوبولد أُكلها مع ألدريتش. فقد كانت وزارة الخارجية تحت ضغوط هائلة من الإصلاحيين كى تعين قنصلا عاما أمريكيا فى الكونجو يستطيع أن يتابع تحقيقات روجر كيسمنت ويقوم بتحقيقات خاصة به. ولكى يزيح الإصلاحيين من على

كاهليه رشح روت وزير الخارجية القنصل العام الذى اقترحوه، غير أنه سحب ترشيحه عندما سرب ألدريتش أنباء بأنه سيعترض على ذلك الاختيار فى الكونجرس.

ولعب ليوبولد دور الكاثوليكي المضطهد بينما عيناه على الكتل العرقية ذات الأصوات الانتخابية. فنجح ممثلوه فى روما فى إقناع الفاتيكان أن ذلك الملك الكاثوليكى قد أوقعه فى مكيدة المبشرين البروتستنت الذين لا خلاق لهم. وتدفقت الرسائل باللغة اللاتينية(٢) من الفاتيكان عبر الأطلنطى إلى الرجل الكاثوليكى الذى حدده ليوبولد فى الولايات المتحدة وهو جيمس كاردينال جيبونز من مدينة بالتيمور - الذى بالصدفة البحتة - كان من زملاء السناتور ألدريتش فى لعب الورق. وكان كاردينال يؤمن بأن حملة إصلاح الكونجو هى من تدبير "مجرد حفنة من رجال ساخطين ... ويعتمدون بشكل عام على أدلة شفاهية من السكان الوطنيين الذين لا يمكن الوثوق فيهم". فتحدث على الملأ مؤيداً ليوبولد الذى كافأه بمنحه نيشان الصليب الأكبر للعرش.

وكان لليوبولد سرب كامل من جماعات الضغط فى الولايات المتحدة. فساعد البروفسير ألفريد نرينكس (Alfred Nerincx) من جامعة جورج واشنطن على إخراج مجلة جديدة باللغة الإنجليزية عن الكونجو، وأعطى محاضرات وعمل على أن تظهر مقالات مؤيدة فى المجلات الثقافية. وتلقى فردريك ستار (Frederick Starr)، وهو أنثروبولوجى غريب الأطوار من جامعة شيكاجو كان من كبار المؤمنين بدونية الشعوب "البدائية"، واحداً من ميداليات ليوبولد المتعددة وجولة فى الكونجو لمدة عام مدفوعة التكاليف. وفى المقابل نشر سلسلة من خمسة عشر مقال مؤيد فى جريدة شيكاجو ديلى تريبيون تحت عنوان "الحقيقة حول دولة الكونجو الحرة"، ثم طبعها فيما بعد فى كتاب(٣). ونشر هنرى ولينجتون واك (Henry Wellington Wack)، وهو محامٍ بإحدى

(٢) Probe novit summus Pontifex ea omnia, quae exagitata fuerunt contra Gubernium Status Congi Independentis seu Belgici, per aliquos missionarios protestantes anglicos....

(٣) وهذا، مثلاً، رأى ستار فى "الشيكوت": "فى مرات عديدة ... شاهدت رجلاً عقب جلده مباشرة، وهو يضحك ويتلاعب مع رفاقه وكأن شيئًا لم يحدث".

شركات الأدوية، كتاباً سميكاً سرعان ما ظهر فى آلاف المكتبات الأمريكية. وكانت التعليمات الواردة من بروكسل إلى واك بأن "يتصرف وكأنه ليس من موظفى الدولة وإنما مجرد خبير محايد فى الشئون العامة".

غير أن عميلاً أمريكيًا آخر أثبت أنه لا يعول عليه. ففى أثناء تدبيره لجهود جماعات الضغط فى الولايات المتحدة اتخذ الملك خطوة كارثية.

* * *

كان الكولونيل هنرى ى. كووالسكى (Colonel Henry I. Kowalsky) من سان فرانسيسكو هو محامى الدفاع المحتمل، بالنسبة لأى شخص من كاليفورنيا يملك ناصية المال ويجد نفسه رهن المحاكمة سنة ١٩٠٤ . وكان كووالسكى يمثل النمط التقليدى الأمريكى: المحامى المتوهج الذى يتحايل على القانون والذى يجتذب إبهاره الاستعراضى كوكبة من الأصدقاء والمعارف من المشاهير. وكان مترفًا ويتمتع بأطايب الطعام، وبارعًا فى سرد الحكايات، ويدفع ببذخ بالغ فواتير فندقية فلكية، وشخصية اجتماعية أكسبته مواهبه فى ساحات المحاكم مجالاً عريضاً من الزبائن. كان بعضهم من الملاكمين ومن شخصيات عالم الجريمة السفلى، والبعض كان من أقربائه غير المعروفين من قبل أو زوجات عرفيات، كانت لديه موهبة خاصة فى العثور عليهم إن كانت هناك وصية موضع خلاف. ومثل كثير من كولونيلات عصره لم يحدث قط أن كووالسكى عمل فى الجيش، رغم أنه أدخل فى روع الأوروبيين أنه سبق له العمل فيه.

ولم تكن شخصيته وحدها هى الواسعة العريضة. فقد كان معروفًا عنه أنه طباخ هاو ماهر، وكان يلتهم كميات هائلة من الطعام من صنع يديه وأيدى الآخرين. وعندما كان وليم تافت البدين رئيسًا للجمهورية علق صحفى على كووالسكى فيما بعد قائلاً: "لو قارناه به لوجدنا أن الرئيس تافت يصلح للوقوف على قمة هرم من رجال الأكروبات". وكانت رقبة كووالسكى الضخمة تترهل فوق ياقته؛ وكان صوته أجش ويتنفس بجهد، وعندما سألت صحيفة من سان فرانسيسكو بعض الشخصيات البارزة عن وصفاتهم المفضلة أعطاهم كووالسكى بمكر وصفة لشواء لحم خد الخنزير.

وكان يشكو أيضاً من داء النوم المفاجئ (narcolepsy)، وهو مرض يسبب نوبات فجائية من النوم العميق لا يمكن السيطرة عليها. ويصيب السمان بالذات وكتب معلق صحفي: "لا يوجد رجل، إلا فيما ندر، له دراية بالحياة فى سان فرانسيسكو، لم يشاهد كووالسكى وهو يسقط نائماً فى الشارع أو وهو جالس فى ردهة فندق أو فى أثناء نظر قضية فى المحكمة أو فى مقصورة فى المسرح". وربما كان يملك سيطرة على تلك الحالة أكثر مما كان يظهر، فقد لاحظ صحفى أنه "يستيقظ فى اللحظة المناسبة كى يعترض اعتراضاً قانونياً وثيق الصلة بالموضوع".

وتمضى القصة: "وفى بعض الأحيان تسببت تلك الاستيقاظات المفاجئة فى حدوث دمار شديد فى أثاث محكمة القاضى جراهام. فعندما يستيقظ رجل يصل وزنه إلى ١٥٠ كيلو - على الأقل - ويهب واقفاً فإن ذلك كفيل بأن يرتج تحته أقوى مقعد صُنع... وبعد عدة مرات يحدث صرير منذر، ثم فرقعة ثم تحطم. ويتمتم حاجب المحكمة 'ها هو كرسى آخر يتحطم' بينما يترك الكولونيل كرسيه المحطم ويسحب كرسيا سليما آخر". وفى نهاية تلك المحاكمة بالذات أهدى كووالسكى بأريحية إلى المحكمة كرسيًا أمر بصنعه خصيصًا من خشب البلوط الأصم ومدعم بصواميل حديدية وأرجله مقواة بدعامات حديدية.

وعندما اشتبك كووالسكى فى معركة قانونية مريرة مع ويات إيرب (Wyatt Earp) رجل القانون الشهير، هدد إيرب السريع الانفعال بأن يقتل كووالسكى بمجرد أن يراه. وتقابل الرجلان صدفة فى حانة بسان فرانسيسكو. ودفع إيرب بكووالسكى إلى حجرة خلفية وأشهر مسدسه وأخبر المحامى أن يستعد للقاء خالقه. فسقط وجه كووالسكى المكتنز على صدره وراح فى سبات عميق. واندفع إيرب خارجًا من الحجرة وهو يقول: "ماذا تفعل برجل يستغرق فى النوم عندما تهم بقتله!"

وكان لكووالسكى نظرة صائبة لا تخيب فى تصيد الزبائن الأثرياء. ووجد واحداً منهم فى شخص الأمير ألبرت ولى عهد عرش بلجيكا عندما قدم الأخير إلى كاليفورنيا. وكان ألبرت مسافراً باسم مستعار، غير أن كووالسكى تعرف عليه وتصادق معه،

وكوفئ سنة ١٩٠٤ بدعوة لزيارة بلجيكا. وهناك، استُقبل على متن اليخت الملكى فى ميناء أوستند وقُدم إلى ليوبولد.

ورأى فيه الملك أمريكيًا نشطًا فى الحزب الجمهورى، الذى كان فى السلطة وقتئذ، وصور الرجل نفسه للملك بوصفه ذا نفوذ ضاغط استثنائى، وقادر على أن يعترض طريق المزعجين من مثيرى المتاعب لجلالته. ولم يكن هناك متسع من الوقت بعد أن شرع موريل فى إثارة الرأى العام الأمريكى. واستأجر الملك كووالسكى وأعطاه تعليمات مفصلة وزوده بما يكفى من المال لاستئجار مكتب فخم فى وول ستريت فى نيويورك. وفى أثناء استعداد كووالسكى للانتقال إلى نيويورك أقام له أصدقاؤه فى سان فرانسيسكو - قضاة ورجال أعمال وأدميرال فى البحرية وبعض المحامين المنافسين الذين أسعدتهم مغادرته للمدينة - مأدبة لتوديعه أضافت دون شك بضعة أرطال لجسده الرهيب أصلاً. وقال عمدة سان فرانسيسكو: "لن أتبع نص النخب الذى كُلفت به، فهو مثل ضيفنا موضوع ضخم جدا". وعلق متحدث آخر أنه من حسن حظ ليوبولد أنه لم يرسل كووالسكى إلى الكونجو مباشرة "حيث كان أكلة لحوم البشر فى أفريقيا سيستمتعون فيه بوجبة دسمة منتقاة".

وأجاب كووالسكى على تلك الأنخاب: "عندما أغادركم فإن ذلك لن يكون إلا بسبب أنى سمعت بوق الاستدعاء فى سبيل الإنسانية والحضارة". وشمل بوق الاستدعاء مرتبًا سنويًا مقداره مئة ألف فرنك، أى نحو ٥٠٠ ألف من دولارات اليوم. وفى نطاق وظيفته الجديدة استقبل الرئيس روزفلت كووالسكى الذى أهداه صورة فوتوغرافية للملك ليوبولد فى إطار من الفضة، وألبومًا لصور من الكونجو، ومذكرة تحذره من أن يُخدع بالمبشرين الحقودين وتجار ليفربول.

وفوجئ شخص بكل ما يجرى، هو البارون لودوفيك مونشير (Baron Ludovic Moncheur)، سفير بلجيكا فى الولايات المتحدة، الذى كان قد دبج مقالاً مرحًا بعنوان "الأحوال فى دولة الكونجو الحرة" لصحيفة "نورث أمريكان ريفيو" (North American Review) ذات النفوذ والذى كان يعتقد أنه هو الذى يقود جهود ليوبولد الدعائية الأمريكية.

وروع بالظهور المفاجئ لكووالسكى الذى كانت له ملامح لا تخطئها عين لمحام يجيد الأساليب الملتوية المشبوهة. ونما إلى علم مونشير أنه فى نفس اليوم الذى أقيمت فيه لكووالسكى مأدبة الوداع فى سان فرانسيسكو اشتبك كووالسكى فى تضارب بالأيدى مع أحد دائنيه فى قاعة المحكمة. فبادر مونشير ومعاونوه إلى إرسال سيل من الرسائل المحمومة إلى بروكسل.

وفى القصر الملكى لم يتجاسر أى من المرءوسين على أن يعارض علنًا شخصًا من المفضلين الجدد لدى الملك، ولكن مونشير على الأقل تلقى برقية مشفرة من أحد كبار المسئولين عن شئون الكونجو: "وصلتنى معلوماتك عن كووالسكى. فهل ترى أن الوضع يستلزم أن نلغى مهمته؟ - وهو أمر صعب علينا على أية حال. أليس من الأفضل أن نكلفه بمهمة أخرى فى أفريقيا أو فى الصين؟"

ورد أحد مساعدى مونشير: " لو أرسلناه إلى الكونجو فإن ذلك سيكون أمرًا أسوأ من أى شىء آخر، إلا إذا كنا نأمل ألا يعود من هناك". وأتبع مونشير ذلك بتحذير تنبؤى عن كووالسكى: "إذا ظن أنى سبب انتهاء حظوته، فإنه قد يثير ضجة قد تنتج عنها فضائح فى الصحافة".

وبكل حذر دعا مسئولو دولة الكونجو كووالسكى إلى الحضور إلى بروكسل، حيث طلبوا منه أن يتولى مهمة عاجلة فى نيجيريا. وأبدى كووالسكى اهتمامًا بحيث إنه ابتاع لنفسه قبعة واقية من الشمس وبندقية لصيد الأفيال، ولكنه عاد واعتذر عن المهمة، ربما لأنه خمن أنه يُنحَّى جانبًا. ولما كان يعرف أكثر مما ينبغى فلم يجرؤ مساعدو ليوبولد لشئون الكونجو القلقون على فصله، ولهذا أعادوه إلى الولايات المتحدة بتعليمات لمزيد من الضغوط، وهى تعليمات لا تكاد تخفى قلقهم المتزايد: "إن مهمة الكولونيل كووالسكى هى أن يطلع أعضاء الكونجرس على عدالة قضيتنا، وأن يثنيهم عن إصدار قرارات غير مواتية". ولكنه: "يجب أن يمتنع عن زيارة البيت الأبيض إلا فى حالات الضرورة القصوى ... وأن يمتنع كذلك عن إلقاء الكلمات العامة إلا بعد استشارة السفير البلجيكى".

وهكذا أصبح كووالسكى خارج دائرة الاهتمام، وبعد مرور سنة على التعاقد معه ترك ليوبولد العقد دون أن يجدده. وعبثًا حاول المحامى أن يمطر ليوبولد بالخطابات (كلها تبدأ بكلمات "عزيزى صاحب الجلالة ..".) ثم يثنى بإلحاح على مجهوداته فى سبيل قضية الكونجو، ويشجب منافسيه الآخرين من الأمريكيين من جماعات الضغط الذين استأجرهم ليوبولد (قال عن واحد منهم إنه "جاحد للجميل ولا خلاق له وعديم المبادئ")، ويدعى على نفسه ادعاءات تتسم بالمبالغة "كانت مهمة شاقة عملت فيها ليل نهار ... وسافرت آلاف الأميال من أجل تلك القضية". وحاول أن يتملق الملك كى يعيده إلى جدول الرواتب: "إنى أعترف بأنى أحمل لجلالتكم عاطفة جياشة تماثل ما كنت أشعر به تجاه والدى المحبوب الذى أبكيه". وأضاف ليوبولد مبلغًا دسمًا هو ١٢٥٠٠٠ فرنك إلى راتبه السنوى شريطة أن يترك العمل فى هدوء، بينما هدأ من روعه بالتلميح بأن الملك قد يحتاج لخدماته فى المستقبل مرة أخرى.

إلا أن كووالسكى فى النهاية فعل الشىء الذى كان مونشير وزملاؤه فى السفارة البلجيكية يرتعبون منه. ففى ١٠ ديسمبر ١٩٠٦ وجد قراء صحيفة 'نيويورك أميريكان' (New York American) التى يصدرها وليم راندولف هيرست (William Randolph Hearst) على الصفحة الأولى فضحًا لأعمال جماعات الضغط الأمريكية فى شئون الكونجو. 'فضح المحاولات المذهلة للملك ليوبولد للتأثير على الكونجرس ... النص الكامل للاتفاق بين الملك ليوبولد ملك بلجيكا وعملائه المأجورين فى واشنطن'. وعلى الرغم من أن كووالسكى أصر بغضب على أن شخصًا قد سطا على مكتبه؛ فإن من الواضح أنه باع لهيرست الملف الكامل لمراسلاته بشأن الكونجو.

ويوميا ولمدة أسبوع استغل هيرست القصة بكل ما تساويه، ناشرًا آلاف الكلمات وعشرات الصور الفوتوغرافية على صفحات جريدة 'أميريكان' وغيرها من الصحف التى كان يملكها. ولم يُصب ليوبولد بكارثة أسوأ منها، لأنه ولكى تسلط الأضواء على سبقها الصحفى أعادت 'أميريكان' نشر صور موريل عن الأيدى المبتورة بطريقة مسرحية وصوت عال وكل الاتهامات التى وجهها الإصلاحيون عن فظائع الكونجو:

"فظائع شائنة ... تعذيب النساء والأطفال ... الولايات المتحدة مذهولة للجرائم التى تحدث فى الكونجو".

وكشفت الوثائق أنه بالإضافة إلى مرتب كووالسكى والمبلغ الذى دفعه لشراء سكوته فإن ليوبولد وعد كووالسكى بمئة ألف فرنك إضافى على صورة سندات حكومة الكونجو "إذا لم تصدر الحكومة الأمريكية أى بيان ضار بدولة الكونجو، وإذا لم يمرر الكونجرس قرارات معارضة قبل انتهاء دور الانعقاد الحالى". وتباهى كووالسكى فى خطاب له إلى الملك برشوة أحد الصحفيين البارزين الذى لم يسميه بمبلغ ألف دولار، كان، كما ادعى، "صديقًا شخصيًا للرئيس، وحصلنا بسبب خدماته على دعاية لقضيتنا تساوى مئات الألوف". وتفاخر كووالسكى أيضًا بأنه منع نشر فضيحة فى مجلة منسيز ماجازين (Munsey's Magazine) بأن ذهب إلى "رئيس التحرير وهو صديق شخصى لى الذى مزق المقال ونشر بدلاً منه مقالاً يحمل ثناءً كبيراً بما يتفق مع مصالح جلالتكم".

وكانت أكبر مفاجأة كُشِف عنها هى أن كووالسكى استخدم أموال ليوبولد لرشوة توماس ج. جاريت (Thomas G. Garrett)، وهو أحد العاملين فى لجنة الشئون الخارجية فى الكونجرس، كى يعمل على إفشال القرارات التى تشجب ما يحدث فى الكونجو. وأخبر كووالسكى الملك بمبالغة أن "جاريت يقف على باب حجرة اللجنة ويمنع دخول اللحوحين من ذوى الصوت العالى من المبشرين والقساوسة ورجال الدين المزعجين وبعض عملاء جماعة ليفربول. وطوال ذلك الوقت كنت فى موقعى ولم أتنفس الصعداء إلا بعد انفضاض الكونجرس". وظهرت على الصفحة الأولى من جريدة "أميريكان" صورة فوتوغرافية لخطاب بخط اليد على أحد أوراق مجلس الشيوخ الأمريكى مرسلة من جاريت إلى كووالسكى يطالب فيه بجزء من المبلغ المتفق عليه.

وفُصل جاريت من منصبه فى الحال. وبعد ساعات من نشر الفضيحة تقدم السناتور لودج من ماساتشوستس، حيث كان المقر الأمريكى لاتحاد إصلاح الكونجو، باقتراح مشروع قرار للمطالبة بتحقيق دولى حول فضائح الكونجو. ونجحت جهود

مونشير الحاذقة ومناورات الحجرات الخلفية للسناتور ألدريتش فى التخفيف من حدة لهجة القرار قبل الموافقة عليه، ولكن الفضيحة برمتها غيرت المناخ فى واشنطن بصورة مثيرة. فتراجع وزير الخارجية روت عن سياسة عدم التدخل التى اتبعتها الحكومة فى السابق وقرر أن يتعاون مع البريطانيين فى الضغط على ليوبولد لإنهاء حكمه للإقليم. وسرعان ما أعاد موريل نشر فضيحة كووالسكى بسرور بالغ فى إنجلترا وفى نشرة باللغة الفرنسية للبلجيكيين – وأدى ذلك إلى انتكاسة كبيرة لليوبولد. فالتيار قد بدأ يسير ضد الملك.

* * *

وفى نحو نفس الوقت الذى استأجر فيه ليوبولد خدمات كووالسكى، شرع فى مناورات على جبهة مختلفة تمام الاختلاف. فمع تذكره كيف كانت لجنته الوهمية لحماية السكان الوطنيين فعالة فى إسكات منتقديه فى تسعينيات القرن التاسع عشر، قرر أن الوقت قد حان للجنة أخرى. تذهب إلى الكونجو لتقصى حقائق الأوضاع وتبرئ اسمه.

وعين ثلاثة قضاة للجنته الجديدة للتحقيق: بلجيكى وسويسرى وإيطالى. غير أن اللجنة لم تكن محايدة كما بدا عليها. فالإيطالى، وهو البارون جياكومو نيسكو (Baron Giacomo Nisco)، لم يكن يعمل فى إيطاليا وإنما فى دولة الكونجو كقاضى قضاة. وفى الحق كان هو، فى قضية كودرون [انظر الفصل الرابع عشر]، الذى خفف الحكم بدعوى أن قدراً من "استخدام القوة" و"الإرهاب" لا يمكن تجنبهما. ويضاف إلى ذلك أن لا أحد من بين القضاة الثلاثة كان يتكلم أى لغة أفريقية أو حتى قدر من الإنجليزية يمكنه من التفاهم مع المبشرين البريطانيين والأمريكيين شديدى الانتقاد. ونُصحت اللجنة بأن تعقد جلسات استماع وتستمع إلى شهود وأن تصدر تقريراً. وكان الملك يأمل فى أنه فى أثناء الرحلة الطويلة إلى الكونجو سوف يحيط البارون نيسكو الخبير بأفريقيا زملاءه القضاة علماً بمدى احتياج السكان الوطنيين للانضباط والحزم.

وأمضت اللجنة بضعة أشهر فى الاستماع إلى ٣٧٠ شهادة. وكانت تعقد جلساتها فى كل مكان، من شرفات محطات جمع المطاط إلى ظهر سفينتهم البخارية "الأرشيدوقة ستيفانى"

(Archiduchesse Stephanie)، المسماة على اسم واحدة من بنات ليوبولد من اللواتى كان لا يتخاطب معهن. وكان التمسك بالشكليات كبيراً: أردية قضائية قرمزية وسوداء، ومترجمون، وحراس يحملون البنادق مثبت بها حرابها. وأدلت جماعة كبيرة من الشهود بشهادات مفزعة. وكانت واحدة من أشدها تأثيراً شهادة الزعيم لونتولو من بوليما، الذى جُلد بالشيكوت وقبض عليه كرهينة وأُرسل للعمل مكبلاً بالأغلال. ولما دعى للإدلاء بشهادته وضع لونتولو ١١٠ غصن شجرة على مائدة اللجنة، كل غصن يمثل واحداً من قبيلته قُتل فى أثناء البحث عن المطاط. ثم قسَّم الأغصان إلى أربع كومات: نبلاء القبيلة، والرجال والنساء والأطفال. وأسمى كل غصن واحداً واحداً بأسماء القتلى.

وسرعان ما وصلت أنباء الشهادة إلى بروكسل، غير أن ليوبولد لم يدرك مدى تأثيرها على أعضاء اللجنة. ثم حدث فى مارس سنة ١٩٠٥ أن إشارة تحذيرية لافتة للنظر وصلت من بوما عاصمة الكونجو بأن الأمور قد لا تسير وفق هوى الملك. فقد اطلع بول كوسترمانز (Paul Costermans) القائم بأعمال الحاكم العام، على نتائج تحقيقات اللجنة، وكان رجلاً مستقيماً، بقدر ما تسمح به ظروف شخص وصل إلى مرتبة عالية فى مثل ذلك النظام. وذُعر معاونوه لما وجدوه يصاب بكآبة شديدة. وبعدها بأسبوعين، وبعد أن كتب سلسلة من خطابات الوداع، قطع حلقه بموسى حلاقة.

وحدث نذير شؤم آخر لليوبولد عندما بلغته الأنباء بأن واحداً من القضاة، بينما كان يستمع إلى شهادات الشهود المتتابعة عن قصص الفظائع، انهار وانخرط فى البكاء. وصار واضحاً الآن أمام الملك أن الأمر قد أصبح يعطى نتائج عكسية: فما كان مقصوداً منه أن يكون تحقيقا وهميا قد أفلت من سيطرته وتحول إلى تحقيق حقيقى مسبباً له رعباً حقيقياً. ورغم أن موريل لم تصل إلى أيديه نسخة من النصوص الحرفية الرسمية؛ فإنه سارع بإصدار نشرة تحوى المعلومات التى أدلى بها أصدقاؤه من المبشرين ورعايا أبرشياتهم من الأفارقة إلى اللجنة، وأرسل نسخة من تلك النشرة إلى كل عضو من أعضاء البرلمان البلجيكى.

وبعد عودتهم إلى أوروبا تداول أعضاء اللجنة وأصدروا تقريراً من ١٥٠ صفحة. وعلى الرغم من أنه صيغ بلهجة بيروقراطية لطيفة؛ فإن ليوبولد رأى أنه كرر تقريباً كل

الانتقادات الرئيسة التى ذكرها كيسمنت وموريل. واستشاط غضبًا. وبحلول خريف سنة ١٩٠٥ لم يعد فى مستطاعه أن يؤخر أكثر من ذلك نشر التقرير الذى كانت كل أوروبا فى انتظاره. وبالفعل بدأ السياسيون والصحفيون يخمنون محتوياته. غير أن ليوبولد كان فى جعبته حيلة أخرى، لعلها كانت أروع حركة مسرحية فى حياته المهنية الطويلة.

فمع وعيه العصرى لأهمية العلاقات العامة، أدرك الملك بذكاء أن ما يهم هو استيعاب الرأى العام للأمور أكثر من كونها حدثًا من أحداث السياسة. فإذا ما سيطرتَ على ذلك الاستيعاب فإنك تكون مسيطرًا على الموقف. كما كان يدرك أيضًا أن الصحفيين يفزعون من اضطرارهم إلى فحص تقرير رسمى مطول - عندما يكون الوقت المتاح أمامهم محدودًا - وبخاصة إذا كان التقرير بلغة أجنبية. وفى ٣ نوفمبر ١٩٠٥ قبل يوم من التاريخ المحدد للكشف عن تقرير لجنة التحقيق، تلقت كل صحيفة رئيسية فى إنجلترا وثيقة ومعها خطاب مرفق يشرح أن تلك هى "ملخص كامل وموثوق به للتقرير". وجاء ذلك الملخص المفيد والذى أتى فى الوقت المناسب، من اتحاد غرب أفريقيا التبشيرى، وبدا جديرًا بالثقة. فالمبشرون كانوا من بين أشد منتقدى دولة الكونجو مثابرةً. وكان أكثر الأمور ملاءمة أن التقرير كان بالإنجليزية.

ونشرت الغالبية الساحقة من الصحف البريطانية الملخص بسرور ظانة أنها حققت سبقا صحفيا فى أهم أخبار الأسبوع. ونقلت وكالة الأسوشييتد برس (Associated Press) فحوى التقرير إلى الولايات المتحدة، حيث التقطته الصحف الرئيسية. ولم يحدث إلا خلال الأيام القليلة التالية، وبعد أن أُتيح الوقت للمراسلين ورؤساء التحرير لكى يقرأوا النص الكامل للتقرير بالفرنسية، أنهم أدركوا أن ما أُسمى ملخصًا ليست له إلا علاقة واهية بالتقرير. فمرارًا وتكرارًا أخذ مقاطع رئيسية من التقرير و'لخصها' بحيث تعذر معرفة حقيقتها. فمثلاً، حين يقول التقرير، "لقد قمنا بأنفسنا بشرح النتائج الكارثية 'لعمالة الحمالين' وأوضحنا أن العمل المفرط الذى فُرض على الوطنيين بالقرب من مواقع بعينها نتج عنه إفراغ البلد من سكانه". كان الملخص يقول "لكى يتم تجنب النتائج الداعية للأسف لعمل الحمالين فى أثناء انتظار إتمام مد السكك الحديدية، فإن اللجنة تقترح استخدام المجارى المائية".

وبدأ الصحفيون يتساءلون، ما هو اتحاد غرب أفريقيا التبشيرى؟ وتمكنوا من تتبعه إلى مكتب محام لندنى، ولكنه رفض أن يعطيهم عنوان موكله. ورضخ بعد يوم أو يومين، وأحال المتسائلين إلى مكتب من حجرة واحدة عبر الشارع، وعلى بابه يافطة حديثة الطلاء، ولم يكن به إلا حارس. ثم زودهم المحامى بقائمة بأعضاء مجلس إدارة الاتحاد، غير أن أحداً منهم ممن أمكن للمراسلين التوصل إليهم لم يكن قد حضر اجتماعًا واحداً. وكشف المزيد من البحث أن 'الملخص' قد أحضره إلى إنجلترا قسيس بلجيكى كان ليوبولد قد منح كنيسته مؤخراً هبة مالية كبيرة. ولم يكن أحد قد سمع باتحاد غرب أفريقيا التبشيرى قبل أن يصدر ملخصه المؤثر، ولم يسمع به أحد بعد ذلك مرة أخرى.

الفصل السابع عشر

"ليس هناك أغراب فى ساحة العدالة"

كانت الشهادات غير المنمقة، التى لم يُحذف منها شىء والتى أُدلى بها أمام لجنة التحقيق، هى التى ضبطت ليوبولد متلبسًا بالجرم المشهود. ولم يمكن التذرع بأن تلك المعلومات قد روجها أعداء الملك، لأن القضاة الثلاثة كانوا مبعوثين من قبل ليوبولد شخصيًا. كما لم يمكن التحجج بأنها كانت من نسج خيال الناس، لأنه حدث أن كثيرًا من الشهود وصفوا نفس الفظائع. ولا كان فى الإمكان الادعاء بأن الشهود كانوا من الكسالى الساخطين، فكثير منهم عرض حياته للخطر لمجرد التحدث إلى اللجنة. وعندما وجد راءول فان كالكن، وهو مسئول بإحدى الشركات صاحبة امتيازات المطاط، اثنين من الأفارقة هما ليلونجو وإفومى مسافرين لمقابلة اللجنة أمر بالقبض عليهما. وأخبر ليلونجو مبشرًا بريطانيًا بأنه "أمر حراسه بربطنا إلى شجرتين وأقدامنا معلقة فى الهواء وأيادينا مرفوعة فوق رءوسنا ... انظر إلى الندوب فى كل جسمى. وعُلقنا بهذه الطريقة عدة أيام وليال ... ولم نأكل أو نشرب شيئًا طوال تلك المدة، وكانت السماء تمطر أحيانًا وفى أحيان أخرى كانت الشمس محرقة ... وبكينا وصحنا حتى لم تبق دموع فى أعيننا - لقد كان ألم الموت ذاته. وفى أثناء ما كنا معلقين داوم الحراس الثلاثة والرجل الأبيض على ضربنا فى الأماكن الخاصة، وعلى الرقبة وأجزاء أخرى من الجسم بهراوات ثقيلة، حتى فقدنا الوعى". ومات إفومى فأمر كالكن بإلقاء جثته فى النهر. أما ليلونجو فنجا من الموت وأدلى بشهادته أمام اللجنة، وحمله أخوه الأصغر إلى منزله.

وكانت الشهادات التى أدلى بها ليلونجو وغيره من الشهود تُكتب على استمارات معنونة بالاسم الرسمى للجنة ("لجنة التحقيق المعينة بموجب مرسوم من الملك مؤرخ فى ٢٣ يوليو ١٩٠٤") وبها أسماء وألقاب القضاة الثلاثة متبوعة بفراغات تُركت لأسماء السكرتير والشاهد الذى يقسم أن يقول الحق كله ولا شىء غير الحق، واسم المترجم. ثم تُسجل الشهادة.

وقال الشاهد إلانج كوندا من مبونجو: "لقد عرفت 'مالومالو' [سريعًا سريعًا، وهو الاسم الأفريقى للملازم شارل ماسار (Lieutenant Charles Massard)] وهو ملازم بالقوة الشعبية. كان شديد القسوة، وكان يجبرنا على جمع المطاط. وذات يوم، رأيته بعينى، يقتل وطنيًا يدعى بونجيانجوا، لمجرد أنه عثر على سلة غير ممتلئة تمامًا من بين السلال الخمسين التى أحضرها. فأمر مالومالو الجندى تشومبا بإمساكه وتقييده إلى نخلة. وربطوه بثلاث مجموعات من الأغلال واحدة عند مستوى ركبتيه والثانية عند معدته والثالثة حطمت ذراعيه. وكان مالومالو يحمل كيس ذخيرته فى حزامه، وأمسك ببندقيته وأطلق النار من مسافة نحو ٢٠ مترًا، وبرصاصة واحدة قتل بونجيانجوا ... أنا شاهدت الجرح. وأطلق الرجل التعس صرخة واحدة ثم مات".

وقال الشاهد مبوتيلا من بوكوت: "كما ترون، يدى اليمنى مقطوعة ... عندما كنت طفلاً صغيرًا حضر الجنود ليقاتلوا فى قريتنا بسبب المطاط ... وبينما كنت أفر حكت رصاصة برقبتى وسببت الجرح الذى يمكنكم رؤية ندبته. فسقطت، وتظاهرت بالموت. فقطع جندى يدى اليمنى بسكين وأخذها. ورأيت أن معه أيادى مبتورة أخرى ... وفى نفس اليوم، قُتل أبواى، وعلمت أن أياديهم قد قطعت".

الشاهد إيكوكو الرئيس العام لقرية بويكا: "عرفت جونجى جيدًا. ومات منذ نحو شهرين من الجَلْد الذى ناله. رأيته يُضرَب وشاهدته وهو يموت. وحدث ذلك على بعد نحو ثلاثة أو أربعة أمتار من شرفة الرجل الأبيض، فى البقعة التى أريتكم إياها، بين شجرتى الصبار. ومددوه على الأرض وأمسك الرجل الأبيض إكوتولونجو [مول] برأسه، بينما وقف نكوى [أبلاى] عند قدميه، وضربه بهراوة. وكُسِرت ثلاث هراوات فى أثناء التنفيذ.

وأخيراً رفس نكوى جونجى عدة مرات وأمره بأن يهب على قدميه. ولما لم يتحرك قال إكات للرجل الأبيض "مات الرجل. لقد قتلتَه ....". وأجاب الرجل الأبيض "أمر لا يهمنى. فالقضاة بيض مثلى" ... ودُفن جونجى فى اليوم التالى ... وكان جونجى عجوزاً ولكنه كان بصحة جيدة".

الشاهدة مينجو من ممبوكو: "بينما كنت أصنع الطوب فى ممبوكو حدث مرتين أن الحارسين نكوسو لومبوتو وإيتوكوا رفعا تنورتى ووضعا الطين فى مهبلى لكى يعاقبانى، مما جعلنى أتألم بشدة. وشاهدنى الرجل الأبيض ليكواما [موظف بإحدى الشركات يدعى هنرى سبلر] والطين فى مهبلى. ولم يزد على أن قال 'إذا مت فى أثناء عملك معى فسوف أرميك فى النهر'".

وهكذا تتوالى الشهادات، قصة تلو الأخرى بالمئات. وأخيراً صار هناك شيء من الكونجو لم يسمعه بقية العالم إلا نادراً: أصوات الكونجوليين أنفسهم. ولم يحدث إلا فى مناسبات نادرة فى أثناء التدافع الأوروبى على أفريقيا أن أحداً جمع مثل تلك المجموعة الملتهبة من شهادات الأفارقة أنفسهم. وإحساس أى شخص يقرأ تلك القصص لا يمكن إلا أن يكون الشعور بالفزع الجارف.

غير أن أحداً لم يقرأها.

وعلى الرغم من نتائج التقرير الانتقادية؛ فإن الشهادات التى أدلى بها الشهود الأفارقة لم يُستشهد بها مباشرة مطلقًا. وكان التركيز على عموميات التقرير. ولم تُنشر القصص بصفة مستقلة، ولا سُمح لأى أحد بالاطلاع عليها. وانتهى بها الأمر فى قسم مغلق فى أرشيفات الدولة فى بروكسل. ولم يحدث إلا فى ثمانينيات القرن العشرين أن سُمح للناس بالاطلاع عليها ونسخها بحرية.

* * *

كان ليوبولد فى السبعين من عمره عندما تمكن من تدبير سيطرته اللولبية البارعة على نشر تقرير لجنة التحقيق. وبينما كان يطعن فى السن بدا وكأنه فى حركة دائمة.

فكان يتجنب بروكسل قدر المستطاع، بل حتى فى أثناء تواجده بها كان يظهر نفوره من كل ما هو بلجيكى بجعل كل اللحوم على مائدته تُرسل من باريس. وكان يفضل أن يبقى خارج البلاد. وابتاع لكارولين قصراً فرنسياً وكثيراً ما أقام به معها. وكان يحب زيارة باريس، حيث حدث مرة أنه دعا مجلس الوزراء الفرنسى بكامل هيئته إلى العشاء. وكان يسافر كل شتاء إلى الريفييرا فى الجنوب فى عربة السكك الحديدية الخاصة به، والتى طُعمت كراسيها من الجلد الأخضر بالذهب. وفى الوقت الذى كانت فيه الثلوج تمنع البلجيكيين الغاضبين من الخروج وتلزمهم منازلهم، والرسل تقطع الطريق ذهاباً وجيئة من وإلى بروكسل كان يعمل عدة أشهر على ظهر يخته الأنيق ألبرتا، الذى كان يمكنه السفر بالبخار أو بالأشرعة.

وفى أثناء فترات الشتاء تلك فى الريفييرا كان يضع كارولين فى منزل فخم على الشاطئ، فيلا دى سيدر (Villa des Cedres) وكتبت تقول: "كل مساء يركب الملك لنشاً بخارياً ... إلى رصيف يؤدى إلى منزلى من خلال ممر تحت الأرض. وعندما أتحدث عن ذلك فإنى لا أستطيع أن أمنع نفسى من ملاحظة ولع الملك الاستثنائى بكل شىء له سر وطابع غامض. ويستطيع أى شخص أن يبيعه أى منزل طالما كان مبنياً على جانب محجر مهجور أو إن كانت به سلالم سرية".

وحتى عندما كان يقسر نفسه على البقاء فى بلده الصغير وهو محنق، كان ليوبولد يتحرك ذهاباً وجيئة بين قصر ليكن والشاليه الملكى فى أوستند وقصرين آخرين. وكانت جمهرة من الحرفيين المهرة تعمل باستمرار على تجديد تلك المبانى وتضيف حجرات جديدة ومبانى ملحقة وواجهات. وفى قصر ليكن وضع العمال مصعداً على طراز عصر النهضة الإيطالى، وفتحوا للجمهور جناحاً على 'الطراز الصينى' تكلف مليون فرنك (وبه للعجب العجاب مطعم فرنسى). وكان القصد منه أن يكون الأول فى سلسلة من المبانى تمثل مناطق مختلفة من العالم. وامتدت تفاهات ليوبولد المعمارية التى لا تنتهى إلى المبانى التى تقع عينه عليها إضافة إلى تلك التى يعيش فيها. فقد أراد، مثلاً، أن "يزين قلب مدينة أوستند بواجهات عصرية جذابة". فعرض على جار له خمسة

وعشرين ألف فرنك كى يبنى واجهة لمنزله صممها معمارى ليوبولد الأثير وهو الفرنسى شارل جيرو (Charles Girault)، ولما رفض المالك ذلك العرض صودر المنزل.

وكثيراً ما كان ليوبولد يذهب لزيارة جيرو فى باريس، ويجلس على منضدة فى استديو المعمارى وينهمك فى أكوام من الرسوم الهندسية الزرقاء. وكان يعشق زيارة المبانى فى أثناء بنائها. وفى يوم من أيام سنة ١٩٠٨ أعطى تعليمات لسكرتيره الخاص: "نبه على وزير الأشغال العامة أن يحضر إلى قصر بروكسل يوم الأربعاء فى التاسعة، فأنا أريده أن يأتى معى إلى حديقة سان جيل وسأكون هناك فى التاسعة والنصف. ثم نتوجه إلى قوس سنكانتينير الساعة ١١ . ثم الغداء فى القصر نحو ١٢:٣٠، ثم نذهب إلى ليكن فى الثانية، ونتوقف عند الجسر فوق القنال قبالة جرين أفنيو، وفى الثالثة فان بريت أفنيو والبرج اليابانى، وفى الرابعة نمر فى طريق ميس وطريق هيزل". وعندما أمر ليوبولد ببناء بعض الأبنية بالقرب من القصر الملكى فى بروكسل أمر ببناء برج خاص من أخشاب السقالات يستطيع منه مراقبة تطور البناء.

وفى تعامله مع زواره كان الملك دائمًا يساوم بحذق بحثًا عن وسائل لتوسيع مجال سلطانه. ولاحظ ثيوفيل دلكاسيه (Theophile Delcasse)، وزير الخارجية الفرنسى، أن "عيب ليوبولد الوحيد هو أنه لا يستطيع إخفاء ذكائه: فالمرء تتملكه الشكوك والخوف عندما يقاد فى ممرات الحديقة". وتمازح يومًا سسيل رودز (Cecil Rhodes)، ملك الماس الجنوب أفريقى والرجل الأبيض الوحيد الذى ضاهى ليوبولد فى انتشاره غير المحدود فى أفريقيا، أنه اعتذر عن قبول دعوة إلى وجبة فى القصر لأن "كل عشاء يُقبل يكلف مقاطعةً".

وفى ليكن، اعتاد الخدم على رؤية الملك بجسده الضخم ولحيته وصلعته وعينيه البنيتين الداكنتين وأنفه الكبير، مرتدياً زى جنرال، ويمشى لساعات متكئًا على عصا من خشب البلوط، بين أشجار النخيل وغيرها من النباتات الاستوائية فى الصوبات وعلى ممرات حديقة القصر الشاسعة. وتزايدت مظاهر شذوذه. فأحيانًا كان يذهب للقاء كارولين راكبًا دراجة ضخمة ذات ثلاث عجلات، كان يسميها "حيوانى" (mon animal).

وكان لا يزال يرتعب من الجراثيم وصار مقتنعًا بأن شرب كميات كبيرة من الماء الساخن كل يوم هو أمر مفيد لصحته؛ ولهذا أبقى الخدم إناء جاهزًا دائمًا. واستمر بروتوكول البلاط رسميًا بصفة مستديمة، وهي السمة التي حددها ليوبولد الذي كان يتكلم ببطء وبطريقة ملوكية. وكما وصفه جوزيف كونراد ومادوكس فورد في روايتهما 'الورثة' التي صوراه فيها في شخصية متنكرة وإن كانت لا تخفى على أحد: "كأنما هو يرد دائمًا على أنخاب في صحته". كما أن ليوبولد صار الآن يتحدث عن نفسه بصيغة الضمير الغائب. "أحضروا له بعض الماء الساخن!". "أحضروا له الطبيب!". "أعطوه عصاه!".

وفي الحق كان الأمر الذي يود أن يصدره هو: "لا تأخذوا منه كونجوه!" لأنه، بفضل حملة موريل وتقرير لجنة التحقيق التي عينها هو بنفسه، اشتدت الضغوط عليه من كل جانب كي يتنازل عن ذلك القطر الذي كان يعتبره من ممتلكاته الخاصة. ولم يتبق أمام ليوبولد سوى خيار واحد بديلاً عن سيطرته على الكونجو هو أن يتحول الكونجو إلى مستعمرة بلجيكية. حتى موريل، وقد أُحبط من الافتقار إلى خيارات سياسية قابلة للتطبيق، أيد على مضض ما كان يُعرف باسم 'الحل البلجيكي'. فإن تلازمت مع تلك الحركة الإصلاحات المناسبة، وكان موريل دائم الإصرار على ذلك، فإنه كان يعتقد أن حقوق الكونجوليين قد تكون أحسن حالاً في مستعمرة بلجيكية متاحة أمام الفحص والتدقيق وتحت حكم القانون من حالها كإقطاعية ملكية سرية. ومما يثير عجبنا اليوم أن قلة قليلة من الإصلاحيين فقط تدارست حلولاً أخرى غير 'الحل البلجيكي'، غير أننا ننسى أنه في العقد الأول من القرن، لم تكن أفكار الاستقلال وحكم الذات في أفريقيا تخطر على بال أحد، إلا على بال قلة من الثوار المحاصرين في أعماق الغابة المطيرة في الكونجو. وكان جورج واشنطن ويليامز قد نادى سنة ١٨٩٠ بأن تصبح الكونجو "تحت حكم محلي لا أوروبي؛ دولي لا قومي". غير أن الأمر استغرق ثلاثة عقود بعد ذلك قبل أن ينادي أحد بمثل ذلك مرة أخرى حتى أشد أعداء الاستعمار حماسًا من المثقفين في أوروبا وأفريقيا أو الأمريكيتين.

وبالنسبة لليوبولد، كان انفجار الدعاية السيئة التي فجرتها كارثة كووالسكي نقطة تحول: فبدلاً من أن يَهَب الكونجو بكرم وأريحية في وصيته إلى بلجيكا بعد وفاته كما خطط،

أدرك أنه قد يضطر إلى ذلك الإجراء قبل وفاته. ومع مواهبه الاستثنائية فى الخروج من مواقف بالغة الصعوبة بأكبر قدر من الفوائد، بدأ يناور. فقرر أنه إذا كان أصحاب النوايا الحسنة سيجبرونه على التخلى عن مستعمرته الحبيبة، فلن يهبها وإنما سيبيعها. وعلى بلجيكا المشترى أن تدفع بسخاء.

ومن الغريب أن ليوبولد سبب قلقًا للحكومة البلجيكية. فقد علا صوت حماسة حركة إصلاح الكونجو بحيث أصبحت سمعة بلجيكا فى الميزان على المستوى الدولى. كما كانت قدرة الرأى العام البريطانى على الغضب لأسباب أخلاقية مستقلة عن تأثير الحكومة: ففى ذلك الوقت، على سبيل المثال، كان بعض دعاة الخير والإصلاح الاجتماعى البريطانيين ينظمون مقاطعة للبضائع البرتغالية لأن البرتغال كانت تستخدم عمالة السخرة فى أفريقيا. ويضاف إلى ذلك أنه إذا لم تستول بلجيكا على المستعمرة سريعًا فإن بعض الدول العظمى قد تفعل ذلك: ففرنسا وألمانيا، بعد أن طال حسدهم لأرباح الملك الوفيرة من المطاط، قد تضع أعينها على مساحات من إقليم الكونجو. وكان الرئيس روزفلت قد ألمح إلى رغبته فى الانضمام إلى بريطانيا فى الدعوة إلى مؤتمر دولى يبحث مصير الكونجو. وحدث ثلاث مرات أن سفراء بريطانيا وأمريكا قابلوا سويًا وزير الخارجية البلجيكى وحثوه على ضم بلجيكا للكونجو. غير أنه مثلما كانت سلطات ليوبولد محدودة بوضوح فى بلجيكا نفسها فإن الحكومة البلجيكية القلقة لم يكن لها سلطان قانونى عليه فى وضعه كحاكم للكونجو. وفى النهاية كان الملك يملك الأوراق الحاسمة وكان يدرك ذلك.

وإذن، كم يكون المبلغ الذى يستطيع أن يستخلصه من الحكومة مقابل مستعمرته؟ بدأت المفاوضات فى نهاية سنة ١٩٠٦ ولكنها سرعان ما توقفت، لأن الحكومة لم تتمكن من أن تحصل على الحسابات المالية السرية لدولة الكونجو. فإن كنت تشترى مؤسسة تجارية فمن البديهى أنك ستطالب بأن تطلع على ميزانيتها. وكان ليوبولد يقضى الشتاء تحت أشعة الشمس فى رأس فيرا وبعثت الحكومة السكرتير العام لوزارة الخارجية، البارون ليون فان در إلست (Baron Leon van der Elst) لمقابلته. واستقبل الملك البارون على متن يخته، وأمطره بالكرم الباذخ لعدة أيام، ثم استعرض معه

حدائق ممتلكاته الشاسعة على الشاطئ. ولكن عندما سأله البارون عن البيانات المالية أجابه ليوبولد بأن دولة الكونجو "لا تدين بالفضل لأحد سوى لمؤسسها ... وليس من حق أحد أن يسأل عن حساباتها". وتبين لاحقًا، عندما تمكن فاحصو الحسابات أخيرًا من الحصول على بعض الأرقام، أن سبب عناده هو أن مبلغ خمسة وعشرين مليون فرنك الذى أقرضته له الحكومة البلجيكية سنة ١٨٩٠، وكذلك سبعة ملايين أخرى اقترضها بعد ذلك ببضع سنوات، قد اختفت. وأوحت صحيفة تصدر فى أنتورب بأن المال قد ذهب إلى كارولين. وأرغى الملك وأزبد ثم تهرب من أى أسئلة أخرى.

وسارت المفاوضات ببطء خلال عام ١٩٠٧ وأوائل سنة ١٩٠٨، وكان ليوبولد يشكو ويثور فى وجه المسئولين الذين كانوا يحاولون التحدث معه. وفى لحظة ما صفق الباب بعنف فى وجه سكرتيره، متهمًا إياه بالتحالف مع القوى التى تحاول أن تسلب منه الكونجو. غير أن نوبات غضبه كانت محسوبة بعناية، مثلها فى ذلك مثل أوقات فتنته. واستغل الوقت الذى منحته إياه نوبات الغضب تلك فى عمل كل ما يمكنه لإخفاء الشبكة العنكبوتية المربكة الخاصة بثروته المتعلقة بالكونجو. وفى أثناء كل ذلك الوقت كان يدعى أنه لا يملك أى ثروة مطلقًا، وقال لمراسل أمريكى: "أنا حاكم الكونجو، ولكن ازدهار الكونجو ليس له أى تأثير مالى علىَّ أكثر مما يسببه ازدهار أمريكا للرئيس روزفلت. وليس لى سنتيم واحد أستثمره فى صناعات الكونجو، ولم أتلق أى مرتب نظير إدارتى للكونجو".

وأخيرًا ألمح الملك إلى أنه على استعداد للاستسلام. وحدد الثمن المطلوب. وتراجع قليلاً ولكن ليس كثيرًا، وفى مارس ١٩٠٨ أُبرمت الصفقة. وفى مقابل الكونجو وافقت الحكومة البلجيكية أول شىء على تولى مسئولية الديون البالغ قيمتها مبلغ ١١٠ مليون فرنك، وكانت غالبيتها على صورة سندات أنفقها ليوبولد على مدار السنين على أناس أثيرين لديه مثل كارولين. وبعض الديون التى تولتها الحكومة البلجيكية المغلوبة على أمرها كانت فى الحقيقة ديونًا لصالحها - وتقارب ٣٢ مليون فرنك التى كان ليوبولد قد استدانها منها ولم يدفعها مطلقًا.

وكجزء من الصفقة وافقت بلجيكا أيضًا على دفع مبلغ ٤٥,٥ مليون فرنك لاستكمال بعض مشاريع المنشآت المحببة إلى نفس ليوبولد. وذهب ثلث المبلغ إلى التجديدات الشاملة التى كانت تجرى فى قصر ليكن والذى كان بالفعل واحدًا من أفخم القصور الملكية فى أوروبا، حيث كان يعمل به فى ذروة العمل ٧٠٠ عامل متخصص فى البناء بالحجر و١٥٠ حصانًا وسبعة أوناش بخارية، تنفيذًا لرسومات ليوبولدية لبناء مركز للمؤتمرات العالمية.

وفى النهاية، وفوق كل ذلك، تسلم ليوبولد، على دفعات، خمسين مليون فرنك أخرى "كرمز للعرفان بالجميل لتضحياته الكبيرة فى سبيل الكونجو". ولم يكن من المتوقع أن تأتى تلك الأموال من جيوب دافعى الضرائب البلجيكيين وإنما من الكونجو ذاتها.

* * *

وفى نوفمبر ١٩٠٨، وبينما كانت تُجرى فى بوما مراسم مهيبة فى احتفال رسمى بانتقال ملكية الكونجو، جرت أحداث درامية غير طبيعية فى أعماق البلاد. ومجرد أنها حدثت فى دولة ليوبولد واستمرت دون انقطاع فى المستعمرة البلجيكية الجديدة يثبت أن الفرق بين النظامين لم يكن ما كان الإصلاحيون يأملون فيه. وكان فى قلب المسرح المبشر الأمريكى الأسود وليم شبارد.

كانت مقالة شبارد قبل عقد من ذلك الوقت، حول اكتشافه واحدًا وثمانين يدًا مبتورة تُدخن فوق النيران، كانت واحدة من أكثر الشهادات عن الكونجو اقتباسًا. وكتب أحد الباحثين: "إن روايته بوصفه شاهد عيان قد استشهد بها كل الإصلاحيين الأمريكيين تقريبًا، سواء من البيض أو السود". ولعدة سنوات كان لشبارد حليف قوى فى شخص زميله وليم موريسون وهو قسيس أبيض كان مع بعثة الكونجو التى أوفدتها المشيخية الجنوبية منذ سنة ١٨٩٧ . وكان موريسون خصمًا جسورًا للحكومة وصديقًا لموريل ورائدًا فى تحفيز زملائه من المبشرين من أمريكيين وبريطانيين وسويديين

وحثهم على الحديث جهاراً ودون خوف. وكان قد أمطر المسئولين فى بوما بخطابات الاحتجاج، ونشر خطاباً مفتوحاً موجهاً إلى ليوبولد، وألقى كلمة مؤثرة عند مروره بلندن. وفى الولايات المتحدة قاد جماعة من المشيخيين لمقابلة الرئيس تيودور روزفلت بشأن الكونجو. وفى المقابل كان النظام يكره موريسون مثل كراهيته لشبارد.

كان شبارد وموريسون الأعلى صوتاً بين كل مبشرى الكونجو الأمريكيين، الذين طالما أغضبت احتجاجاتهم ليوبولد. وكان قد أمر بفحص مجلات التبشير بحثاً عن مقالاتهم المعادية، ولا تزال بعض النسخ موجودة وعليها علامات بقلم أزرق وضعها مسئولو القصر. ولم يستطع ليوبولد أن يصل إلى هدفه الحقيقى، موريل، الذى كان قابعاً فى إنجلترا فى أمان، غير أنه حاول بإصرار أن يخيف مصادر موريل: ففى ١٩٠٦ أصدر مرسوماً يقضى بعقوبة خمس سنوات فى السجن لكل افتراء يصدر فى حق مسئولى دولة الكونجو. وسرعان ما قُدم مبشر بريطانى كان قد زود موريل بمعلومات للمحاكمة. وحكم عليه بغرامة ألف فرنك إضافة إلى مصاريف القضية، ولما كان أقل جسارة من شبارد أو موريسون فقد غادر البلاد. ووجدت المجموعة الصغيرة من المبشرين المشيخيين أن الحديث الصريح قد صار أمراً خطيراً؛ فالسلطات كانت تراقبهم عن كثب، سواء فى أفريقيا أو فى الخارج. ولم يكونوا يعلمون أن مونشير السفير البلجيكى فى واشنطن كان قد حضر فى فيرجينيا خطاباً من عديد الخطابات التى كانت تحتل عناوين الصحف وتشجب فظائع الكونجو، ألقاه شبارد فى أثناء إجازة قضاها فى الوطن والتى كانت شهرته فى إلقاء الخطابات الملتهبة تجعل الكنيسة أو القاعة ممتلئة بالحضور.

وبينما حكم ليوبولد للكونجو يقترب من نهايته، كانت شركة 'كومبانى دى كاساى' (Compagnie du Kasai)، وهى شركة ذات امتيازات من جيل جديد وكانت هى الحكومة الفعلية فى المنطقة التى يعمل فيها المشيخيون، كانت تحاول أن تستخلص كل ما يمكنها من مطاط طالما الازدهار قائم. وكان حوض نهر كاساى، حيث بدأ استغلال المنطقة متأخراً عن المناطق الأخرى، قد أصبح أكثر مناطق الكونجو ربحية كمصدر للمطاط. والآن من الشخص الذى عاود الظهور فجأة على مسرح الأحداث،

حيث يزور المنطقة كمفتش عام لشركة 'كومبانى دى كاساى' حيث ارتفع شأنه منذ آخر مرة تقابلنا وإياه؟ ليون روم، الذى كان جامعًا لعدة رءوس. وكان تحول ضباط القوة الشعبية إلى موظفين بشركات الكونجو بعد تقاعدهم أمرًا شائعًا.

كانت قبيلة كوبا فى منطقة كاساى، وهم من الأقوام المسالمة، قد قامت بثورة ضد إرهاب المطاط، أشعلها، على شاكلة كل مثيلاتها من ثورات مقضى عليها بالفشل فى أماكن أخرى من أفريقيا الجنوبية، شيوخ القبيلة ومعهم صنم يقولون إنه قادر على تحويل رصاصات الرجل الأبيض إلى ماء. وأحرق الثوار مراكز تجارية ومحطة للتبشير؛ وعندما لم تتحول الرصاصات إلى ماء قُتِل منهم نحو ١٨٠ فردًا. وفى الخطاب السنوى الذى كانت المشيخية الأمريكية تطبعه لأنصارها فى الوطن، وهو 'كاساى هيرالد' (Kassai Herald)، وصف وليم شبارد حصيلة القتل فى شعب كوبا. ومما له دلالة أنه استهل خطابه بتحية لتاريخ قبيلة كوبا، وكتبه بطريقة لا يمكن أن يفعلها مبشر أبيض:

> هؤلاء الشجعان الأقوياء رجالاً ونساءً، الذين كانوا منذ زمن سحيق أحرارًا، يزرعون مزارع كبيرة من الذرة الهندية والبازلاء والدخان والبطاطس، ويوقعون الأفيال فى الشراك من أجل أنيابها والفهود من أجل جلودها، والذين كان لهم دومًا ملك من بنى جلدتهم وحكومة لا يُستخف بها، وضباطًا للقانون فى كل مدينة من مدن المملكة، هذا الشعب الرائع، ربما كان عدده نحو ٤٠٠ ألف، قد دخلوا منعطفًا جديدًا فى تاريخ قبيلتهم. فمنذ سنوات قليلة، وجدهم الرحالة يعيشون فى منازل رحبة بكل منزل من حجرة إلى أربع حجرات، يحبون ويعيشون فى سعادة مع زوجاتهم وأطفالهم، فهم واحد من أكثر قبائل أفريقيا ازدهارًا وذكاءً ...
>
> غير أنه فى خلال السنوات الثلاث الماضية كم تغيروا! فقد تغطت مزارعهم بالأعشاب الضارة والأدغال، وتحول ملكهم إلى عبد من الناحية العملية، وصارت منازلهم نصف مبنية ومن حجرة واحدة ومهملة إهمالاً شديدًا.

ولم تعد شوارع مدنهم نظيفة وجيدة الكنس كما كانت من قبل. بل إن أطفالهم يبكون طلباً للخبز.

لم حدث ذلك التغير؟ سأجيبكم فى كلمات قليلة. هناك حراس مسلحون لشركات تجارية ذات امتيازات يجبرون الرجال والنساء على قضاء أغلب أيامهم ولياليهم فى الغابات يجمعون المطاط، والثمن الذى يتقاضونه ضئيل لدرجة أنهم لا يستطيعون أن يتعيشوا عليه. وفى أغلب القرى ليس لدى هؤلاء الناس وقت لسماع قصص الإنجيل، أو إعطاء إجابة تتعلق بخلاص نفوسهم.

نُشرت مقالة شبارد فى يناير ١٩٠٨، وهو الشهر الذى عاد فيه ليون روم إلى بلجيكا بعد رحلة عمل فى منطقة كاساى لمدة ستة أشهر. وبعدها مباشرة بدأ زملاء روم فى "شركة كاساى" يهددون موريسون وشبارد ويتوعدونهما ويطالبونهما بسحب ما قالاه، الأمر الذى رفضا أن يفعلاه. وأرسل موريسون إلى مسئولى الشركة خطابات قوية ذكر فيها المزيد من الاتهامات المحددة، مما زاد من حنقهم. وكان موقف المبشرين ضعيفًا لأنهما من الناحية الإجرائية نشرا المقالة داخل الكونجو نفسها. وفى إنجلترا أعاد موريل نشر مقالة شبارد، وصورة فوتوغرافية، كان المبشران قد أرسلاها له، لعمال تحت السخرة موثوقين سويا بحبال حول رقابهم.

وفى أثناء ما كانت الشركة تتذمر من المقالة الجارحة، قام ويلفرد ثيسيجر (Wilfred Thesiger)، نائب القنصل البريطانى فى الكونجو، بزيارة مدتها ثلاثة أشهر لمنطقة حوض كاساى لتحضير تقرير عن الأوضاع هناك. وتابع المسئولون الخائفون تحركاته، فهم لم ينسوا الغضب الدولى الذى سببه تقرير روجر كيسمنت قبلها بأربع سنوات. وأقام ثيسيجر مع المشيخيين الأمريكيين فى إرسالياتهم وسافر على متن سفينتهم البخارية "لابسلى" مما أثار فزع السلطات. ونظراً لأن شبارد كان يفهم اللغات المحلية ويعرف الإقليم جيداً فقد عمل دليلاً لثيسيجر واصطحبه إلى واحد وثلاثين قرية من قرى قبيلة كوبا. وبعد رحيلهما استجوب رئيس محطة مرتاب القرويين الذين تحدث معهم الرجلان

استجوابًا عسيرًا، وكتب باضطراب تقريرًا إلى رؤسائه جاء فيه إن "شبارد أشار لهم إلى القنصل وقال 'هل ترون هذا الرجل الأبيض، عندما يعود إلى أوروبا فسوف ينقل للمسئولين أى كلام تقولونه له، لأنه قوى جدا'. وفى قرية باكوبا كان ثيسيجر يوجه أية أسئلة يقترحها شبارد". وسرعان ما قدم ثيسيجر تقريرًا عن المجاعة والأعمال الوحشية فى منطقة كاساى إلى البرلمان البريطانى. وجاءت فيه فقرة تصف منازل كوبا التى تتهدم بينما الرجال مجبرون على العمل عبيدًا للمطاط، وهى تردد إلى حد بعيد ما جاء فى مقالة شبارد. وانهارت أسعار أسهم شركة كاساى وأنحى مسئولو الشركة ودولة الكونجو الغاضبون باللائمة على شبارد.

ولم تكن الشركة تملك من الناحية القانونية أن تعاقب المشيخيين لمساعدتهم ثيسيجر، ولكنها كانت تستطيع ذلك لنشرهم مقال شبارد سنة ١٩٠٨ . وفى فبراير ١٩٠٩ رفعت قضية قذف ضد شبارد بوصفه كاتب المقال، وضد موريسون بصفته ناشرها، مطالبة بثمانين ألف فرنك على سبيل التعويض. وقرر الرجلان، وهما ثابتان على ما آمنا به، أنه إذا حكم القاضى ضدهما، وكما كتب موريسون فى خطاب إلى الوطن، فإنهما "يفضلان دخول السجن على أن يدفعا الغرامة". وفى الخارج انبرى أنصارهما للدفاع عنهما. وكتب السير آرثر كونان دويل، (متجاهلاً شبارد المتهم الأسود) "إن وجود موريسون وراء القضبان يجعل منه تمثالاً أجمل من تمثال الحرية الذى صنعه بارتولدى (Bartholdi) فى ميناء نيويورك". وفى واشنطن نوقش الأمر فى اجتماع لمجلس الوزراء. وأخطرت البعثة الدبلوماسية فى بروكسل الحكومة البلجيكية أن الولايات المتحدة تتابع المحاكمة باهتمام شديد وقلق غير قليل، "وألمحت إلى أن اعتراف الولايات المتحدة بالمطالبة البلجيكية الجديدة الكونجو قد يتوقف على نتيجة المحاكمة".

وجرت المحاكمة فى ليوبولدفيل، على مبعدة نحو ستمئة ميل من مقر الإرسالية المشيخية فى اتجاه مصبات أنهار كاسى والكونجو. وهناك صورة فوتوغرافية يظهر فيها موريسون وشبارد قبل المحاكمة وهما واقفان تحت بعض أشجار النخيل وبرفقتهما دستة من أفراد الكوبا مستعدين للشهادة فى صالحهما. وأفراد الكوبا عارون فوق الخصر. ويبدو موريسون، الرجل الأبيض، مستسلمًا من خلف لحيته الكثة،

وكأنما يتأهب لمحنة أخرى فى حياة من الورع يحاسَب عليها فى السماء، ولكن من المؤكد أن الحساب لن يكون قبل ذلك، وهو يرتدى قبعة سوداء وحلة سوداء وحذاء منزليا. أما شبارد، الرجل الأسود، فيرتدى حلة بيضاء وقبعة بيضاء. وحذاؤه يلمع، وصدره منتفخ إلى الأمام، وهو أطول من كل شخص آخر وتبدو عليه ملامح الاستمتاع الكبير باللحظة. وفى وقفته تجاه الكوبا نلحظ فخاراً وحنواً، وكأنما هم من الأطفال الأقارب.

وتحدد يوم بدء المحاكمة فى أثناء فصل الجفاف فى نهر كاساى - بتعمد، أو هكذا ظن المبشران. وبعد أن صادفت السفينة البخارية التى أقلت المبشرين وشهودهما من الكوبا مياهاً ضحلة، رفض القبطان أن يذهب إلى أبعد من ذلك، وتأجلت المحاكمة إلى يوم آخر.

وأبرق موريل لصديقه وحليفه إميل فاندرفلد (Emile Vandervelde)، زعيم الاشتراكيين البلجيكيين، يرجوه أن يقترح "محاميًا بلجيكيًا شابًا وأمينًا" للمبشرين. وكان فاندرفلد محاميًا إضافة لكونه من الزعماء البارزين للاشتراكية الديمقراطية الأوروبية. فأعلن أنه سوف يتولى الدفاع عنهما بنفسه ودون مقابل، مما أثار دهشة الجميع. وتأجلت المحاكمة مرة أخرى حتى يتمكن فاندرفلد من السفر إلى الكونجو. وبينما كان يستعد لمغادرة بلجيكا انتقده شخص ما لسفره كل تلك المسافة إلى أفريقيا ليدافع عن اثنين من 'الأجانب'. وربما كانت الحقيقة التى لم ينطق بها أحد هو أن أحد هؤلاء الأجانب كان أسود اللون.

وأجاب فاندرفلد: "ليس هناك أغراب فى ساحة العدالة".

ووجد فاندرفلد القادم حديثًا إلى الكونجو، وهو المعادى للكنيسة ورئيس الدولية الثانية (Second International) وصديق أو على معرفة بكل الرموز الشهيرة للجناح اليسارى أيامه، وجد نفسه مقيمًا فى محطة إرسالية ويتنزه على صفحات بحيرة ستانلى فى سفينة الإرسالية التى كانت تبحر رافعة علمًا أمريكيًا. وتسلى بمشاهدة المبشرين وهم يقومون بالتعميد بالغمر الكامل فى المياه ويصلون طلبًا لصدور حكم فى صالحهم.

وأخيرًا بدأت المحاكمة، فى قاعة محكمة فى ليوبولدفيل مبنية بالأخشاب والطوب، ونوافذها مفتوحة للنسيم. وبسبب الإجراءات أسقطت المحكمة التهم الموجهة إلى موريسون، تاركة شبارد المتهم الوحيد. ومما لا ريب فيه أن تلك المحاكمة، فى ذلك الموقع الحدودى المرصع بأشجار المانجو والنخيل وغيرها من الأشجار الاستوائية، وبما فيه من جماعات عمالة السخرة والثكنات العسكرية وميدان رماية حيث يتدرب الأوروبيون على إطلاق النار أيام الآحاد، كانت أهم حدث فى المدينة. وازدحمت قاعة المحكمة بما يربو على ثلاثين مبشرًا بروتستنتيًا أجنبيًا كاستعراض للتأييد. وجلسوا فى جانب من القاعة ومعهم مناصرون آخرون لشبارد؛ وعلى الجانب الآخر جلس المبشرون الكاثوليك، ومسئولو دولة الكونجو ومؤيدون آخرون لشركة كاساى. أما المتفرجون الذين لم يجدوا لهم مكانًا فى القاعة فراقبوا من الباب المفتوح ومن النوافذ. وارتدى مسئولو شركة كاساى حللاً بيضاء وقبعات شمس بيضاء، وبدا شبارد أنيقًا فى سترة سوداء ويتدلى منديل من جيبه العلوى.

وبعد أن قرع القاضى جرسًا صغيرًا إيذانًا بفتح الجلسة وتحدث محامى شركة كاساى، وقف فاندرفلد كى يستغل الساحة غير الاعتيادية أكبر استغلال ممكن. وأخبر القاضى أن شبارد " لم يعد بريطانيًا ولا أمريكيًا بل هو ينتمى لكاساى ... ودافعه الوحيد لكشف أحوال الوطنيين الذين يعيش بينهم هو دافع إنسانى بحت". وروى موريسون أن فاندرفلد "ألقى بدفاع رائع، وكانت خطبته أعجوبة فى البلاغة، والمنطق الذى لا يُغلب، والتهكم اللاذع، ودعوة حزينة لتطبيق العدالة لا علينا فقط نحن المبشرين وإنما على السكان الوطنيين على وجه الخصوص. وسَحَر الحاضرين فى قاعة المحكمة لمدة تزيد على ساعتين". كما تأثر أيضًا شبارد المتهم، وكتب يقول: "المحاكمة هى حديث البلد بأسره، والمتفرجون تأثروا حتى استخدموا مناديلهم بكثرة". وطبقًا لما رواه شبارد، حتى القساوسة الكاثوليك – وهم عادة من حلفاء الدولة المخلصين – كانوا يبكون، وقام واحد منهم وهنأ فاندرفلد بعد أن فرغ من خطبته. "ويقال إنه لم يُلقَ مثل ذلك الخطاب فى الكونجو من قبل".

وأتت المحاكمة ببعض الاهتمام بشبارد فى الوطن. فكتبت صحيفة 'بوسطون هيرالد' تحت عناوين 'الزنجى الأمريكى بطل الكونجو، وأول من أخبر العالم عن فظائع الكونجو'، "لم يكتف الدكتور شبارد بالوقوف فى حضرة الملوك وإنما وقف أيضًا ضدهم. وفى مواصلة لرسالته فى خدمة جنسه فى بلده الأصلى، تجاسر ابن العبد هذا ... على الصمود أمام سلطان ليوبولد".

وبعد الكلمات الختامية أعلن القاضى أنه سيصدر قراره بعد أسبوعين. وفى النهاية، كانت السياسة، لا فصاحة فاندرفلد ولا صلوات المبشرين، هى التى أملت النتائج. وكان تواجد القنصل الأمريكى ونائبه فى قاعة المحكمة تذكرة بالمشاكل التى قد تواجهها بلجيكا إن وُجد شبارد مذنبًا. وبالمثل كان القاضى يدرك أن ليس أمامه مستقبل واعد فى الكونجو إن هو قرر أن اتهامات شبارد ضد الشركة صحيحة. فنحا بحذر تجاه حل وسط، واستغل ببراعة حقيقة أن مقالة شبارد لم تذكر اسم شركة كاساى (رغم أنه لا توجد شركات أخرى فى المنطقة) وإنما تحدثت عن "حراس مسلحين يتبعون شركات ذات امتيازات فى المنطقة". ولهذا أعلن القاضى، فى الأغلب، "لم يقصد المتهم شبارد أن يهاجم تلك الشركة ... والمقالة لم تشر إلى شركة كاساى ولا تستطيع أن تشير إليها". والنتيجة أن شبارد حصل على البراءة دون أن تدان الشركة. ولكن الشركة كان عليها أن تدفع أتعاب المحكمة.

وفى أعالى نهر كاساى علمت زوجتا المبشرَين أن زوجيهما قد نذرا دخول السجن مفضلين ذلك على دفع الغرامة إن جاء الحكم ضدهما. وكان الدليل على حدوث ذلك هو أن الرجلين لا يكونان على متن سفينة المشيخيين عندما تعود من ليوبولدفيل. وفى أثناء تجمع الناس فى قلق فى محطة الإرسالية ينتظرون السفينة، بدا أن هناك دفء وصداقة حميمة بين أولئك الأمريكيين السود والبيض وهو شىء لا يمكن تصور حدوثه على أرض الوطن. وكتبت لوسى جانت شبارد "انتظرنا أنا والسيدة موريسون عودة أحبائنا. وعند حضور السفينة 'لابسلى' بدأ مئات المسيحيين فى غناء الترانيم والتلويح بأيديهم وإطلاق صيحات السرور. كان وقتًا رائعًا – وقتًا لصلاة شكر".

* * *

وفى أوروبا لم تكن هناك صلاة شكر بالنسبة لليوبولد. ففى ديسمبر ١٩٠٩، بعد أقل من شهرين من محاكمة شبارد سقط الملك ذو الأربع والسبعين سنة مريضًا مرضًا خطيرًا ومصابًا "بانسداد فى الأمعاء"، ربما كان ذلك تعبيرًا مخففًا عن مرض السرطان. وكان الملك يعيش فى مبنى جانبى هو جناح النخيل فى قصر ليكن المكتظ بالتجديدات اللانهائية ومحاطًا كما هو الحال دائمًا بحزم من الرسومات الهندسية، وسط الصوبات الزجاجية الكبيرة. وهرعت كارولين وابناها إلى جوار الملك، وأجرى قسيس ليوبولد الخاص مراسم زواج سريعة. ومع إصلاح ذات البين بينه وبين الكنيسة أمكن للملك أن يتلقى طقوسه الأخيرة. ورغم ذلك فقد كان على كارولين أن تختفى عن الأنظار كلما وصل ضيف.

وحضرت إلى بروكسل ابنتا ليوبولد المنبوذتان لويز وستيفانى، وهما يأملان فى صلح وتغيير لصالحهما فى الوصية الملكية. وطردهما أبوهما بعناد حتى اللحظة الأخيرة. وأمر طبيب القصر الدكتور جول ثيريار (Jules Thiriar)، الذى عمل أيضًا كحامل أسهم زائف بديلاً للملك فى كثير من شركات الكونجو، أمر بإجراء عملية لكنها لم تنجح. وكان البرلمان قد وافق لتوه على قانون محبب لليوبولد بفرض الخدمة العسكرية الإجبارية. فلما أفاق من تأثير المخدر بعد العملية وقع الملك على القانون بيد مرتعشة. وفى اليوم التالى بدا عليه أنه يستجمع قواه وطلب الصحف وأعطى أوامر بالاستعداد للرحيل إلى الريفييرا. وبعدها ببضع ساعات مات. وقاد واحد من جمع المسئولين المحتشد كارولين الباكية بعيدًا عن سريره.

وإذا ما صدقنا رواية كارولين فإن ليوبولد بعد إتمام مراسم الزواج السرى التفت إلى البارون أوجست جوفنت (Baron Auguste Goffnet)، وهو واحد من التوائم السمان الملتحيين اللذين كانا من بين أقرب مساعديه لما يزيد على ثلاثين سنة، وأعلن، "أقدم لك أرملتى وأضعها تحت حمايتك فى أثناء الأيام القليلة التى سوف تقضيها فى بلجيكا بعد وفاتى". ومن المحتمل أن يكون الملك قد قال فعلاً شيئًا من هذا القبيل، لأنه كان يعلم أن بناته الثلاث والرأى العام البلجيكى كانوا يكرهون كارولين – وستزداد كراهيتهم

عندما يكتشفون أنه فى أيامه الأخيرة حول إليها ثروة من سندات الكونجو، إضافة إلى نحو ستة ملايين فرنك منحها لها من قبل.

وشرع محامى الأميرة لويز فى البحث عن السندات، فعندما ذهبت كارولين إلى منزلها فى بروكسل وجدته مغلقًا وعليه حراس ونوافذه مغلقة بألواح خشبية. وحدث نفس الشىء فى القلعة الفرنسية التى وهبها لها ليوبولد. غير أنها بمساعدة من المخلصين للملك، الذين شوهدوا وهو ينقلون أوراقًا من مكتبه فى ساعاته الأخيرة، تمكنت كارولين من الفرار إلى باريس ومعها جانب كبير من أموالها.

وقبل انقضاء سنة بعد ذلك تزوجت مرة أخرى - ولم يكن زوجها سوى الضابط الفرنسى السابق ديريو، صديقها وقوادها السابق. فإذا كانت قد شاركته بعضًا من ثروتها فمما لا شك فيه أن ذلك كان واحداً من أنجح حالات القوادة فى كل الأزمنة. وأما ما جرى لابنى كارولين وليوبولد فقد توفى أحدهما بعد وفاة والده ببضع سنوات. وعاش الثانى طويلاً، حياة هادئة على دخل لرأسمال اغتُصِب ذات يوم من جهد عبيد مطاط الكونجو؛ ومات سنة ١٩٨٤ . ولعل حفيدة ليوبولد إليزابث هى الأكثر إثارة فى نسله وهى ابنة ستيفانى والأمير رودلف ولى عهد النمسا والمجر. فقد تزوجت من سياسى اشتراكى وصارت تُعرف باسم الأرشيدوقة الحمراء.

وعند وفاة ليوبولد لم يحزن عليه إلا قلة من شعبه. وكانوا يفضلون عليه كثيراً ابن أخيه ووريثه ألبرت الأول، وكان متواضعًا وجديراً بأن يُحب، وكان حبه لزوجته أمراً شديد الوضوح - وهو أمر بالغ الندرة فى ملك أوروبى. أما العالم خارج بلجيكا فلم يكن ينظر إليه من خلال نصبه التذكارية والأبنية التى كان يفخر بها وإنما من خلال الأيدى المبتورة، ويعود الفضل فى ذلك إلى موريل وحلفائه. وألقى الشاعر الأمريكى فاشيل ليندساى (Vachel Lindsay) قصيدة:

أنصت إلى صراخ شبح ليوبولد

وهو يحترق فى جهنم بسبب جمع من الأيدى المشوهة

استمع إلى ضحكات الشياطين وتهليلهم
وهم يقطعون يديه فى جهنم

غير أن المعركة حول الكيفية التى يمكن أن يُتذكر بها ليوبولد وأعماله كانت قد بدأت لتوها.

* * *

اتخذت الآن حياة شخصية رئيسة فى المراحل الأولى من تلك المعركة، وهو روجر كيسمنت، مساراً جديداً. فعندما نُشر تقرير كيسمنت أجرت معه الصحافة أحاديث صحفية واحتفت به الأوساط الأدبية فى لندن، ونال ميدالية من ملك إنجلترا، وهاجمه ملك بلجيكا، ودافع عنه موريل وحركة الإصلاح، ثم بُرئت ساحته منتصراً بواسطة لجنة التحقيق التى عينها ليوبولد نفسه.

غير أن كيسمنت كان مضطراً لكسب عيشه. وبحلول سنة ١٩٠٦ أصبح يعمل مرة أخرى كقنصل بريطانى فى مكان ناء، هذه المرة فى سانتوس فى البرازيل، حيث كانت القنصلية عبارة عن حجرة خالية وعارية من الأثاث فى مستودع للبن. وكان يرتدى زيا رسميا فى المناسبات الاحتفالية (قفازات بيضاء وياقة وأطواق أكمام موشاة بالذهب وسيفًا وقبعة لها شريط)، ولكن عمله اليومى كان أبعد ما يكون عن المتعة. وفيما بعد كتب كيسمنت بسخط ملخِّصًا تاريخ حياته القنصلى، "ثبَّت سلفى فى العمل فى سانتوس شبكة معدنية فى السقف كى يمنع ... الرعايا البريطانيين الغاضبين من إلقاء الأشياء عليه ... فى خليج ديلاجوا [فى موزمبيق] لم أستطع أن أتحمل تكاليف سكرتيرة أو كاتب. واضطررت إلى الجلوس فى مكتبى لمدة عامين وأفتح الباب بنفسى لكل قادم. وكنت أتولى غسيل كل شىء ... وعرفت سيدات كن يأتين ويطالبننى بأجرة التاكسى الذى استقلوه. طُلب منى أن أبرم طلاقًا ونلت توبيخًا لأنى لم أفعل ذلك. ذات مرة دخلت امرأة إلى مكتبى فى خليج ديلاجوا وسقطت مغشية عليها على الأريكة، وبقيت تلك المرأة فى المنزل لمدة أسبوع".

وصار كيسمنت منشغلاً بشئون وطنه أيرلندا عندما لا يكون منهمكًا فى دفع كفالة البحارة المخمورين وإخراجهم من السجن أو مشغولاً بأعمال قنصلية أخرى. وفى أثناء الإجازات التى كان يقضيها فى الوطن كان يتقابل مع أعضاء الحركة السياسية لإحياء اللغة الغالية (Gaelic)، "اللغة الرائعة المحببة"، ومعها جذور الحضارة الأيرلندية. وزار مدرسة الحركة للغات فى كلوجانيلى (Cloghaneely)، حيث التُقِطت له صور فوتوغرافية ويداه معقودتان بإحكام على بطنه، وكأنما يمسك بقلق بجسمه الطويل وهو جالس على نحو غير ملائم بين أعضاء عصبة اللغة الغالية الوقورين مرتدين البزات الرسمية والصديريات.

وكتب إلى صديق: "فى غابات الكونجو الموحشة حيث وجدت ليوبولد، وجدت نفسى أيضًا، الأيرلندى الفاسد الذى لا سبيل إلى إصلاحه". وقال لصديق آخر: "إن كونى أيرلنديًا كان هو السبب فى أنى فهمت بالكامل، كما أظن، المخطط الكامل للأعمال الشريرة التى كانت تجرى فى الكونجو". فهو كان قد وصل إلى قناعة بأن أيرلندا، مثل الكونجو، كانت مستعمرة، وأن هناك أيضًا يكمن جوهر الظلم فى الطريقة التى استولى بها الغزاة الاستعماريون على البلاد. "وأدركت أنى كنت أشاهد تلك المأساة [فى الكونجو] بأعين جنس آخر من البشر طورد واضطُهِد بدوره".

وقد يكون ذلك صحيحًا، ولكن هل كان الأيرلنديون فقط هم "الجنس الآخر من البشر الذى طورد واضطهد بدوره؟" ونظرًا لكونه شاذًا فى عصر لا يغفر ذلك، فإن كيسمنت بالتأكيد كان يشعر أنه مطارد كل يوم من أيام حياته كبالغ. وتلك كانت قضية شديدة الخطورة إن تبناها علانية، ولكن اعتناق القومية الأيرلندية كان أمرًا ممكنًا، وهذا ما فعله كيسمنت بحرارة متميزة. وعلى الرغم من أنه لم يملك تمامًا ناصية اللغة الغالية؛ فإنه حاول استخدامها فى خطاباته. وفى رحلته كى يتسلم عمله فى البرازيل أُتخمت حقائبه بكتب عن أيرلندا، وكتب إلى صديق له: "تذكر أن عنوانى هو قنصلية بريطانيا العظمى وأيرلندا، بسانتوس - وليس القنصلية البريطانية!!" وطبع مطبوعات خاصة لتأكيد ذلك. وكتب إلى الوطن من البرازيل، "أرسلوا لى أنباء الكونجو وأيرلندا - لا يهمنى شىء آخر".

وفى إحدى رحلاته إلى الوطن رست سفينته فى ريو دى جانيرو. وفيما بعد استعاد نائب القنصل البريطانى ذكريات ذلك: "نزل كيسمنت إلى الشاطئ وتحدثنا بعض الوقت قبل أن نعود إلى سفينته لتناول الغداء. وفى منتصف الطريق إلى السفينة، اتكأ النوتية البرازيليون الأنذال الذين كانوا يجدفون بنا إلى السفينة على مجاديفهم، كما كانت عادتهم كثيراً، وحاولوا أن يجبرونا على دفع مزيد من النقود أكثر من الأجر الذى سبق الاتفاق عليه. إلا أن كيسمنت انطلق فى حديث ضخم عن الحكم الذاتى لأيرلندا وأن لا شىء سيوقف التيار. وحاول النوتية أن يوقفوه ولكن ذلك كان أمراً مستحيلاً. وأخيراً يئسوا واستسلموا بحنق ومضينا فى طريقنا، بينما كان كيسمنت لا يزال مستمراً فى الحديث بقوة عن أيرلندا".

وبطريقة ما أمكن لكيسمنت أن يدبر المساهمة بمبلغ ٨٥ جنيه إسترلينى من مرتبه "كتبرع للقضية الأيرلندية سنة ١٩٠٧"، وكان كريماً كعهده دائماً (ساعد أخاً له لعدة سنوات كان دائم التعثر المالى). وشيئاً فشيئاً صار ينظر إلى العالم من منظار المستعمِر والمستعمَر. وامتلأت خطاباته بمشاعر عدم الرضاء عن العمل فى خدمة أكبر المستعمِرين، وكان يوبخ صديقه موريل برفق لإيمانه بأن إنجلترا أرقى أخلاقياً من سائر القوى الاستعمارية: "إن حكومتك البريطانية لا تعنينى فى شىء ... وأنت واحد من قلائل الناس، يا عزيزى البولدوج، الذين لا يدركون السمات القومية – ولهذا السبب فأنا أحبك. وعندما أفكر فيما فعله جون بول (John Bull) [رمز بريطانيا العظمى] فى أيرلندا فإنى أبكى بمعنى الكلمة عندما أفكر فى أنى لا أزال أعمل – بدلاً من أن أقاتل... وأنا لا أتفق معك فى أن إنجلترا وأمريكا هما القوى العظمى المحبة للخير والإنسانية... فهما ماديتان أولاً ثم إنسانيتان بعد قرن من الزمان".

ونصح موريل كيسمنت ألا يضحى بمعاش تقاعده بأن يترك العمل فى السلك القنصلى قبل الأوان. وكان يتفهم أسباب إحباطات كيسمنت، ولكنه كان من الحكمة بحيث أدرك أن بعضاً منها سببه شخصى فى الرجل، وليست بسبب الوظيفة. وكتب له مرة يقول: "أنت رجل تصعب مساعدته، فأول شىء أنت شديد الاعتزاز بنفسك،

وهو أمر يجعلني معجبًا بك. كذلك، واغفر لي قولي، أحيانًا يكون على شيء من الصعوبة معرفة ما الذى يمكن عمله بالضبط ويكون متفقًا مع رغباتك الحقيقية".

وكان كيسمنت تؤرق باله مصالح موريل بمثل ما كان موريل قلقًا على مصالح كيسمنت. فقد كان يعلم أن موريل، وقد انصبت كل طاقاته فى حركة إصلاح الكونجو، لم يدخر جانبًا شيئًا من المال لشيخوخته. وفى أثناء إجازة كان يقضيها فى لندن، شرع كيسمنت فى جمع أموال لهذا الغرض، وتبرع هو نفسه بخمسين جنيهًا. وكتب إلى وليم كادبورى صانع الشيكولاتة الكويكرى، "إنى أتعشم أن أجمع من عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفًا ... وهذا المبلغ يُستثمر لصالح الزوجة والأطفال وبذلك يمكن رفع هذا الرعب المحدق بعقله إلى الأبد، ويتفرغ عقله لخير أعظم لأفريقيا، أو فى أى مكان آخر يراه مثل ذلك الشخص غير الهياب مناسبًا". وأتبع كيسمنت ذلك بعاصفة من الخطابات والزيارات الشخصية إلى آخرين من مناصرى إصلاح الكونجو. ولم يحقق هدفه بالكامل، ولكنه نجح فى جمع بضعة آلاف من الجنيهات. وكان يجيد شيئًا أساسيًا فى الحملات السياسية: هو جمع التبرعات، وموريل كان أشد براعة منه فى ذلك.

وفجأة سنحت فرصة لكيسمنت أن يكرر رحلته التحقيقية الشهيرة التى قام بها فى الكونجو، وهذه المرة فى جزء آخر من العالم. فقد وصلت أنباء إلى إنجلترا تصف فظائع تُرتكب ضد الهنود الحمر فى منطقة بوتومايو (Putumayo) المنعزلة فى حوض نهر الأمازون بواسطة موظفى شركة الأمازون للمطاط فى دولة بيرو. وطالب دعاة الإنسانية البريطانيين ونقابات العمال ورجال الكنيسة بالعمل. وكانت الشركة مسجلة فى لندن وبعض من أسيئت معاملتهم كانوا من الرعايا البريطانيين، وهم عمال متعاقَد معهم من جزيرة باربادوس. وكلفت وزارة الخارجية كيسمنت بالتحقق من الأمر.

وبالنسبة لكيسمنت كان إقليم بوتومايو هو تكرار لما حدث فى الكونجو، بدءًا من الرحلة الطويلة الكئيبة على متن سفن بخارية إلى جحافل بعوض الغابات المطيرة إلى أعمال القتل والأغلال وقطع الرءوس والبتر والاختطاف التى تتسم بها أنظمة عمالة السخرة التى يؤججها نهم أوروبا الذى لا يشبع للمطاط البرى. وكان كيسمنت يزن أحمال

المطاط المكلف بها الهنود الحمر ويحاول أن يحملها. وكان يقيس جذوع الأشجار التى كان الناس يقيدون بها لجلدهم بأسواط من جلد حيوان التابير تشبه الشيكوت.

وفى تقريره لوزارة الخارجية كان كيسمنت يدرك أن كل شىء يجب أن يكون دقيقًا وموثقًا. غير أن كتاباته الأخرى فى تلك الفترة كانت معالجة رومانسية للمضطهدين. فقد أحس أن الأيرلنديين كانوا "الهنود البيض"؛ وأن منطقة جالواى (Galway) الأيرلندية التى يخيم عليها الفقر المدقع كانت "بوتومايو أيرلندية". وفى مقالة كتبها لإحدى المجلات جادل بأن هنود بوتومايو كانوا أرقى أخلاقيًا من حكامهم البيض، وأن الهندى "كان اشتراكيًا بالمزاج العام وبحكم العادة، وربما بسبب تعاليم قديمة فى الذاكرة لقيم الإنكا وما قبل الإنكا". (ولعل بعضًا من الشعوب الصغيرة التى قضت عليها جيوش الإنكا لم تكن لتنظر إلى الإنكا تلك النظرة المعتدلة).

وعلى الرغم من وقوعه فى فخ تخيلاته عن أسطورة الهمجى النبيل؛ فإن كيسمنت أنجز المهمة. وكما حدث فى الكونجو، لم يكتف بمجرد تنفيذه للمهمة التى كلفته بها وزارة الخارجية؛ وإنما كتب خطابات غزيرة إلى شخصيات من ذوى النفوذ، وجمع أموالاً وزود أعضاء متعاطفين فى البرلمان باقتراحات لاستجوابات. وفى خضم هذا العمل تلقى أنباء مثيرة: فبتوصية من وزير الخارجية كان سيمنح لقب سير. وأرق لعدة ليال عما إذا كان يرفض ذلك، شاعرًا، كما شرح لصديق، بأنه "إلى أن تصبح أيرلندا آمنة ومستقبلها مشرقًا فإنه لا يحق لأى أيرلندى أن يتقبل تكريمًا". وأخيرًا وافق، ولكنه عندما حان يوم الاحتفال - الذى يتطلب أن يركع على ركبتيه أمام الملك، ادعى المرض.

وفى أثناء وجوده فى بوتومايو كانت حياته كلها مليئة بالعمل، مثلما كانت فى الكونجو، دون أن تترك له فرصة لأى شىء آخر. غير أنه فى أثناء الرحلات الطويلة من وإلى جنوب أمريكا، اكتظ دفتر يومياته بلقاءاته الغرامية. فعلى متن سفينة: "خادم القبطان، ولد هندى فى التاسعة عشرة، عريض الوجه". وفى بارا فى البرازيل: "هل سأرى جووا، العزيز! سأستيقظ مبكرًا ... إلى المقابر وها هو كووا قادم، وقد تضرج وجهه من السعادة". وبدا أنه ازداد طيشًا فى لقاءاته. ومرورًا ببارا مرة أخرى: "العشاء فى الثامنة مساء ثم

الذهاب إلى المقابر حيث قابلت صديقًا ... ومرت الشرطة من خلف السياج - ولكنه ضحك ... ١٠ دولارات". ورغم أنه لم يكن قد اكتُشِف أمره بعد؛ فإن فتيل القنبلة الموقوتة كان مشتعلاً.

* * *

فى إحدى الأمسيات سنة ١٩١٠، بعد وفاة الملك ليوبولد بعام، شاهد رواد مسرحية جديدة فى لندن مبنية على قصة من قصص شيرلوك هولمز هى "العصابة المنقطة" ثلاثة رجال بين الحاضرين: الصحفى الشهير إ.د. موريل بشاربه الكث المميز، والسير روجر كيسمنت بلحيته السوداء وقد لوحت الشمس سحنته من جراء الوقت الذى قضاه فى بوتومايو، والسير آرثر كونان دويل مؤلف شخصية شيرلوك هولمز والذى كان قد دعا الرجلين الآخرين.

وكان كونان دويل أهم شخص نجح موريل فى اجتذابه لمؤازرة حركة إصلاح الكونجو. ورحب موريل بتلهف بالمساعدة التى تلقاها منه، وكان موريل قد ازدادت مهمته صعوبة باستيلاء الحكومة البلجيكية على الكونجو وموت ليوبولد فى العام الذى تلاه. وعانى موريل من أسوأ نكسة يمكن أن تصيب مناضلاً فى سبيل قضية: وهى فقدان الشخصية الشريرة. ويميل الاعتقاد دائمًا بأن نظامًا فاسدًا هو نتاج شخص واحد فاسد. ولكن موريل لم يقع قط فريسة لهذا الاعتقاد، غير أنه تخوف من أن ذلك قد يحدث لأنصاره. فقد كان نجاح إصلاحيى الكونجو فى تصوير ليوبولد فى صورة الشيطان سلاحًا ذو حدين. فبرحيل الملك، فقد تتداعى الحركة بمنتهى اليسر، وهكذا جاء تأييد كونان دويل الواسع النفوذ فى وقته تمامًا.

وفى سنة ١٩٠٩ كان الروائى يتحدث إلى الجماهير المحتشدة جنبًا إلى جنب بجوار موريل: ٢٨٠٠ فى إدنبره، و٣٠٠٠ فى بليموث، و٥٠٠٠ فى ليفربول. وكتب مقدمة لأحدث كتاب ألفه موريل، كما نشر كتابًا من تأليفه مبنيًا على ما يختزنه موريل من معلومات غزيرة، "جريمة الكونجو"، باع ٢٥ ألف نسخة فى أسبوع من ظهوره وتُرجم

فى الحال إلى لغات عدة. وبكل حماسة هذا المنضم حديثًا إلى الحركة، كان دويل واحدًا من القلائل فى أوروبا الذين كان شجبهم أكثر التهابًا من شجب موريل. وأطلق على استغلال الكونجو "أفظع جريمة ارتُكبت فى تاريخ العالم".

واعتبر موريل استيلاء حكومة بلجيكا على الكونجو مجرد "نصر جزئى". وكان يدرك أن النظام الذى أقامه ليوبولد لن يتفكك بسرعة؛ فقد كانت ربحيته هائلة. ونفس الرجال الذين عملوا كمفوضى المناطق ورؤساء المحطات لدى ليوبولد، كل ما سيحدث أنهم سوف يتقاضون مرتباتهم من مصدر مختلف. وحتى القوة الشعبية لم تكلف نفسها عناء تغيير اسمها. وكان الوزير البلجيكى الجديد لشئون المستعمرات موظفًا سابقًا فى شركة كانت تستخدم الآلاف من عمال السخرة لبناء السكك الحديدية فى الكونجو الشرقية. وكان رئيس اللجنة البرلمانية البلجيكية التى وافقت على الميزانية الجديدة للمستعمرة - التى رفعت 'الضرائب النوعية' على الأفارقة، كما أوضح موريل - من حملة الأسهم فى شركة أ.ب.ى.ر. صاحبة امتياز المطاط وسيئة السمعة. وطالما كان هناك ربح وفير من المطاط فهناك رجال بيض يجبرون الرجال السود على جمعه مستخدمين البندقية والشيكوت. وبتأثير من موريل كتب كونان دويل فى واحد من الخطابات العديدة التى كان يوجهها إلى رؤساء تحرير صحف بريطانية مختلفة: "طالما كانت عبارة 'البالغون من السكان الوطنيين يُجبرون على العمل' تظهر فى تقارير إصلاحيى الكونجو فلن يكون هناك إصلاح حقيقى".

وبعد ذلك ركز موريل جهوده فى محاولة حث وزارة الخارجية على مطالبة الحكومة البلجيكية باجتثاث شأفة النظام الليوبولدى البغيض لعمالة السخرة ومصادرة منتجات البلاد. وكان آخر ما فى جعبة اتحاد إصلاح الكونجو صورة لبارجة بريطانية - كان موريل يأمل فى أن تُرسَل لحصار مصب نهر الكونجو عند بوما. غير أن إيرل جراى (Earl Grey)، وزير الخارجية، رفض ذلك، مقلصًا ضغوطه على الحكومة البلجيكية إلى حجب الاعتراف البريطانى بملكية بلجيكا للكونجو. وانهمك موريل فى أعماله التنظيمية بحماس أشد من ذى قبل، وأخرج كتابًا آخر وسيلاً لا ينقطع من النشرات والمقالات وأعدادًا من مجلة اتحاد إصلاح الكونجو. وحشد أعدادًا هائلة فى قاعة ألبرت الملكية

(Royal Albert Hall) حتى أعلى شرفة فى اجتماع احتجاجى على ما يجرى فى الكونجو، حضره ٢٠ أسقفًا و١٤٠ عضواً فى البرلمان.

كان التغيير فى الكونجو يبدو فى الأفق. فالملك البلجيكى الجديد ألبرت الأول، الذى كان قد زار الإقليم فعلاً قبيل توليه العرش وشاهد أناسًا مبتورة أياديهم، سرب أنباء بأنه يعتقد أن عمالة السخرة هى فضيحة ونادى بإصلاحات رئيسية. (ولسوء الحظ سوف يتخلى عن مثاليات شبابه تلك فيما بعد فى حياته.) وسر موريل، غير أن مثل تلك الأنباء كان من الصعب أن تبقى جذوة حماس أنصاره مشتعلة. وبحلول سنة ١٩١٠ تلاشى الاتحاد الأمريكى لإصلاح الكونجو. وكتب موريل لواحد من مئات من كانوا يتراسلون معه، "الأمريكيون ... ليس لديهم الكثير من عزيمة البقاء".

وحاول موريل ببسالة أن يبقى أتباعه مهتمين بموضوع ملكية الأراضى، وكانت أهم بكثير من جرائم ليوبولد الشخصية وإن كانت أقل إثارة منها بكثير. وكان يؤمن منذ زمن بعيد بأن "جذور الشر [سوف تبقى] لا مساس بها ... حتى يتملك سكان الكونجو الوطنيين أراضيهم والمحاصيل التى تنتجها مرة أخرى".

واعتبر كثيرون، وبخاصة فى وزارة الخارجية، إلحاح موريل الصاخب على موضوع حقوق الأراضى الأفريقية أنه تهديد ضمنى ليس فقط للبلجيكيين وإنما للممارسات البريطانية فى أفريقيا، رغم أن موريل لم يقصد ذلك مطلقًا. وكتب وزير الخارجية إلى اللورد كرومر (Lord Cromer)، الذى كان من أنصار موريل، "إن مشكلة السكان الوطنيين ليست بالبساطة التى يظنها. وفى مستعمراتنا نحن لا نقول إن كل الأراضى ومنتجات الأرض تخص الوطنيين". وفى إيمانه بأن أراضى الكونجو ملك للأفارقة، كان موريل أشد تطرفًا من الغالبية الساحقة ممن عمل معهم. ومرة أخرى حدث توتر صامت بين موريل المقاتل فى سبيل العدالة وموريل الوطنى البريطانى، الذى كان أحدث مؤيديه من المشاهير، كونان دويل، كان يومًا ما رئيسًا لاتحاد فتيان الإمبراطورية. ونستطيع، من خلال كتابات موريل فى تلك الفترة، أن نلمح شواهد على أن انغماسه فى مسألة

الكونجو قد غيرته وعمقت من شعوره باليأس. وفى سنة ١٩٠٩، سابقًا زمانه بعقود، وفى تناقض صارخ للمزاج العام من حوله بالرضا عن النفس، كتب تحذيراً واضحًا "للنتائج البعيدة المدى المؤثرة فى المصير الأشمل، لا لجنوب أفريقيا فحسب، وإنما لكل زنوج أفريقيا"، التى ستترتب على أن بريطانيا قد أنشأت اتحاد جنوب أفريقيا المستقل بهيئة تشريعية كلها من البيض.

ورغم ذلك فلم يكن كل شيء كئيبًا فى نظر موريل. ففى خريف ١٩٠٩، أعلن وزير المستعمرات البلجيكى عن إصلاحات جوهرية، تُنفذ على مدى ثلاث سنوات. واحتج موريل بشدة لطول الفترة الانتقالية. غير أنه خلال تلك الفترة تحولت خطابات من يتراسلون معه من المبشرين إلى التفاؤل. وجاءت أنباء مماثلة مشجعة من الجولات التفقدية التى كان القناصل البريطانيون يقومون بها. وقلت التقارير عن فظائع تُرتكب فى حق عمال المطاط. وفى سنة ١٩١٢، عاد جون وأليس هاريس – وقد أصبحا الآن يديران جمعية مكافحة تجارة الرقيق وجمعية حماية السكان الأصليين بعد اندماجهما فى كيان واحد – عادا من رحلة إلى الكونجو وأعلنا عن "تحسن كبير".

وكان موريل غارقًا فى سباق مزدوج ضد الوقت: ضد الاعتراف البريطانى المحتم بالكونجو بوصفه مستعمرة بلجيكية، الذى حدث أخيراً سنة ١٩١٣، وضد الحماس المتناقص لأنصاره. بل إن كيسمنت شعر بأن "تحطيم القبضة القوية للقرصان هى أمر وشيك الإنجاز" وحث موريل على أن يعلن انتهاء الحملة. ورغم أن موريل أبدى بعض الشكوك فى مراسلاته الخاصة؛ فإنه قرر أن يعلن الانتصار علانية. "إنى لا أود أن أصبغ الحاضر بصبغة وردية. فجراح الكونجو سوف تستغرق أجيالاً لكى تندمل. ولكن... الفظائع قد اختفت... والأرباح لم تعد تأتى نتيجة عمالة السخرة أو عمل العبيد. واختفت ضريبة المطاط. والوطنى حر فى أن يجمع محصول أرضه ... وحلت حكومة مسئولة محل حكم مطلق غير مسئول". واعترف بأن الهدف الرئيسى الوحيد الذى لم يتحقق هو تملك الأفارقة للأراضى.

وفى ١٦ يونيو سنة ١٩١٣ عقد اتحاد إصلاح الكونجو اجتماعه الأخير فى فندق وستمنستر بالاس فى لندن. واجتمع كثير من المناصرين البريطانيين البارزين سويًا لآخر مرة: جون وأليس هاريس، وأسقف كانتربيورى، ومستكشفون ومبشرون ورؤساء تحرير صحف وأعضاء فى البرلمان. وأرسل السير روجر كيسمنت، ووليم كادبيورى، وجون هولت، وإميل فاندفلت، وبيير ميل، والكاتب جون جالزووردى خطابات أو برقيات تأييد تُليت فى الاجتماع. وبينما كانت المؤسسة التى أسسها والتى عكرت مياه السياسة فى بلدان عديدة لما يقرب من عقد تتوقف رسميا عن العمل، لم يكن إ. د. موريل قد تعدى التاسعة والثلاثين من عمره.

وتوالى الثناء عليه من متحدثين بارزين. ولم يكن موريل يحب أن تكون الأضواء مسلطة عليه إلا فيما ندر، غير أنه عندما رد على ما قيل فى تلك المناسبة، نسب أكبر فضل لشخص آخر: "بينما كنت أستمع لكل ما قيل، رأيت رؤيا. رأيت سفينة صغيرة تشق طريقها صُعُدًا فى نهر الكونجو منذ عشرة أعوام بالضبط هذا الشهر، وعلى متنها رجل يعرفه البعض منكم؛ رجل ذو قلب كبير ... روجر كيسمنت". وكان الاجتماع علامة على نهاية أول حركة رئيسية لحقوق الإنسان فى القرن العشرين. وقال موريل للمجتمعين من كبار الشخصيات: "لقد ضربنا ضربة لن تذوى فى سبيل العدالة الإنسانية". واحتاج الأمر لجيل آخر لمعرفة عما إذا كان ذلك صحيحًا.

الفصل الثامن عشر

النصـــر؟

كان موت ليوبولد علامة على نهاية حقبة فى كل من أوروبا وأفريقيا. وشعر كثير من البلجيكيين بالارتياح؛ فأخيراً سوف يتخلصون من المواقف المحرجة العديدة لعشيقته الشابة، ومن مشاحناته غير اللائقة مع بناته، ومن جشعه الفاضح. غير أنه سرعان ما أصبح جلياً أن شبح ليوبولد لن يختفى بهذه السهولة. فالملك الذى مات وهو يملك واحدة من أكبر ثروات أوروبا قد حاول أن يأخذها معه. وقد نجح فى ذلك وفقًا للعادة السائدة.

فقد تبين بعد وفاته بفترة وجيزة أن ليوبولد كان قد أمر خلسة بإنشاء مؤسسة، مقرها ألمانيا، نقل إليها ما قيمته نحو خمسة وعشرين مليون فرنك من الصور الزيتية وأدوات المائدة الفضية والكريستال والمجوهرات والأثاث وما شابه ذلك، إضافة إلى عشرين مليون فرنك أخرى على صورة سندات مالية. ونص دستور المؤسسة على إعادة استثمار جانب من دخلها وإنفاق الباقى - "وفقًا للتعليمات التى تركها مؤسسها" - على المشاريع الضخمة المبهرة التى كان يعشقها: القصور والنصب التذكارية والأبنية العامة. فقد كان يخشى ألا تنفق الحكومة البلجيكية الضئيلة العقل على مثل تلك المشاريع، كما كان يحاول، كعهده دائمًا، أن يمنع انتقال ثروته إلى لويز وستيفانى وكلمنتين. وقيل أن وزيراً سابقًا صرح فى السنوات الأخيرة من حياة ليوبولد بأن "ليس لدى الملك إلا حلمان: أن يموت بليونيراً وأن يحرم بناته من الميراث".

ولم تكن المؤسسة الألمانية هى المكان الوحيد الذى حاول ليوبولد أن يخفى ثروته فيها. فقد تبين أن ثمانية وخمسين عقاراً فى بروكسل كان مساعده المخلص البارون أوجست جوفينيه (Baron Auguste Goffinet) قد اشتراها للملك، هى ملك لشركة سرية أخرى. وكان ثمة كيان وهمى ثالث، هو مؤسسة الكوت دازير للعقارات السكنية والحدائق، تملك المجموعة الرسمية الكاملة لممتلكات ليوبولد فى الريفييرا. وبعض تلك الفيللات خُصصت لتكون مقاراً لإجازات ملوك بلجيكا المستقبليين؛ وبعضها الآخر كان مقرراً أن تكون جزءاً من منتجع صحى هائل الحجم بحدائقه ومتنزهاته وتسهيلات لممارسة الرياضة وأكواخ كى يتمتع مسئولو الكونجو من البيض بقضاء عطلات مجانية بعد عودتهم من العمل الشاق فى الكونجو. ويضاف إلى ذلك أن تلك المخابئ السرية العديدة كان مُخَبأً فيها سندات للكونجو ملك ليوبولد تربو قيمتها على خمسة وعشرين مليون فرنك.

وسارت جهود الحكومة البلجيكية لتصفية التشوش المالى الذى خلفه الملك المتوفى سيراً بطيئاً لسنوات. ولما كانت الكيانات المعنية قد تشكلت على صورة عدة شركات فى بلجيكا وفرنسا وألمانيا، فقد توقفت كليةً إجراءات تسوية كل شىء بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى. ولم يُبنَ قط المنتجع الصحى. وتُركت المدرسة الاستعمارية الكبرى، التى خطط لها ليوبولد بحماس شديد، غير مكتملة بعد أن أُرسيت أساساتها الباهظة خارج بروكسل. وفى النهاية ابتاع سومرست موم (Somerset Maugham) [الكاتب البريطانى الشهير] واحدة من فيللات الملك العديدة فى الريفييرا. وتحولت حديقة فيللا أخرى إلى حديقة حيوان، تشتهر اليوم بفرقتها من قرود الشيمبانزى التى تؤدى عروضاً.

ولم يحدث إلا سنة ١٩٢٣، بعد مرور أربع عشرة سنة على وفاته، أن أمكن فك ألغاز آخر أحجيات الملك المالية. فقد اكتشف المحققون، من بين ما اكتشفوا وهم يعملون على فهم شئونه المالية، أن بعضاً من الثروات التى كان قد باعها هى ملك لشقيقته المعتوهة كارلوتا، التى كانت لا تزال على قيد الحياة. فقد استولى ليوبولد، بوصفه وصياً قانونياً عليها، على بعض ممتلكاتها التى كان يرغب فيها، وأعطاها مقابلها وبصورة غير قانونية بعض سندات الكونجو التى كان يملكها.

وعاشت الإمبراطورة السابقة للمكسيك طويلاً بعد موت أخيها. وعندما كانت تستقبل زائراً كانت تستقبله فى حجرة بها عشرون مقعداً أو أكثر رُصت بجوار بعضها بعضًا. وكانت كارلوتا تدخل الحجرة وتحيى بوقار زائراً وهميًا فى كل مقعد قبل أن تتحدث إلى ضيفها. وبمرور السنين، كانت تمضى ساعات لا تنتهى تبدل ملابسها وتصفف شعرها. ثم حدث يومًا أن عيناها وقعت على صورتها فى المرآة، وأدركت أنها لم تعد تلك الشابة الفاتنة، فأمرت بتحطيم كل المرايا فى قصرها. وفى حفل بعد إعدام زوجها بخمس وأربعين سنة، تساءلت متعجبة، "إن مكسميليان ليس موجوداً!" ولعلها كانت واحدة من القلائل فى بلجيكا الذين لم يلحظوا الاحتلال الألمانى لبلجيكا الذى دام أربع سنوات فى أثناء الحرب العالمية الأولى. وماتت سنة ١٩٢٧ فى سن السادسة والثمانين، وهى تتمتم بجنون عن ممالك وهمية وأسر ملكية حتى اللحظة الأخيرة.

وإلى يومنا هذا لا زال الباحثون غير متأكدين تمام التأكد أى من توافه ليوبولد دُفع ثمنه من أى جيب سرى. ولا من الممكن الإجابة الكاملة عن سؤال أهم: كم بلغت أرباح الملك الكلية من الكونجو فى حياته ؟ وفى محاولة للإجابة عن هذا السؤال يضع الباحث البلجيكى جول مارشال (Jules Marchal)، وهو كبير مؤرخى تلك الفترة، تقديراً "متحفظًا"، لا يشمل مصادر أصغر للمال أو مصادر يصعب اقتفاء آثارها، هو ٢٢٠ مليون فرنك أيامها، أو ما يعادل ١,١ بليون دولار أمريكى من دولارات اليوم.

ورفعت الأميرتان ستيفانى ولويز قضية بعد أن استفزتهما تعقيدات ليوبولد المالية. وقالتا إنه لما كانت الثروة المخبأة فى المؤسسات والشركات السرية باسم والدهما، فإن جزءاً منها يصبح الآن ملكًا لهما. غير أن الحكومة البلجيكية حصلت فى النهاية على الجانب الأعظم من رءوس الأموال.

ولم يكن هناك محامٍ يدفع بأن الأموال يجب أن تعود إلى الكونجوليين.

* * *

كان الاجتماع الختامى لاتحاد إصلاح الكونجو سنة ١٩١٣، علامة على نهاية أهم حملة من نوعها وأكثرها استمرارية فى الفترة ما بين دعوة إبطال الرقيق فى بواكير ومنتصف القرن التاسع عشر والمقاطعة العالمية والحصار ضد عصر التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا فى سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين. غير أن حركة إصلاح الكونجو، رغم بطولتها؛ فإنها تترك فى أعقابها أسئلة مقلقة أهمها، هل كانت لها نتائج دائمة؟

ولسنوات عديدة كانت الإجابة التقليدية بالإيجاب. فقد أدى وهج الدعاية التى واكبت تحقيقات كيسمنت ولجنة التحقيق إلى إشعال شرارة موجة جديدة من الثورات فى بعض المناطق تسببت فى انخفاض ملموس، وإن كان مؤقتًا، فى جمع المطاط. وفيما بعد كان بمقدور إ. د. موريل وحلفائه أن يسجلوا الانخفاض الكبير فى تقارير الفظائع بعد الانتقال إلى سلطان حكومة بلجيكا. وأتت شهادة غير مباشرة بأهمية انتزاع الكونجو بعيدًا عن متناول يد ليوبولد من ألكساندر دلكوميون (Alexandre Delcommune)، وهو رجل أعمال ومسئول فى الكونجو لمدة طويلة، وقطب متحجر القلب من أقطاب المطاط. (كانت إحدى سفن شركة دلكوميون هى التى استُؤجِر جوزيف كونراد لقيادتها). وفى مرة كتب دلكوميون أنه لو كان حكم ليوبولد استمر لعشر سنوات أخرى "لما عثر أحد على كرمة مطاط واحدة، أو ربما على وطنى واحد". فهل تمكن إصلاحيو الكونجو من إنقاذ ملايين الأرواح؟

ولو كان الأمر كذلك لكان نهاية مناسبة لقصتنا، فحملة رائعة تستحق نتائج رائعة. فمجهودات إ. د. موريل التنظيمية وشهادات جورج واشنطن ويليامز ووليم شبارد وروجر كيسمنت، وموت أندرو شانو وزعماء الثوار من أمثال نسانسو ومولومى نياما وكاندولو لا يصح أن تذهب عبثًا. غير أن الحقيقة أكثر كآبة.

بالفعل انخفضت انخفاضا حادا التقارير عن إساءة معاملة جامعى المطاط فى الكونجو بعد تولى الحكومة البلجيكية مقاليد الأمور سنة ١٩٠٨ . وفى السنة التالية تناقصت أنباء إحراق القرى أو أخذ النساء والأطفال كرهائن. ولم يعد هناك بتر للأيدى مؤيد بطريقة رسمية. غير أن ما كان وراء ذلك التغير لم يكن نظام حكم أصبح أكثر

طيبة قلب بفضل جهود الإصلاحيين، وإنما أحداث أخرى متعددة. كان أحدها التحول التدريجي عن المطاط البرى إلى المطاط المزروع. وحدثٌ آخر كان استخدام وسائل أخرى لإجبار الناس على العمل كانت تتسبب فى احتجاجات أقل من قِبَل المبشرين ودعاة الإنسانية وهى الضرائب.

فقد رأى الإداريون البلجيكيون الذين تولوا الإدارة بعد ليوبولد أنهم يحتاجون لمزارع للمطاط المزروع، لأنه لو حدث أن كل المطاط الذى يُجمع أتى من الكروم البرية، فإن الأفارقة المتلهفين على الوفاء بحصتهم سوف يقطعون كل الكروم التى صارت نادرة بالفعل فى بعض أقاليم البلاد. ولنتأمل مرة أخرى شهادة ألكساندر دلكوميون فى الصفحة السابقة. فقد بدا عليه انزعاجٌ من احتمال اختفاء المطاط البرى يماثل انزعاجه من اختفاء الكونجوليين.

ونتج عن فرض ضرائب ثقيلة على الأفراد أن أُجبر الناس على العمل فى المزارع أو فى جمع القطن وزيت النخيل وغير ذلك من المنتجات – وكذلك ثبتت فعالية ذلك كوسيلة لاستمرار جمع المطاط البرى أيضًا. وحتى عشرينيات القرن العشرين كان التجار البيض يشترون المطاط البرى من القرويين المضطرين إلى دفع ضرائبهم.

واستمر الجزء الجوهرى لما أسماه موريل "النظام"، وهو عمالة السخرة، كما كان وطُبق فى كل أصناف العمل. واشتدت قسوته بوجه خاص فى أثناء الحرب العالمية الأولى. وفى سنة ١٩١٦ غزت القوة الشعبية الموسعة شرق أفريقيا الألمانية، تانزانيا اليوم. وعلى شاكلة سائر قوى الحلفاء، وضعت بلجيكا أعينها على الاستيلاء على قطعة من الكعكة الألمانية الأفريقية فى توزيع أسلاب الحرب الذى سيتم بعد انتهائها. وتم تجنيد أعداد هائلة من الكونجوليين كجنود أو حمالين. وفى سنة ١٩١٦، وحسبما جاء فى التقارير الرسمية للمستعمرات، زودت منطقة فى شرق الكونجو، يبلغ عدد الرجال البالغين فيها ٨٣٥١٨ فردًا، ما قوامه يزيد على ثلاثة ملايين يوم عمل فى الحمالة فى تلك السنة؛ ومات منهم ١٣٥٩ عاملاً من إرهاق العمل أو من الأمراض. واستشرت المجاعة. وذكر مبشر كاثوليكى، "عائل الأسرة على الجبهة والأم تطحن الدقيق للجنود، والأطفال يحملون لهم المواد الغذائية!"

وشهدت سنوات ما بعد الحرب نمو مناجم النحاس والذهب والقصدير. وكما كان الحال دائمًا تسربت الأرباح إلى خارج الإقليم. وكان استخدام الشيكوت مقننًا فى إدارة المناجم، وفى مناجم الذهب فى موتو فى أعالى نهر إيل، تبين السجلات أن ٢٦٥٧٩ جلدة قد استُخدِمت خلال النصف الأول من سنة ١٩٢٠ وحدها. وهذا الرقم يمثل ثمانى جلدات لكل عامل أفريقى يعمل كل الوقت. ولم تكن الأساليب المتبعة لجمع عمال سخرة للمناجم لتختلف كثيرًا عن تلك التى كانت مستخدمة أيام ليوبولد. وطبقًا لما ذكره المؤرخ دافيد نورثروب (David Northrup)، "ترسل المناجم شخصًا لجمع العمال يزور شيخ كل قرية ومعه جنود أو أفراد من شرطة المنجم، ويقدم له الهدايا، ويحدد له العدد المطلوب من الرجال (وعادة ما يكون العدد ضعف ما يريد، لأن نصفهم سيفر بمجرد تمكنه من ذلك). وعندئذ يجمع الشيخ الرجال الذين لا يطيقهم أو يخافهم أو أقلهم قدرة على المقاومة ويرسلهم إلى المقر الإدارى موثقين سويًا من رقابهم. ومن هناك يرسَلون مكبلين بالأغلال إلى مقر رئاسة المنطقة ... وكان الشيوخ يتقاضون عشرة فرنكات لكل شخص يجندونه". وإذا ما فر عامل فيمكن أن يُوضع أحد أفراد عائلته فى السجن – والأمر لا يختلف إلا قليلاً عن نظام أخذ الرهائن القديم.

ومثل أى مكان آخر فى أفريقيا، كانت أحوال الأمن والسلامة تدعو للرثاء: ففى مناجم النحاس وصهره فى كتانجا مات خمسة آلاف عامل فيما بين ١٩١١ و ١٩١٨، وعندما أُعيد بناء خط السكك الحديدية بين متادى وليوبولدفيل الذى كانوا يتفاخرون به واضعين مقاسًا أوسع للقضبان ومسارًا جديدًا ومستخدمين عمالة السخرة ما بين ١٩٢١ و ١٩٣١، هلك عمال فى أثناء التنفيذ أكثر ممن ماتوا عندما أُنشئ لأول مرة فى تسعينيات القرن التاسع عشر. ومن المفارقات أن فترة الكساد الكبير (the Great Depression) كانت فترة إنقاذ حياة بالنسبة للأفارقة الذين جُندوا للعمل فى ذلك المشروع وغيره من المشاريع.

ومع نشوب الحرب العالمية الثانية زاد الحد الأقصى القانونى لعمالة السخرة فى الكونجو إلى ١٢٠ يومًا فى السنة لكل رجل. وأتى ما يزيد على ٨٠ فى المئة من اليورانيوم الذى استُخدِم فى قنابل هيروشيما وناجازاكى من مناجم شينكولوبوى فى الكونجو

الموضوعة تحت حراسة مشددة. كما طلب الحلفاء أيضًا مزيدًا من المطاط لإطارات مئات الألوف من شاحناتهم الحربية وسيارات الجيب والطائرات. وأتى بعض المطاط من المزرعة الجديدة لأشجار المطاط فى الكونجو. ولكن حدث فى القرى أن الأفارقة أُجبروا مرة أخرى على دخول الغابة المطيرة بحثًا عن كروم المطاط البرى.

* * *

وعلى الرغم من إخفاق الإصلاحيين فى وضع حد لعمالة السخرة؛ فإنهم نجحوا بصورة مبهرة فى وضع الإقليم تحت الأضواء لما يقرب من عقد من الزمان. ونادرًا ما ينصب مثل ذلك الكم من الغضب لمدة بهذا الطول على هدف بعيد ذلك البعد. ويؤدى بنا ذلك إلى تساؤل رئيسى آخر حول الحركة: لماذا الكونجو؟

هناك قانون إنجليزى سحيق القدم يجرم من يشاهد جريمة أو يكتشف جثة ولا يستنفر الناس لمطاردة المجرم. ولكننا نعيش فى عالم من الجثث، ولا يُستنفَر أحد إلا لقليل منهم. ومع أخذ خُسران ما يُقدر بعشر ملايين نسمة من السكان فى الاعتبار، فإنه يمكن بحق تسمية ما حدث فى الكونجو الجزء الأكثر دموية وقتلاً فى التكالب الأوروبى على أفريقيا. ولكن ذلك صحيح فقط إذا نظرت إلى أفريقيا ما تحت الصحراء الكبرى فى لوحة الشطرنج العشوائية التى صنعتها الحدود الاستعمارية. فإذا ما رسمت الحدود بشكل مختلف - لكى تحيط، مثلاً، بكل الغابات المطيرة الاستوائية الغنية بالمطاط البرى - فإن ما حدث فى الكونجو لم يكن، لسوء الحظ، أسوأ مما حدث فى مستعمرات مجاورة: وكل ما فى الأمر أن ليوبولد استحوذ على مساحة من إقليم المطاط أكبر من غيره. وفى خلال عقد من بدء عمله نشأت أنظمة مماثلة لعمالة السخرة فى الأقاليم الفرنسية إلى الغرب والشمال من نهر الكونجو، وفى أنجولا التابعة للبرتغال، وفى الكاميرون القريبة تحت الحكم الألمانى. وكتب أحد المؤرخين عن شركات امتياز المطاط فى الكاميرون: "كان النموذج الذى استمدوا منه إلهامهم هو ... مغامرات الملك ليوبولد الثانى فى دولة الكونجو الحرة، والتى أثارت أرباحها إعجاب دوائر سماسرة البورصة".

وفى الأقاليم الاستوائية الأفريقية الفرنسية، حيث تاريخ الإقليم موثق كأحسن ما يكون، كانت مساحة الأراضى التى بها مطاط أقل بكثير من تلك التى سيطر عليها ليوبولد، ولكن الاغتصاب كان على نفس الدرجة من القسوة. وتكاد تكون كل الأراضى الصالحة للاستغلال قد قُسمت بين شركات الامتيازات. وكان المنهاج اليومى هو عمالة السخرة وأخذ الرهائن وتكبيل العبيد فى الأغلال والحمالون الجوعى والقرى المحترقة و"الحراس" شبه العسكريين للشركات والشيكوت. وعبر آلاف اللاجئين نهر الكونجو فرارًا من نظام ليوبولد، وانتهى بهم الأمر إلى أنهم عادوا أدراجهم فرارًا من الفرنسيين. وتُقَدر الخسارة فى أعداد السكان فى الغابات المطيرة الغنية بالمطاط والتابعة للفرنسيين بخمسين فى المئة، أى مثل كونجو ليوبولد. ومثلما حدث فى مستعمرة ليوبولد، اشتدت الثورات العنيفة ضد أنظمة حكم المطاط فى الأقاليم الفرنسية والكاميرون الألمانية. ونشرت الباحثة الفرنسية كاترين كوكرى - فيدروفيتش (Catherine Coquery-Vidrovitch) رسمًا بيانيًا مرعبًا يبين كيف حدث فى سالانجا فى الكونجو الفرنسية فيما بين ١٩٠٤ و١٩٠٧ أن الارتفاع والانخفاض فى إنتاج المطاط من شهر إلى شهر يرتبط بصورة شبه تامة بارتفاع وانخفاض أعداد طلقات الرصاص التى استخدمها "حراس" الشركات - نحو أربعمئة فى شهر حافل بالعمل.

وحدث فى أثناء تلك الفترة أن تكشفت فضيحة فى فرنسا عندما واجه رجلان من البيض محاكمة لجرائم تتسم بالبشاعة ارتكباها فى الكونجو الفرنسية: فلكى يحتفلا بيوم الباستيل (Bastille Day)، العيد القومى لفرنسا، فجر أحدهما إصبعًا من الديناميت فى مؤخرة مسجون أفريقى. وحاولت الحكومة، محاكاة منها لليوبولد، أن تهدئ الأمور وأرسلت لجنة للتحقيق إلى أفريقيا. ووضعوا على رأس اللجنة المستكشف الشهير دى برازا الذى استدعوه من تقاعده. وكان المأمول أنه لن يتفوه بأقوال تثير الحرج عن الإقليم الذى كسبه هو نفسه لفرنسا، والذى أُطلق اسمه على عاصمته برازافيل.

غير أن الخطة أخفقت. فالأوامر التى صدرت بالقيام ببعض الإجراءات التجميلية فى أثناء زيارة دى برازا، مثل فك أغلال عمال السخرة، لم تصل إلى داخلية البلاد قبل أن يصلها دى برازا. ولما ارتاع مما شاهد شرع فى كتابة تقرير توعد بأنه سيكون حاد النقد،

غير أنه مات فى طريق عودته إلى أرض الوطن، مما سبب ارتياحًا للحكومة. وأقامت له الحكومة جنازة رسمية مهيبة، وألقى وزير المستعمرات بنفسه كلمة تأبين فوق قبره فى مقبرة 'بير لا شيز' (Pere Lachaise) فى باريس: "برازا لم يمت ... فعاطفته حية ... وهو مثال... لتقاليد العدالة والإنسانية الخالدة التى تفخر بها فرنسا". ولم تسمح التقاليد الخالدة للعدالة والإنسانية بنشر مسودة تقرير برازا. ومُنِع النشر فى الحال بواسطة نفس الوزير، وبموافقة من البرلمان، ولم يُنشر مطلقًا. واستمر النظام المربح للشركات صاحبة الامتيازات، مع تغييرات طفيفة. وفى عشرينيات القرن العشرين ترتب على إنشاء خط جديد للسكك الحديدية يمر خلال الأقاليم الفرنسية ويتجنب شلالات نهر الكونجو الكبيرة، مصرع ما يقدر عدده بعشرين ألف من عمال السخرة، أى أكثر بكثير ممن ماتوا عند بناء ثم إعادة بناء خط ليوبولد القريب.

هناك حاشية لافتة للنظر فى قصة الكونجو الفرنسية. من الشخص الذى، من خلال رجال ضعاف ومؤسسات وهمية، اكتُشِف أنه مالك كبير للأسهم فى خمس شركات من ذوات الامتيازات، ويملك أغلبية الأسهم فى ثلاث منها؟ إنه الملك ليوبولد الثانى. فقد اكتشف ذلك محققو الحكومة البلجيكية فى أثناء محاولتهم فك ألغاز موارد ليوبولد المالية بعد وفاته. وخوفًا من أن يغضب الفرنسيون عندما يكتشفون أن الكونجو الفرنسية كانت مملوكة جزئيا لملك البلد المجاور، فقد نجحوا من إخفاء الأنباء لبضع سنوات، ولم يبيعوا الأسهم حتى عشرينيات القرن العشرين. كما كان ليوبولد يملك أيضًا مجموعات كبيرة من الأسهم فى عدة شركات من أصحاب الامتيازات فى الكاميرون الألمانية.

وتزداد عدم منطقية اقتصار تركيز جهـود حركة الإصـلاح على كونجو ليوبولد إذا أخذنا فى اعتبارنا القتل الجماعى للسكان بحساب النسبة المئوية التى قتلت منهم. وإذا أخذنا بتلك المعايير فإن الحصيلة ترتفع بصورة أسوأ بين صفوف شعوب الهيريرو (Hereros) فى جنوب غرب أفريقيا الألمانية، ناميبيا اليوم. ولم يُغلف القتل بساتر من دخان الحديث عن الإنسانية والخير. فقد كان إبادة صريحة مباشرة ولا لبس فيها، وأُعلن عنه مقدمًا بصورة صارخة.

فبعد استيلاء الألمان على الجانب الأكبر من أراضيهم، ثار الهيريرو فى ١٩٠٤ . وللرد على ذلك أرسلت ألمانيا قوة ذات تسليح ثقيل تحت إمرة اللفتنانت جنرال لوثار فون تروثا (Lothar von Trotha) الذى أصدر أمرًا بالإبادة الشاملة (hernichtungsbefehl) يقتل بالرصاص كل فرد من الهيريرو يُعثر عليه داخل الحدود الألمانية، سواء كان يحمل بندقية أو لا يحملها، وسواء كانت معه ماشية أو من دونها...

"توقيع: الجنرال الكبير للقيصر العظيم، فون تروثا".

وحتى لا يكون هناك لبس، أضيف ملحق يوضح: "ممنوع أخذ أسرى من الذكور".

وتبقى من الهيريرو الذين كانوا يعيشون فى الإقليم سنة ١٩٠٣، ويقدر عددهم بثمانين ألفًا، عدد أقل من عشرين ألفًا من اللاجئين عديمى الأراضى سنة ١٩٠٦، أما الباقون فسيقوا إلى الصحراء ليهلكوا من العطش (سمم الألمان الآبار)، أو قُتلوا رميًا بالرصاص، أو طُعِنوا بالحراب أو ضربوا بكعوب البنادق حتى الموت - للاقتصاد فى عدد الطلقات.

وأثارت أوامر فون تروثا بالإفناء بعض الاحتجاجات فى ألمانيا ذاتها، ولكن على المستوى الدولى كان هناك صمت مطبق، رغم أن حملة إصلاح الكونجو كانت آنذاك فى أوجها. ولم يبد موريل وغيره من مصلحى الكونجو إلا اهتمامًا ضئيلاً بذلك لدرجة أنه حدث بعد ذلك بخمس سنوات أن جون هولت (John Holt)، وهو رجل أعمال كان واحداً من ممولين اثنين رئيسيين لموريل، أمكنه أن يسأله: "هل صحيح أن الألمان ذبحوا الهيريرو - رجالاً ونساءً وأطفالاً؟ ... إنى لم أسمع بذلك من قبل".

وفى نفس الوقت تقريبًا الذى كان الألمان فيه يذبحون الهيريرو، كان العالم يتجاهل بشكل عام الحرب الوحشية التى قامت بها الولايات المتحدة ضد حرب العصابات فى الفلبين، حيث كانت القوات الأمريكية تعذب السجناء وتحرق القرى وقتلت نحو ٢٠٠٠٠ ثائر وتركت ما يقدر عدده بمئتى ألف فلبينى يموتون من المجاعة والأمراض الناتجة عن الحرب. ولم يحدث أن بريطانيا تعرضت لنقد دولى لقتلها السكان الأصليين

فى أستراليا بأوامر إبادة لا تقل وحشية عن أوامر فون تروثا. وبالطبع، لم تحدث لا فى أوروبا أو أمريكا، أية احتجاجات جوهرية ضد إهلاك الجانب الأعظم من الهنود الأمريكيين.

ولما كانت أحداث القتل الجماعى الأخرى تلك قد مرت دون أن يلاحظها أحد سوى ضحاياها، فلماذا حدثت فى إنجلترا والولايات المتحدة كل تلك الضجة من الاحتجاج الناشئ عن دوافع أخلاقية حول الكونجو؟ فالأساليب السياسية الخاصة بإدراك المواقف العاطفية للآخرين وتبنيها تتسم بالتقلب. ولا ريب فى أن أحد أسباب أن البريطانيين والأمريكيين ركزوا على الكونجو هو أنه كان هدفًا آمنًا. فالغضب الذى ثار بشأن الكونجو لم يشمل أفعالاً شائنة لبريطانيين أو أمريكيين، ولا نتج عنه تبعات دبلوماسية أو تجارية أو عسكرية لو أن الأمر كان متعلقًا بقوة عظمى مثل فرنسا أو ألمانيا. وكان لموريل نوع من العمى تجاه ألمانيا ولكنه كان مطلق اليد تمامًا مع ليوبولد، ومما يحسب له، أنه هاجم فرنسا بقوة مرارًا لتبنيها الوسائل الليوبولدية برمتها فى مستعمراتها الاستوائية الأفريقية وأنها تجنى محصولاً قاتلاً من المطاط لا يفوقه إلا محصول الملك. ولم تأت كلماته إلا باستجابة ضئيلة من مواطنيه البريطانيين الذين رأوا بوادر الحرب العالمية الأولى تبدو فى الأفق وأدركوا أن فرنسا ستكون حليفتهم الرئيسة.

وما حدث فى الكونجو هو بحق قتل جماعى على نطاق واسع، غير أن الحقيقة المحزنة هى أن الرجال الذين نفذوه لحساب ليوبولد لم يكونوا أكثر نزوعًا إلى القتل من كثير من الأوروبيين الذين كانوا يعملون أو يحاربون فى أماكن أخرى من أفريقيا. وقالها كونراد أحسن قول: "كل أوروبا أسهمت فى صنع كيرتس".

* * *

وفى السنوات التى أعقبت موت ليوبولد، توارى ممثلون آخرون من مسرح الكونجو. ففى ١٩١٠ عاد وليم شبارد إلى الولايات المتحدة إلى الأبد. وقبيل تبرئته فى قضية

القذف الخاصة بشركة كاساى، كان قد أُجبر على الاستقالة من منصبه كمبشر لانغماسه فى علاقات شائنة مع نساء أفريقيات. ووُضع لفترة وجيزة تحت مراقبة الكنيسة ثم سُمح له باستئناف عمله قسيسًا فى الولايات المتحدة، حيث أُخفيت تمامًا أنباء فضيحته. وكانت حالته الصحية قد تداعت بعد عشرات النوبات من الحمى فى أثناء السنوات العشرين التى قضاها فى أفريقيا، وعمل معظم ما تبقى من حياته راعيًا لكنيسة جريس المشيخية فى لويزفيل بولاية كنتاكى، حيث كانت زوجته تقوم بالتدريس فى مدارس الأحد وتقود جوقة المرتلين.

وداوم شبارد على الكتابة والحديث بغزارة عن أفريقيا، حتى ولو كان ذلك يعنى الحديث لرعية معزولة عنصريًا كما كان الحال فى الكنيسة المشيخية الجنوبية. وفى أوقات مختلفة دعا كل من رؤساء الجبهتين، بوكر ت. واشنطن و و.ب. ديبوا، شبارد لمشاركته فى المنصة، ووافق شبارد. غير أن ذلك الرجل الذى كرمه المجتمع الأسود، والذى كان أول أجنبى يقابل ملك قبيلة كوبا، والذى استُقبِل فى البيت الأبيض، قد عاد إلى الجنوب الأمريكى حيث كان لا يزال مواطنًا من الدرجة الثانية. وبعد ذلك بسنوات قالت عنه امرأة بيضاء فى بلدته واينسبورو فى ولاية فيرجينيا: "شبارد رجل ملون طيب. فعندما عاد من أفريقيا تذكر مركزه ودائمًا ما كان يأتى من الباب الخلفى". وعندما مات شبارد فى لويزفيل فى سن الثانية والستين، سنة ١٩٢٧، حضر جنازته أكثر من ألف شخص.

وعلى الجانب الآخر من البلاد أدى الحجم الهائل للمحامى هنرى كووالسكى إلى الإسراع بنهايته. فقد عثر عليه ميتًا فى سن السادسة والخمسين سنة ١٩١٤، ملقى على أرضية جناحه فى فندق سان فرانسيسكو بالاس. وفى بلجيكا، سقط ليون روم ميتًا سنة ١٩٢٤ فى مكتبه بشركة كاساى بعد أن ولت أيام جمعه للرءوس. وفى نفس العام مات جوزيف كونراد فى إنجلترا وكان قد صور أروع تصوير جوهر ما يمثله روم وصائدو الثروات من أمثاله فى روايته "قلب الظلمات". والشخصية الوحيدة من تناقضات الكونجو التى عاشت حتى زماننا الحالى كانت المبشرة والإصلاحية والمصورة الفوتوغرافية أليس هاريس التى ماتت سنة ١٩٧٠ فى سن المئة.

وهناك شخصية محورية أخرى فى الكونجو لم تمت ميتة هادئة مثل تلك.

ففى سنة ١٩١٣ تقاعد السير روجر كيسمنت من العمل القنصلى وصار حرًا أخيرًا فى أن يلقى بنفسه فى خضم القضية التى انهمك فيها وهى حرية وطنه. فعاد إلى أيرلندا وشارك فى إنشاء 'المتطوعون الأيرلنديون وهى ميليشيا مسلحة، وسافر فى طول البلاد وعرضها وتحدث فى اجتماعات عامة. وترك رفيق له تلك الأوصاف عنه فى دبلن سنة ١٩١٤: "وقف روجر كيسمنت يتطلع من خلف أستار النافذة ... وتبدو عليه الكآبة التى طالما كان فخورًا بها، وكأنما يحمل على كتفيه أحزان العالم. وكان وجهه يبدو لى من منظر جانبى، ورأسه الضخم وإطاره المهيب يرتسم على نسيج الستار والسماء الرمادية. وبدا طوله مسيطرًا أكثر من المعتاد، وشعره ولحيته السوداوين أطول من المألوف. وكان يمد ساقه اليسرى وبحذائه عالى الساق ثقب كبير - فقد كان دائمًا يهب نقوده، مما تركه فى فقر وعوز".

وكتب كيسمنت: "إنه لمن الواضح لكل أيرلندى أن الحكم الوحيد الذى يحترمه جون بول [رمز بريطانيا العظمى] هو حكم البندقية". وسافر عبر الأطلنطى كى يجمع التبرعات من الأمريكيين - الأيرلنديين لشراء البنادق من السوق السوداء، غير أن الحرب العالمية الأولى نشبت بعد أن وصل إلى الولايات المتحدة. وأعلن البريطانيون أن أى حديث عن حكم ذاتى لأيرلندا عليه أن ينتظر. ورد كيسمنت بخطاب مفتوح أعلن فيه أنه لا يجب على الأيرلنديين "أن يسهموا بدمائهم ولا بشرفهم ولا برجالهم فى حرب لا تعنيهم فى شىء ... فأيرلندا ليس لديها دماء تمنحها لأى أرض إلا لأرض أيرلندا... فلنحفر قبورنا فى مراعى الوطن حيث المكان الوحيد الذى يمكن فيه أن يعود إلى الحياة جسد القومية الأيرلندية".

وحلق ذقنه وسافر إلى ألمانيا مستخدمًا جواز سفر مزور. فقد أراد القوميون الأيرلنديون المتطرفون من ألمانيا أن تعلن أنها إن كسبت الحرب فسوف تنال أيرلندا استقلالها. وكانوا يأملون أنها، فى مقابل ذلك، ستسلح وتدرب لواء أيرلنديًا لمقاتلى الحرية يتشكل من أسرى الحرب الأيرلنديين المأسورين فى ألمانيا. وفكر كيسمنت

فى أنه إذا لم يستطع اللواء الأيرلندى القتال فى أيرلندا نفسها فيمكنه أن يحارب بجانب المصريين، وهم شعب مستعمرة أخرى تنشد الحرية من الحكم البريطانى. وكتب فى يومياته أن خطته: "تهدف إلى ربط ما بين الراية الخضراء لأيرلندا براية النبى الخضراء و ... تقذف بالحلفاء فى البحر".

ولم تثر أحلام كيسمنت إلا تعاطفًا ضئيلاً من قبل أسرى الحرب الأيرلنديين. فقد كانوا جنودًا محترفين، وكثير منهم كان أسلافهم قد قاتلوا فى نفس الكتيبة البريطانية. ومن بين ٢٢٠٠ أسير أيرلندى كاثوليكى لم ينضم إلى اللواء الأيرلندى إلا أقل من ستين أسيرًا، أُعطوا أزياء رسمية ألمانية تحمل شعار أيرلندا على الياقة. وبين حين وآخر كان كيسمنت يشارك اللواء فى تدريباته، غير أن اللواء لم يشارك فى القتال مطلقًا فهو لم يزد فى العدد عن فصيلة أيرلندية.

وكان الألمان شديدى القلق من آراء كيسمنت المضادة للاستعمار وودوا لو ينفضوا أيديهم من ذلك الرومانسى الذى لا يهدأ؛ وكان هو تواقًا إلى العودة إلى أيرلندا كى ينضم إلى رفاقه من الجماعات السرية. وفى ٢١ أبريل ١٩١٦ أنزلته غواصة ألمانية فى قارب صغير ومعه اثنان من رفاقه قبالة الساحل الغربى لأيرلندا ومعهم مؤنهم. وعندما سأله قبطان الغواصة عما إذا كان يريد ملابس إضافية أجابه كيسمنت "كفنى فقط".

وبصورة أو بأخرى كان كيسمنت ينتظر تلك اللحظة طوال حياته، لحظة العودة إلى الوطن والاستشهاد. "عندما لامست قدماى أرض أيرلندا فى ذلك الصباح (نحو الثالثة صباحًا)، شاقًا طريقى عبر المستنقعات والسباخة إلى شاطئ مجهول ... اشتدت سعادتى لبرهة وجيزة وابتسمت مرة أخرى ... ومن حولى زهور الربيع والبنفسج البرى وغناء القبرات فى الهواء، وهكذا عدت إلى أيرلندا مرة ثانية".

وقُبِض عليه بعد بضع ساعات. وكان ذهنه مليئًا بأفكار أزهار الربيع والقبرات ولكن جيبه كان يحوى تذكرة قطار لرحلة من برلين إلى فيلهلمسهافن (Wilhelmshaven)، وهى ميناء للغواصات الألمانية، ومفكرة مكتوب فيها ما افتُرِض أنه بالشفرة، "أبريل ١٢: تركت ويكلو فى يخت ويلى". ومن بين الأشياء التى عثرت عليها الشرطة مدفونة فى

رمال الشاطئ حيث ترجل كان ثلاثة مسدسات ماوزر ألمانية الصنع، وذخيرة ونظارة معظمة وخرائط ونسخة من 'رباعيات عمر الخيام'.

وبعد ذلك بيومين وُجِّهت إلى كيسمنت تهمة الخيانة العظمى، وكان أول فارس يحمل لقب سير تُوجه إليه مثل تلك التهمة منذ عدة مئات من السنين. وأودع في الحبس الانفرادي في برج لندن، ولم يضيع البريطانيون وقتًا وقدموه للمحاكمة. وكان الحراس يقودونه من وإلى المحكمة مقيدًا بالأغلال. وعلى غرار ما فعل غالبية أصدقائه في حركة إصلاح الكونجو استنكر السير آرثر كونان دويل بشدة أفعال كيسمنت ولكنه تبرع بسبعمئة جنيه لمصاريف الدفاع عنه. ووقع ومعه العديد من مشاهير الكتاب على التماس بالإبقاء على حياة كيسمنت. غير أن جوزيف كونراد، رفيق حجرة كيسمنت في متادي، رفض التوقيع؛ فقد كان وطنيًا متفانيًا في سبيل وطنه الجديد إنجلترا مثلما كان كيسمنت خصمًا.

وانهالت الأموال ورسائل التأييد من جميع أنحاء العالم. فمن الولايات المتحدة، أرسلت عصبة الزمالة الزنجية التماسًا إلى الملك جورج الخامس للعفو عنه: "نحن نشعر بالامتنان العميق لهذا الرجل لما كشف عنه في أثناء عمله كقنصل بريطاني في أفريقيا، فيما يتعلق بمعاملة الوطنيين في الكونجو. ومن دون ما فعله لم يكن العالم ليعرف شيئًا عن الفظائع الهمجية". وكتب جورج برنارد شو مسودة خطبة ليلقيها كيسمنت في أثناء المحاكمة، ولكن كيسمنت رفضها وألقى كلمة من وضعه.

وأعلن: "إن من حقنا أن نحكم أنفسنا بأنفسنا. فهو أمر يولد معنا، أمر لا يمكن لأي شخص أن يمنحنا إياه كصدقة أو يمنعه عنا أكثر من الحق في الحياة ذاتها - أكثر من الحق في الإحساس بأشعة الشمس أو استنشاق الورود، أو أن نحب أبناء جلدتنا ... حيث يتوسل الرجال بأنفاس محتبسة للإذن بالعيش على أرضهم، أو يفكرون في خواطرهم الخاصة، أو يتغنون بأغانيهم، أو يجمعون ثمار جهدهم ... وإذن فإنه ليكون من الأشجع ومن الأعقل ومن الأصدق أن أكون ثائرًا ... عن أن أتقبل بمذلة ومسكنة ما يتقبله الجمع الطبيعي من الرجال". ومثل حال الأكثرية من المؤمنين بالقومية، كان

انفعال كيسمنت للحرية ينطبق على كل الشعوب لا على شعبه فقط. ولعله بالنسبة لزمنه كان نادراً وربما استثنائيا فى إعلانه عن شىء مشترك بين كفاح أوروبيين مثل الأيرلنديين فى سبيل الحرية وأفارقة مثل المصريين والكونجوليين. وسرعان ما دخلت خطبته فى حوليات الحركات المضادة للاستعمار، حيث تركت انطباعًا عميقًا على شاب سيقود بلاده للاستقلال وهو جواهر لال نهرو. وقال عنها: "يبدو أنها توضح أحاسيس أمة خاضعة".

وبعد أن قررت المحكمة أنه مذنب، نُقل كيسمنت إلى سجن بنتونفيل (Pentonville) فى لندن، وهو مبنى ضخم وكئيب بُنى سنة ١٨٤٢ كى يُسجن فيه المحكوم عليهم سجنًا انفراديًا ويراعى فيه الصمت المطلق. وكانت سكوتلاند يارد قد عثرت فى مقر إقامته السابق فى لندن على بعض يومياته. وفى الحال قامت السلطات بتصوير نسخ فوتوغرافية من الأجزاء التى تذكر تجاربه فى الشذوذ الجنسى وعرضتها على الملأ: على الملك، وعلى البارزين من مواطنى لندن من أصحاب النفوذ فى نواديهم فى لندن، وعلى أعضاء البرلمان. ودُعى صحفيون لإلقاء نظرة عليها، وأرسلت مجموعة من النسخ إلى واشنطن. فقد أرادت الحكومة أن تقضى على سمعة كيسمنت وأن تثنى المشاهير عن الحديث عن العفو. وساهمت اليوميات فى حسم مصيره.

وألقى أحد دعاة السلام المسجونين نظرة خاطفة على كيسمنت وهو يراقب السماء ساعة غروب الشمس من نافذة زنزانته بسجن بنتونفيل. "بدا عليه هدوء رائع ... وبدا أنه بالفعل يعيش فى عالم آخر، ولم يبد على ملامحه أى أثر للقلق أو الخوف". وفى ٣ أغسطس ١٩١٦ أوثق الحراس يديه خلف ظهره. وقال القسيس الذى صاحبه: "سار إلى المشنقة بوقار يليق بأمير وعلت هامته فوق رءوسنا جميعًا". وقال عنه الجلاد: "إنه أشجع رجل من بين المجموعة التعسة التى قمت بإعدامها". وفى واحد من أواخر الخطابات التى كتبها من زنزانته قبل أقل من أسبوع من شنقه، نظر كيسمنت إلى حياته التى مرت: "لقد ارتكبت أخطاء مروعة، وأكواماً من الأعمال السيئة، وفشلت كثيراً - ولكن ... أعظم شىء كان الكونجو".

* * *

وحدثت لموريل تحولات بسبب الكفاح حول الكونجو مثلما حدث مع كيسمنت. وفى العقد الأخير من حياته حارب أشجع معاركه وأشدها انعزالاً. وفى هذه المرة لم يكن هناك من لوردات وأساقفة تشجعه.

ففى السنوات الأخيرة من حركة إصلاح الكونجو، أدرك موريل كم عوق من مسيرة كفاحه الاتفاق الودى (Entente Cordiale) بين باريس ولندن، المثقل بالبنود السرية، التى نحى فيها البلدان كل شيء جانبًا فى سبيل الاستعدادات للحرب الأوروبية القادمة. وفى بداية شهر أغسطس ١٩١٤ كان موريل يقضى إجازة نادرة على شاطئ البحر مع ابنته فى دييب (Dieppe) فى فرنسا. وكانت الشوارع مليئة بجنود الاحتياط المستدعين حديثًا، بينما تمكنا من ركوب قارب مكتظ بالركاب عبر القنال [الإنجليزى] عائدين إلى إنجلترا بعد أن قطعا أجازتهما بسبب الصراع الذى بدا وشيكًا فى الأفق. وفى لندن سار مع صديقه تشارلز تريفيليان عضو البرلمان وقد أحسا بنذير شر وهما يدخلان مجلس العموم الخالى بينما الشوارع المحيطة به تعج بالجماهير التى تزأر منادية بالحرب.

كان موريل واحدًا من حفنة قليلة من الناس على الجانبين فى أوروبا تنادى صراحة بأن الحرب هى جنون مطبق. وجادل بأن إنجلترا، من خلال سلسلة من المعاهدات التى حُجبت عن الرأى العام والبرلمان، قد انزلقت إلى زلزال لا ضرورة له. ولم يكن من دعاة السلام؛ فقد قال إنه سيقاتل إن هوجمت إنجلترا، ولكنها لم تهاجَم. وطُلب منه أن يستقيل من موقعه كمرشح فى البرلمان عن حزب الأحرار (Liberal Party). وبالمشاركة مع مجموعة صغيرة من الأقلية المحاصرة من رجال ونساء ممن هم على شاكلته فى تفكيره، أسس موريل "اتحاد التنظيم الديمقراطى"، الذى سرعان ما صار الصوت الرئيسى لمعارضى الحرب فى إنجلترا. واكتشف نشطاء ذلك الاتحاد أن بريدهم تفتحه سكوتلانديارد وأن محادثاتهم التليفونية موضوعة تحت المراقبة. وكان الغوغاء يقتحمون اجتماعاتهم ويمزقون لافتاتهم ويلقون عليهم قنابل القاذورات، ويضربون المتحدثين وأفرادًا من المستمعين. ولم يمض وقت طويل حتى لم يعد أحد يقبل تأجير قاعات

الاجتماعات لذلك الاتحاد. وعلى كل جانب انفض المعجبون من حول موريل وتخلوا عنه. وعندما تنازل صحفى صديق قديم له، صار الآن مجنداً، وحاول أن يحييه فى الشارع، تأثر موريل تأثراً شديداً حتى إنه بكى قائلاً: "لا أظن أن أحداً يمكن أن يتحدث معى الآن".

ومثلما كان الحال فى حركة إصلاح الكونجو، أصبح موريل الشخصية المهيمنة فى اتحاد التنظيم الديمقراطى. وكتب أحد زملائه: "أحس بشىء بركانى فى الرجل. فهناك نيران متأججة دائماً فى قلبه". وكما كان عهدها دوماً فقد أيدته زوجته مارى بكل جوارحها، وانضمت إلى مجلس الإدارة. وأنشأ فروعاً للاتحاد فى كل أنحاء إنجلترا، وكان يحرر صحيفة الاتحاد الشهرية، وكتب حصيلته المتدفقة المعتادة من المقالات والنشرات إضافة إلى كتابين. غير أن العمل كان أصعب الآن عن ذى قبل، فقد كانت إنجلترا فى قبضة حمى الحرب، ومنع الرقيب العسكرى نشر بعض كتاباته، وامتلأ صندوق بريده بخطابات الكراهية. وهاجمت الشرطة كلاً من مقر الاتحاد ومنزل أسرة موريل، وصادروا أوراقاً ومراسلات من مكتبه. ويقول المؤرخ أ. ج. ب. تيلور (A.J.P Taylor) فى تعليق له على واحد من أعمال موريل التى تمكن من نشرها فى أثناء كل ذلك الخضم، وهو 'عشرة أعوام من الدبلوماسية السرية' (Ten Years of Secret Diplomacy): "تبعت منه كل الدراسات حول 'منابع الحرب' ... فكل مؤرخى ما بين الحربين خرجوا من تحت عباءته ... وقد تسبب موريل فيما هو أكثر من تغيير الوسائل؛ فقد غير من طريقة النظر إلى الأشياء".

واليوم نرى بوضوح أن ثمانية ملايين ونصف مليون قتيل و٢١ مليون جريح فى الحرب العالمية الأولى كانت مأساة غير ضرورية وكان من الممكن تجنبها بحيث ننسى أولئك القلائل من الناس الذين كانت لديهم الشجاعة لقول ذلك فى ذلك الوقت. واشتد الهجوم على موريل بينما كانت الحرب تسير فى طريقها. وجاء فى مقال عنيف ضد مناهضى الحرب البريطانيين نُشر فى صحيفة 'ديلى سكتش' (Daily Sketch)، "إذا دخلت فى جدال

مع دعاة السلام تجد نفسك دائمًا تحال إلى مصدر وحيد - موريل ... ولكى نقتل تلك المؤامرة فلا بد من أن نمسك بخناق زعيم المتآمرين". وكان مكتبه تحت رقابة دائمة من الشرطة. وجاء بعنوان رئيس فى صحيفة 'ديلى إكسبرس' (Daily Express) من هو إ. د. موريل؟ ومن يتولى تكاليف اتحاده الموالى للألمان؟' وأطلقت عليه صحيفة 'إيفننج ستاندارد' (Evening Standard) "عميل ألمانيا فى هذا البلد".

وبينما كان موريل يتلقى مثل ذلك الهجوم وصلته أنباء القبض على كيسمنت. وحذره زملاؤه فى اتحاد التنظيم الديمقراطى بأن لديهم ما يكفيهم من المتاعب وحثوه على ألا يناصر صديقه الذى، بخلافهم، كان يتعاون فعلاً مع الألمان. ولهذا فإن موريل لم يزر كيسمنت فى السجن فى أثناء الشهور القليلة التى بقيت من حياته رغم أن ذلك لا شك قد أحزنه. وأرسل كيسمنت، المتصف بروح الكرم كعهده دائمًا، رسالة أنه يتفهم الوضع جيداً. وكتب صديق له كان قد التقاه إلى موريل: "أخبرنى أنه يعتقد أنك على حق فى تقبلك لقرار زملائك، وأنه لا جدال فى ذلك".

وطوال الحرب تشبث موريل بما كان يؤمن به، بل وصار انفعاله وعناده الآن، عندما أصبح الكل ضده، مثلما كان أيام إصلاح الكونجو عندما كانت غالبية المؤسسات البريطانية تقف فى صفه. ودعا إلى سلام مبنى على التفاوض وإلى إنهاء المعاهدات السرية. وجادل، ببصيرة وكأنما يقرأ الغيب، ضد شروط السلام المجحفة التى كان موقنًا أنها سوف تُفرَض على ألمانيا. ومع وجود روسيا القيصرية فى جانب الحلفاء فإنه لمن المثير للسخرية الادعاء بأنها كانت حربًا بين الديمقراطية والأوتوقراطية. وطالب بنزع السلاح وباتفاق يمنع نقل ملكية الأراضى دون إجراء استفتاء بين سكانها، كما دعا إلى مجلس دولى لكل الأمم.

وكتب برتراند رسل (Bertrand Russell)، وهو رجل آخر تحدى بجسارة حمى السوفييتية المغالية فى الوطنية، "لقد غيرت حرب ١٩١٤-١٩١٨ كل شىء بالنسبة لى. فقد فقدت أصدقاء قدامى وكونت صداقات جديدة. وتعرفت على قلة من الناس أملك أن أعجب بهم، وأولهم إ. د. موريل ... بطاقة لا تكل وقدرات هائلة فى مواجهة كل عوائق

الدعاية والرقابة، فعل ما فى وسعه لتنوير الشعب البريطانى عن الأهداف الحقيقية التى جعلت الحكومة تسوق الشباب إلى المجازر. وناله من هجوم السياسيين والصحافة أكثر من أى شخص من معارضى الحرب ... وعلى الرغم من كل ذلك فإن شجاعته لم تخنه". وقال رسل عن موريل: "وليس هناك من شخص أعرفه لديه نفس البساطة البطولية فى ملاحقة الحقائق السياسية والجهر بها".

وتبين سجلات الحكومة البريطانية أن كبار المسئولين فى أقسام حكومية متعددة تداولوا طويلاً حول أحسن وسيلة "يضعون بها موريل فى السجن"، كما قالها رجل فى وزارة الخارجية، دون أن يتيحوا له منبرًا يخاطب منه الرأى العام من خلال محاكمة يستطيع فيها أن يستعرض قدرته على الإقناع كخطيب ويستغل سيطرته المخيفة على المعلومات. وفى سنة ١٩١٧ تذرعوا بحجج إدارية وألقوا القبض عليه بدعوى انتهاك قانون غامض يحرم إرسال المطبوعات المناهضة للحرب إلى دول محايدة. ورفضوا الإفراج عنه بكفالة وحُكِم عليه بالأشغال الشاقة لمدة ستة أشهر.

ويصف موريل حادثة غريبة حدثت فى أثناء محاكمته سنة ١٩١٧: "حدث أمر مثير فى ذلك المشهد القانونى الكئيب. فقد عبر شخص قاعة المحكمة من خلفى بينما كان محامىَّ يترافع، وناول ممثل الادعاء مذكرة فتحها وقرأها وأومأ برأسه فعاد الشخص إلى مقعده، وفى أثناء ذلك تعرفت على الرجل الذى ... بوصفه ممثلاً معتمداً للملك ليوبولد الثانى كان قد عارضنى علانية فى أمريكا فى أثناء رحلتى إلى الولايات المتحدة". وكان ليوبولد قد مات قبل ذلك بثمان سنوات، وكانت رحلة موريل إلى الولايات المتحدة قبل موت ليوبولد بخمس سنوات. ووقتئذ نزل إلى أرض الملعب ضده ما يقرب من نصف دستة من جماعات الضغط المدفوعة الأجر من قبل الملك؛ وهو لا يخبرنا أى منهم قام بهذا الظهور الغامض فى قاعة المحكمة، وكأنما كان ليوبولد لا يزال يصدر أوامره من قبره.

واصطحب الحراس موريل من خلال بوابة سجن بنتونفيل بعد مرور سنة على إعدام كيسمنت هناك. وشغل الزنزانة المجاورة لزنزانة موريل مسجون سرق ثلاث زجاجات من الخمر، والزنزانة على الجانب الآخر كان بها مسجون اغتصب طفلاً.

وكتب موريل لزوجته في واحد من الخطابات الشهرية التى سُمِح له بها معلقًا على ذلك: "إنها أول مرة فى السنوات العشرين الأخيرة التى لا نتراسل يوميًا عند سفرى".

وأمضى أيامه فى السجن فى غرفة متربة يخيط حقائب بريدية من قماش الخيام ويضفر الحبال لصنع أرجوحات النوم والحُصر للبحرية، كل ذلك فى صمت: فلم يكن مسموحًا للمسجونين بالكلام فى أثناء العمل. وكان يُحبَس فى زنزانته من الرابعة بعد الظهر إلى الثامنة من الصباح التالى. ويتناول عشاءه وحيدًا فى الزنزانة، وكان مكونًا من قطعة خبز ونصف لتر من عصيدة باردة فى قاع علبة من القصدير بها بقايا طعام آخر منذ الصباح، ونصف لتر من شراب كاكاو ساخن ملىء بالشحوم، "ذلك الشراب الذى يتعلم المرء أن ينظر إليه بوصفه رحيق الآلهة الحق، وبخاصة فى الجو البارد". وتحدث طقطقة مزلاج مرة أو مرتين فى أثناء الليل عندما يفتح الحارس غطاء ثقب الباب كى يتفقد السجناء. وكان الليل قارس البرودة وما من شىء يقى منها".

وكان السجناء يجلسون فى كنيسة السجن. فى صمت، ويراقبهم الحراس من على منصات عالية بينما يعلن المسئولون عن أنباء الانتصارات فى الحرب التى كان موريل يعارضها. وأحيانًا كانوا يجعلونه يحمل ألواحًا كبيرة من القنب، قدر وزنها بنحو مئة رطل، إلى مشغل السجن. وكان ذلك يجعله يفكر بسخرية فى الحمالين الأفارقة الذين حملوا متاعه فى الريف النيجيرى قبل ذلك بستة أعوام. "الخبرة معلم رائع طالما بقيت الذاكرة، وهنا أيضًا نجد الكثير مما يستحق التعلم، ولا ننسى أن المرء قد عايش كلا الموقفين". وحدس رجل سُجِن للسطو، أن موريل شخصية مهمة فكان يناديه "سيدى".

وبعد شهرين من الإفراج عنه، فى أوائل سنة ١٩١٨، كتب برتراند رسل، الذى سرعان ما سيذهب إلى السجن بدوره، إلى جيلبرت مرى بقلق: "رأيت إ. د. موريل بالأمس لأول مرة منذ أن أُطلق سراحه، وأدركت مدى خطورة حكم بالسجن لستة أشهر. فقد ابيض شعره تمامًا (ولم تكن به من قبل إلا شعيرات بيضاء متناثرة) – وعندما أُفرج عنه انهار تماما صحيا وذهنيا، والسبب فى الأغلب هو نقص الطعام".

واستأنف موريل خطابته وكتابته، غير أن ذلك الجسد الضخم قد صار الآن نحيفًا بصورة مؤلمة. ولم يمض وقت طويل بعد إطلاق سراحه حتى أصيب بأول نوبة قلبية من سلسلة من النوبات. غير أنه فى الأعوام القليلة التالية أحس بالرضاء لتبرئته أمام الرأى العام. فقد تبين أن هناك فعلاً معاهدات سرية بين قوى الحلفاء. وبدا أن كثيراً من النقاط الأربع عشرة التى اقترحها الرئيس وودرو ويلسون (Woodrow Wilson) لاتفاقية الصلح قد نُسِخت من إحدى نشرات موريل. واكتشف موريل أن التأييد الذى كان اتحاد التنظيم الديمقراطى يلقاه فى أثناء الحرب كان آتيًا من نقابات العمال، وكذلك وجد نفسه، ذلك الموظف السابق بشركة ملاحة الذى لم يعتبر نفسه مطلقا اشتراكيًا، ولدهشته الكبيرة، يعامَل كبطل من قبل حزب العمال. وفى سنة ١٩٢٢ ترشح لعضوية مجلس العموم باسم حزب العمال واشتد سروره لما نجح فى إنزال الهزيمة بوزير سابق فى مجلس الوزراء الذى أرسله إلى السجن فى أثناء الحرب - وكان عضواً فى البرلمان يدعى ونستون تشرشل.

وكان لموريل شعبية كبيرة مع ناخبيه فى دندى (Dundee) بإسكتلندا. وأعيد انتخابه سنة ١٩٢٣ ومرة أخرى فى العام التالى، وكان فى وداعه فى محطة القطار عشرون ألفًا وهو فى طريقه إلى لندن. وفى البرلمان سرعان ما أصبح أبرز صوت لحزب العمال وأكثرها احترامًا فى الشئون الخارجية. وعندما حدث فى أوائل سنة ١٩٢٤ أن أصبح زعيم الحزب رمزى مكدونالد (Ramsay MacDonald) أول رئيس وزراء بريطانى من حزب العمال توقع الكثيرون أن يختار موريل لوزارة الخارجية. غير أن ذلك لم يحدث. فبالنسبة لرئيس حكومة ائتلافية مهتزة كان موريل يملك شخصية استقلالية قوية وذا مبادئ أخلاقية ومناضلاً - وربما منافسًا محتملاً على الزعامة. وأبقى مكدونالد وزارة الخارجية لنفسه. وترضية لموريل رشحه كمرشح بريطانيا لجائزة نوبل للسلام.

وعلى الرغم من أن موريل كان فقط فى الحادية والخمسين من عمره؛ فإن السجن والاضطهاد فى أثناء الحرب وخيبة أمله لعدم نيله منصبًا وزاريًا، وسرعة أحداث

عمله طوال عدة عقود بدأت تفعل فعلها. فكان عليه أن يبقى مستلقيًا بصورة دورية، متمددًا على شرفة مجلس العموم، وكثيرًا ما سافر وزوجته لإجازة فى منزل أسرتها فى ديفونشاير. وفى ١٢ نوفمبر ١٩٢٤ وبعد أن تمشى فى الغابة مع أخت زوجته شعر موريل بالتعب واستند إلى شجرة كى يستريح. ولم يقم بعدها.

وجرت له مراسم قداس تذكارى كبير فى دندى ولندن ونيويورك. وقال عنه الكاتب الفرنسى رومان رولان (Romain Rolland) "سيكون موريل علامة من علامات العصر بمرور السنين".

الفصل التاسع عشر

التناسى الكبير

يشكل التجول فى القاعات الفسيحة لمتحف الثورة بشارع جوركى فى موسكو واحداً من التجارب المخيفة بالنسبة لزائر من زوار الاتحاد السوفيتى السابق. فأنت تستطيع أن تشاهد مئات الصور الفوتوغرافية والرسوم الزيتية لثوار يعتمرون قبعات من الفراء ويقفون خلف متاريس تكسوها الثلوج، وعدداً لا نهائيًا من البنادق والمدافع الرشاشة والأعلام والرايات، ومجموعة كبيرة من آثار أخرى ووثائق، ولا تجد أثرًا يدل على أن عشرين مليون مواطن سوفييتى قد ماتوا فى أقبية الإعدام ومن جراء المجاعات التى تسبب فيها البشر. وفى الجولاج (gulag).

واليوم تغير ذلك المتحف فى موسكو تغيراً لم يكن يتخيله منشئوه. غير أن هناك على الجانب الآخر من أوروبا متحف لم يتغير البتة. ولكى تشاهده استقل الترام رقم ٤٤ الذى يمر خلال غابة سوانى (Foret de Soignes) الظليلة اللطيفة على مشارف مدينة بروكسل فى طريقه إلى قرية تيرفورين (Tervuren). ففى القرن الثامن عاش هناك سان هوبير (Saint Hubert)، القديس الراعى للصيادين الذى كان يطارد الفرانس فى تلك الغابات. واليوم نجد المتحف الملكى لأواسط أفريقيا الذى بناه الملك ليوبولد الثانى جزءًا من قصر منيف على طراز لويس الخامس عشر مطلاً ببهاء على حديقة عامة. وكل يوم تجده يموج بمئات الزوار من أطفال مدارس يملأون فراغات بيضاء فى كراسات الواجب المدرسى إلى سياح كبار السن يصلون فى حافلات مكيفة الهواء.

ويضم المتحف واحداً من أكبر مجموعات العالم عن أفريقيا. وتستغرق رؤية كل المعروضات يوماً كاملاً، من قبعة ستانلى إلى عصا ليوبولد، ومن أصفاد العبيد إلى زورق كانو محفور فى جذع شجرة وكبير بحيث يتسع لمئة رجل. وفيه قاعة تمتلئ بالأسلحة والأزياء النظامية لتمجيد "حملة ضد تجارة الرقيق" فى تسعينيات القرن التاسع عشر - ضد تجار الرقيق "العرب" بالطبع. وهناك لوحة عليها أسماء بضع عشرات من ضباط القوة الشعبية الذين "يرقدون على التربة الأفريقية". ولوحات أخرى فى تلك "القاعة التذكارية" عليها أسماء إضافية لمئات من الرواد البيض الذين ماتوا فى الكونجو. وقاعة أخرى بها حيوانات برية محنطة: أفيال وشيمبانزى وغوريلا. ويُعرض فيلم قديم أبيض وأسود بصورة مستمرة على جهاز تلفزيون يعرض رقصات البند (Pende) ذات الأقنعة، وبلاط ملك كوبا، والطقوس الجنائزية لقبيلة نتومبا - فهى أفريقيا مكونة من أردية غريبة وطبول هادرة، وفى كل مكان هناك أشياء من حضارات الكونجو المتنوعة: رماح وسهام وغلايين وأقنعة وأوعية طبخ وسلال ومجاديف وصولجانات ومصائد للأسماك وآلات موسيقية.

وهناك شيء معروض بصورة مؤقتة يبين نوعًا رائعًا من النحت من المنطقة السفلى من نهر الكونجو: تماثيل خشبية يبلغ ارتفاعها ثلاثة أقدام، وتتناثر على صدورها ورقابها مئات المسامير الصغيرة والضخمة وشفرات ضئيلة تشبه أمواس الحلاقة. ويبدو التمثال وكأنه قزم منتصب ويجرى تعذيبه. وهناك لافتة توضح أن كل مسمار هو "نكوندى" (nkondi)، وهو طلسم لمحاربة السحرة وكل من يفعل الشر. وكل مسمار يمثل قَسَمًا أو ابتهالاً للانتقام من الظلم. غير أنه لا توجد أية لافتة خاصة بالظلم الأكبر الذى حاق بالكونجو. فليس فى أى من معروضات المتحف أدنى تلميح بأن ملايين الكونجوليين قد لاقوا حتفهم بطريقة غير طبيعية[1].

---

(١) كان ذلك هو الحال عندما طُبع هذا الكتاب سنة ١٩٩٨ . ولمعرفة التغييرات منذ ذلك الحين انظر الفصل التالى.

وليست هناك أية إشارة إلى تلك الوفيات فى أى مكان فى بروكسل. ولا يزال شارع بردِرود (Rue Brederode)، حيث كان يقع مقر جزء من إدارة الكونجو ومقر رئاسة أهم شركات الكونجو، لا يزال يمر خلف القصر الملكى. ولكن اليوم نجد أن المكان الذى حضر فيه جوزيف كونراد مقابلته الشخصية لشغل الوظيفة قد أصبح يشغله مكتب ضرائب حكومى. وفى جانب آخر من القصر يوجد تمثال مبالغ فى حجمه لليوبولد على صهوة جواده وهو يحدق بطريقة جامدة إلى طريق عام سفلى. بيد أن الدماء التى أريقت فى الكونجو والأراضى السليبة والأيدى المبتورة والعائلات الممزقة والأطفال الذين تيتموا تشكل الأساس لكثير مما تقع عليه العين. فالقصر الملكى ذاته المزخرف ذو الأعمدة تجدد إلى شكله الرائع الحالى بأرباح الكونجو، مثلما حدث مع قصر ليكن ذى القباب الشامخة، حيث تعيش الأسرة المالكة، بما فيه من مجموعة مذهلة من الصوبات الزجاجية تحوى أكثر من ستة هكتارات من الزجاج. وفى كل ربيع تُفتح الصوبات للجمهور لفترة قصيرة ويمر آلاف الزوار أمام تمثال نصفى لليوبولد، مزين بزهور الكاميليا والأزاليا. وفى ليكن أيضًا يقف البرج اليابانى ذو الطوابق الخمسة، وهو شذوذ معمارى شاهده ليوبولد فى معرض باريس الدولى وأعجب به وابتاعه بأموال الكونجو. ويطل على جزء من أفق المدينة أكبر تبذير بأموال الكونجو وهو القوس الخمسينى (Cinquantenaire arch) الهائل الحجم، والمرصع بمجموعة من التماثيل، ويبدو جمعًا منتفخًا بين قوس النصر [فى باريس] وبوابة براندنبورج [فى برلين] مع إضافة أجنحة مقوسة. والجسم الهائل للقوس المبنى من الحجر والإسمنت ويذكرنا بوصف كونراد فى روايته "قلب الظلمات" للعاصمة الأوروبية التى لم يسميها والتى أطلق عليها "مدينة القبور الكئيبة". ولكن ليس هناك من لافتة تدل على ملايين الأفارقة الذين دفعوا بعملهم تكاليف كل ذلك وانتهوا فى قبور مجهولة فى التراب.

ولم تنفرد بروكسل بذلك. ففى برلين، لا توجد متاحف أو تماثيل للهيريرو الذين ذُبحوا، وليس فى باريس أو لشبونة أى مشاهد مرئية تذكر بإرهاب المطاط الذى قتل نصف سكان أجزاء من أفريقيا الفرنسية والبرتغالية. وفى الجنوب الأمريكى نشاهد مئات من النصب التذكارية للحرب الأهلية الأمريكية وقصور ملاك المزارع محافَظ عليها

مقابل كل واحد من المعروضات التى تدل ولو من بعيد على وجود نظام العبيد. غير أن العالم الذى نعيش فيه - بانقساماته وصراعاته، وفجوته التى تزداد اتساعًا بين الأغنياء والفقراء، ونوبات العنف التى تجتاحه وتبدو غير قابلة للتفسير - يشكله ما نحتفل به وما نحوله إلى أساطير أقل بكثير من الأحداث الأليمة التى نحاول تناسيها. وكونجو ليوبولد هى مجرد واحدة من فترات الصمت فى التاريخ.

ويقدم الكونجو مثالاً صارخًا على سياسات التناسى. وبذل ليوبولد ومن خَلَفَه من مسئولى المستعمرات من البلجيكيين قصارى جهدهم كى يمحوا من السجلات التاريخية كل الأدلة التى تدينهم وذهبوا فى ذلك إلى أبعد مدى. ففى أحد أيام شهر أغسطس ١٩٠٨ وقبيل انتقال المستعمرة رسميًا إلى سلطان بلجيكا، خرج جوستاف ستينجلهامبر (Gustave Stinglhamber) المساعد العسكرى الشاب للملك من القصر لمقابلة صديق فى مكاتب دولة الكونجو فى المبنى المجاور. وكان ذلك اليوم من أيام منتصف الصيف حارًا بصورة غير عادية، واقترب الرجلان من النافذة وهما يتحدثان. وجلس ستينجلهامبر على مدفأة ثم انتفض واقفًا: فقد كانت المدفأة شديدة السخونة. ولما استدعيا البواب ليسألاه عن السبب أجابهم، "إنى آسف لذلك ولكنهم يحرقون سجلات الدولة". واستمرت الأفران مشتعلة لمدة ثمانية أيام وحولت الغالبية العظمى من سجلات دولة الكونجو إلى رماد ودخان انتشر فى كل سماء بروكسل. وقال ليوبولد لستينجلهامبر "سوف أعطيهم الكونجو التى هى ملكى، ولكن لا حق لهم فى معرفة ما فعلت هناك".

وفى نفس الوقت الذى كانت فيه الأفران تزأر فى بروكسل، صدرت الأوامر من القصر إلى الكونجو تأمر بتدمير السجلات هناك. وفيما بعد قال الكولونيل مكسميليان شتراوس (Maximilien Strauch) الذى ظل لأمد طويل مستشارًا للملك فى شئون الكونجو: "إن الأصوات التى قد تدافع عن مصالحها الخاصة بما يتنافى مع السجلات المدمرة قد أُجبرت على الصمت بطريقة منهجية لاعتبارات عليا". ونادرًا ما حدث أن نظاما شموليًا ذهب إلى مثل هذا المدى ليدمر تدميرًا كاملاً سجلات أعماله. وفيما بعد ترك هتلر وستالين خلفهما آثارًا مكتوبة أكثر بكثير فى أثناء استهدافهما للاعتبارات العليا.

وحدث نفس النمط من التناسى المتعمد فى أذهان الرجال الذين عملوا مع النظام. فليس من الأمور السلبية أن يتناسى المرء دوره فى عمليات القتل الجماعى وإنما هو فعل إيجابى. وعندما نتمعن فى اليوميات التى سجلها الغزاة البيض الأوائل فى أفريقيا، نستطيع أحياناً أن نضبط أعمال التناسى فى لحظة حدوثها. فهى ليست لحظة المحو وإنما لحظة انقلاب الأمور رأساً على عقب، عندما يحدث الانقلاب الذهنى الغريب للجانى فيحول نفسه إلى ضحية. ولنأخذ، على سبيل المثال، لحظة فى يوميات راءول دى بريمورل (Raoul de Premorel) الذى كان يدير إحدى محطات جمع المطاط فى إقليم كاساى فى الكونجو من ١٨٩٦ إلى ١٩٠١ . وهاكم وصفه لكيفية تعامله مع الزعيم المزعوم للتمرد:

> أمرت اثنين من الحراس أن يجراه إلى واجهة المخزن حيث قيدا رسغيه سوياً. ثم أوقفاه أمام عمود ويداه مرفوعتان فوق رأسه وربطاه بإحكام فى صليب من الأخشاب. ثم أمرتهما بأن يرفعاه بشد الحبال إلى أن صارت قدماه تكاد لا تلمس الأرض ... وتركت التعيس على ذلك الحال. وتعلق هناك طول الليل، وأحياناً كان يتوسل طلباً للرحمة، وأحياناً كان يصاب بنوع من الإغماء. وطوال الليل كانت زوجته تفعل ما فى وسعها لتخفيف معاناته. فأحضرت له شراباً وطعاماً، وأخذت تدلك له ساقيه المتوجعتين ... وفى النهاية عندما أقبل الصباح وقطع رجالى أوثاقه سقط مغشيا عليه ومكوماً على الأرض. وأمرت "خذوه بعيداً"، ... ولا أعلم إن كان قد بقى على قيد الحياة أم لا ... والآن يحدث فى أثناء نومى أننى أرى نفسى وقد صرت أنا الشخص التعس ومئة شيطان أسود يرقصون ... من حولى. وأستيقظ فجأة وأجد نفسى غارقاً فى عرق بارد. وأحياناً أرى أنى أنا الذى عانى أكثر فى معظم السنوات التى مرت منذ تلك الليلة.

وأحياناً أرى أنى أنا الذى عانى أكثر ... وعلى مر التاريخ كان الأشخاص الملوثة أيديهم بالدماء يستخدمون مثل تلك المبررات. غير أن عملية تناسى أعمال القتل فى كونجو ليوبولد ازدادت حدتها بصورة غير متوقعة عندما تحولت بلجيكا نفسها

إلى ضحية بدلاً من غازٍ. فقد غزتها ألمانيا فى أغسطس سنة ١٩١٤، وقتلت ما يزيد على ٥٠٠٠ مدنى بلجيكى، وتعمدت إضرام النيران فى عدة آلاف من المبانى، بما فى ذلك المكتبة الجامعية الشهيرة فى لوفين (Louvain).

وخلال السنوات الأربع التالية استغلت الحكومة البريطانية أولاً ثم الأمريكية معاناة "بلجيكا الصغيرة الباسلة" لكى تؤجج من حمى الحرب فى بلدان لم تهاجَم. ولم تكتف الصحف والروايات والرسوم الكاريكاتيرية والملصقات والخطب الوطنية بشجب الفظائع الحقيقية التى حدثت وإنما زادت عليها. فقد أشيع أن الألمان صلبوا أطفالاً بلجيكيين على أبواب منازلهم. وفى صدى مثير ولكن لا شعورى لحركة إصلاح الكونجو، ذكرت الصحف فى بلدان الحلفاء أن الجنود الألمان كانوا يقطعون أيدى وأقدام الأطفال البلجيكيين. بل إن شاعراً بلجيكيًا منفيًا كتب قصيدة حول الموضوع(٢).

وانتشرت تلك التقارير الصادمة انتشاراً كبيراً حتى إن ثريًا أمريكيًا حاول أن يتبنى أولئك الأطفال البلجيكيين المشوهين؛ غير أنه ورغم الوعد بمكافآت لم يُعثَر على أحد منهم. وفى النهاية، اتضح أن تُهَمَ صلب الرضع وقطع أيدى وأقدام الأطفال هى اتهامات زائفة. وعلى الرغم من ذلك، ففى أثناء الحرب وفى أعقابها لم يرغب أحد فى بلدان الحلفاء فى أن يذكِّره أحد بأنه قبل عقد أو عقدين كان رجال ملك بلجيكا فى أفريقيا هم الذين يمارسون قطع الأيدى. وهكذا سقط من ذاكرة أوروبا التاريخ الكامل لحكم ليوبولد فى الكونجو والحركة المناهضة له، ربما بطريقة أسرع وبصورة أكمل مما حدث لأحداث القتل الجماعى التى ارتُكِبت فى أثناء استعمار أفريقيا.

---

(٢) وتنتهى القصيدة بالأبيات:

وعندما كانوا [أى البلجيكيون] يعثرون على واحد من الهون [الألمان] ملقيًا على الأرض

بفضل رصاصة أُحكم تصويبها فى طريق جانبى

فكثيراً ما كانوا يجدون فى ثنايا جيوبه

مع الخواتم الذهبية وقطع الساتان المتغضنة

قدمى طفل قطعت بوحشية

فى قرية هوبرتينجن (Hoepertingen) الهادئة، على مسافة ساعة بالقطار شرقى بروكسل، يعيش جول مارشال (Jules Marchal) وزوجته فى منزل فسيح متواضع يحيط به بستان صغير للكريز. ومرة كل عام يصعدون لبضعة أسابيع على السلالم ومعهم السلال كى يجمعوا الكريز ليبيعوه فى المجمع الاستهلاكى المحلى للقرويين. وقد وُلد مارشال هنا، وهو يبدو فى سن الثالثة والسبعين مثالاً لواحد من كبار السن فى المدن: سنة ذهبية، وحمالات ووجه بشوش ضارب إلى الحمرة وشعر أبيض. ويعطيه شاربه الأبيض تشابهًا مع صور المستكشف ستانلى فى سنواته الأخيرة. غير أن التشابه ينتهى عند هذا الحد.

ومارشال هو دبلوماسى متقاعد. وفى أوائل سبعينيات القرن العشرين كان سفيراً لبلجيكا فى مجموعة من ثلاث دول فى غرب أفريقيا: غانا وليبيريا وسييرا ليون. وذات يوم لاحظ قصة فى صحيفة ليبيرية تشير عرضًا إلى عشرة ملايين قتيل فى كونجو الملك ليوبولد.

ويقول مارشال: "ذهلت، وكتبت إلى وزير الخارجية فى بروكسل وقلت له: 'يجب علىَّ أن أكتب إلى رئيس التحرير لأصحح تلك القصة، فهى تشويه غريب لسمعة بلدنا. ولكنى لا أعلم شيئًا عن تاريخ تلك الفترة. فهل تتكرم بالتنبيه على شخص ما كى يرسل لى بعض المعلومات؟'

"وانتظرت. ولكنى لم أتلق ردا. وهنا ثار فضولى".

ومارشال رجل دقيق ومنهجى، وهو من ذلك النوع من الأشخاص الذى يحب أن يقرأ كتابًا فى لغته الأصلية، ويتتبع معلومة إلى مصادرها، ويستمد تاريخه لا من ملخصات شخص آخر، وإنما من الوثائق الأصلية. ومع اشتعال اهتمامه، قرأ حتى تلك اللحظة حول التاريخ المبكر للكونجو ما يكفيه لأن يكتشف أن العثور على الوثائق الرسمية قد لا يكون أمرًا يسيرًا، مع تذكرنا للحريق الذى أشعله ليوبولد لمدة أسبوع. غير أن بعض الأوراق الحاسمة المعينة أفلتت من الحريق سنة ١٩٠٨، ومن بينها نسخ طبق الأصل - لم يسبق نشرها - للشهادات التى أدلى بها الشهود الأفارقة أمام لجنة

التحقيق سنة ١٩٠٤-١٩٠٥ . واكتشف مارشال أمراً ملائمًا له وهو أن هذه المجموعة المهمة من السجلات قد انتهى بها الأمر إلى سجلات وزارة الخارجية البلجيكية حيث يعمل. وتطلع بلهفة إلى تفحصها.

وبعد ذلك خدم مارشال فى موقع آخر فى أفريقيا، "غير أن الكونجو بقيت حية فى رأسى. فقد كانت ثمة رائحة نتنة تفوح منها. وعلمت بوجود تلك الحملة الهائلة فى الصحافة العالمية فى الفترة ما بين ١٩٠٠ إلى ١٩١٠، وأن ملايين الأشخاص ماتوا، ولكننا نحن البلجيكيون لم ندر عنهم شيئًا. ولهذا عندما عُينت فى ١٩٧٥ فى منصب فى الوزارة فى بروكسل، كان أول ما فعلته هو الذهاب إلى أرشيفات الوزارة وطلبت أن أطلع على شهادات لجنة التحقيق".

وأخبروه أن ذلك أمر مستحيل. فقد كانت أوراق الشهادات مختومًا عليها "لا يسمح للباحثين بالاطلاع عليها". واحتج مارشال بأن سبعين سنة قد مرت بعد أن قدمت اللجنة تقريرها، وأنه بمنصب سفير. ولم يغير ذلك من الأمر شيئًا. ولم يُسمح له بالاطلاع على الملفات.

"كان هناك مبدأ فى أرشيفات وزارة الخارجية. لم يكن مسموحًا للباحثين بالاطلاع على مواد تسىء إلى سمعة بلجيكا. ولكن كل شىء عن تلك الفترة كان مسيئًا لسمعة بلجيكا! وعلى هذا فلم يكشفوا شيئًا". وأصبح مارشال الآن مهووسًا بالموضوع، وكان أمامه عقد ونصف عقد فى العمل قبل أن يتقاعد. وبقى فى وزارة الخارجية وعاد إلى أفريقيا سفيراً كما عمل فى وظائف إدارية متعددة فى بروكسل. وكرس كل أوقات فراغه للبحث والكتابة عن كونجو ليوبولد. وبعد تقاعده سنة ١٩٨٩ عمل فى ذلك كل الوقت. ومنحته أربعة عقود من العمل الإدارى مهارات استثنائية فى العثور على المعلومات الكاشفة فى السجلات الحكومية، وسافر إلى كل أرشيف فى أوروبا والولايات المتحدة يحوى معلومات عن تلك الفترة. وعثر على مجموعات من الأوراق الخاصة فى بلجيكا كانت بعيدة عن متناول نيران ليوبولد. وتوصل إلى أن أكثر المعلومات كشفًا كثيراً ما تكمن فى خطابات وتقارير صغار الموظفين من الشباب من ضباط المستعمرات

النزاعين إلى الأفكار المثالية والوافدين حديثًا إلى الكونجو والذين روعهم أن الواقع الأفريقى لا يتفق مع بلاغة المثاليات التى تتردد فى أوروبا. وعكف على دراسة ملفات الجمعيات التبشيرية والشركات التى كانت تمارس أعمالاً فى أفريقيا. وسافر إلى أيرلندا للاطلاع على أوراق كيسمنت ولزيارة الشاطئ الذى نزل عليه كيسمنت فى رحلته المصيرية الأخيرة.

وفى أثناء ما كان مارشال لا يزال فى الخدمة كدبلوماسى بلجيكى كتب تحت اسم مستعار – ديلاثوى (Delathuy)، وهو اسم جدة جدته قبل زواجها. "كانت سيدة رائعة، غير أن اسمها مُحى من تاريخ الأسرة لإنجابها طفلاً دون زواج. ولم يُذكر اسمها بعد ذلك مطلقًا. وكان محرمًا مثله فى ذلك مثل الملايين الذين قُتلوا". وكتب مارشال تاريخ كونجو ليوبولد بلغته الأم الهولندية، ثم راجعه وترجمه إلى الفرنسية وأصدره فى أربعة أجزاء. وعلى الرغم من تجاهله واقعيًا فى بلجيكا؛ فإن كتبه هى دراسة منهجية دقيقة للموضوع، وهى تقارير علمية موثقة بدقة متناهية ولا تبزها أى دراسة فى أى لغة. وكان من الممكن ألا تُكتب مطلقًا لولا أنه اطلع على مقالة تلك الصحيفة الليبيرية.

وفى أثناء حديث مارشال عن عمله يبدو عليه أنه قد مسه شيطان. فيرتفع صوته ويومئ برأسه منفعلاً فى أثناء الكلام، ويجذب كتبًا وأوراقًا من رفوف مكتبته وينقب فى أدراجه بحثًا عن صور فوتوغرافية. ويخرج صوراً لكل منزل فى إنجلترا عاش فيه إ. د. موريل. "عومل موريل فى بلجيكا بوصفه خائنًا ورجلاً شريراً. وأريد أن أضعه فى مكانته الصحيحة".

وكان مارشال منزعجًا لأنه كان يمثل وطنه لسنين طوال دون أن يدرى شيئًا عن تلك الفترة من ماضيه، وزاد سخطه عندما مُنِع من الاطلاع على سجلات وزارته. وفى لحظة ما، قال له أحد الرؤساء: "تستطيع أن تطلع على الملفات ولكن ليس قبل أن تعد بألا تكتب شيئًا بناء عليها". ورفض مارشال الصفقة. ولم يُسمح له بالاطلاع على شهادات لجنة التحقيق إلا بعد أن ألح فى الإلحاح على مسئولى الوزارة لمدة ثمانى سنوات. ونشر مجموعة منها فى كتاب مزودة بتعليقاته.

وكان ثمة سبب آخر يدعو مارشال للانزعاج لما نما إلى علمه. فقبل أن يلتحق بالعمل بالسلك الدبلوماسى البلجيكى، وكان فى أوائل الأربعينيات من عمره، اشتغل فى الكونجو لما يقرب من عشرين سنة، فى السنوات الأخيرة كمستعمرة بلجيكية والسنوات الأولى بعد أن صارت دولة مستقلة، وبدأ كمدير مساعد إدارى شاب فى النظام الاستعمارى. وبعدها بسنوات، عندما عرف لأول مرة تاريخ المستعمرة عند انقلاب القرن، أخذ مارشال وزوجته بولا فى استرجاع ذكرياتهما للبحث عن أية أدلة أو أقوال تفوه بها أشخاص يمكن أن تُفهم بطريقة مختلفة وفقًا للمعلومات الجديدة. وتذكر حادثة فى هذا السياق:

"عندما وصلت إلى الكونجو سنة ١٩٤٨، كانت أول وظيفة شغلتها هى أن أتجول وأوزع الميداليات على رؤساء العشائر الذين جمعوا المطاط للحكومة فى أثناء الحرب العالمية الثانية. وكما تعلم هم أجبروا كل شخص على العودة إلى الغابات ونزح المطاط البرى. وكان علىَّ أن أمنح أوسمة لما يقرب من مئة زعيم عشيرة. وكان يصحبنى عريف وستة أو سبعة جنود إلى كل قرية. وقال لى العريف: 'إن المطاط هذه المرة لا شىء، ولكنه فى المرة الأولى، ذلك كان أمرًا رهيبًا'. ولم أستوعب ما كان يتحدث عنه إلا بعدها بثلاثين سنة".

* * *

فى كل أنحاء أفريقيا كان المستعمرون هم الذين يكتبون كتب التاريخ المدرسية، مع منع للكتب على نطاق واسع ورقابة على الصحف، وضمن ذلك عملية التناسى فيما يتعلق بالسجلات المكتوبة. وفى الكونجو، وطوال نصف القرن من الحكم البلجيكى الذى أعقب وفاة ليوبولد، كانت الكتب المدرسية تمجد ليوبولد وأعماله بسخاء يماثل تمجيد الكتب المدرسية السوفييتية للنين. وعلى سبيل المثال يبين كتاب مدرسى صدر سنة ١٩٥٩ للجنود الكونجوليين الشبان الذين يدرسون للالتحاق بالقوة الشعبية كضباط صف "كيف أن البلجيكيين، بأعمال بطولية، تمكنوا من إنشاء هذا الإقليم الشاسع". وحاربوا

تجار الرقيق 'العرب' حرباً دامت ثلاث سنوات من التضحيات والتصميم وتحمل المشاق، وأكملوا بشكل رائع أكثر حملات القرن إنسانيةً، محررين الشعوب المستغلة والمحتوم مصيرها فى هذا الجزء من أفريقيا". أما بالنسبة للمنتقدين، الذين لا يذكر الكتاب أسماءهم، "ظهر الانتقاد فى خضم حملة افترائية لتشويه السمعة قام بها أجانب حسودين ... وانتهت إلى لا شىء".

ومن البديهى أن ذلك التناسى المقنن رسميا لا يمكن أن يصل إلى كل القرى، حيث لا يزالون يحتفظون ببعض الذكريات عن إرهاب المطاط. ولكن حتى تلك الذاكرة الجماعية قد صارت اليوم أضأل مما يتوقع المرء. أسهمت حفنة صغيرة من علماء الأنثروبولوجيا المثابرين فى العثور على تلك الذكريات والمحافظة عليها- وقد لا تزيد على شظايا من أسطورة محلية حول شخص يتسم بوحشية استثنائية ويعود إلى الفترة التى يتذكرونها باسم 'حرب الرجل الأبيض'، أو 'لوكيلى' (lokeli) حسب لغة المونجو، بمعنى 'الساحق الذى لا يُغلب'. وفى بعض الأحيان يمكن التعرف على شرير الأسطورة، بربطه بمعلومات جمعها الشهود من أمثال كيسمنت أو المبشرين، وتحديد شخصيته كمفوض للإقليم أو وكيل لإحدى شركات المطاط أو زعيم عشيرة تعاون مع الغزاة. وأحيانًا تندمج حقبة الإرهاب فى اللغة ذاتها. ففى لغة المونجو نجد أن تعبير 'أن ترسل شخصًا لجمع المطاط' هو مصطلح يعنى 'أن تروِّعه'.

ولم يتبق من الذاكرة الجماعية لعصر المطاط إلا النزر اليسير فى ريف أفريقيا، وذلك لأن الأساطير الشفهية عادة ما تقتصر على تذكر الملوك والأسر الملكية والانتصارات فى المعارك. والأسر الملكية التى بقيت على قيد الحياة هى التى، فى الغالبية الساحقة منها، تعاونت مع الحكام المستعمرين. وكما قرر يان فانسينا (Jan Vansina) فى تاريخه لشعب الكوبا: "ليس هناك أى ذكر لتلك الأحداث [عبودية المطاط فى عهد ليوبولد] فى نواميس الأسر الملكية. فالحكام الذين أفادوا من النظام لم يهتموا بوضعها فى الذاكرة الرسمية". أما فى المدن، حيث يعيش اليوم كثير من الكونجوليين، فقد أدت عملية الانتقال السريع للسكنى فى المدن إلى تغيرات عنيفة. فعلى سبيل المثال، ما كانت منذ مئة عام أو تزيد قليلاً قرية كينشاسا الصغيرة قد صارت اليوم عاصمةً ممتدة

تتسم بالفوضى وبها نحو سبع ملايين نسمة، وصل كثير منهم حديثًا من المناطق الريفية فى بحث محموم عن عمل. وقد أضعفت تلك التغيرات من الروابط التى تربط بين الناس والتى تنتقل بها الروابط من جيل إلى جيل. وضعفت كثيراً الثقافات التقليدية واختفى معها تذكر القوى التى مزقتها فى المقام الأول.

* * *

وبعد وفاة ليوبولد بعقود نشأت فى الكونجو أسطورة عجيبة. فالملك، فيما يُشاع، لم يمت مطلقًا وإنما حضر إلى الكونجو ليعيش فى مستعمرته السابقة. وتحول إلى أسقف كاثوليكى هو جان - ميكس دى همتين (Jean-Mix de Hemptinne)، وهو من النبلاء الأوتوقراطيين وحظى بنفوذ سياسى كبير فى الكونجو لفترة طويلة. (ومن الجلى أن الأسطورة نشأت بسبب لحية دى همتين البيضاء وجسده المقاربين للحية وجسد ليوبولد). وحسبما تقول الأسطورة، كان دى همتين هو ليوبولد بعد أن تجسد مرة أخرى، أو لعله كان ابنًا غير شرعى للملك، وفى هذا الدور كان مجرد شبح خلف الأحداث فى لحظات حاسمة، فيأمر الشرطة بإطلاق النار على عمال مناجم مضربين عن العمل فى حادثة شهيرة، أو يأمر قاضياً بأن يتعامل بصرامة مع متهم مسجون فى حادثة أخرى.

غير أن الأمر لم يكن يحتاج من ليوبولد إلى إعادة التجسد كى يضع بصمته. فالتاريخ شديد الوطأة على أفريقيا: عقود طويلة من الاستعمار، بضع مئات من السنين من تجارة الرقيق عبر الأطلنطى والعالم العربى، وقبل ذلك قرون لا تحصى - وكثيراً ما يتم تجاهلها - من تجارة الرقيق الداخلية. ومنذ عصر الاستعمار لم يكن الميراث الرئيسى الذى خلفته أوروبا لأفريقيا هو الديمقراطية كما تُمارَس اليوم فى بلدان مثل إنجلترا وفرنسا وبلجيكا؛ وإنما كانت أنظمة الحكم الشمولية والسلب والنهب. وفى كل أرجاء القارة ربما لم تعش أمة أوقاتًا صعبة مثل التى عاشها الكونجو فى أثناء خروجه من ظلال ماضيه.

وعندما أتى الاستقلال إلى الكونجو فى النهاية سارت الأمور سيراً سيئًا. وكانت المطالبة بالاستقلال التى اجتاحت القارة فى خمسينيات القرن العشرين قد فاجأت بلجيكا مثلما فاجأت غيرها من القوى الاستعمارية فى القارة. وقامت مظاهرات صاخبة فى ليوبولدفيل قمعتها القوة الشعبية بدموية مفرطة. فحتى ذلك الوقت كان خلفاء ليوبولد يظنون أن الاستقلال قد يأتى ولكن ليس قبل عقود بعيدة. وكان بعض الأفارقة يُدَربون لذلك اليوم البعيد؛ غير أنه عندما تعاظمت الضغوط وأتى الاستقلال سنة ١٩٦٠، لم يكن هناك فى كل أرجاء الإقليم إلا أقل من ثلاثين أفريقيا متخرجا من جامعة. ولم يكن فى الجيش ضباط كونجوليون ولا مهندسون ولا مهندسون زراعيون ولا أطباء. وكانت إدارة المستعمرة قد اتخذت خطوات قليلة أخرى فى سبيل الوصول إلى كونجو يديره أبناؤه: فمن بين ما يقرب من خمسة آلافٍ يشغلون مناصب إدارية فى السلك الإدارى كان ثلاثة منهم فقط من الأفارقة.

ووصل الملك بودوان (Baudouin) ملك بلجيكا إلى ليوبولدفيل لكى يمنح الكونجو حريته رسميا وبروح أبوية. وقال: "الآن الأمر يرجع إليكم، أيها السادة، لكى تثبتوا أنكم أهل لثقتنا". ورد باتريس لومومبا بخطبة مرتجلة غاضبة لفتت انتباه العالم. فقبلها بأقل من شهر أتت الانتخابات بلومومبا رئيساً لحكومة ائتلافية. وكانت أول انتخابات ديمقراطية قومية فى الإقليم. وفى حقيقتها وإن لم يكن من الناحية الشكلية كانت آخر انتخابات من نوعها لمدة أربعة عقود. وكان لومومبا يؤمن بأن الاستقلال السياسى ليس كافيًا لتحرير أفريقيا من ماضيها الاستعمارى؛ فالقارة لا بد من أن تتوقف عن كونها مستعمرة اقتصادية لأوروبا. واستثارت خطبه ذعراً فورياً فى العواصم الغربية. فقد أصبح للمؤسسات البلجيكية والبريطانية والأمريكية الآن استثمارات ضخمة فى الكونجو، الذى كان غنيًا بالنحاس والكوبالت والماس والذهب والقصدير والمنجنيز والزنك. كان لومومبا خطيبًا مفوهًا وسرعان ما سُمع صوته خارج حدود بلده، وكان شخصية ماكرة وساحرة للجماهير. وتخوفت الحكومات الغربية من أن تكون رسالته معدية. ويضاف إلى ذلك أنه لم يكن من الممكن شراؤه. ولما لم يجد مساعدة من الغرب فقد لجأ إلى الاتحاد السوفييتى. ولما كان ذلك أمراً محرماً بالنسبة لرءوس الأموال

الأمريكية والأوروبية فقد أصبح زعيماً أيامه محدودة. وبعد أقل من شهرين من انتخابه أول رئيس للكونجو منتخب بطريقة ديمقراطية، وافقت على اغتياله لجنة فرعية لمجلس الأمن القومى الأمريكى مخصصة للعمليات السرية كان من بين أعضائها ألن دلاس (Allen Dulles) مدير الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA)، وفيما بعد قال ريتشارد بيسل (Richard Bissell)، مدير العمليات بالاستخبارات المركزية الأمريكية: "وافقنى الرئيس [دوايت أيزنهاور] على الرأى الذى أبديته وشاركنى فيه كثيرون، بأن لومومبا هو كلب مسعور ... وأراد التعامل مع تلك المشكلة". وفى اجتماع حاسم ذكر مسئول آخر فيما بعد أن أيزنهاور قرر بوضوح لدالاس مدير الاستخبارات المركزية الأمريكية "أنه يجب التخلص من لومومبا".

وبُحثت بدائل أخرى لحل "المشكلة"، من بينها استخدام السم (أرسلت كمية منه إلى رئيس فرع الاستخبارات المركزية الأمريكية فى ليوبولدفيل)، أو استخدام بندقية قوية، أو استئجار قاتل محترف مستقل. غير أنه تبين أنه من الصعب الاقتراب من لومومبا بدرجة تسمح باستخدام أى من تلك الوسائل، ولهذا دعمت الاستخبارات المركزية الأمريكية ومعها البلجيكيون الذين كانوا لا يزالون يعملون فى الجيش الكونجولى والشرطة، العناصر المناوئة للومومبا فى حكومة الكونجو، وكانوا على ثقة من أنهم سوف يؤدون المهمة. وبعد إلقاء القبض عليه وضربه بصورة متكررة قُتل رئيس الوزراء سراً بإطلاق الرصاص عليه فى مدينة إليزابيثفيل فى يناير ١٩٦١ . فقد دبرت الحكومة البلجيكية سراً أن تحمله إلى هناك طائرة يقودها طيار بلجيكى وترأس فرقة إطلاق النار ضابط بلجيكى. ثم قام شخصان بلجيكيان بتقطيع جثته وأذابوها فى حامض حتى لا يكون هناك قبر شهيد. ولا نستطيع أن نجزم، لو كان لومومبا بقى حيًا، فهل كان سيظل مخلصاً للآمال التى جسدها فيه هذا العدد الكبير من شعوب أفريقيا. غير أن الولايات المتحدة وبلجيكا عملتا على عدم إعطائه الفرصة لذلك.

وكانت الشخصية المحورية فى القوات الكونجولية التى دبرت اغتيال لومومبا شاب يدعى جوزيف دزيريه موبوتو (Joseph Désiré Mobutu)، الذى كان آنذاك رئيساً لأركان حرب الجيش وضابط صف سابق فى القوة الشعبية القديمة. وفى وقت مبكر

حددت القوى الغربية موبوتو بوصفه شخصًا من الممكن أن يرعى مصالحها. وتلقى مبالغ نقدية من رجل الاستخبارات الأمريكية المحلى ومن الملحقين العسكريين الغربيين بينما كان يجرى الإعداد لاغتيال لومومبا. وفيما بعد تقابل مع الرئيس كنيدى فى البيت الأبيض سنة ١٩٦٣ وكان مرتديًا نظارة سوداء وزى جنرال بجدائل ذهبية وسيف. وأهداه كنيدى طائرة لاستخدامه الشخصى - وطاقمًا من طيارى القوات الجوية الأمريكية ليقودوها له. وبتشجيع من الولايات المتحدة قام موبوتو بانقلاب عسكرى سنة ١٩٦٥ جعل منه دكتاتور البلد. واستمر فى ذلك المنصب لأكثر من ثلاثين سنة.

وساعدت مساعدات عسكرية إضافية من الولايات المتحدة موبوتو على صد عدة محاولات للإطاحة به. وأمر بتعذيب وقتل بعض من أعدائه السياسيين، واجتذب بعضًا منهم داخل دائرته الحاكمة، كما نفى بعضهم الآخر خارج البلاد. وأعطته الولايات المتحدة ما يزيد بكثير على بليون دولار على صورة مساعدات مدنية وعسكرية خلال عقود ثلاثة من الحكم، ومنحته القوى الأوروبية - وبخاصة فرنسا - أكثر من ذلك. وللحفاظ على استثماراتها الهائلة حصلت الولايات المتحدة وحلفاؤها على نظام حكم موثوق به ضد الشيوعية، ومكان آمن تشن منه الاستخبارات الأمريكية والفرنسية عملياتها العسكرية، ولكن موبوتو لم يغير من بلده شيئًا إلا اسمها الذى غيره سنة ١٩٧١ إلى زائير.

وبدأت وسائل الإعلام المملوكة للدولة فى الإشارة إلى موبوتو بوصفه معلمًا وأبًا للأمة، وقائدًا للدفة ومسيحًا. وتسربت ثروات البلاد، بموافقة من الأمريكيين والأوروبيين، بصورة عامة إلى جيوب المسيح وشركات التعدين الأجنبية. وجعل ولاء موبوتو لأولياء نعمته الغربيين، جعل منه زائرًا محبوبًا لواشنطن، حيث تخلى بمكر عن زيه العسكرى وارتدى زيًا مدنيًا، وعصا منحوتة من خشب الأبنوس الأسود، وقبعة من جلد الفهد، صارت علامة مميزة للشخصية الأفريقية، وإن كانت فى الحقيقة قد صنعها له مصمم قبعات باريسى فخم. واستقبله رونالد ريجان فى البيت الأبيض عدة مرات، مادحًا إياه بوصفه "صوتًا للتعقل والإرادة الحسنة". وحياه جورج بوش بوصفه "واحدًا من أكثر من نحترمهم من أصدقائنا". وأضاف: "نالنى الشرف بدعوتى للرئيس موبوتو ليكون أول رئيس دولة أفريقى يزور الولايات المتحدة فى أثناء فترة رئاستى".

ونهب موبوتو وحاشيته موارد الدولة بحرية بحيث عجزت الحكومة الكونجولية عن تأدية مهامها. وعندما نضبت الأموال وعجز عن دفع مرتبات الجيش وموظفى الدولة سنة ١٩٩٣، قام بطبع نوع جديد من العملة. ولما لم يقبل أصحاب المتاجر التعامل بها ثار الجنود ونهبوا المتاجر والمبانى الحكومية والمنازل، وقُتل مئات الأشخاص. ولعدة سنوات تجمعت أكوام القمامة لا يجمعها أحد. ولم تعد إلا قلة قليلة من خطوط الطيران الأجنبية تتوقف فى البلاد، ولكنهم تجنبوا أن يتركوا طائراتهم للمبيت سواد الليل؛ فشركات التأمين لن تغطيهم فى ذلك. وتوقف أو كاد الدعم الحكومى للمدارس والمستشفيات. ونصحت السفارة الأمريكية موظفيها فى العاصمة بألا يتركوا أبواب سياراتهم غير مغلقة أو أن يفتحوا نوافذها إن أوقفتهم الشرطة عند أكمنة الطريق: وعليهم أن يكتفوا بإظهار أوراقهم من النافذة خوفًا من الاستيلاء على حافظات نقودهم.

وقبل الإطاحة بموبوتو سنة ١٩٩٧، جعلت منه السنوات الاثنان والثلاثون التى قضاها فى الحكم واحدًا من أغنى رجال العالم؛ وقُدرت ثروته فى أوجها بأربعة بلايين دولار. وكان يمضى غالبية وقته على متن يخته فى النهر فى كينشاسا، ليوبولدفيل سابقًا، وأعاد تسمية واحدة من أكبر البحيرات وأطلق عليها بحيرة موبوتو سيسى سيكو. وتملك قصورًا فى فرنسا وبلجيكا والبرتغال وإسبانيا وسويسرا وفى بلاد أخرى. ولم يكن يفرق بين ممتلكات الدولة وممتلكاته الشخصية، ففى سنة واحدة أرسل طائرة نفاثة مملوكة للدولة اثنين وثلاثين مرة إلى فنزويلا كى تنقل على دفعات خمسة آلاف رأس من خراف طويلة الشعر إلى مزرعته فى جبادوليت. وفى أثناء ما كان يخته يُجدد سنة ١٩٨٧، استولى على أفخم سفينة نهرية من القلة من السفن التى كانت لا تزال تعمل على صفحات النهر وكان يطالب بجانب من كل تعامل كبير تقوم به الشركات الكبرى العاملة فى البلاد ويحصل عليه.

وإنه لتبسيط مجحف للأمور أن نضع مشاكل أفريقيا اليوم كليةً على الاستعمار الأوروبى؛ فالتاريخ أشد تعقيدًا بكثير. ورغم ذلك، فلو نظرنا مرة أخرى إلى موبوتو، فبخلاف لون جلده، لا نجد فارقًا كبيرًا بين ما فعله وما كان يفعله العاهل الذى كان يحكم نفس الإقليم قبله بمئة عام. حكم الرجل الواحد. ثروته الهائلة المنتزعة من الأرض.

إطلاقه لاسمه على بحيرة. يخته. استيلاؤه على ممتلكات الدولة بوصفها من ممتلكاته. تملكه لجانب هائل من الأسهم فى مؤسسات تمارس أعمالاً فى إقليمه. وعلى غرار ما كان يفعل ليوبولد عندما كان لا يترك أحداً يشاركه فى غالبية أرباح المطاط مستغلاً فى ذلك دولته التى يسيطر عليها، فبالمثل استحوذ موبوتو على مجموعته الخاصة من مناجم الذهب - ومزرعة للمطاط. وتشبه عادة موبوتو فى طبع المزيد من النقود عندما يحتاج إليها ما كان لويبولد يفعله من طبع سندات الكونجو.

كتب الفيلسوف ابن خلدون فى القرن الرابع عشر: "إن أولئك الذين يُغزَون يحبون دائماً أن يقلدوا الغازى فى صفاته الرئيسة - فى ملبسه وبراعته وفى سماته المميزة وعاداته". ويقع قصر موبوتو الفاخر "فيللا دل مار" (Villa del Mare)، ذو الأعمدة الوردية والبيضاء، فى روكبرون - كاب مارتان (Roquebrune-Cap-Martin) فى الريفييرا الفرنسية، وبه حمامات سباحة داخل وخارج المبنى، وحمامات مطعمة بالذهب، ومطار للمروحيات، يقع على أقل من اثنى عشر ميلاً على الشاطئ من الضيعة التى تملّكها يوماً ما ليوبولد عند رأس فرا (Cap Ferrat). ومن إحدى الرأسين تستطيع أن تشاهد الأخرى.

* * *

أى كلمات نستطيع أن نقولها فى رثاء الحركة التى عملت جاهدة لترسيخ العدالة فى الكونجو منذ مئة عام؟

كان لحركة إصلاح الكونجو إنجازان مهمان داما لفترة ما بعد انصرام زمانها. أولهما، أنها من خلال جهود إ. د. موريل، وروجر كيسمنت، وأشخاص لا تقل عنهما شجاعة وإن كانت معروفة بصورة أقل منهما، جورج واشنطن ويليامز ووليم شبارد وهزيكايا أندرو شانو، تمكنت من وضع كميات رائعة من المعلومات فى سجلات التاريخ. وهى مستقرة هناك رغم الجهود العنيفة لليوبولد والمعجبين به، أيامها وحتى الآن، لإحراقها وتجاهلها وتشويهها بتحويلها إلى أساطير. وسجل الحقائق هذا مهم وبخاصة بالنسبة لقارة يحفل تاريخها بفترات من الصمت.

وأما الإنجاز الكبير الآخر للحركة فهو أن هناك بين ظهرانى مؤيديها بقى تقليدٌ حيًّا، وهو أسلوب لرؤية العالم، وقدرات إنسانية على الغضب للآلام التى تحل بكائن بشرى آخر، بصرف النظر عن أنه أصاب شخصاً ذا لون آخر، أو فى بلد آخر، أو ركن آخر من أركان الأرض.

وفى أثناء ما كان إصلاحيو الكونجو يتحدثون فى مئات الاجتماعات العامة فى كل أنحاء بريطانيا والولايات المتحدة كانوا يعرضون شرائح تبين صوراً لبالغين وأطفال قُطعت أياديهم وعمال السخرة وهم يعملون حمالين أو لقرى مدمرة. وجاء فى إعلان عن واحد من تلك الاجتماعات: محاضرات حول فظائع الكونجو مزودة بشرائح الفانوس السحرى. "٦٠ صورة فوتوغرافية رائعة من تصوير السيدة هاريس، القادمة حديثًا من بارينجا فى دولة الكونجو الحرة. محاضرات وصفية راجعها القس المحترم ج. هـ. هاريس و إ. د. موريل". وكانت تلك الشرائح بالأبيض والأسود، ومساحتها نحو ثلاث بوصات مربعة، مصنوعة خصيصًا للعرض بواسطة "الفانوس السحرى". ويستطيع أى شخص يبحث اليوم عن تلك الشرائح أن يجدها. فهى تستقر فى صناديق خشبية متربة فى رف تخزين فى الدور الأرضى لمبنى صغير ذى إيجار منخفض فى جنوب لندن. وذلك المبنى هو مقر المكتب الدولى لمكافحة تجارة الرقيق، جمعية مكافحة تجارة الرقيق سابقًا، وجمعية المحافظة على السكان الأصليين سابقًا، والجمعية البريطانية والأجنبية لمكافحة تجارة الرقيق سابقًا. وأدار جون وأليس هاريس المكان لعدة سنوات بعد انتهاء عملهما مع موريل. ولما كان فى استمرارية مستديمة منذ سنة ١٨٣٩ فهو يمثل أقدم منظمة لحقوق الإنسان على ظهر الأرض. واليوم، فى تلك الحجرة بما فيها من صناديق شرائح نجد رجالاً ونساءً فى عشرينيات العمر يجيئون ويذهبون، يحملون اللافتات وشرائط الفيديو وحزم النشرات – تتناول عمالة الأطفال فى بنجلادش ونيبال وماليزيا، ونساء فى عبودية منزلية فى الشرق الأوسط، ومسجونين بسبب الديون فى البرازيل، وبغاء الأطفال فى تايلاند، وتشويه الأعضاء التناسلية للنساء فى أفريقيا، واستغلال المهاجرين كخدم فى المنازل فى إنجلترا.

وفى خلال المئتى سنة الأخيرة نمت واتسعت تلك التقاليد التى لا تزال حية فى ذلك المكتب اللندنى. واليوم نتكلم بصورة أقل عن الخير والإصلاح الاجتماعى، بما تحمله بين طياتها من معانى فرض وصاية الكرم الأبوى، ونتحدث أكثر عن حقوق الإنسان. فالحريات الأساسية فى الحياة لا يجب أن يُنظر لها بوصفها منحًا يتصدق بها المحسنون من ذوى النوايا الحسنة، وإنما، وكما قال كيسمنت فى محاكمته، هى حقوق تحق لكل البشر منذ ميلادهم. وتلك هى الروح التى تشكل أسس منظمات مثل 'منظمة العفو الدولية' (Amnesty International)، بإيمانها بأن وضع شخص ما فى السجن لمجرد آرائه هى جريمة، سواء حدثت فى الصين أو تركيا أو الأرجنتين، ومثل 'أطباء بلا حدود' (Medecins Sans Frontieres)، بإيمانها بأن طفلاً مريضًا له الحق فى الرعاية الطبية، سواء فى رواندا أو هندوراس أو حى البرونكس الجنوبى.

ولم تكتف حركة إصلاح الكونجو إبان أوجها بالعمل على تشكيل وترسيخ تلك المجموعة من المعتقدات وإنما ذهبت إلى أبعد منها. فمنظمات حقوق الإنسان اليوم تتعامل عادة مع النتائج - رجل فى السجن، وامرأة فى عبــودية، وطفل بلا علاج. فقد تحدث إ. د. موريل أيضًا حول الأسباب: وأهمها سلب الأرض والعمالة الأفريقية التى سمحت لنظام ليوبولد الاستغلالى بكامل هيئته أن يقف على قدميه. ولقد كانت تلك الراديكالية، بأسمى وأعمق معانى الكلمة، هى التى استند إليها غضب زعماء إصلاحيى الكونجو والتى قادت موريل وكيسمنت، بعد معاركهما لنشر العدالة فى الكونجو، إلى سجن بنتونفيل.

وتعود التقاليد الأشمل الذين هم جزء منها إلى الثورة الفرنسية وما قبلها؛ فهى تستمد مُثُلها من الرجال والنساء الذين حاربوا فى سبيل حريتهم ضد عقبات هائلة، بدءًا من ثورة العبيد فى الأمريكيتين إلى نصف قرن من المقاومة أتت بنلسون مانديلا إلى الحكم فى جنوب أفريقيا. وفى أثناء العقد الذى قضته على خشبة المسرح العالمى كانت حركة إصلاح الكونجو حلقة أساسية فى تلك السلسلة، وليس هناك من تقاليد أكثر تبجيلاً من ذلك. وخلال الجدل المتعلق بالكونجو منذ مئة عام، كانت فكرة حقوق الإنسان الكاملة، من سياسية إلى اجتماعية إلى اقتصادية، تشكل تهديدًا عميقًا للنظام الراسخ لغالبية الدول على ظهر الأرض. وهى لا تزال تشكل نفس التهديد اليوم.

نظرة إلى الوراء :

كلمة ختام شخصية

مر ما يقرب من عقد من الزمان منذ أن نُشر هذا الكتاب لأول مرة. وعندما شرعت في العمل فيه، كان من الصعب بطريقة غريبة أن أثير اهتمام أى شخص. فمن بين عشرة من ناشرى الكتب فى نيويورك اطلعوا على مخطط تمهيدى مفصل، رفضه تسعة منهم. واقترح أحدهم أن القصة قد تصلح كمقال فى مجلة. وقال الآخرون إنه ليس ثمة سوق لكتب عن التاريخ الأفريقى أو أحسوا ببساطة أن الأمريكيين لا يأبهون بتلك الأحداث التى حدثت منذ أمد بعيد، فى مكان لا يستطيع إلا القليلون تحديده على خريطة. ولسعادتى كان الناشر العاشر، هيوتون ميفلين، أكثر ثقة فى مقدرة القراء على الربط بين كونجو ليوبولد وأحداث اليوم. وأحست دار مكميلان فى بريطانيا بنفس الإحساس. والآن هناك أكثر من ثلاثة ملايين ونصف مليون نسخة فى المطبعة باللغة الإنجليزية وإحدى عشر لغة أخرى. ونبعت من الكتاب عدة أفلام (أهمها فيلم بيبا سكوت الوثائقى "شبح الملك ليوبولد"، ومواقع على الإنترنت تتناول تاريخ الكونجو بالإنجليزية والفرنسية، وأغنية من أغانى الراب، ومسرحية سابقة لعصرها فى برودواى، وتمثال رائع لفنان كاليفورنيا رون جاريجز (Ron Garrigues): وهى تجمع حاشد لقطع من العاج والمطاط وأجزاء البنادق والذخيرة المستهلكة وقطع من منحوتات الباكونجو وميداليات سبق أن منحها ليوبولد بنفسه.

وتستمر القصة حية. فعلى شاطئ أوستند فى بلجيكا مصيف ليوبولد المفضل وقف لأمد طويل تمثال برونزى للملك على صهوة حصانه، وهو محاط بأشخاص أصغر حجماً

يمثلون أفارقة ممتنين وصيادين محليين. وذات ليلة سنة ٢٠٠٤، قطع فوضويون بالمنشار يد أحد الأفارقة - وأرسلوا فاكسًا غفلاً من التوقيع، قالوا فيه إنهم فعلوا ذلك كى يجعلوا التمثال يمثل أثر لليوبولد على الكونجو تمثيلاً أحسن. وبالنسبة لكاتب ظن أنه لن تتاح له مطلقًا فرصة نشر كتابه، كان ذلك تطورًا مثيرًا للاهتمام.

ولقد تساءلت أحيانًا لماذا قال هؤلاء الناشرون لا؟ قد يكون السبب له علاقة بما نشأ عليه غالبيتنا من أن فظائع زماننا التى تستحق منا الكتابة عنها هى فظائع الشيوعية والفاشية. ودون أن نعى، نحن نحس أننا أقرب إلى ضحايا ستالين وهتلر لأن غالبيتهم الساحقة كانت من الأوروبيين. وندرك بالوعى الكامل أن الشيوعية والفاشية تمثل شيئًا لم نعهده من قبل فى التاريخ لأنهم تسببوا فى مصرع عشرات الملايين وكانت لديهم الإيديولوجيات الاستبدادية التى حرمت كل معارضة. وننسى أن عشرات الملايين من الأفارقة قد قُتلوا بالفعل تحت حكم الاستعمار. فالاستعمار يمكن أن يكون استبداديًا - فهل هناك ما هو أشد من عمالة السخرة ؟ وكانت الرقابة محكمة: ولم تكن فرصة أن يتمكن أفريقى من الدعوة إلى الحرية فى الصحافة المحلية أكبر من فرصة معارض فى الاتحاد السوفييتى تحت حكم ستالين. كما كان الاستعمار أيضًا مبرَّرًا بإيديولوجيات محكمة متضمَّنة فى كل شىء بدءًا من شعر كيبلينج ومحاضرات ستانلى إلى الخطب والعظات والكتب عن أشكال الجماجم والوطنيين الكسالى وعبقرية الحضارة الأوروبية. والحديث عن عمال السخرة بوصفهم "رجالاً محرَّرين" كما كان يفعل مسئولو ليوبولد، هو تحريف للغة مثلما كان مكتوبًا فوق بوابة أوشفيتز "العمل سيحرركم" (Arbeit Macht Frei). ورسَّخَت كل من الشيوعية والفاشية والاستعمار الأوروبى حق السيطرة المطلقة على مصائر رعاياها. وفى كل الأحوال الثلاثة استمر ذلك التأثير طويلاً بعد أن مات النظام رسميًا.

* * *

كنت أعلم أن أناسًا كثيرين قد تأثروا بالنظام الاستعمارى فى الكونجو، ولكنى لم أكن أتوقع أن ظهور هذا الكتاب سوف يفتح أمامى عالمًا كاملاً من المتحدرين منهم.

ففى يوم تلقيت مكالمة من أمريكى هو حفيد حفيد ليون روم سىء السمعة. وكتبت لى حفيدة إ. د. موريل، التى تربت فى كنف جدتها أرملة موريل، خطابًا مطولاً. وعثرت على مجموعة خفية من الكونجوليين المهاجرين فى الولايات المتحدة، وحدث فى كل مكان تحدثت فيه تقريبًا، أن بعض الناس تتلكأ فى الانصراف بعد انتهائى ثم تُقبِل للحديث معى. ومن خلال بعض منهم استطعت أن أرسل نسخًا من الطبعة الفرنسية للكتاب إلى مدارس ومكتبات عامة فى الكونجو. وفى مكتبة لبيع الكتب فى كاليفورنيا ظهرت مجموعة متعددة الأجناس من الناس يبدو أنهم يعرفون كل شىء عن وليم شبارد، وتبين أنهم يتبعون كنيسة مشيخية قريبة كانت متآخية مع مقر إرساليته القديمة. وشاركت مع معمدانيين سويديين فى ستوكهولم فى الاحتفال بحياة المبشر إ. ف. سيوبلوم، وهو واحد من أوائل منتقدى ليوبولد وأشجعهم. وفى حديث أعطيته فى نيويورك تقدمت منى عجوز بيضاء، وانحنت على منضدة توقيع الكتاب وقالت بقوة ولكنة بطيئة: "لقد عشت فى الكونجو عدة سنوات، وكل ما تقوله هو صحيح تمام الصحة!" واختفت قبل أن أتمكن من سؤالها أية أسئلة أخرى. وفى يوم عدت إلى منزلى لأجد صوتًا أفريقيًا على جهاز الرد الآلى: "أريد أن أتحدث إليك. إن جدى قد مات من إرهاق العمل كحمال لدى البلجيكيين".

وكان الأكثر إثارة أن أتتبع ردود الأفعال تجاه الكتاب فى بلجيكا، حيث ظهر فى لغتى البلاد الرئيستين، الفرنسية والهولندية. فعندما توجهت إلى أنتورب فى تلك الفترة، عثرت ومعى المؤرخ جول مارشال (انظر الفصل التاسع عشر) على البقعة على أرصفة ميناء المدينة حيث وقف إ. د. موريل منذ مئة عام وهو يسجل شحنات العاج والمطاط الواردة من الكونجو، وحدث له الإدراك المذهل بأن ما يشاهده هو نتاج عمالة السخرة. ومما يؤسف له أن مارشال مات بعد تلك المقابلة متأثرًا بمرض السرطان، ولكن ليس قبل أن يحظى ببعض الاعتراف به والذى أنكروه عليه طويلاً.

ووجدت فى كل من أنتورب وبروكسل مستمعين ودودين ومهتمين بحقوق الإنسان، وأجمعوا على الاعتذار بأنهم لم يتعلموا شيئًا فى المدرسة حول الماضى الدموى لوطنهم فى أفريقيا. وجاءت التعليقات النقدية للصحف إيجابية. ثم أتى رد الفعل العكسى.

وجاء من بعض عشرات الألوف من البلجيكيين الذين اضطروا إلى مغادرة الكونجو على عجل مع انهيار عالمهم عندما حصلت المستعمرة على الاستقلال سنة ١٩٦٠ . وهناك ما يقرب من دستتين من منظمات 'قدامى المستعمرين' من البلجيكيين بأسماء مثل جمعية أخوة الطلبة السابقين بمركز التدريب العسكرى للأوروبيين فى لولوابورج. وافتتح تحالف لتلك المجموعات موقعًا على الإنترنت يحوى سخرية عنيفة من الكتاب: "من كتب الإثارة الرخيصة ... مزيج ... من حقائق واستنتاجات ومواقف خيالية". وهجوم آخر على ما جاء فى الكتاب من "بلاهات كذوبة" بدأ بمرثية خفية موجهة إلى ليوبولد: "أنت يا من اعتقدت أنك بعد حياة حافلة تستطيع أن تتمتع بالراحة الأبدية، لقد كنتَ مخطئًا". وأرسل واحد من قدامى رجال المستعمرات خطابًا قال فيه: "إن كلاب الجحيم قد انطلقت من إسارها مرة أخرى ضد الملك العظيم".

ونشرت صحيفة الجارديان البريطانية مقالاً مطولاً تحدث عن كيف أن كتابًا جديدًا قد أثار ضجة غاضبة فى بلد متشبث بتراثه الاستعمارى. ونقلت عن البروفسير جان ستنجرز (Jean Stengers)، وهو باحث محافظ فى الشئون الأفريقية، قوله وهو يشجب الكتاب: "سوف يُنسى خلال سنتين أو ثلاث". وأبدى رئيس الوزراء البلجيكى رغبة واضحة فى إنهاء الضجة. وصرح للصحيفة بأن: "الماضى الاستعمارى قد انتهى تمامًا، ولم تعد هناك أية روابط عاطفية قوية ... فهو تاريخ".

غير أن التاريخ لا يتلاشى. ففى مؤتمر للأمم المتحدة حول العنصرية عقد فى ديربان فى جنوب أفريقيا سنة ٢٠٠١، ذكر صحفى أن كثيرًا من المندوبين قد قرأوا الكتاب، وتوجه أحدهم بسؤال إلى وزير خارجية بلجيكا لويس ميشيل (Louis Michel) عما إذا كانت بلاده تتحمل مسئولية "جرائم ليوبولد ضد الإنسانية". وفى نفس السنة أرسل ميشيل مذكرة سرية إلى البعثات الدبلوماسية البلجيكية فى كل أنحاء العالم بتعليمات عن كيفية الإجابة على الأسئلة المحرجة التى تأتيهم من قراء شبح ليوبولد وقلب الظلمات. (وكانت تعليماته: إن إحداث تغيير نشط فى العلاقات العامة سيكون أمرًا لا جدوى منه؛ وبدلاً من ذلك غيِّر الموضوع وتحدث عن دور بلجيكا فى إحلال السلام فى أفريقيا اليوم).

وساعدت أحداث أخرى على وضع الماضى الاستعمارى نصب الأعين فى بلجيكا. فبعد سنة من صدور هذا الكتاب أصدر كاتب بلجيكى هو لودو دى ويت (Ludo De Witte) كتابًا بعنوان "اغتيال لومومبا" (The Assassination of Lumumba)، احتوى على أدلة تدين مشاركة بلجيكا فى موت أول رئيس اختير بطريقة ديمقراطية فى الكونجو. وفى العام التالى ظهر فيلم روائى أخرجه المخرج راءول بك (Raoul Peck) عرض على جمهور أكبر قصة حياة لومومبا القصيرة ونهايته المأساوية. وفى ٢٠٠١ أثبتت لجنة برلمانية بلجيكية كثيرًا من النتائج التى توصل إليها دى ويت وأصدرت الحكومة اعتذارًا رسميًا. إلا أن حكومة الولايات المتحدة، التى كانت هى الأخرى قد حثت بشدة على اغتيال رئيس الوزراء، لم تعتذر مطلقًا.

وأثار كل ذلك تساؤلات محرجة للمؤسسة التى وصفتها فى الفصل التاسع عشر وهى المتحف الملكى لأواسط أفريقيا. وكان المتحف تحت ضغوط متناقضة: من جماعات الضغط الاستعمارية القديمة، التى عقدت العزم على مواصلة الاحتفاء بفترة حكم بلجيكا للكونجو، ومن كثير من البلجيكيين، شملت الأعضاء الأصغر سنا فى هيئة موظفى المتحف، الذين رأوا أن الوقت قد حان لحدوث تغيرات عميقة، ومن مسئولى الحكومة الذين أقلقتهم الصورة التى ظهر بها بلدهم، وكذلك، كما أشيع، من العائلة الملكية. وفى ١٩٩٩، أقر مسئول من مسئولى المتحف بأن تغيرات محتملة فى معروضات المتحف هى أمر قيد الدراسة، "ولكن وبكل تأكيد، ليس بسبب كتاب أصدره حديثًا شخص أمريكى". وبعد عامين عينت الحكومة مديرًا جديدًا للمتحف. وفى فيض طويل من الأحاديث الصحفية وعد بإصلاحات شاملة.

وفى سنة ٢٠٠٥ أقام المتحف معرضًا مؤقتًا كبيرًا، مصحوبًا بصخب إعلامى كبير، بعنوان "ذكريات الكونجو: الحقبة الاستعمارية"، وفى ذات الوقت أصدر كتابًا بنفس العنوان مزينًا بالصور الفخمة. وكلا من المعرض والكتاب كانا مثالاً لكيفية أن تتظاهر بالاعتراف بشىء دون أن تعترف به فعليًا. ومن بين مئات الصور الفوتوغرافية التى عرضها المتحف، على سبيل المثال، توجد أربعة من الصور الشهيرة للفظائع مأخوذة مما كان موريل يعرضه فى شرائحه. ولكنها عرضت بحجم صغير، بينما عرضت

عشرات من الصور الأخرى - أغلبها لموضوعات بريئة مثل موسيقيين كونجوليين- مكبرة إلى الحجم الطبيعي. وعُرضت صورة أخرى من اجتماعات لجنة التحقيق التي شكلها ليوبولد سنة ١٩٠٤-١٩٠٥، مع تعليق يمتدحها بوصفها "مبادرة رائدة في تاريخ حقوق الإنسان في أواسط أفريقيا". غير أنه لم يرد أي ذكر للجهود النفاقية الملتوية للملك (انظر الفصل السادس عشر) لإفساد الكشف عما توصلت إليه اللجنة. واحتوى كتاب المتحف على صورة للكابتن ليون روم شغلت نصف صفحة - دون أية إشارة لجمعه للرءوس الأفريقية المقطوعة، ولا للمشانق التي علقها أمام ساحته ولا لدوره كنموذج محتمل لكونراد في شخصيته الروائية القاتلة مستر كيرتس. وأنصف المعرض والكتاب وليم شبارد بوصفه عالمًا غير مؤهل للأنثروبولوجيا، دون ذكر شيء عن دوره كهدف في القضية التي أشرت إليها في الفصل السابع عشر. وتضمن الكتاب ما يربو على ثلاثين بحثًا علميًا عن كل شيء بدءًا من نظام الحافلات العامة في ليوبولدفيل إلى المتنزهات العامة في الكونجو. ولكن دون أن يحتوي على مقال واحد - أو عرض واحد في حالة المتحف - مخصص لبحث الأساس الذي قام عليه اقتصاد المستعمرة، نظام عمالة السخرة. ولا نجد في أي مكان، لا في الكتاب ولا في المتحف، كلمة "رهينة". ولا يجعلني ذلك متفائلاً بأن أرى تاريخ الكونجو معروضًا بكامله في المتحف في المستقبل. غير أن الاستعمار نادرًا ما تُعرض حقائقه كاملة في أي مكان. فأين في الولايات المتحدة تستطيع أن تجد متحفًا يتناول بأمانة تاريخ مغامراتنا الاستعمارية في الفلبين أو أمريكا اللاتينية ؟

* * *

وذكرتني النظرة الخلفية التي ألقيتها على هذا الكتاب بعد فاصل زمني من عدة سنوات بالمزيد الذي كنت أتمنى أن أفعله. فقد كان مصدر أكبر مشكلة واجهتها هي مدى صعوبة تصوير الأشخاص الأفارقة كممثلين رئيسين في هذه القصة. وكثيرًا ما يواجه المؤرخين صعوبات من هذا النوع، لأن السجل الذي يكتبه المستعمِر الغني والقوي دائما ما يكون أكثر غزارة من ذلك الذي يكتبه المستعمَر الفقير والذي يفتقد إلى القوة.

ومرة تلو المرة أحسست بعدم الإنصاف لأننا نعلم الكثير عن شخصية ليوبولد وحياته اليومية وأقل القليل عن الحكام الوطنيين الكونجوليين وقتئذ، بل وأقل منها ما نعلمه عن حياة القرويين الذين ماتوا وهم يجمعون المطاط. أو أن هناك الكثير فى السجلات عن ستانلى مقابل النزر اليسير عن أقرب نظرائه من الأفارقة: التجار الساحليون الذين كانوا من قبله يقودون قوافل الحمالين محملة بالسلع التجارية إلى داخلية البلاد عندما شرع لأول مرة فى الاستيلاء على الكونجو لحساب ليوبولد. ومن بين أولئك الذين عارضوا النظام نحن نعلم القصص الكاملة لحياة الأوروبيين أو الأمريكيين منهم، من أمثال موريل وكيسمنت وشبارد، لكنا لا نعلم شيئًا إلا بالكاد عن زعماء المقاومة مثل كاندولو أو مولومى نياما الذين فقدوا حياتهم بوصفهم متمردين. وهذا أمر يحرف القصة بحيث تتضاءل، عن غير قصد، أهمية ومركزية الكونجوليين أنفسهم.

وواجهت تلك المشكلة مرارًا فى أثناء كتابتى للكتاب وليس لدى الآن حل أحسن. وهناك دراسات أنثروبولوجية جيدة قام بها عديد من الكونجوليين، ولكن السير الذاتية لأشخاص أفارقة من تلك الفترة شديدة الندرة. وتاريخ مبنى على شخصيات لا بد من أن تتصدره قصة الملك ليوبولد فى المقام الأول وأنصاره أو معارضيه الذين كانوا أوروبيين أو أمريكيين. فإذا ما أردنا أن ندخل بعمق إلى الحياة الشخصية لأشخاص كونجوليين ينتمون إلى تلك الفترة، فقد يحتاج الأمر إلى أن يكون ذلك من خلال خيال قصصى، كما فعل روائيون من أمثال شينوا أشيبى (Chinua Achebe) للحقبة الاستعمارية فى أماكن أخرى من أفريقيا، أو مثلما فعل تونى موريسون (Toni Morrison) عندما تحدث عن تجارب حياة العبيد الأمريكيين.

غير أن هناك مجموعة من الأصوات الأفريقية التى تحتفظ فى ذاكرتها بأحداث الحقبة الليوبولدية، متاحة الآن فى صورة لم تكن موجودة عندما كتبت الكتاب. فالاقتباس فى نهاية الفصل العاشر يأتى من مقالة مبنية على مقابلات صحفية حدثت فى خمسينيات القرن العشرين، مع عشرات من الأفارقة عاشوا إرهاب المطاط قبلها بخمسين عام. وقام بتلك المحادثات مبشر بلجيكى هو إدموند بولارت (Edmond Boelaert) ثم ترجمها بمعاونة مبشر آخر هو جوستاف هولستارت (Gustaaf Hulstaert) وزميل كونجولى هو

شارل لونكاما (Charles Lonkama)، وكان القسيسان من مناهضى الاستعمار من نوع كثيراً ما يقع فى مشكلات مع السلطات الكاثوليكية. والآن وضع 'المركز الاستوائى' (Centre Aequatoria) فى إرسالية تبشيرية بالقرب من مبانداكا (Mbandaka) فى الكونجو، على الإنترنت النص الكامل بالفرنسية لتلك المقابلات، التى تستغرق ما يقرب من مئتى صفحة. وكلها، للأسف الشديد، شديدة القصر بحيث لا تعطينا الصورة الكاملة عن حياة أى شخص، ولكنها تقدم لنا شهادة نادرة مستقاة من مصدرها الأفريقى الأول.

ومن أجل الكتاب الذى كتبته بعد 'شبح الملك ليوبولد' أمضيت عدة سنوات، فكرياً، بصحبة البروتستنت الإنجيليين الذين لعبوا دوراً حاسماً فى الحركة البريطانية لمكافحة تجارة الرقيق فى سنوات ١٧٨٧-١٨٣٣ . وجعلتنى تلك التجربة أدرك أنى، فى هذا الكتاب، قد صورت، على نحو أقل من الحقيقة، مدى أهمية الآراء الإنجيلية لدى الرأى العام البريطانى فيما يتعلق بالدعوة إلى إصلاح شأن الكونجو. وأيدت انطباعى هذا دراسة حديثة قام بها كفين جرانت (Kevin Grant)، بعنوان 'الهمجية المتحضرة: بريطانيا والعبودية الجديدة فى أفريقيا، ١٨٨٤-١٩٢٦' (A Civilized Savagery: Britain and the New Slaveries in Africa, 1884-1926). ويقرر جرانت كيف أن تقريباً كل من كتب عن موريل، وأنا من بينهم، قد أغفل شروع المبشرين المعمدانيين فى اجتذاب جمهور كبير فى إسكتلندا لعروض شرائح 'الفانوس السحرى' حول فظائع الكونجو وذلك قبل أن يؤسس موريل اتحاد إصلاح الكونجو بشهرين. كما كشف النقاب أيضاً عن معلومات مقلقة عن أن عقل موريل المركز على أمر وحيد هو حملته فى سبيل الكونجو قد جعله يتغاضى عن مأساة عمالة السخرة فى أفريقيا البرتغالية الذين كانوا يجمعون حبوب الكاكاو الذى يستغله صديقه وراعيه صانع الشيكولاتة وليم كادبورى. وفى نقيض ذلك فإن وصف جرانت لموريل فى أثناء الحرب العالمية الأولى يجعل المرء يزداد إعجاباً بشجاعة الرجل. فهو لم يتعذب فقط فى السجن لمعتقداته المناهضة للحرب بينما انجرف دون خجل حلفاؤه السابقون من المبشرين فى حمى الوطنية، ولكنه كان بلا نصير تقريباً فى أثناء الحرب وما بعدها فى دفاعه عن حقوق الأفارقة فى أراضيهم.

وفى هذه الطبعة الجديدة من 'شبح الملك ليوبولد' صوبت فى هذه الطبعة الجديدة بعض الأخطاء الهجائية وغيرها من الأخطاء الطباعية الهينة فى الطبعات السابقة، ويعود الفضل فى ذلك إلى الأعين الحادة للقراء الذين أرسلوا لى خطابات بهذا المعنى. غير أن هناك مكانًا واحدًا لم يكن فيه مجال لأى تغيير، وهو حصيلة القتل التى وردت فى الفصل الخامس عشر، فهذه الخسارة الضخمة فى الأرواح كانت أصعب أمر واجهه المدافعون عن ليوبولد. ودون بيانات إحصائية دقيقة، فإن تحديد تلك الأعداد سيكون ضربًا من التخمين. ولكن أحسن التخمينات اطلاعًا، سواء أيامها أو اليوم، هى جد مرتفعة. وإضافة إلى الأرقام التى ذكرتها كان بوسعى أن أذكر المزيد. فإيزيدور ندايوى إنزيم، وهو باحث كونجولى صدر كتابه 'التاريخ العام للكونجو' فى نفس سنة صدور 'شبح الملك ليوبولد'، يقدر حصيلة القتل بنحو ثلاثة عشر مليونًا، وهو رقم أعلى مما اقترحت. ويقول المدافعون البلجيكيون أن معدلات وفيات كارثية حدثت فى مستعمرات أخرى فى أواسط أفريقيا، وأن عددًا أكبر مات من الهنود الحمر. وهى أقوال صحيحة. ولكن ذلك لا ينفى ولا يبرر الفقدان الهائل للأرواح فى كونجو ليوبولد.

* * *

ظهر هذا الكتاب لأول مرة بعد أن سقط حكم الدكتاتور موبوتو الذى دام طويلاً. وفى أثناء فترة حكمه توقفت غالبية الخدمات العامة وتحولت الحكومة، مثلما كان الحال أيام ليوبولد، إلى مجرد أداة فى يد الحاكم وحاشيته لإثراء أنفسهم. وكانت أحوال الكونجوليين عند نهاية حكم موبوتو، فى الصحة ومعدلات الأعمار والمدارس والدخل، أسوأ بكثير مما كان عليه الحال فى نهاية ثمانين سنة من الاستعمار سنة ١٩٦٠، وكان جنوده يقيمون أود أنفسهم بجمع الرسوم فى كمائن الطرق، ويبيع الجنرالات الطائرات المقاتلة النفاثة طلبًا للتربح، وفى أثناء ازدهار سوق العقارات فى طوكيو باع سفير الكونجو إلى اليابان مبنى السفارة ويبدو أنه دس الثمن فى جيبه. ومن المؤكد أن أى نظام حكم جديد سيكون أحسن من ذلك.

وعندما انتهى حكم موبوتو سنة ١٩٩٧، أمل الكثيرون أن شعبه الذى عانى طويلاً سوف يتمكن أخيراً من جنى ثمار ثرواته الطبيعية. غير أن ذلك لم يحدث. فالأنباء القادمة فى السنوات القليلة الأخيرة من 'جمهورية الكونجو الديمقراطية' التى أسيئت تسميتها كانت مروعة لدرجة تدفع المرء لأن يقلب الصفحة أو يبدل قناة التلفزيون فى يأس: اغتصاب جماعى من قبل جنود مصابين بمرض الإيدز، ونهب للمدارس والمستشفيات، وجنود فى العاشرة من أعمارهم يلوحون مهددين بمدافعهم الرشاشة. ولعدة سنوات بعد سقوط موبوتو سقطت البلاد فى وهدة حرب أهلية معقدة بطريقة مربكة. وطافت بالبلاد قوات من سبعة أقطار أفريقية مجاورة، وميليشيات زعماء الحرب المحليين، ومجموعات من الثوار من أقطار أخرى استغلت ذلك الإقليم الشاسع الذى لا يسيطر عليه قانون كملاذ، مثل ميليشيات الهوتو المسئولين عن أعمال الإبادة العرقية فى رواندا سنة ١٩٩٤ . وفيما بعد تعقب الجيش الرواندى أولئك الجنود داخل الكونجو، وأنزل بهم نوعًا من الإبادة العرقية المضادة، ثم نهبوا ما تزيد قيمته على ٢٥٠ مليون دولار من موارد الكونجو الطبيعية خلال فترة عامين ممتدة. وكثير من تلك القوى، إضافة إلى حكومة الكونجو الاسمية وعدة مجموعات للمعارضة كانت على ارتباط وثيق مع حلفاء دائمى التغير.

وبدورها دخلت الشركات المتعددة الجنسية فى اللعبة. فلم تعد القوة الشعبية القديمة تحمى مصالحها وإنما اتفاقات سرية مع الجيوش الوطنية والفصائل الكونجولية المختلفة. ومثلما كان العاج والمطاط فى الأيام الخوالى هو الدافع للبحث عن المكاسب، أصبحت تلك الشركات تستخلص بلهفة ماس البلاد والذهب والأخشاب والنحاس والكوبالت والكولومبيوم - تانتالوم أو الكولتان، الذى يستخدم فى شرائح الكمبيوتر والهواتف النقالة. وفى وقت من الأوقات كانت أسعار الكولتان تنافس أسعار الذهب للأوقية الواحدة، ويحتوى شرق الكونجو على نصف مخزون العالم. فالقتال أصبح فى سبيل الثروات لا الأيديولوجيات، وأحيانًا ما تنتقل أعنف المعارك من مكان لآخر مع ارتفاع وانخفاض أسعار السلع.

وبحلول سنة ٢٠٠٤، ذكرت منظمات حقوق الإنسان أن حصيلة قتلى الحرب بلغت أربعة ملايين قتيل تقريبًا، وأن أكثر من مليونى شخص قد تحولوا إلى لاجئين. وكان عدد القتلى من الجنود قليلاً. وغالبية القتلى كانوا أناسًا عاديين رجالاً ونساء وأطفالاً، أصيبوا عرضًا فى أثناء القتال، أو شاء سوء حظهم أن يقعوا فى حقول ألغام، أو أُجبروا على الفرار من منازلهم إلى الغابات أو إلى معسكرات مكتظة باللاجئين تتحول إلى حقول من الطين فى موسم الأمطار. ومثلما كان الحال أيام ليوبولد، تفوز الأمراض بالنصيب الأكبر من حصيلة الوفيات، فهى تهاجم المصابين وأنصاف الجوعى من السكان الفارين من ديارهم. وفى أثناء ما كنت أكتب ذلك سنة ٢٠٠٥ أصبحت حصيلة الموت أعلى حصيلة موت لها علاقة بالحروب منذ الحرب العالمية الثانية. ورغم فترات الهدنة المتكررة واتفاقات التشارك فى السلطة؛ فإنه من المحتمل أن تستمر الوفيات.

والميليشيات الثائرة وجيران الكونجو من الدول الأفريقية وكثير من المؤسسات المتحالفة معهم كلهم لا يعنيهم فى قليل أو كثير إنهاء البلقنة (Balkanization) الحادثة فى الكونجو. فهم يفضلون اقتصادًا قائمًا على "النقود السائلة فى حقائب صغيرة" على اقتصاد منضبط مبنى على فرض الضرائب يعطى كل المواطنين حصصًا حقيقية فى أرباح الثروات الطبيعية. وفيما يتعلق بالكونجو كان الجمع بين اعتباره كنزًا كبيرًا للمعادن والانعدام الواقعى لحكومة فاعلة كارثة كبرى. وعندما تنضب النقود من الخزانة العامة، تمول الجيوش نفسها بنفسها تمويلاً ذاتيًا بتشكيل شبكات من المُعَدِّنين والمهربين. وعندما تقل أعداد المدارس أو تندر الوظائف، يصبح من السهل عليهم تشغيل الأطفال. وعندما تصبح ملايين من قطع السلاح الصغيرة المتداولة فى أفريقيا متاحة للشراء من دكاكين السوق أو من رجال الشرطة الذين لم يتقاضوا مرتباتهم، فستكون هناك بنادق للجميع.

ومن الأمور المأساوية انعدام وجود أية مؤسسة جماهيرية قوية، على غرار إصلاحيى الكونجو التى أسسها موريل، كى تضغط فى سبيل اتخاذ إجراءات قد تصلح الأمور. وكذلك ليس من الجلى مؤكدًا ماهية تلك الإجراءات التى يمكن أن تصلح الأمور. ولكن من الواجب التفكير فى بعضها. فمنها إيقاف تدفق السلاح إلى أفريقيا بتلك الطريقة الطائشة. ففى تسعينيات القرن العشرين وحدها أعطت الولايات المتحدة ما

قيمته ٢٠٠ مليون دولار من المعدات والتدريب لجيوش أفريقية منها ستة جيوش كان لها قوات مشاركة فى حرب الكونجو الأهلية. وخطوة أخرى إلى الأمام تكون بإزالة بواعث السلب والنهب بتجريم تجارات معينة. فقد وقعت ما يزيد على ستين دولة، منها الولايات المتحدة، على اتفاق عديم الأسنان بإيقاف أى تجارة فى 'ماس الصراعات'. غير أنه إذا كان ماس الصراعات يمكن تجريمه فلماذا لا يحدث أمر مماثل مع 'ذهب الصراعات' و'كولتان الصراعات'؟ ومثل تلك الاتفاقات سيكون من الصعب تنفيذها، ولكن نفس الشيء حدث ولسنوات عديدة مع اتفاق منع تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلنطى والذى نجح فى النهاية.

ومن الممكن أن تكون قوة حفظ للسلام تابعة للأمم المتحدة وعلى درجة كافية من حيث الحجم والسلطات، قادرة على أن تشكل فارقًا هائلاً. ولا يجب أن نخدع أنفسنا بأن فى استطاعة مثل تلك القوة أن تحل مشكلة الكونجو الضخمة التى تتلخص فى انعدام حكومة مركزية فاعلة. فالتدخل الدولى فى البلاد سيكون مشابهًا لأن نطلب من أفراد الأمن فى بنك أن يقوموا بدورية حراسة فى أثناء عملية سطو على البنك. فالحراس قد ينتهى بهم الأمر إلى أن يسرقوا البنك أو يديروه، سواء على مستوى عريف يهرِّب ماسًا أو قوة عظمى تساهم بجنودٍ مقابل المطالبة بامتيازات لشركاتها التعدينية. ولكن البدائل أسوأ. فقوة تدخل قوية يمكن أن تنقذ أرواحًا، ملايين منها. وفى النهاية، وفى كل أفريقيا، تنهى الدعم والقيود التجارية التى تجعل من العسير على مزارعى جنوب العالم أن يبيعوا محاصيلهم إلى أوروبا أو أمريكا الشمالية. وسيكون ذلك خطوة فى سبيل إعادة التوازن الاقتصادى العالمى الذى يميل دائمًا ضد الفقراء.

* * *

من الأسباب التى دعتنى لكتابة هذا الكتاب هو أن أبين كيف ساهم الاستعمار الأوروبى بعمق فى تشكيل العالم الذى نعيش فيه. ومع تذكرنا كيف حمت الولايات المتحدة وأوروبا استثماراتها بدعمها دكتاتورين أفارقة جشعين من أمثال موبوتو، فلا بد لنا من الحديث عن الاستعمار الجديد أيضاً. غير أنى أود أن أختم بكلمة تحذيرية. فعلى الرغم

من لصوصية ليوبولد وخلفائه؛ فإنه لمن الخطأ أن نعلق مشاكل أفريقيا اليوم على شماعة الاستعمار. فأغلب التاريخ يتألف من أمم تغزو أو تستعمر بعضها البعض. غير أنه من أيرلندا إلى كوريا الجنوبية هناك أمم كانت يومًا ما تعانى من استعمار عاتٍ تمكنت رغم ذلك من أن تبنى مجتمعات ديمقراطية مزدهرة وبها قدر معتدل من العدالة.

وأسباب أن غالبية أفريقيا لم تفعل ذلك تعود إلى ما قبل الإرث الاستعمارى. وأحد العوامل هو الأوضاع المتردية للنساء بكل ما يحمله ذلك من عنف وكبت واضطهاد. وعامل آخر هو التسامح الحضارى العميق الجذور بل حتى عبادة الأبطال للرجال الأقوياء على شاكلة موبوتو، الذين لا تشكل السياسة لهم إلا وسيلة لإثراء أنفسهم وعشائرهم الممتدة أو أبناء عرقهم. وفى النهاية، وربما أهم من كل شىء، الطريقة التى لا تزال بها تجارة الرقيق الداخلية متشابكة وبعمق وبصورة كارثية مع النسيج الاجتماعى الأفريقى. وتلك العقبات نجدها فى كل مكان. والتمييز ضد النساء يعوق التقدم الاجتماعى والاقتصادى فى أقطار كثيرة. وواجهت كثير من المجتمعات، من أفغانستان إلى البلقان، صعوبات فى أثناء محاولتها بناء دول عندما أشعل غوغائيون فتيل التعصب العرقى. ولا تتفرد أفريقيا فى إرث العبودية الذى ورثته: فقد تحدث تشيكوف (Chekhov)، وهو مدرك لثقل وزن تاريخ القنانة (عبودية الأرض) فى بلده، عن أن على الروس أن يعصروا العبودية خارج أنفسهم نقطة بنقطة. وتثبت مشاكل روسيا المستمرة مدى صعوبة ذلك.

وحتى من دون معضلات الاستعمار، فإن ميلاد مجتمع مدنى وديمقراطى حقًا ويموج بالحياة عادة ما كان عملية بطيئة وعويصة. فأوروبا الغربية استغرق منها الخروج من سلطان الإمبراطورية الرومانية المقدسة وعباءة الدوقيات والإمارات والممالك الصغيرة والوصول إلى المزيج الحالى من الأمم، استغرق ذلك منها قرونًا من الدماء المسفوكة، بما فى ذلك حرب الثلاثين عامًا المميتة (Thirty Years' War) التى تذكرنا بالكونجو اليوم بما حوته من فوضى وتعدد الجوانب ورهط من الدخلاء النهابين. ولا تتحمل أفريقيا أن تنتظر قرونًا مثلها. ولن تكون مسيرتها سهلة ميسرة، غير أنها لن تكون أصعب من مسيرة الكونجو.

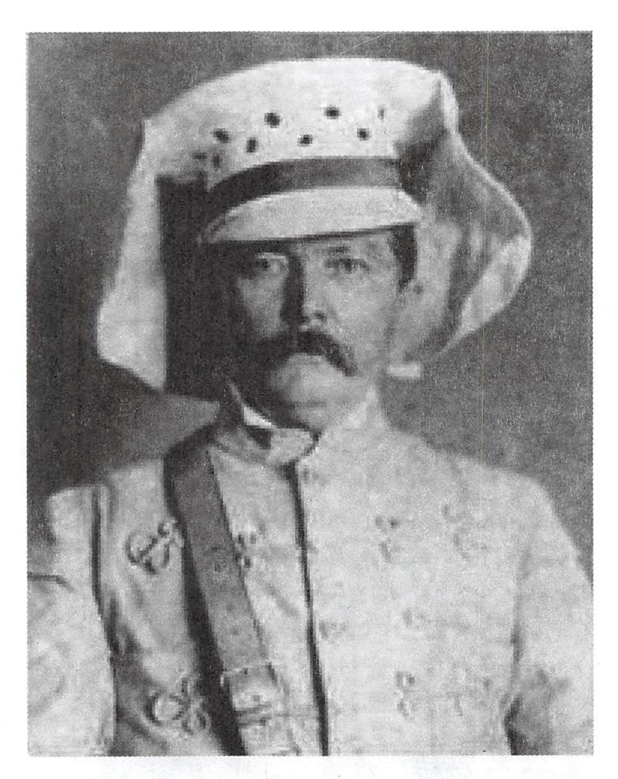
ملحق الصور



(شكل ١ – خريطة الكونجو سنة ١٩٠٠).



(شكل ٢ – ليوبولد فى شبابه).



(شكل ٣ – هنرى مورتون ستانلى، مرتدياً 'قبعة ستانلى' التى صممها بنفسه لاستكشاف المناطق الاستوائية).



(شكل ٤ - هنرى شلتون سانفورد الأرستقراطى الثرى من ولاية كونيتيكت الذى نجح فى إقناع الولايات المتحدة بالاعتراف بملكية ليوبولد للكونجو).

THE WESTERN UNION TELEGRAPH COMPANY.

NEW ORLEANS

Dated Brussels Via Washington

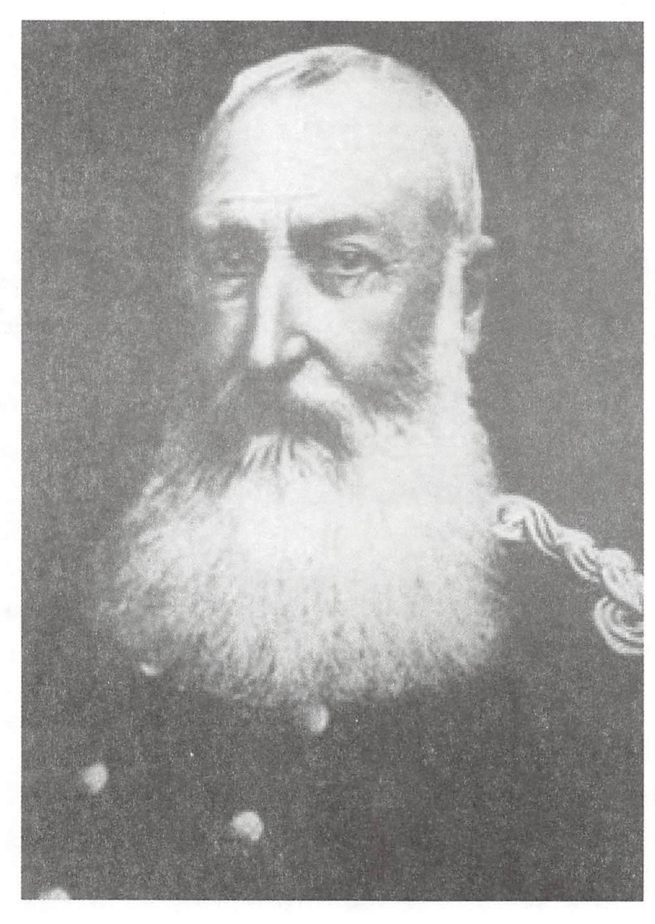
To Gen Sanford

St Charles Hotel NO

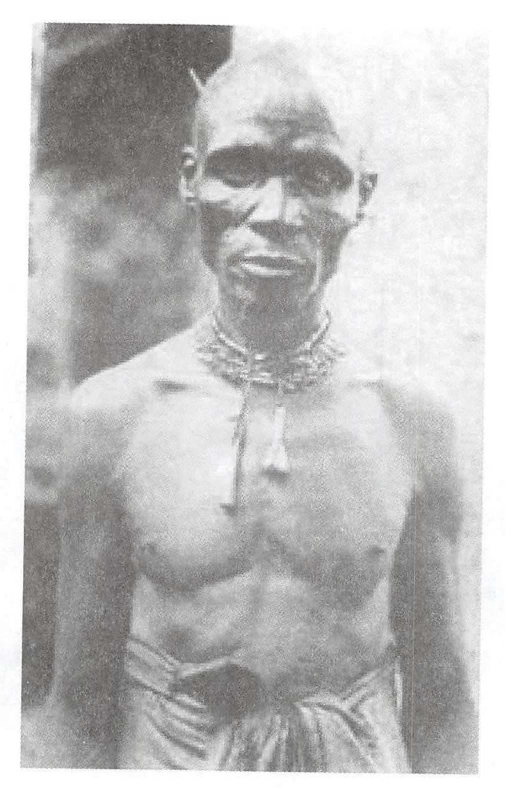
Enchanted with Emile Before beginning negotiations please wire what you learned about dispositions of Senate well

Williams

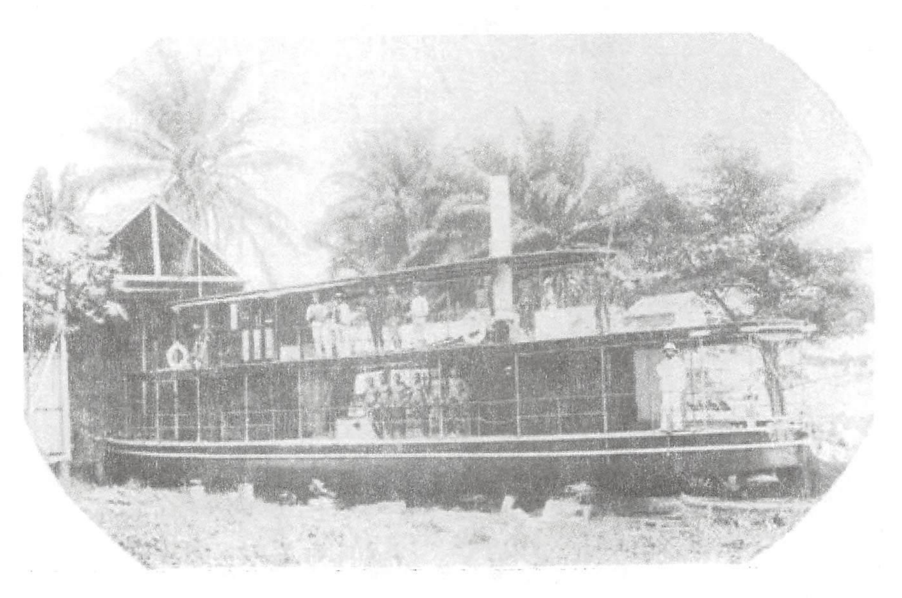
(شكل ٥ – برقية مشفرة من بروكسل تهنئ سانفورد على ما أنجزه فى واشنطن. 'إميل' يعنى الرئيس تشستر آرثر، الذى كان قد امتدح لتوه ليوبولد فى خطاب له فى الكونجرس. و'وليم' هو الكولونيل مكسميليان شتراوس كبير مساعدى ليوبولد لشئون الكونجو).



(شكل ٦ – الملك ليوبولد الثانى).



(شكل ٧ – توا موى، زعيم من زعماء قبائل كوانجو. وكثيراً ما كان الزعماء المحليون يواجَهون بالاختيار بين تقديم أفراد شعوبهم كعبيد للمطاط أو القبض عليهم كرهائن أو قتلهم).



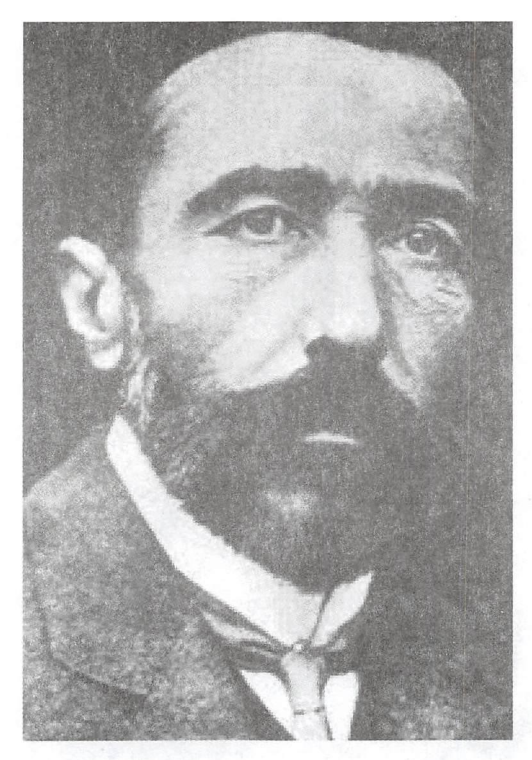
(شكل ٨ - 'جودويل' سفينة المبشرين البريطانيين، مثال للمراكب التقليدية التى كانت تسير فى النهر فى تسعينيات القرن التاسع عشر).



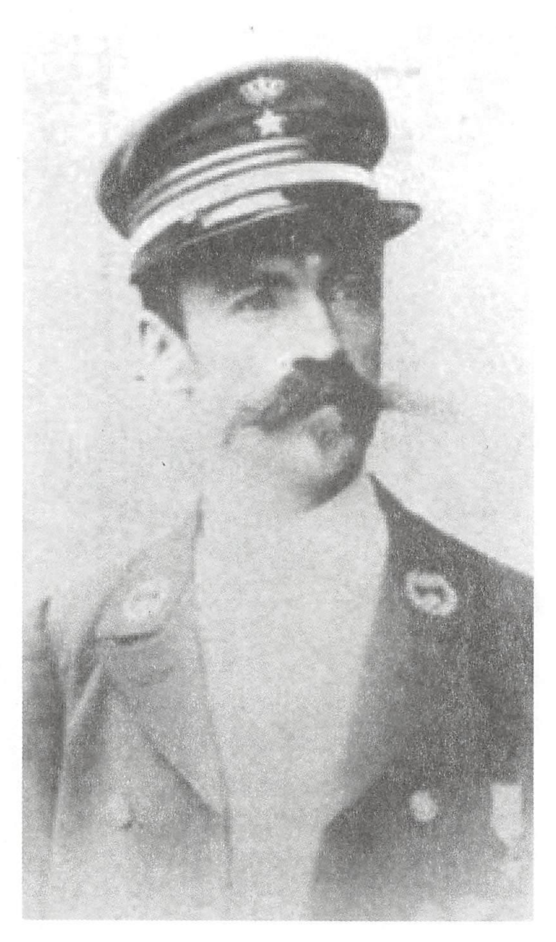
(شكل ٩ - جورج واشنطن ويليامز، محام وصحفي وقسيس ومؤرخ، كتب أول فضح لحكم ليوبولد الإرهابي في الكونجو).



(شكل ١٠ – محطة لجمع العـاج فى الكونجـو نحو سنة ١٨٩٠ . وكانت أنياب الفيـلة التى تشترى من الأفارقة مقابل ثمن زهيد أو تصادَر تحت تهديد السلاح، تباع فى أوروبا بأثمان باهظة بوصفها مادة خام تصلح لكل شىء من الأسنان الصناعية إلى مفاتيح البيانو).



(شکل ۱۱ - جوزیف کونراد).



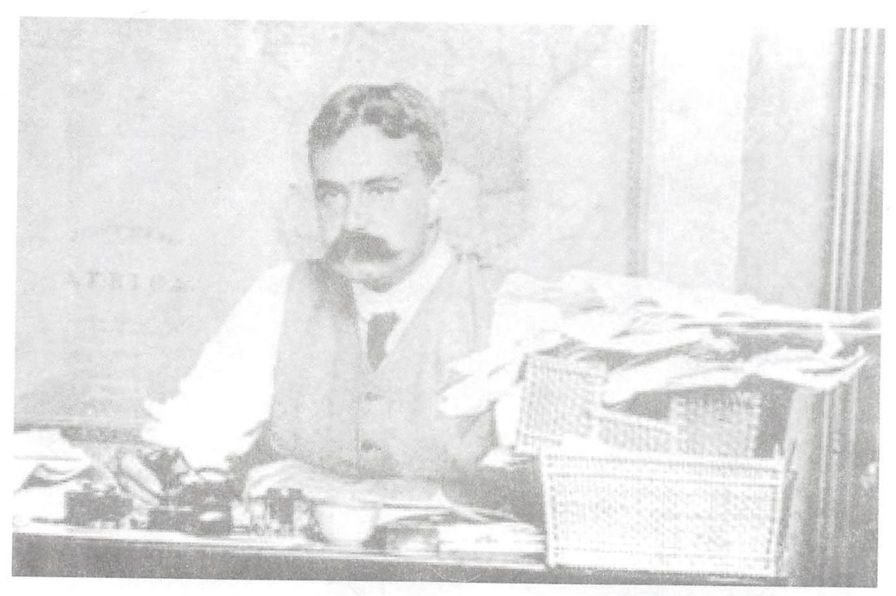
(شكل ١٢ - كان ليون روم واحداً من النماذج التى بنى عليها كونراد شخصية مستر كيرتس. وعرف عن هذا الضابط المتهور المتفاخر أنه كان يعرض صفاً من الرءوس الأفريقية المقطوعة كسياج حول حديقته. كما كتب كتاباً عن العادات الأفريقية، وكان رساماً للأشخاص والمناظر الطبيعية كما كان يجمع الفراشات).



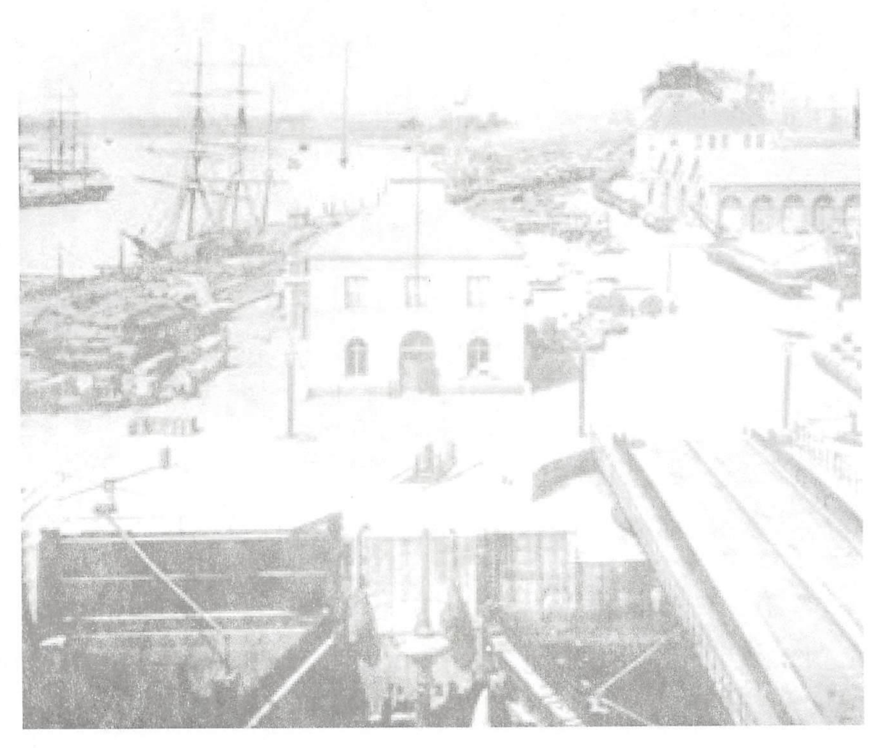
(شكل ١٣ - روم (بالبندقية) بعد أن اصطاد فيلاً).



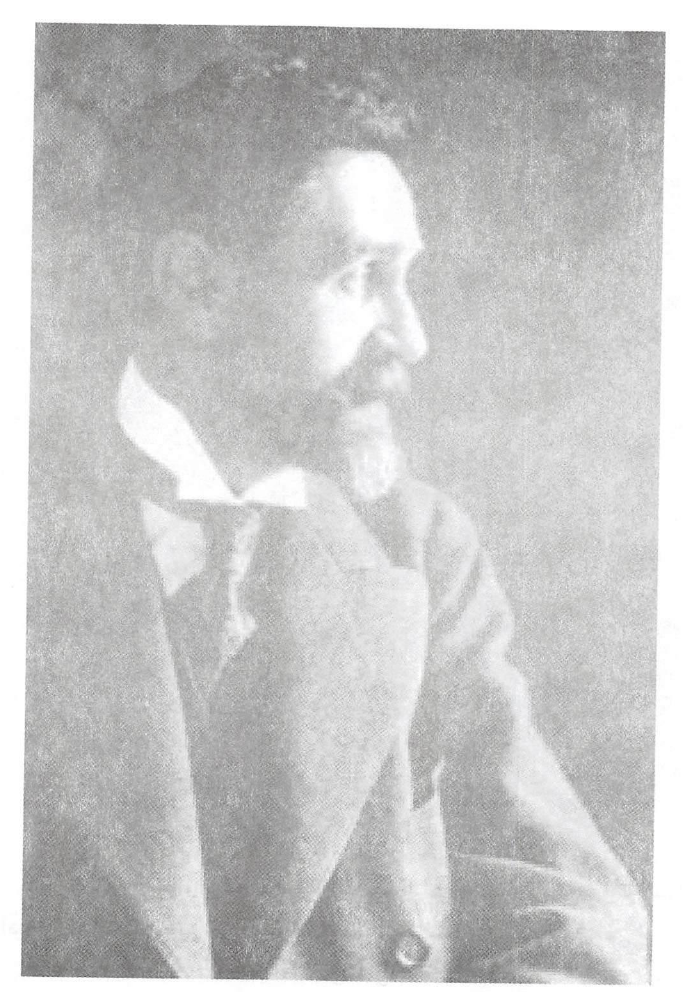
(شكل ١٤ – نموذج آخر لكيرتس: جيوم فان كيركهوفن، الذى أخبر زميلاً رحالة بمرح أنه "كان يمنح جنوده السود خمس قضبان من النحاس (٢,٥ بنس) مقابل كل رأس بشرية يحضرونها فى كل عملية عسكرية كان يقودها. وقال إن ذلك كان بهدف إحماء شجاعتهم فى مواجهة العدو").



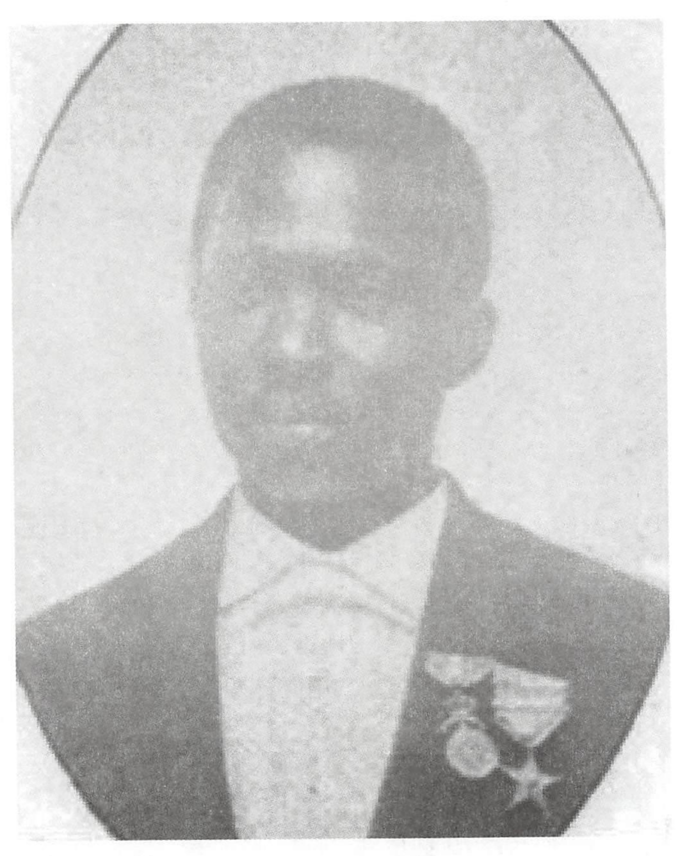
(شكل ١٥ – إ. د. موريل).



(شكل ١٦ – أرصفة ميناء أنتورب حيث ثارت شكوك موريل الشاب عن عمالة السخرة فى الكونجو).



(شكل ١٧ - السير روجر كيسمنت، قنصل بريطانى وشاهد نشط على فظائع الكونجو ووطنى أيرلندى).



(شكل ١٨ – هزيكايا أندرو شانو. رغم حصوله على ميداليات لخدماته للنظام؛ فإنه تحول سرًا ضده وأرسل أدلة مهمة للإصلاحيين فى الخارج، ودُفع إلى الانتحار بواسطة موظفى ليوبولد عندما اكتشفوا أمره).



(شكل ١٩ - القس وليم هـ .شبارد، مبشر إنجيلى ومستكشف وأول أجنبى يزور عاصمة مملكة الكوبا.
وتسببت كتاباته التى تفضح فظائع دولة الكونجو فى تقديمه للمحاكمة).



(شكل ٢٠ - نسالا من إقليم والا ينظر إلى يد وقدم ابنته بوالى ذات الخمس سنوات المقطوعتين، وكانت ضحية لميليشيات الشركة الإنجليزية البلجيكية للمطاط).



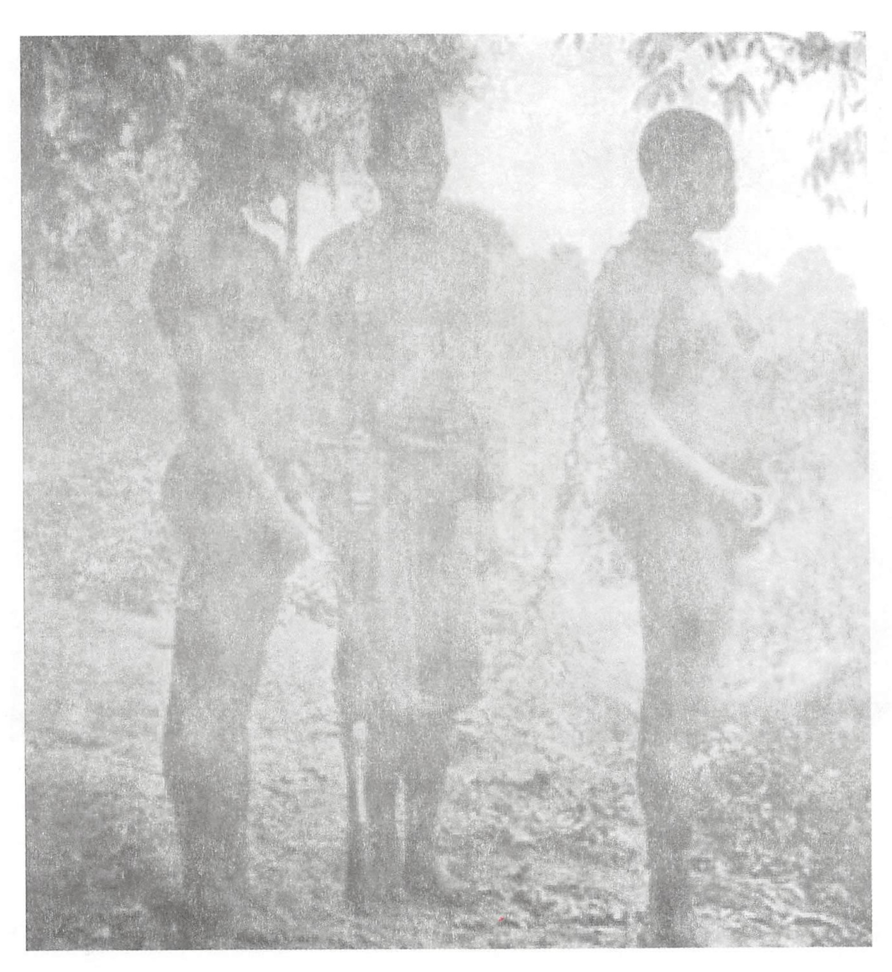
(شكل ٢١ – مبشرون بريطانيون وبصحبتهم رجال يحملون أيادى مقطوعة من الضحيتين بولنجى ولينجومو قطعتها ميلشيات الشركة الإنجليزية البلجيكية للمطاط).



(شكل ٢٢ – اثنان من الصغار من الإقليم الاستوائى. كانت يدا مولا، الجالس، قد دمرتها الغنغرينة بعد أن أحكم الجنود وثاقها. أما اليد اليمنى ليوكا، الواقف، فقد قطعها الجنود كى يدعو أنه من ضمن من قتلوهم).



(شكل ٢٣ - الشيكوت فى أثناء استخدامها. لاحظ كومة الأغلال فى أسفل اليسار).



(شكل ٢٤ - نساء من الرهائن، تحت الحراسة لكى يُجبَر أزواجهن على جمع المطـاط البرى من الغـابة المطيرة).



(شكل ٢٥ – قرية بارينجا وزعيمها يجلس على كرسى فى المنتصف، وبيته على اليمين. ويرتفع دخان الطبخ من منازل أخرى).



(شكل ٢٦ – قرية بارينجا بعد تسويتها بالأرض لإفساح مكان لإنشاء مزرعة للمطاط. فعندما شحت مصادر المطاط البرى أمر النظام بزرع المزيد من أشجار المطاط. وكثيراً ما كان من الأرخص أن يُستغل فراغ موجود أصلاً، مثل تلك القرية، بدلاً من قطع أشجار الغابة).

. . GREAT . .

CONGO DEMONSTRATION.

THE

Protest of Christian England

ROYAL ALBERT HALL

Friday, November 19, 1909,

HIS GRACE

THE ARCHBISHOP OF CANTERBURY.

The Right Rev. THE LORD BISHOP OF LONDON.
Rev. Dr. JOHN CLIFFORD, M.A.
The Right Rev. THE LORD BISHOP OF OXFORD,
Rev. J. SCOTT LIDGETT, M.A., D.D.
Rev. C. SILVESTER HORNE, M.A.

The Lord Bishops of Rochester, Birmingham, Manchester, Carlisle, Ely, Newcastle, St. Asaph, Truro, Wakefield, Exeter, Gloucester, Lichfield, Liverpool, Durham;

Dr. CAMPBELL MORGAN, Rev. J. E. RATTENBURY, Dr. MONRO GIBSON, Rev. D. J. HILEY, Rev. SILAS K. HOCKING, Rev. J. H. SHAKESPEARE, Rev. J. D. JONES, Rev. GEO. HOOPER, Rev. THOMAS YATES, Prof. A. E. GARVIE, Dr. HORTON, Rev. F. B. MEYER.

RESERVED SEATS, *Price* 5/. 2/6 *and* 1/.

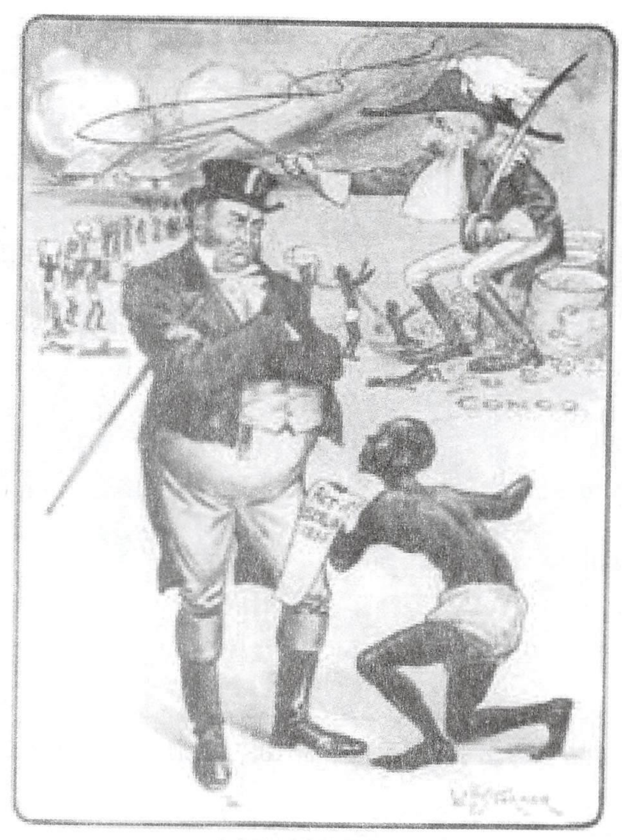
FREE RESERVED SEAT TICKETS

BUSES from all parts of London pass the Door.

(شكل ٢٧ - إعلان عن اجتماع احتجاجى لما يحدث فى الكونجو وفيه أسماء المتحدثين).



(شكل ٢٨ – نشر هذا الرسم الكاريكاتيرى فى ألمانيا ومعه شعر هزلى عن متعة ليوبولد بقطع الرءوس السوداء وإصدار السندات).



THE APPEAL.

"IN THE NAME OF ALMIGHTY GOD. All the Powers exercising sovereign rights, or having influence in the said territories undertake to watch over the preservation of the native races, and the amelioration of the moral and material conditions of their existence."

Article VI. The Act of Berlin, 1885.

(شكل ٢٩ – كثيراً ما أشار إصلاحيو الكونجو إلى معاهدة برلين سنة ١٨٨٥، وبها العديد من الوعود التى لم تنفذ عن معاملة الأفارقة).



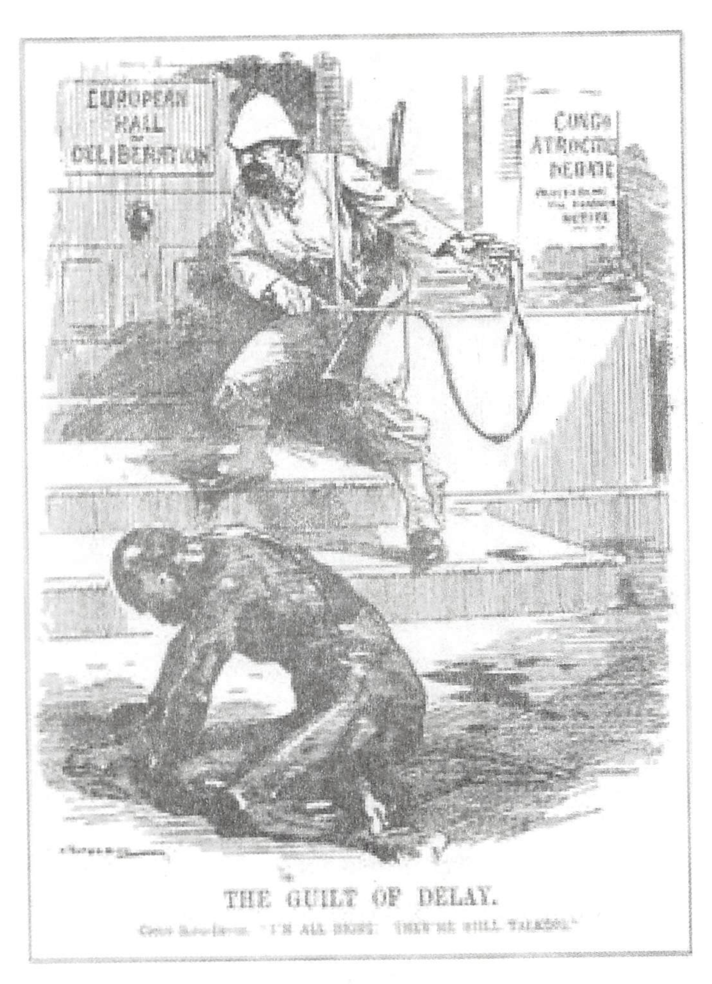
(شكل ٣٠ – واحد من عديد من الرسوم الكاريكاتيرية ظهرت فى مجلة 'بنش' سنة ١٩٠٥، حيث يشكو ليوبولد همه للسلطان العثمانى الذى كان يُنتقد بدوره لمذابحه «للأرمن»).



IN THE RUBBER COILS.

Scene—The Congo "Free" State.

(شكل ٣١ – مجلة بنش سنة ١٩٠٦).



Punch, 1909.

(شكل ٣٢ – مجلة بنش سنة ١٩٠٩).

المؤلف فى سطور :

آدم هوتشايلد

- صحفى وكاتب أمريكى ولد فى مدينة نيويورك سنة ١٩٤٢ .
- بدأ حياته العملية مبكراً، ففى أثناء ما كان طالباً فى الجامعة عمل فى صحيفة مناهضة للحكومة فى جنوب أفريقيا، وبعدها عمل لفترة وجيزة فى مجال حقوق الإنسان فى ولاية مسيسبى سنة ١٩٦٤ . وكانت تلك الفترتان فترتا اكتساب خبرات سياسية وتحدث عنهما فى كتاباته. ثم انضم لحركة مناهضة لحرب فيتنام، وفى أثنائها عمل مراسلا صحفيا وكاتبا ورئيس تحرير لجريدة يسارية.
- كتب عدة كتب أشهرها "شبح ليوبولد" و"ادفنوا الأغلال" عن الحركات المناهضة للرق فى الإمبراطورية البريطانية. وأُعيد طبعهما عدة مرات.
- نالت كتبه العديد من الجوائز الأدبية كما تُرجمت كتبه إلى ١٢ لغة.
- كتب لصحف متعددة.
- يعيش فى سان فرانسسكو ويمارس التدريس فى كلية الصحافة فى جامعة كاليفورنيا فى بيركلى.

المترجم فى سطور :

أيمن توفيق

- أستاذ فى كلية الطب جامعة الأزهر فى القاهرة .
- متخرج من كلية الطب جامعة عين شمس.
- حاصل على زمالة كلية الجراحين الملكية فى لندن وإدنبره.
- له "تاريخ الجراحة منذ أقدم العصور" تحت الطبع فى الهيئة المصرية العامة للكتاب.

التصحيح اللغوى : سـمـاح محمـد
الإشراف الفنـى : حسـن كـامـل